

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أ.د. صالح بن عبد العزيز بن عثمان سنيدي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أ.د. ضَالِحُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ عُثْمَانَ سِنْدِي

أَسَازُ الْعَقِيدَةِ بِالْجَامِعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ
بِالْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ

أصل هذه المادة:

حلقات في إذاعة القرآن الكريم

(الشيخ لم يراجع التفريغ)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



الحلقة الأولى

التحديات التي تواجه الشباب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدم: حياكم الله مستمعينا الأعزّاء في هذه الحلقة من (وعي)، وعنوانها: **[التحديات التي تواجه الشباب]**. وهي حلقة تمهيدية لهذا الموسم المبارك.

باسمكم جميعاً نرحب بضيف البرنامج الدائم فضيلة الشيخ: صالح بن عبد العزيز سندي، وهو الأستاذ بقسم (العقيدة) بالجامعة الإسلامية. **الشيخ:** الله يحييكم، ويبارك فيكم، ومرحباً بمن أحب، بك وبالإخوة المستمعين الكرام.

المقدم: حياكم الله أهل مدينة رسول الله ﷺ، ونبدأ بالسؤال عن الأجواء، كيف الأجواء في المدينة الأيام هذه؟

الشيخ: والله أبشركم، الحمد لله، «وَمَنْ صَبَرَ عَلَى حَرِّهَا وَبَرْدِهَا وَلَأْوَائِهَا كُنْتُ لَهُ شَفِيعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١) هكذا قال النبي ﷺ.

المقدم: حياكم الله شيخ صالح، وأبدأ بالسؤال عن الوعي، كلمة: (وعي) نفسها ربما تكون أحياناً بحاجة إلى توضيح، وأحياناً نسمع المدرسين زمان كان إذا الطالب ما فهم أو شيء يقولون له: شَعِّلْ مُحْكُك، فهل الوعي هو -مثلاً- تشغيل عملية التفكير لدى الإنسان؟

(١) رواه مسلم برقم (١٣٧٧).

الشيخ: أقول: - بعد حمد الله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه-

الأصل في اللغة أن الوعي بمعنى: (الجمع والحفظ)، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾ [المعارج: ١٨]، وقوله: ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَعِيَةً﴾ [الحاقة: ١٢]، ثم تطور المعنى فصار يُطلق على معنى الفهم والإدراك، ثم صار يُنبئ عن معنى أعمق، وهو المراد في عنوان برنامجنا، ألا وهو: الإدراك الصحيح للأشياء، وفقه واقعها، وضبط مسار المعرفة والاستدلال بحيث يميّز بالوعي بين الحق والباطل، والصواب والخطأ.
يمكن أن أعبر عن هذا بتعبير آخر فأقول:

الوعي: هو البصيرة، أو النظر الثاقب، أو الفهم العميق للوقائع، والإمكانات، والتحديات، والواجبات.

المقدم: هذا هو تعريف الوعي، إذاً هو الإدراك الصحيح للأشياء، - كما تفضّلتم - ربما أحياناً البعض يعتبر أكبر أوعية الوعي هو القراءة مثلاً، وإذا جئنا ننصح أحداً مثلاً بالقراءة أو غيرها من طرق الوعي؛ تجد البعض لديه نوع من الممانعة، أنه ما الحاجة لمثل هذا الشيء؟ أنا عايش، وفلان عايش، وربما تجد بعض التجار الذين ليس لديهم الثقافة الواسعة، هل الوعي يتداخل مع مصطلح الثقافة ومصطلح العلم متى نحتاج الوعي، هل كلنا نحتاج الوعي؟

الشيخ: الحقيقة أن الوعي أدق من مجرد الثقافة، هو ثقافة دقيقة مقرونة بخبرة بالأشياء، ودقة في تأملها ومعرفة حالها.

أما حاجتنا إلى الوعي فأعتقد أن هذا الموضوع يستحق أن نقف عنده مليًا، نحن نعيش في هذا العصر في حالة فريدة، سمّتها تدفق معلوماتي عجيب، بحيث يلج على الناس من نافذتين واسعتين: (فضائية، وشبكية)، وهذا ما أدّى إلى تداخل ثقافي كوني عظيم، وصار الإنسان في هذا الواقع تحت ضغط رهيب، أنا أمثله بطالب في فصل أمامه عشرون أستاذًا، يتكلمون ويشرحون في مواد مختلفة في وقت واحد.

كثافة المنتجات الثقافية المعروضة إن لم يصحبها وعي حسن للذات والواقع والمطلوب؛ فسيكون ذلك عامل اضطراب وإرباك في العقائد، في الأفكار، في الأحكام؛ فيسوقنا هذا إلى فتنة ثقافية، وإلى خلل عقدي، وترهل أخلاقي، إذا نحن في أمس الحاجة إلى وعي، بل إلى وعي ناضج بحيث يكون مرشحًا (مُفلترًا) لهذا الكم الهائل من الأفكار والمعلومات والصور... إلى آخره، نتلمس حينها الصواب فنأخذه، ونبصر الباطل فنتجنبه.

المقدم: ربما أشرتم إلى قضية التدفق المعلوماتي، ما تشوفون -يا شيخ صالح- أن الأمر يتعدى قضية التدفق المعلوماتي إلى ما هو أكبر، الوعي ربما يتجاوز قضية أن الإنسان يكون لديه معلومات أكثر؟

الشيخ: لا شك، الأمر لا يقف عند حدّ هذا الزخم الثقافي والمعلوماتي الضخم وما يُسبِّبه من تشتّت واضطراب، إنما الأمر أكبر من ذلك. أعداء الله أحسنوا استخدام هذا الواقع؛ لشنّ غزو عقديّ ثقافي مركّز، يستهدف أبناء المسلمين في كل مكان.

◀ والغاية تحقيق هدفين:

الأول: إخراج هؤلاء المسلمين عن دينهم، وردّهم بعد إيمانهم كُفَّارًا، وهذا ما يقوم به الملاحدة، والالاديين، والمنصرون، وغيرهم.

والثاني: تغيير المفاهيم الشرعية في نفوس المسلمين، وتقديم مفاهيم خاطئة ليست هي التي جاء بها نبينا محمد ﷺ، وقد تنحو إلى جهة الغلو، وقد تنحو إلى جهة التحلل، وهذا الثاني قد يتولّاه أناس من بني جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا.

الخلاصة: ثمة مشكلة كبيرة، تستحق أن تُبذل كل الجهود في سبيل علاجها والتصدي لتبعاتها، ثمة سيل جارف من التيارات العقدية والفكرية والتي تغزونا في عُقر دارنا، تخاطب جميع الشرائح، لا سيّما الشباب، ذكورًا وإناثًا، إنه أشبه شيء بالفايروس القاتل الذي هو واسع الانتشار، يهبط من الفضاء، ويصطاد عبر الشبكة، وهو يختلف عن أيّ مهدد عقديّ سبقه كمّا وكيفًا، ومن لم يكُ مُحصَّنًا منه فما أقرب عطبه!

وأنا في الحقيقة لا أتكلم عن خيال، نحن رأينا، وسمعنا، وعلمنا نماذج كثيرة، رأينا وسمعنا من يقتل أباه وأمه أو ابن عمه باسم الإسلام، رأينا أو سمعنا من يعلن إحداه أو تنصّره، أو يسخر من الشريعة صراحة وهم من أبناء المسلمين، فالوضع جاد وواقعي.

المقدم: وأمام هذا السيل الجارف من الشُّبهات، من الغزو العقدي الفكري أيضًا حتى بعض المستمعين أشار كثير منهم إلى توجّعه من مسألة مواقع التواصل الاجتماعي وما حملته في طيّاتها، وإن كان فيها الكثير من الخير، إلا أنها أيضًا قد تكون قادت البعض إلى الباطل، أحيانًا البعض يعارض فيقول: الحق والباطل في سجل من قديم، ما الجديد، ما الذي تغير؟

الشيخ: بالتأكيد الأمر اليوم مختلف.

هذا الغزو العقدي الفكري اليوم يتميز بسمات، لعلّي أخص أهمها في سبع سمات:

● **السمة الأولى:** كثرة التيارات التي يُروّج لها، كثرة الشُّبهات والأفكار التي تُطرح.

الواقع أن طيفًا كبيرًا وهائلًا من العقائد والنزعات تقدّم نفسها على أنها الحق والصواب، وهذه تستهدف عقيدتنا وإسلامنا الوسطي والأخلاق في مَقْتَلٍ،

الشُّبُهات التي تُطرح اليوم تطال كل شيء، وأنا أعني كلمة (كل شيء): وجود الله، رُبوبيته، ألوهيته، نبوة نبينا محمد ﷺ، أحاديثه، القدر، القرآن، الأحكام، الأخلاق... إلى آخره، هذا كله ليس عشوائيًا، إنما هو استهداف مركّز ومدروس.

● السِّمَة الثانية: استخدام وسائل متنوعة: مسموعة، مقروءة، مرئية، هناك وسائل فضائية، وسائل شبكية، وسائل التواصل كما تفضّلت، هناك الكتب، روايات، مجلات، إلى غير ذلك.

والحقّ: أن أرباب تلك التيارات أجادوا في استغلال كل وسيلة، وطوّعوها لنشر أفكارهم، ولذا وُجد حتى قنوات ثقافية وثائقية علمية، ليست إلا للتثقيف، ومعنى ذلك تتبّع نظريات إلحادية، وهي تدخل في أكثر بيوت المسلمة، أفلام أجنبية تُنتجها دُور سينما عالمية، الأصل أنها للمتعة والفُرجة وإلى آخره، ويتخلّلها ما يتخلّلها ممّا حرم الله! ومع ذلك تقدم رسائل إلحادية مبطنّة، حتى بعض الألعاب الإلكترونية لم تسلم من بثّ هذه الرسائل، هذا واقع جديد، الأمر في السابق لم يكن كذلك.

في السابق كانت القوالب التي تُقدّم الأفكار من خلالها كانت محدودة، تُكاد أن تدور على كتاب، ربما على إذاعة، والغالب أن من يبحث عن هذه الأفكار

هو الذي يصل إلى تلك المنتجات الثقافية، إذاً التأثير كان محدوداً، بخلاف الأمر اليوم، الوسائل اليوم هي التي تطارد الناس، حتى مَنْ هم في غفلة عنها. مع ملاحظة أننا نتحدث عن وسائل تميزت بالتنوع والكثرة، تميّزت بالجِدَّة، وكل جديد له لذة، تميزت بالجاذبية، تميزت بالسهولة، سهولة الوصول إليها، وهذا ما يتضاعف معه في التأثير.

● السِّمة الثالثة: ما يميز الطرح المعاصر فيما الحديث بصَدَدِه: تنوع الأساليب، هناك مخاطبة للعقل، مخاطبة للعاطفة، هناك إثارة لشُبّهات فلسفية، أو علمية تطبيقية، هناك تشويه للحق، تلبّيس للمُتشابهات... إلى آخره، بعكس ما كان عليه الحال في السابق حيث كان الطرح غالباً فلسفياً نخبوياً.

● السِّمة الرابعة: الطرح اليوم يخاطب جميع الشرائح، الطرح اليوم يُحسِّن مخاطبة الكبار ويُحسِّن مخاطبة الصغار، الذكور والإناث، يتحدث بجميع اللغات تقريباً، لذا فمساحة التأثير أيضاً عظيمة، خلاف الأمر في السابق.

تذكر دراسة نُشرت عن إحدى التيارات الغالية التي عاثت في دماء المسلمين، والتي جذبت شريحة كبيرة من شباب المسلمين، وُجد أن الآلة الإعلامية لهذا التيار يتحدث بعشرين لغة، بينما الرّدود عليه لم تبلغ رُبع هذا العدد.

في السابق لم نكن نسمع عن قصص أطفال مصورة ملوّنة وجميلة، تبث السُموم الإلحادية بما يتناسب مع عقول الأطفال، لكن هذا اليوم موجود. في السابق ما كان هناك سلسلة من الكتيّبات الإلحادية، موجّهة إلى محدّودي الذكاء، (حتى الأغبياء).

في السابق كانت حركة الترجمة لمُخرجات التيارات الضالة ضعيفة، اليوم ربما لم يبقَ كتاب إلحادي مشهور لم يُترجم إلى اللغة العربية، ولم يُنشر مجاناً على الشبكة. وكل ما سبق -مع الأسف- يقابله ضعف في برامج التحصين والعلاج كمّاً وكيفاً، وهذا موضوع يحتاج إلى مساحة أخرى أوسع للحديث.

● السّمة الخامسة: وجود واقع جديد يُسمى بـ: (الاغتراب الأسري)، أو: (العزلة الأسرية)، وهذه ظاهرة لا يُجهل انتشارها في كثير من المجتمعات المسلمة.

في السابق كانت العلاقات الأسرية -غالباً- قوية، كانت الرّقابة على الأطفال والشباب حاضرة، شعور كل فرد في الأسرة بالآخرين، وملاحظة ما قد يطرأ،

كانت موجودة، كانت الأسرة تفكر بصوت مسموع، أفرادها يتناقشون، يتحاورون، يصارح بعضهم بعضاً بما يُحتلج في النفس من مشكلات فكرية أو شُبّهات ونحو ذلك، كانت العلاقة الأسرية دافئة قوية إلى حدٍ كبير، لكن هل لا يزال واقع الأسرة كما هو الآن؟! أظن أن الجميع يُدرك ما آل إليه الأمر اليوم.

اليوم في كثير من الحالات -ولا أعمم- أضحت الأسرة عوالم متعدّدة مستقلة يجمعها جدار واحد، أي: أن كل فرد صار له عالمه الخاص، لديه جواله أو حاسوبه الشخصي، يُبحر فيه وحده، ويكوّن عالمه الافتراضي الخاص، ولا رقيب ولا حسيب، الكل مشغول بنفسه، الكل مشغول عن غيره، حتى بعض الآباء والأمهات، هذا الواقع في الحقيقة أنتج أنّ كثيراً من الشباب والفتيات صاروا صيداً سهلاً المَنال من ذوي المَآرب، وهم لا شك يُحسِنون اصطِياد الفرائس.

● السِّمة السادسة: غياب المرجعية عند كثير من الشباب والفتيات،

ولا يعرف إلى أين يُلجأ، إن شَرِقَ بشُبّهة أو اعتاصت أمامه مسألة،

الكثير من الشباب لا يفرق بين المرجعية الموثوقة وغير الموثوقة.

اليوم كلُّ يتكلم، وكلُّ يُؤصِّل، وهناك مَنْ يسمع، في السابق كانت المرجعية

ظاهرة، وموثوقة، ولا تُزاحم.

● **السِّمة السابعة:** واقعنا المعاصر أيضاً فيه ضعفٌ في إدراك حجم المشكلة الواقعة في ساحة المسلمين الفكرية، بعض الناس اليوم لا يشعر بخطورة الواقع، إما لبُعده، أو انشغاله، وعليه؛ فأمراض الشُّبهات القاتلة قد تفتك بمن حوله وهو في غفلة، بل قد تتعدى إليه هو، وهو لا يشعر، ربما يستيقظ لكن متأخراً على واقع مؤسف يتعلق به أو بأسرته ولكن بعد فوات الأوان، ولذا كلما كان الإنسان قريباً من محيطه، عنده وعي ودقة ملاحظة، وليس وسوسة أو ساقطاً بالتأكيد؛ كلما كان أقرب إلى أن تنكسر عند هذا الوعي جهود الأعداء، وهذا لا شك أنه غاية المحبة للقربة، وكمال الرأفة بهم.

المقدم: ما الذي سنقدِّمه إن شاء الله للمستمع خلال الحلقات القادمة بإذن الله؟

الشيخ: نحن في باكورة الحلقات، وأسأل الله ﷻ أن يجعلها حلقات مباركة ونافعة، وفي ميزان حسنات المتكلم والمستمع.

هذا البرنامج يُرجى أن يكون بتوفيق الله نافذة نافعة للتواصي والتعاون في تحقيق الوعي، واليقظة الفكرية، وهذا في هذا الزمان أعتقد أنه بمثابة اللقاح والحصانة، فالنجاة من الفتن الفكرية والشُّبهات العقدية إنما تكون -بعد توفيق الله وهدايته- بمعرفة الحق تفصيلاً، ومعرفة الباطل تفصيلاً، وهذا هو الوعي الذي ننشده.

المقدم: شيخ صالح، ذكرتم أنه هدفنا هو هذا الهدف الكبير، فكيف سنحققه إن شاء الله؟

الشيخ: بما تفضلتم به، من خلال طرح موضوعات فكرية مركزة تعتبر أصولاً لغيرها من الفروع، والانحراف في الفكر غالباً ما يكون بسبب خلل في فهمها، ومن هنا وجدنا أنه ينفذ الضالون ويجدون طريقهم للإضلال.

نؤمن - بعون الله ﷻ - وهدايته - أن من أحسن فهمها وضبطها فسيكون في مأمن من التأثير بهذه الشبهات الفكرية الجارفة، والبرنامج - كما تفضلتم - سيسلك - بإذن الله - مسلكاً تفاعلياً مع الإخوة المستمعين، فيخاطب جميع الفئات ولا سيما الشباب، وسيحرص فيه - إن شاء الله - على الجمع بين سهولة الطرح وأصالة المضمون.

المقدم: يمكن الوعي أنواع، هناك الوعي المالي، وهناك نسمع الوعي بأنواع كثيرة، ونحن نركز على الوعي الفكري وما يرتبط منه بالعقيدة بشكل خاص إن شاء الله.

الشيخ: أنا أريد - يا شيخ عبد الله - إذا تأذن لي لبعض التنبيهات، بما أننا فتحنا الموضوع، فأتمنى أن أتممه ببعض الأحرف.

◀ أنا أقول عندي عدة تنبيهات:

الأول: هذا الموضوع إذا طرحناه ينبغي أن نتميز بالدقة والرفق والموضوعية، بعض الناس يبالغ في التصور أو التصوير يصاب بما يُشبهه الكآبة، يرى الدنيا أمامه مظلمة

إذا فُتح هذا الموضوع، هذا غير مطلوب ولا مقبول، الخير والله الحمد هو الغالب، ولا سيما في بلادنا، والله الحمد، مشكلتنا وجود المشكلة وليس غلبتها، إصابة قلة قليلة هي التي تجعلنا نجتهد في الأمر، طرح هذا الموضوع ينبغي أن يكون دافعاً إلى العمل والاجتهاد، وليس إلى اليأس والإحباط، والدين دين الله ﷻ، وهو منصور بنصره.

اليوم بين أيدينا - حفظك الله - ثلاث ساحات للجهاد:

- ساحة للدفاع عن الأوطان.
- وساحة للدفاع عن الأبدان.
- وساحة للدفاع عن الإيمان.

الأولى: يقوم عليها أبطالنا الأشاوس في الحد الجنوبي، أسأل الله ﷻ أن يربط على قلوبهم، وأن يثبت أقدامهم، وأن ينصرهم على عدوهم.

الثانية: الدفاع عن الأبدان، يربط فيها أبطال الصحة من العاملين في القطاع الصحي؛ لمواجهة هذا الوباء، أسأل الله ﷻ أن يعجل بزواله، وأن يجزيهم عنا خيراً.

الثالثة: الدفاع عن الدين والإيمان، وهذه منوطة بالجميع، بالرجال، بالنساء، برجالات ونساء التعليم والإعلام، الأئمة، الخطباء، المثقفين، والمفكرين، الآباء، الأمهات، الإخوة، والأخوات، الجميع في الحقيقة من رؤساء ومرؤوسين، الجميع في

مرمى نيران شُبّهات التشكيك، والإسلام سبب وجودنا وهدف بقائنا وأكبر قضية في حياتنا فلنشمر للدُّود عنه، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ﴾ [الصف: ١٤].

المقدم: شيخ صالح، في الختام لعلنا نقف وقفة مع أبرز الأسئلة، ونلخص هذه الحلقة في أسئلة بسيطة نوجهها للمستمعين، يفكرون فيها خلال الأيام القادمة.

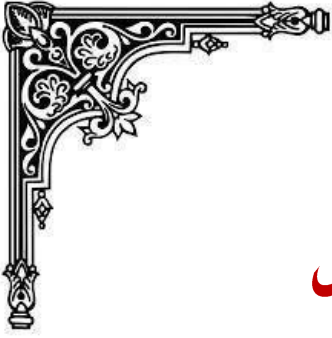
الشيخ: أقول: عندي ثلاثة أسئلة:

السؤال الأول: ما هو الوعي؟

السؤال الثاني: ما سمات الغزو العقدي المعاصر؟

السؤال الثالث: ما الذي تغير في العلاقة الأسرية عند بعض الأسر في الوقت المعاصر؟





الحلقة الثانية

قواعد في العقل



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدم: حياكم الله، وأهلاً بكم مرة أخرى في إطلاّتكم الثانية في هذا البرنامج، وكنا مع الشيخ علي السّحبياني قد تحدّثنا عن اختفاء الشريعة الإسلامية بالعقل ونحو ذلك، ولكن تجاوزنا مسألة تعريف العقل، فلو ندخل في الموضوع من خلال التبيين ما هو العقل؟

الشيخ: الحمد لله رب العالمين، وأصلي وأسلم على عبد الله ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسان.

أما بعد: فأهنتكم -ابتداءً- على حُسن اختيار هذا الموضوع، الحق: أن هذا الموضوع حجر زاوية في كثير من القضايا الفكرية التي نشأ عنها الانحراف والاختلاف الحاصل بين الناس، وسنحتاج كثيراً إلى هذا الموضوع في المستقبل إن شاء الله، وسُنْحِيل عليه.

الحقيقة: أن العقل قضية شائكة، وحصل فيها ما حصل من اختلاف كثير وتشعبات، ومناهج، حقيقة شيء يندّد عن الحصر، وهذا عجيب أن يتحير العقل في العقل، سأجاوز كثيراً من المقدمات، - كما طلبتم - وأقول باختصار شديد: يطلق العقل في النصوص، وفي مجال كلام أهل العلم، ويراد به أحد أربعة معانٍ:

• الأول: العريزة، أو الملكة التي جعلها الله ﷻ في الإنسان، وبها يدرك، وكما يقول الراغب الأصفهاني رحمه الله: «القوة المتهيئة لقبول العلم»^(١)، وهذه هي التي يمتاز بها الإنسان عن الحيوان، والعامل عن الجنون، وهذه هي موضوع بحثنا في هذه الحلقة.

• الثاني: يطلق على العلوم الضرورية التي يشترك فيها جميع العقلاء: كالعلم بأن الكل أكبر من الجزء، أن المخلوق لا بد له من خالق... إلى آخره.

• الثالث: يطلق على العلوم النظرية التي تحصل بالنظر والاستدلال.

• الرابع: يطلق العقل على العمل بالعلم، أو الأعمال التي تكون بموجب

العلم، وهذا الذي جاء في نحو قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي

أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠].

ويبقى -بعد ذلك- أن تحديد المراد من العقل في هذا الكلام أو ذاك يتضح من السياق.

المقدم: شيخ صالح، سأعرض عليك سؤال أحد المستمعين، (مريم سراج)

تقول: لا حدود للعقل، هل نردع عقولنا؟ لا، لا نردعها، ولكن نوجهها التوجيه

(١) " المفردات في غريب القرآن " ص ٣٤١.

الصحيح، والاختراعات والفلسفة كلها دليل على محدودية العقل، فهل قدرات العقل مطلقة؟ أم محدودة؟

الشيخ: الحقيقة أن هذا الموضوع من أهم الموضوعات التي ينبغي ضبطها، والكلام الذي تفضلت بذكره -حفظك الله- يشتمل على صواب وخطأ، كون العقل لا حدود له، هذا الكلام فيه من المبالغة ما فيه.

الصواب: أن العقل محدود، ولكن ينبغي أن نُعمل العقل فيما هو متاح فيه، أو فيما هو مجاله، أما أن نطلق أن العقل لا حدود له، هذا في الحقيقة -كما سيأتي- إشكال كبير جدًا.

وتأصيلًا لهذا الموضوع؛ أقول: العقل وإن كان له شأن في الشرع واعتبار كبير، إلا أن حدوده ضيقه، ومجالاته محدودة، والنقص لاحق به، وجائر عليه. العقل له حدود لا يمكنه أن يتجاوزها، لذا فهو أضعف من أن يكون في شيء خارج عن محل ولايته، أو أن يستقل عن الشرع استقلالًا تامًا، وهذا من آثار كمال الخالق، وفقر المخلوق، قال ﷺ: ﴿وَحُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]؛ فالقاعدة إذًا: (للعقل سلطة، لكنها محدودة لا مطلقة).

وشواهد هذا كثيرة، منها:

- الأمر الأول: أنه لا دخل له في الغيبات، تفاصيل كثيرة من صفات الله ﷻ، والملائكة، واليوم الآخر، -مثلاً- لا تعلم ابتداء إلا من طريق النقل، وليس من طريق العقل، ولا سبيل للعقل إلى الاهتداء إليها، وحسبه الإقرار والتسليم بها إذا بلغت، والحكم بعدم امتناعها.
- الأمر الثاني: أن العقل لا يستقل بالهداية، فمن رامها به وحده ضل، فمثل العقل كمثل نور العين، فهي لا تبصر إلا إن اتصل بها نور الشمس أو المصباح، وإلا بقيت عاجزة عن الإبصار، كذلك العقل لا يبصر الهداية إلا إذا اتصل به نور القرآن والإيمان، ولذلك تأمل في قول الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْعِدَّةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْعِدَّتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦] إذا؛ لا سبيل للهداية إلا في الوحي، ﴿وَإِنْ أَهْتَدَيْتُمْ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ [سبأ: ٥٠].
- الأمر الثالث: أنه لا يستقل بالفصل بين الناس فيما يتنازعون فيه، إنما الذي يستقل بذلك: الوحي المنزل، وهو الذي لا اختلاف فيه ولا اضطراب، وذلك أن أقوى العقول متفاوتة مختلفة، كثيراً ما يشبهه المجهول

بالمعقول، فلا يمكن أن يفصل بين المتنازعين قول شخص معين، ولا معقوله، إنما يفصل بينهم الكتاب المنزل من السماء، والرسول المبعوث المعصوم ﷺ فيما بلغه عن الله ﷻ، ولهذا نجد أن الله ﷻ أمر برد التنازع إلى الكتاب والسنة، قال ﷺ: ﴿فَإِنْ نَزَعْنَاهُ فِي شَيْءٍ فَردُّهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ

كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

المقدم: وأيضًا ربما هذا يقودنا إلى تساؤل عن سبب محدودية العقل، رأينا - مثلاً- دعوات من أشخاص كُثُر -مثلاً- يقول: أقرأ ما أشاء، وأفتح ما أشاء، وهو في النهاية عقلي يحكم، وأنا إنسان عاقل. من هذا القبيل، فما سبب محدودية العقل وقدرة العقل؟

الشيخ: سبب ذلك -حفظك الله- أربعة أمور.

وهي في الحقيقة أسباب، وفي الوقت نفسه أمارات:

- الأمر الأول: أنه مخلوق ناقص، خلقه الله ﷻ -هكذا- ناقصًا لا كاملاً، ضيقًا لا يحيط بالأمور كلها، فثمة أشياء كثيرة أكبر من طاقته، وأصغر من قدرته، ولذا؛ العلماء كلهم بعقولهم وعلومهم وتقنياتهم لا يعرفون كل شيء عن ذبابة.

• **الأمر الثاني:** أن هذا العقل مكبل بالمحسوس المُدْرَك له، بمعنى: العقل لا طاقة له في إدراك شيء وراء المحسوسات، نماء عقولنا، أو حكمنا بعقولنا - إن صح التعبير - هو انعكاس للمخزون المعرفي في أذهاننا، أو ما نسميه بالتصور الذهني، أو الخبرة السابقة، ولذا لو قيل لرجل قبل مئة وخمسين أو مئتي سنة: إنه يمكن أن يسافر إنسان في غرفة مكيفة، تسبح في الهواء من المدينة إلى مكة، في ظرف دقائق، ماذا سيحكم على قائل هذا؟ سيحكم عليه - غالبًا - بالجنون.

لو قيل له: إنه يمكن عبر آلة صغيرة أن تسمع رجلاً في الصين، وأنت في المدينة - مثلاً -، في اللحظة التي يتكلم فيها، بل وأن تراه أيضاً، أظن أنه يقول: أخلف الله على أهلك في عقلك، لم؟ لأن هذه الأشياء خالية عن مدركاته، وقد قيل في طبع الآدمي: «إنكار ما لم يعهد».

إذاً: عمل العقل الذي هو الفهم والتحليل والاستنتاج يعتمد على معطيات حسية، فلو تجاوزها الإنسان فإنه سيحكم بغير هدى.

• **الأمر الثالث:** أنه يعتريه ما يعتريه مما يُعْبِده عن الصواب، العقل ليس شيئاً موضوعياً دائماً، هناك أشياء قد تحرفه عن الجادة: هوى، عاطفة، غضب، شك، غفلة ... إلى غير ذلك، حتى قال بعض الحكماء: كيف

يرجو العقل النجاة والهوى والشهوة قد اكتنفاه؟! وشواهد هذا كثيرة في الواقع وفي الشرع.

• **الأمر الرابع:** أن العقل ليس شيئاً واحداً متفقاً عليه، ولينتهي هنا إلى مغالطة: بعض الناس ممن يرفع لواء العقلانية المتطرفة، حينما يجعل العقل معياراً للحكم على الأشياء بحيث لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لسان حاله يقول: العقل شيء واحد، كأنه كتاب، أو قانون عام يرجع إليه ويحكم إليه، وهذا بإطلاقه غير صحيح.

الواقع: أن لزيد عقلاً، ولعمرو عقلاً، ولكلٍ طريقته في التفكير، ثمة أمور ضرورية يتفق عليها العقلاء، لكن ثمة أمور كثيرة يختلف فيها العقلاء، فما يثبت فلان بعقله، ينفيه فلان بعقله، بينما يتوقف فيه ثالث بعقله أيضاً، بل قد يثبت الإنسان بعقله هو في وقت ما ينفيه بعقله في وقت آخر.

إذاً: العقل غريزة يتفاوت الناس فيها، ودونك حال الناس، وما هم فيه من اختلاف في أديانهم، في مباحثهم، طرائق تفكيرهم، والأمر كما قال ابن الوزير: **وما سبب الخلاف سوى اختلاف الـ علوم هناك نقصاً أو تماماً^(١)**

المقدم: ألا يعتبر القول بمحدودية العقل تسفيهاً له وخطأً من شأنه؟!

(١) إثار الحق على الخلق في رد الخلافات إلى المذهب الحق من أصول التوحيد ص ١٩٩.

الشيخ: الحق أن هذا ليس تسفيهاً للعقل، بل هذا تكريمه وإقداره، وهو ألا يكلف فوق طاقته، ليس من تكريم الرجل القوي صاحب العضلات أن نكلفه حمل بيت، ليس من تكريم حاد البصر أن نكلفه أن يحد النظر إلى الشمس. كذلك العقل تكريمه في إعماله في مجاله، لا في تكليفه فوق طاقته، وهذه قاعدة ينبغي أن نفهمها: (تكريم العقل في إعماله في مجاله، لا في تكليفه فوق طاقته).
 العقول -حفظك الله- مثل الأودية، لها طاقة استيعاب للماء بقدر معين، فلو صُب فيها ماء البحر -مثلاً- لحصل فساد عظيم، وغرق كبير.

إذا؛ العقل له سلطة في حدود مملكته، ومملكته لا تتجاوز بحال ما يمكن إدراكه بالحس، وما وراءه فلا سبيل إلا أن يزنه أو أن يحكم فيه، جوالك الذي معك -حفظك الله- مهما كان جديداً إذا وصلت إلى مكان لا إرسال فيه توقف عن العمل، فلا إرسال ولا استقبال، أليس كذلك؟ كذلك الشأن في العقل، يعجبني أثر أخرجه ابن بطة رحمه في كتابه «الإبانة»^(١) عن ابن عباس رضي الله عنه، والأثر في الحقيقة معناه صحيح ونافع، وإن كان الإسناد فيه نظر، وهو أن رجلاً أتى ابن عباس بابن له فقال: لقد حيرت الخصومة عقله، وأذهبت المنازعة قلبه، وذهبت به الكلفة عن ربه، الرجل وجد أن الابن بدأ يخوض في أشياء فوق طاقة عقله، فبدأ

(١) الإبانة الكبرى ١: ٤٢٢ برقم (٣٤٦).

الابن يَحْتَلُّ عقله، قال عبد الله ﷺ: امددُ بصرك يا ابن أخي، ما السواد الذي ترى؟ قال فلان: قال صدقت، قال: فما الخيال المسرف من خلفه؟ قال: لا أدري، قال عبد الله: يا ابن أخي، فكما جعل الله لأبصار العيون حدًا محدودًا، من دونها حجابًا مستورًا، فكذلك جعل لأبصار القلوب غاية لا يجاوزها، وحدودًا لا يتعداها، قال: فرد الله عليه غارب عقله، وانتهى عن المسألة عمًا لا يعنيه، والنظر فيما لا ينفعه، والتفكر فيما يحيره.

إذاً هذا هو المطلوب، وهذا هو المقصود من عرض هذه القضية، -حفظك الله- القدرة العقلية محدودة، هذه حقيقة لا بد من التسليم بها، أي محاولة للخوض فيما هو خارج عن هذه القدرة هي محاولة محكوم عليها بالفشل، كما ذكرنا من أمثلة من الخوض في الغيبات... إلى آخره.

إذاً: إذا كان العقل عاجزًا عن استيعاب هذه الأمور؛ فينبغي عليه أن يعرف قدره، وأن يتحلى بالتواضع، بل أنا أقول: إذا كان العقل عاجزًا عن استيعاب ما هو مشاهد له مثل: عد حبات الرمل، أو نجوم السماء، إذا كان عاجزًا عن استيعاب هذا تمام الاستيعاب، كيف يستوعب ما غاب عن إدراكه، وعن حواسه.

إذا؛ عندنا ها هنا قاعدة مهمة، لا بد أن تستقر في النفوس: (الله ﷻ)
 أعطانا العقول لنذكر بها القريب لا البعيد)، أي: ندرك المشاهد الذي تتيسر
 الإحاطة به، ونبدع - بعد ذلك - في استثماره دون ما كان صعب المنال.

ومن ها هنا نعلم رحمة النبي ﷺ بأمته حين قال: «تفكروا في آلاء الله، ولا تفكروا
 في الله ﷻ»، والحديث عند الطبراني في «الأوسط»^(١)، وحسنه بعض أهل العلم.

المقدم: ربما التيارات والنزعات الفكرية لا تعد ولا تحصى خاصة في الغرب،
 وخاصة في هذا الزمن الذي اتسعت فيه العلوم والمعارف، البعض ربما يقرر أن عقل
 الإنسان لا حد لقدراته، وأنه باستطاعته فهم كل شيء، والحكم على كل شيء
 فما تعليقكم على هذا؟

الشيخ: الحق - حفظك الله - أن الغلو في تعظيم العقل أسّ الضلال، وهذه
 قاعدة: (الغلو في العقل أسّ الضلال) وعامة الانحرافات عن جادة الحق مرجعها
 إلى هذا الأمر.

والحقيقية أن هناك مذاهب عقلانية متطرفة في هذا الجانب تقرر أن العقل
 هو المرجع الوحيد في تفسير كل شيء في الوجود، هو المعيار الوحيد لاختبار

(١) المعجم الأوسط ٦: ٢٥٠ برقم (٦٣١٩).

صدق القضايا والحكم عليها، فما أدركه فهو ثابت، وما لا يدركه فهو منفي، وفي طي ذلك الاستغناء عن الوحي الإلهي، وإنكار كل ما يدركه العقل من الغيبات. والحقيقية أن هؤلاء المتعقلين ينافون العقل منافاة صريحة، الحق أن العقل الصريح ينادي فيهم: -لو كانوا يعقلون- إن لي قدرة محدودة فلا تكلفوني ما لا أطيق، يكفي في بطلان مذهبهم القائم على أن العقل هو المعيار الأوحى المعصوم: الشواهد الواقعية الحسية، هؤلاء المتعقلون قد فشلوا فشلاً ذريعاً في إمطة اللثام عن أشياء كثيرة، عن تفسيرها تفسيراً معقولاً: ما هي بداية الكون والحياة، الوعي، المشاعر، الذكاء، الروح، وغير هذا كثير، وبالتالي هم مخطئون خطأ كبيراً ومن تابعهم سيكون مخطئاً خطأ كبيراً ولا شك، حدّثني -حفظك الله- عن الدماغ، لن أذهب بعيداً، لكن حدثني عن الدماغ الذي هو في متناول الإنسان، وفي كل إنسان، وبين أيدي علماء الأعصاب والتشريح، ولا يتجاوز وزنه كيلو ونصف تقريباً، هل تعلم أن هذا الدماغ يكاد أن يكون أكثر الأشياء غموضاً في هذا الكون، ما استطاع أحد إلى الآن أن يفك شفرة الخلايا العصبية، وأنماط العمل فيها، تفكير ذكاء مشاعر، ونحو ذلك، وهو بين أيديهم، فكيف بما هو بعد ذلك!!

إذاً أنا أقول: كأن الله ﷻ أراد أن يُعَلِّم عباده أن تواضعوا ولا تغتروا بعقولكم وبعلمكم، إن كنتم تعلمون شيئاً؛ فأنتم تجهلون أشياء، والذي وسع كل شيء

علماً هو ربكم ﷻ ، أنا أشبه هذا المتعقل بنملة دَبَّتْ على ورقة بيضاء، فشاهدت رأس قلم يخط على هذه الورقة، هذا هو حدود إبصار هذه النملة، فأصبحت بعد ذلك معجبة غاية الإعجاب برأس القلم، وصارت تتغنى بشعره، ونثره، وإبداعه، والسبب في هذا محدودية بصرها، لم ترَ القلم نفسه، والأصابع، واليد التي تكتب، أو الشخص الذي هو مبدع في الحقيقة.

كذلك حال هؤلاء الذين يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، ولكن الحقيقة أنهم غافلون عن الحقيقة الكبرى، وهي أن هناك خالقاً، علمه وسع كل شيء ﷻ .

المقدم: في البداية عَرَّفْنَا العقل، وأيضاً تحدثنا عن قدرات العقل، وهل هي مطلقة أم محدودة؟ وسبب محدودية القدرات العقلية، ثم تحدثنا أيضاً عن النزعات، والتيارات الفكرية التي تزعم أن عقل الإنسان لا حد لقدراته، فما الدرس المستفاد من فهم هذه القضية إجمالاً، وهي: أن للعقل حدوداً لا يمكنه أن يتجاوزها؟

الشيخ: المستفاد -حفظك الله- هو درس التسليم، أن نُسَلِّمَ لله العليم الحكيم العظيم ﷻ ، وأن نُسَلِّمَ لوحيه، الله ﷻ هو خالق العقل، فحكم العقل منوط بخالقه، الله ﷻ خلق العقل ليكون موصولاً إليه، لا قاطعاً عنه، دالاً على قدرته، لا مضلاً عن حكمته.

إِذَا، قاعدتنا -معشر المسلمين- أنه: (لا تَثْبُت قدم الإسلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام)، وما أحسن ما قال الزهري رحمته الله: «من الله الرسالة، ومن الرسول صلوات الله عليه البلاغ، وعلينا التسليم»^(١)، وهذا كله مُمَهَّد للموضوع الذي سنتناقش فيه -إن شاء الله- إن أذنتم في الحلقة القادمة، وهو: (العلاقة بين العقل والنقل).

المقدم: إذا العقل والنقل هو موضوع الحلقة القادمة بمشيئة الله تعالى، وما يختم به الشيخ صالح من نصيحة في هذه الحلقة هو: التسليم لله تعالى فيما أمرنا بالتسليم به، وأيضاً ألا نعطي عقولنا أمراً ليس من شأنها، ويفوق قدراتها.

المقدم: لو نلخص -فضيلة الشيخ- هذه الحلقة في أسئلة.

الشيخ: عندي أمران: الأول: سؤال، والثاني: فائدة.

أما السؤال فهو: سؤال مقتضب وصغير، أقول: مر معنا في هذه الحلقة التنصيص على قواعد، أظن أنها بلغت خمس قواعد، فما هي؟

وأما الفائدة فهي: أني أود في كل حلقة -إن تيسر- أن أحيل على موضع أو موضعين من الكتب النافعة؛ لنقرأ بعض التَّيَمَّات لموضوعنا الذي طرحناه.

(١) رواه البخاري في صحيحه تعليقاً ٩: ١٨٩، ورواه موصولاً: ابن أبي عاصم في "الزهد" ص ٤٣ برقم (٧١)، ومحمد بن نصر المروزي في "تعظيم قدر الصلاة" ١: ٤٨٨ برقم (٥٢٠)، وابن حبان في صحيحه ١: ٤١٤ برقم (١٨٦).

في موضوعنا هذا أحتّ الإخوة على قراءة موضعين يسيرين:

- **الموضع الأول:** في «مفتاح دار السعادة» لابن القيم ١: ٣٢٢-٣٢٥ من طبعة (دار عالم الفوائد).
- **والموضع الثاني:** لابن القيم أيضاً في كتابه «الداء والدواء»، وهو أسطر في صحيفة ١٤٧، من طبعة (دار عالم الفوائد) أيضاً.





الحلقة الثالثة

دفع دعوى التعارض بين العقل والنقل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدم: حياكم الله مستمعينا الأعزاء مرة أخرى، وأهلاً بضيفنا الدائم في هذا البرنامج: فضيلة الشيخ الأستاذ الدكتور صالح بن عبد العزيز سندي، الأستاذ بقسم العقيدة في الجامعة الإسلامية.

الشيخ: الله يحبيكم ويبارك فيكم، وأهلاً بك وبالإخوة المستمعين.

المقدم: لو نبدأ بـ: كيف نفتتح هذا الموضوع المهم، وربما أحياناً يكون شبه معقّد بالنسبة للبعض عندما يسمع كلمة: العقل، والنقل.

الشيخ: أقول: الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

ففي البداية ينبغي أن تكون بالتفكير بالأصل والأساس: ما هو الإسلام؟

الإسلام: هو استسلام لله، وإسلام للوجه له، ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [لقمان: ٢٢]، الإسلام: هو الاستجابة لله ولسوله ﷺ؛ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

لسان حال المسلم الصادق مع ربه ﷻ يقول: يا رب، أنا عبدك، جاهل إلا إذا علّمتني، ضال إلا إذا هديتني، لا هداية لي إلا بوحيك، ولا سعادة إلا باتباع نبيك، أقيم وجهي حيثما أقمتني، وأسير حيثما وجهتني، مؤتمر بأمرك، منتبه عن

نُحْيِكَ، مسلّم لحُكْم، راضٍ بقدرِكَ، هذا هو المسلم حقًّا، ومن لم يكن كذلك فليُعيد النظر في إيمانه.

الإيمان يقتضي اقتضاء حتميًا التزم الكتاب والسنة، أي: اعتقاد وجوب الأخذ بهما، فلا يسع أحدًا الخروجَ عنهما، إنما الانقياد والقبول، المقام هنا جدُّ لا هزل، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

الإيمان يقتضي حاكمية الوحي، هو الحاكم على كل شيء، المقدم على كل شيء، وكل ما سواه من رأي أو عقل أو مذهب فإنه مؤخر، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَانْفِقُوا اللَّهَ﴾ [الحجرات: ١]، ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥].

هذا هو الإسلام، ولا بد أن يتحقق المسلم بذلك، هذه قضية لا بد أن نذكر أنفسنا بها دومًا، الناس قد ابتليت في هذه لأيام بدعوات ضالة تطعن في القرآن والسنة، أو تشكك في حاكميتهما، أو تُزاحمهما بزُبالات الأذهان: من دعوى تقديم العقل على النقل، أو محاكمة الأدلة إلى العقل، أو أن الانقياد للدليل مرهون بمعرفة الحكمة منه، هذه وأشباهها دعوات ضالة، روائح النفاق غالبية عليها، والله ﷻ قد قال عن المنافقين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١].

المقدم: ربما لم نتحدث حتى الآن عن معنى العقل والنقل، لو نُعرج عليهما بسرعة، قضية ما هو العقل، وما المقصود بالنقل؟

الشيخ: المراد بالعقل سبق الكلام فيه. وأما النقل فالمراد به: أدلة القرآن، وأحاديث السنة الصحيحة.

المقدم: العقل والنقل هل دائماً على توافق، أم تعارض، هل يمكن أن يتعارض شيء من أدلة الكتاب والسنة مع عقل الإنسان؟

الشيخ: لا يمكن البتة أن يخالف نقلٌ صحيح عقلاً صريحاً، أُعيد فأقول: يستحيل أن يتعارض الوحي والعقل، أو أن يتناقضا، يعني: أن تأتي آية -مثلاً- بما يجزم العقل أنه مستحيل، هذا الفرض هو المستحيل، لا مُعاندَة بين شرع منقول وحق معقول، هذا أصل أصيل عندنا معشر المسلمين، فإننا نعتقد أن الله ﷻ هو الذي أوحى إلى عبده محمد ﷺ هذا الوحي الذي هو القرآن والسنة، وهو سبحانه هو الذي خلق العقول، فالمصدر إذاً واحد، فأئني يحصل التناقض؟! إنما يحصل التناقض في عقول فاسدة، أو عاجزة:

● **عقول فاسدة، ضالة، مستكبرة عن ربها، ولا غرابة أن تدّعي -أيضاً-**
هذا التناقض.

- أو عقول عاجزة، فهي لقصورها؛ تتوهم التناقض والتعارض، والواقع خلاف ذلك.

المقدم: أيضًا من الأسئلة التي ربما تتبادر إلى الذهن:

لماذا يدعي أو يظن بعض الناس حصول التعارض بين العقل والنقل؟

ما أسباب ظهور هذا التعارض عند بعض الناس؟

الذي يقول لك: والله -مثلاً- القضية الفلانية تتعارض مع العقل الصريح، أو

الحديث الفلاني يتعارض مع عقل الإنسان، ونحو ذلك، ما هو السبب؟

الشيخ: هذا السؤال -في الحقيقة- سؤال مهم!

وبالتتبع وجد أن أسباب ظهور هذا التعارض ترجع إلى ثلاثة أسباب:

- **السبب الأول:** عدم صحة المنقول، وهذا بطبيعة الحال لا يرد على

القرآن، إنما يُختص بما يُدعى من تعارض بين العقل وما يُروى عن النبي

ﷺ، مثلاً: يسمع إنسان حديثاً فيه ما يخالف بديهية العقل، فيقول

حينها: انظروا، هنا تعارض العقل والنقل، لكننا عند التحقق نجد أن

الحديث لا يصح عن النبي ﷺ، هو إما موضوع مكذوب، أو ضعيف،

فاتضح أنه لا تعارض هنا، النقل ها هنا غير ثابت، والتعارض إنما يكون

بين ثابتين، مع ملاحظة أن المرجع في تصحيح الأحاديث وتضعيفها

ليس إلى آحاد الناس، إنما هو لأهل العلم المختصين بالحديث كما لا يخفى.

ويندرج تحت هذا السبب أيضًا: أن يُنسب إلى الشرع ما ليس منه، بعض الناس يظن في بعض الإسرائيليات أنها من كلام رسول الله ﷺ، والواقع خلاف ذلك، أو أن ينسب بعض الناس وربما من غير المسلمين تصرفات ضالة لبعض الفرق المبتدعة تُنسب إلى الإسلام، ثم يقول هذا: انظروا هذا هو الإسلام، ولا شك أن الإسلام من هذا بريء.

● السبب الثاني: عدم صحة ما يُدعى أنه معقول، وكم يقع الخطأ في هذا الموضوع، يدّعي شخص أن العقل يقتضي كذا، أو يمنع كذا، والصواب خلاف هذا.

بمعنى: ما سُمي عقلاً هنا لا يعدّو أن يكون قضية نظرية خاطئة، سمّاها صاحبها عقلاً، وكان العقل مخطئاً: إما في التصور، وإما في التصديق؛ لأن هناك مقدمات خاطئة لهذا التصور أو ذاك التصديق.

تجد -مثلاً- مَنْ يقول: أدلة وزن الأعمال في الآخرة هذه قضية تخالف العقل، لماذا؟ قال: لأن الأعمال أعراض، والأعراض لا تُوزَن، سبحان الله!

المخلوق استطاع أن يزنَ الأعراض، اليوم هناك يمكن أن نقيس الحرارة والبرودة،
أليس كذلك؟ إذاً هل يعجز الخالق ﷻ عن وزن الأعراض؟

دعني - حفظك الله - أُمْلِحُ الحلقة بحكاية موقف طريف فيه فائدة:

وهو أن أحد أهل العلم الفضلاء أخبرني أنه كان في مجلس، فقال شخص:
أن يكون لجهنم - كفانا الله وإياكم منها - نفسان في الشتاء وفي الصيف - كما
جاء في الحديث الثابت في «الصحيحين»^(١) - هذا أمر مستحيل، كيف يخرج من
شيء واحد برْد وحرّ؟!

يقول مُحَدِّثِي قبل أن أُجيب، قال أحد الحضور وهو من عامة الناس، ليس
من العلماء، قال: وما المشكلة في هذا، هذا المكيف - يقول: أشار إلى المكيف -
هذا المكيف يُخرج من ها هنا هواء بارداً، ومن ها هنا هواء حاراً في نفس الوقت.
إذاً الخطأ في الحكم بأن هذا واجب عقلاً أو ممتنع عقلاً هذا أمر يقع كثيراً.
قد يكون سبب خطأ العقل - ولا نزال في السبب الثاني - راجعاً إلى عدم
التفريق بين المُحال عقلاً والبعيد وقوعاً.

المُحال عقلاً مثل أن يكون الشيء موجوداً معدوماً في الوقت نفسه، أو أن
يكون الجزء أكبر من الكل، ونحو هذا، هذا لا يمكن أن يأتي في الشريعة البتّة.

(١) رواه البخاري برقم (٣٢٦٠)، ومسلم برقم (٦١٧).

أما البعيد وقوعاً، ولكنه ممكن عقلاً هذا ليس بمستحيل، لكننا لا نعلم وقوعه أمامنا، مثلاً: وجود نهر من عسل أو لبن ممكن في نفسه، ليس مستحيلاً، والذي خلق بحراً من ماء مالح قادر على أن يخلق نهرًا من عسل أو لبن مصقًى، أليس كذلك؟ إذًا لا بد من التفريق بين المحال عقلاً، والبعيد وقوعاً.

كذلك، هناك سبب يرجع إلى خطأ العقل، وهو: عدم التفريق بين مُحالات العقول، ومحازات العقول.

يعني: أن يظن الإنسان في شيء يتحير فيه العقل أنه مُمتنع في العقل، وهذا خطأ، العقل -سَلَّمَ الله- غير مؤهَّل للحكم على كل ما جاء في الشرع، أو أن يُدركه من جميع الوجوه، بل إنه لَعَجْزه؛ -وسبق الكلام عن عَجْز العقل- قد يقف عاجزاً أمام بعض ما جاء في هذه الشريعة، وإن كان مع هذا لا يحكم بالامتناع، هذا العجز لا يُبيح أن يتناول على الشرع، وإنما أن يُسَلِّم بعجز الإنسان ونقصه، وأن يوقن بكمال الخالق ﷻ.

إذًا: أوْكد على ضرورة التفريق بين ما يعلم العقلُ بطلانه وامتناعه، هذا لا يأتي في الشريعة أبدًا، وبين ما يعجز العقل عن تصوّره ومعرفته، أو أن يقصُر عن معرفة تفاصيله، وهذا يقع في مسائل الغيب، في القَدَر، في الصفات الإلهية، بل

حتى في بعض مسائل الفقه، ولذا قال العلماء: «الرسول ﷺ **الضلالة والسلام** يُخبرون بمَحَارَاتِ العقول، لكنهم لا يُخبرون بِمُحَالَاتِ العقول».

● **السبب الثالث** لظن التعارض بين العقل والنقل: عدم فهم النقل فهمًا صحيحًا، يعني: يزعم زاعمٌ أن ثمة تعارضًا بين العقل وبين آية أو حديث، والسبب أنه ما فهم النص، ولا حمّله على محمله الصحيح.

خُذْ مَثَلًا: ثَبَّتَ فِي «الصحيحين»^(١) قوله ﷺ في حق مَنْ نام حتى أصبح، وما قام إلى الصلاة: «**بَالِ الشَّيْطَانِ فِي أُنْهَ**»، جاء بعض المتعاقِلين فقال: هذا الحديث يخالف العقل الصريح، نحن لا نجد أثرًا لهذا البول، ما يخالف الحسن لا شكَّ أنه يخالف العقل، إذًا هذا الحديث مُرْدود؛ لمخالفته للعقل، الخطأ دخل على هذا الإنسان من أيِّ جهة؟ من جهة أنه فهم أن بول الشيطان حَسِّي من جنس بول الآدمي، وهذا خطأ لا مَرِيَّة فيه، قياس فاسد، الشيطان بالنسبة لنا غيب، وهذا ما لا يخالف فيه حتى مَنْ طرح هذا الإشكال، إذًا فَبَوَّلَهُ غَيْبٌ أَيْضًا، وَمَنْ صَدَّقَ بِالْأَوَّلِ فعليه أن يصدّق بالثاني، يعني: أنت إذا صدّقت بوجود الشيطان مع أنك لا ترى له وجودًا حسيًّا؛ إذًا عليك أن تصدّق بِبَوَّلِهِ مع أنك لا تشاهده بالحس، وإنما أخبرك بهذا الصادق المصدوق الذي آمنت بنبوّته ﷺ.

(١) رواه البخاري برقم (١١٤٤)، ومسلم برقم (٧٧٤).

المقدم: كيف نردُّ على مَنْ زَعَمَ أنه قد يقع تعارض بين العقل والنقل، وأن الواجب حينئذٍ تقديم العقل، ويبدو أنه أحد المذاهب الفلسفية القديمة أن يُقدَّم العقل في حال حدَث نوع من التعارض بينهما؟

الشيخ: الواقع أن هذه الدعوى الضالة قديمة متجدِّدة، وهي مكونة من مقدمتين ونتيجة:

أما المقدمة الأولى: فدَعوى: مركزية العقل، وأوَّلِيته، وتقدِّمه، وتبعية النقل. والمقدمة الثانية: أن ثَمَّة تعارضًا بين العقل والنقل، فالقوم افتعلوا الخصومة بينهما، وهي حُصومة وهمية لا حقيقة لها، كما تقدَّم. والنتيجة: ضرورة تقديم العقل على النقل.

الرَّد على المقدمة الأولى: -وهي أن العقل هو الأساس، المركز، الأول- هذه الدعوى لا شكَّ أنها كاذبة، والحق أن العقل تابع، والنقل هو المتبوع، العقل آلة لفهم النقل وليس حكمًا على النقل، والدليل على هذا كل أدلة الربوبية وأدلة النبوة. أما المقدمة الثانية، وهي وجود تعارض بين العقل والنقل، فهي دعوى باطلة. يَرُدُّ على هذه الدعوى ويبيِّن بطلانها عدَّة وجوه:

- الأمر الأول: أن النبي ﷺ معصوم، فلا يقول على الله إلا الحق، ولا يخبر عنه إلا بالصدق، فمن ادَّعى في خبره أنه يناقض صريح المعقول

كان كاذبًا، بل لا بد أن يكون ذلك المعقول غير صريح، أو أن يكون المنقول غير صحيح، أو أنه لم يُفهم الفهم الصحيح.

• **الأمر الثاني:** أن الاستقراء التام لأدلة الشرع قد دلَّ على توافق العقل والنقل توافقًا تامًا.

• **الأمر الثالث:** أن هذه الدعوى التي تُدعى من وجود هذا التعارض انعدم فيها المثال الصادق والصورة الصحيحة، أين هو هذا التعارض؟ كلُّ ما ادَّعي فيه هذا؛ اتضح فيه مَكْمَنُ الحَلَل، كما سبق في الأمثلة السابقة.

• **الأمر الرابع:** أن أكمل الناس عقولًا بعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هم الصحابة رضي الله عنهم، ثم التابعون لهم وتابعوهم، ولم يقع في نفوسهم قط معارضة بين معقول ومنقول.

أما **النتيجة**، وهي زعم تقديم العقل على النقل فهي نتيجة باطلة، بُنيت على مقدمة فاسدة، وإذا فسدت المقدمة فسدت النتيجة كما هو معلوم.

❏ لكن أضيف إلى هذا أمورًا:

• **الأمر الأول:** الإسلام - كما تقدّم - حقيقته: الاستسلام للوحي، وإلا فلا معنى له، إذاً تقديم العقل على النقل يناقض حقيقة هذا الاستسلام.

● الأمر الثاني: كيف يقدّم المعصوم على غير المعصوم، الوحي قد دلّ الدليل القطعي على أنه معصوم، أما نتائج العقول فما أكثر الخطأ فيها! كم يحكم الإنسان بعقله، أنا، وأنت، وكل واحد من المستمعين الكرام، كم حكمنا بعقولنا، ثم تبين لنا أننا أخطأنا فيما حكمنا من بعد، بل قد لا أقول إنساناً، أنا أقول مجموعة من الأشخاص في لجنة، في مجلس، يقرّرون بعقولهم أشياء يرون صوابها، ثم يتبين لهم بعد ذلك أنهم قد أخطؤوا.

● الأمر الثالث: عقلٌ من هذا الذي سنجعله حكماً ومقدماً؟ كل طائفة، بل كل إنسان له عقل مستقل عن غيره، هذا يستحسن ما يستقبحه ذاك، وهذا يعكس القضية، إذاً العقول لا يضبطها ضابط، ولا تكاد تتفق.

الخلاصة: أن المنهج الصحيح، وأنا أثني على هذا السؤال بقضية مهمة:

ما المنهج الصحيح عند وقوع شيء من التعارض في نفس الإنسان بين العقل والنقل؟

أنا أقول: هذا يتلخّص في أمور:

- أولاً: أن يتيقن المسلم أنه لا تعارض بين العقل والنقل في حقيقة الحال، اجعل هذه القضية عقيدة راسخة في نفسك، الإشكال يبقى إشكالاً، وسيزول بعد حين إن شاء الله.
- ثانياً: أن يقصد المسلم الوصول للحق، وأن يحقق إيمانه بالله ورسوله ﷺ، ويُبشّر بعد هذا أنه سيهتدي لوجه الصواب، الله ﷻ يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ﴾ [النحل: ١٠٤] مفهوم المخالفة هنا: إن الذين يؤمنون بآيات الله يهديهم الله، القاعدة إذًا: (آمنْ تَهْتَدِ).
- ثالثاً: أن يقصد إلى عالم أو إلى جهة علمية موثوقة؛ ليعرض إشكاله عليه، وسيجد -إن شاء الله- شفاء عيِّه، «إِنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ»^(١)، وحذارٍ من أن يرخي سمعه إلى أعداء الله ﷻ الذين يُلبّسون عليه دينه.

(١) رواه أبو داود بسند ضعيف برقم (٣٣٦).

- رابعاً: وطّن نفسك على تقديم الوحي على العقل، بل وعلى كل شيء على الإطلاق، فهذا هو صريح الإيمان، اجعل قاعدتك في حياتك: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ [الأعراف: ٣].

المقدم: هل السؤال عمّا يُشكل عقلاً من أدلة الوحي ممنوع مطلقاً، البعض يخاف عندما يجد في نفسه مثل هذه الأسئلة؟

الشيخ: الجواب بالتأكيد: لا، السؤال عمّا يُستشكل عند السائل لا بأس به، وهذا قد وقع شيء قليل منه للصحابة رضي الله عنهم، ولم ينكر عليهم النبي صلى الله عليه وسلم. في «الصحيحين»^(١) من حديث أنس رضي الله عنه، لما قال رجل: يا رسول الله، كيف يُحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟

هذا الرجل استشكل أن يمشي إنسان على وجهه؛ لأن الله تعالى يقول عن الكفار: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَائًا وَبُكَائًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧] بأي شيء أجابه النبي صلى الله عليه وسلم؟ أجابه بقوله: «أليس الذي أمشاه على رجليه في الدنيا قادراً على أن يُمشيه على وجهه يوم القيامة؟».

(١) رواه البخاري برقم (٤٧٦٠)، ومسلم برقم (٢٨٠٦).

إدًّا؛ لاحظ أن النبي ﷺ أحالَه إلى قدرة الله ﷻ، وهذا الأمر من لاحظَه زال عنه إشكال كبير، ألا وهو استحضار عظمة الله ﷻ وقدرته، فمن هو على كل شيء قدير لا يُعجزه شيء.

لكني أُثنيّ ببيان أنه يشترط لهذا السؤال عن مشكلات العقول شروطاً:

- أولاً: أن يكون قصد السائل الوصول إلى الحق.
- ثانياً: أن يوجه السؤال لأهل العلم، ليس أن يوجه السؤال لزملائه في مجموعة واتس، أو أن يرسله في حساب في تويتر؛ ليُجيب كل من هبَّ ودبَّ، فيزيد الإشكال عنده، وتعمّ البلبلة بالآخرين.
- ثالثاً: أن يلزم السائل في سؤاله جانب الأدب مع الله ﷻ، ومع رسوله ﷺ، وأن يُجلَّ القرآن والحديث.

المقدم: ولعلَّ من إجلال القرآن والحديث: الامتثال التام والاستسلام بدون أن يجادل الإنسان، بعض الأحيان يبحث -مثلاً- عن الحكمة من الأمر الإلهي، أحياناً قد يشغله هذا عن الامتثال للدليل، فما تعليقكم؟

الشيخ: لا شك أن هذا من الأمر المهم، ولعلك تأذن في المستقبل أن نطرح هذا الموضوع؛ لأهميته.

المقدم: نعم شيخ صالح فلتفضل إذا عندك أسئلة معينة توجهها للمستمعين أو إحالات أو نقاط معينة.

الشيخ: السؤال الذي أظن أنه الخلاصة المطلوبة من هذا الطرح، هو: ما الذي عليّ أن أفعل إن وقع في نفسي حصول معارضة بين معقول ومنقول؟ هذا السؤال الذي أتمنى أن يُتأمل، ولعل في ثنايا ما قيل ما يكون جواباً عليه. وهناك فائدة: أتمنى ملاحظة موضعين في كتاب عظيم، وهو «الصواعق المرسلة» للإمام ابن القيم رحمته الله، ٣: ٨٢٩، وفي «مختصر الصواعق» ٣: ٨٥٣ وما بعدها، هذا أذكره لطالب فائدة يحب أن يتوسّع فيها.





الحلقة الرابعة

الإيمان بالغيب



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدم: لو نبدأ نُمهِّد لموضوع الغيب، ونحن ربما مهَّدنا في ربع الساعة الماضية، ولكن لمزيد من الإيضاح حول موضوع الإيمان بالغيب، ولا شك أنه من المواضيع التي ربما يكتنفها أحياناً بعض الغموض لدى البعض.

الشيخ: الحمد لله، وصلى الله وسلم على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

فما من شك أننا بحاجة إلى الحديث عن هذا الموضوع، لأنه - كما تقدم - في أول حلقة ثمة تحديات تواجه المسلمين، ولا سيما من الشباب؛ ومن جملتها: التشكيك في الإيمان بالغيب، وبرنامجنا هذا إنما نخاطب فيه أصالة: الشباب، فهؤلاء في هذا العصر بحاجة إلى فهم هذا الموضوع وأمثاله بالطريقة الإقناعية لا التلقينية؛ أي: أن يعلموا الحق بدليله، الجميع بحاجة: من تشوّش ذهنه، أو تسربت إليه بعض الشبهات في هذه الأبواب، أو من كان في عافية، وهذا الأصل والغالب - إن شاء الله - ليكون في حِرْز - بتوفيق الله - من التأثير بهذه المضلات التي قد تعترضه يوماً ما، وأيضاً لأجل أن يُحسّن الحوار مع من هو بحاجة إلى هداية، إذا لا ينبغي الاستهانة بهذه الموضوعات، في هذا العصر أنت - يا أخي الكريم - في ضرورة، لا

أقول في حاجة، بل ضرورة إلى أن تبني إيمانك على أصول مُحْكَمَة صحيحة، تتكسر عند عتباتها أمواج الشبهات، فخذ هذه الموضوعات على محمل الجد.

المقدم: من هذه الموضوعات موضوع الغيب، وأحياناً كلمة الغيب نفسها ما المقصود بالغيب، وما مقتضى الإيمان به؟

الشيخ: الغيب: - حفظكم الله - هو كل ما غاب عنك، قد يكون غيباً مطلقاً، وقد يكون غيباً نسبياً. حديثنا هنا عن الغيب المطلق أي: الذي لا يدركه الناس كافة، وعليه فقوله تعالى في وصف المؤمنين: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣] أي: الذين يؤمنون بما أمروا بالإيمان به ممّا هو غائب عن العيون وإن كان محصّلاً في القلوب.

والفارق بين عالمي الغيب والشهادة هو: الحِسّ، وعليه؛ فما لا يدرك بالحواس فهو عالم الغيب، وعالم الشهادة بعكسه، وبهذا نعلم أن الغيب ليس معناه المعدم الذي يقابل الموجود أو الواقع، فإن من الغيبات ما هو موجود، الله ﷻ غيب، لا نراه في الدنيا، وهو موجود سبحانه، كذلك الملائكة، والجن، والجنة والنار كلها موجودة.

الإيمان بالغيب أساس الإيمان وأصل الاعتقاد، عقيدة لا غيب فيها ليست بعقيدة في الحقيقة، لا إيمان إلا بالإيمان بالغيب، الإيمان كلمة إنما تُقال في التصديق والإقرار والطمأنينة بأمر غيبي، دون المشاهد، ومن حكمة الله ﷻ أن

جعل عالم الغيب مستورًا عن البشر؛ لتحقيق حكمة الابتلاء، والله ﷻ خلق العبد ليتلّيه؛ ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

والخلاصة: الإيمان بالغيب يقتضي أن نرجع في معرفة ما لا نعرفه إلى مَنْ عَرَفْنَا به، ثم نصدِّقه في قوله، نحن لا نعلم كثيرًا من الصفات الإلهية، لا نعلم شؤون الملائكة، أحوال الآخرة، إلى آخر ما هناك، لكننا نلنا علمًا عن ذلك ممَّنْ اطْمَأَنَّنَا إلى صدقه وسلَّمنا؛ لأنه لا يقول إلا الحق، وهو مَنْ قال الله ﷻ: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [التكوير: ٢٤] هو محمد بن عبد الله ﷺ.

المقدم: شيخنا، في القرآن الكريم نجد الكثير من الحديث عن الكثير من الغيبات، ولعلَّ هذا من تسهيل الله ﷻ على المؤمن أن يفهم مسألة الغيب، ويقرب له كثيرًا من الأمور الغيبية التي لم يشاهدها، ولم تدركها حواسه، فلو نتحدث عن هذه النقطة؟

الشيخ: ما مِنْ شك أن الله ﷻ سهَّل لعباده معرفة شيء من الغيبات والإيمان بها، وأعانهم على ذلك، ومن ذلك:

١. أنه ضرب الأمثال التي تُقَرِّب فهم المقصود، قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا

وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

٢. من ذلك أيضًا: أنه فطر عباده على إدراك القدر المشترك بين الحقائق المختلفة، لَمَّا قِيلَ: إن في الجنة فاكهة وأنهارًا مثلًا، فمن خلال ما نعقل في الدنيا فهمنا شيئًا عمّا يكون في الآخرة، مع القطع بأن الكيفيات والحقائق مختلفة؛ أي أن ثَمَّةَ قدرًا مشتركًا وقدرًا فارقًا.

المقصود: أن العقل يربط بين ما رآه وبين ما لم يره بأدنى شَيْءٍ يكون بينهما؛ لأنه بحاجة إلى أن يفهم فهمًا مجملًا عن الغيب، إذا الأشياء قد تُعلم على سبيل التفصيل، وهي المحسوسات، وقد تُعلم على سبيل الإجمال، وهي الغيبات.

مِمَّا يُسَهِّلُ على العباد الإيمان بالغيب، المكتشفات العلمية الحديثة التي يَسَّرَ الله ﷻ للعباد معرفتها، مما أَطَّلَعْنَا على وجوده حديثًا ممَّا لم يكن معلومًا قبل ذلك، سهَّلَ الله علينا الإيمان بالغيب الذي لم نطلع عليه، كيف ذلك؟ قبل عدة قُرون لو تحدث أحد عن الفيروسات بشيء مما نعلمه عنها اليوم لُعدَّ مجنونًا.

لو قائل في ذاك الوقت: إن قطرة من الماء تحوي آلافًا من الكائنات الحية، لُعدَّوه مجنونًا، أليس كذلك؟ لكن الأمر اليوم اختلف، مع أن أهل الإيمان في يقين من الغيب من قبل هذا، لكن هذا تقريب للعقل، ينتفع به المتشكِّك، هذه المكتشفات تُعين المتشكِّك أو ضعيف الإيمان، ويزداد غيره يقينًا، لماذا؟ لأن كل اكتشاف جديد لِعجائب هذا الكون يزيد اليقين بوجود عالم الغيب، لأن الناس

ترى سعة دائرة في الممكنات، وضيق نطاق المحالات، وكثرة ما يجهلون، وعليه؛ فهم سيتحققون أن كون الشيء بعيداً عن الأمور المعتادة لهم لا يقتضي أن يكون محالاً يُكذَّب به، ولذا نجد الله ﷻ يقول: ﴿سَرُّهُمْ ءِيتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

المقدم: ملَّح جميل جداً منكم فضيلة الشيخ، ولكن أحياناً قد يكون مثل هذا الباب وإن كان يفتح باباً للإيمان بالغيب وكذا، ولكن قد يكون سعة مجال الممكنات أيضاً باباً يستغله أصحاب المآرب المنحرفة ونحوها خاصة الوعي والطاقة، ونحو ذلك، ليتحدثوا مثلاً ويدخلوا الإنسان في دهاليز قد يكون في غنى عنها تحت هذا الستار الغيب وأن الممكنات كثيرة؟

الشيخ: نحن نقول: ليس المقصود هو أن تصدق بكل ممكن، نحن نقول: قضية الممكنات موجودة، ولكن لا بد في إثباتها من دليل صادق، ومسألة الطاقة وكذا سنتحدث أو لعلنا نشير إليها بعد قليل إن شاء الله.

المقدم: الجاحدون للغيب -أحياناً- يزعمون أن الإيمان بالغيب فيه تعطيل للعقل، يمكن تحدُّثنا في حلقات سابقة عن العقل وحدوده ونحو ذلك، لكنهم يدَّعون -مثلاً- أن مسألة الغيب والإيمان بشيء لم يره الإنسان، لم يحسَّ به فيه نوع من مخالفة العقل، فما جواب ذلك؟

الشيخ: الحق أن الإيمان بالغيب ليس تعطيلاً للعقل وحاشاه، بل فيه الحفاظ على العقل البشري وتوجيه له، فيُصان عن الانشغال بما لم يُخلق له، وليس في قدرته الإحاطة به، ويتفرغ لما هو في إمكانه من التفكير في المحسوسات، واستثماره الاستثمار الصحيح.

مما يؤكد هذا: أن تنظر في حال الفلاسفة الذي خاضوا بعقولهم بلا وحي إلهي في قضايا الغيب، أو التي تُسمى: (ما وراء الطبيعة)، أو: (الـميتافيزيقيا) كيف أتوا بعثرات مضحكات، بعكس حالهم لما بحثوا في القضايا الهندسية، والرياضية، ونحوها، أتوا فيها بما فيه فائدة، ولم يختلفوا كما اختلفوا في قضايا ما وراء الطبيعة.

أما الشق الثاني عن السؤال، وهو قضية أن هذا فيه مخالفة للعقل، نقول - حفظك الله - ليس في وجود الغيبات ما يضاد أحكام العقل، أعيد: ليس في أدلة الوحي مسألة غيبية يحكم العقل باستحالتها، إنما في عالم الغيب ما لا يستقل العقل بإدراكه والإحاطة به، أو ما يختلف عمّا اعتاده العقل من التفكير؛ لأنه خارج عن حدوده وإمكاناته.

المقدم: التأصيل النقلي للإيمان بالغيب واضح ومعلوم، ولكن هل يمكن تأصيل الإيمان بالغيب عقلاً، بمعنى: هل يمكن للعقل أن يؤصل مسألة الإيمان بالغيب، بحيث يمكن أن تُدفع به شبهة المنكرين للغيب، أن يجادل هؤلاء العقلانيين بلغة العقل وكذا في مواضيع غير محسوسة وغيبية؟

الشيخ: ابتداء أقول: عندنا في مسألة الغيب انحرافان وليس انحرافاً واحداً:
 ٣. الأول: هو مسألة إنكاره، أو التشكيك فيه، وهو الذي نتحدث عنه اليوم.

٤. أمّا الثاني: فهو التطلّع إلى الوصول إلى الغيب من غير طريق الوحي، كحال المتعلقين بالكهان والعرافين، وقضية الأبراج التي لها رواج في هذه الأيام، ولعل الله ﷻ ييسّر أن نخصّص حلقة خاصة في هذا الموضوع، لكن نعود إلى ما نحن فيه؛ في الحقيقة من إفرازات الحضارة الغربية وإشكالاتها العقدية التي انعكست على بعض أبناء المسلمين اليوم: الزعمُ بأن إثبات الحقائق لا يكون إلا عن طريق التجربة الحسيّة، وعليه؛ فكل ما كان خارج الحسّ فهو محل شكّ أو إنكار، ومن هذا: أمور الغيب، والنتيجة: كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه.

وجواباً على ما تفضّلت به أقول: بالتأكيد نعم، يمكن التأسيس العقلي لهذا الموضوع، وذلك بملاحظة سبعة أمور، أريدك -يا أخي الكريم- أن تربط بعضها ببعض؛ لتكامل عندك الصورة:

٥. الأمر الأول: ثمة أشياء مجهولة لنا داخل هذا العالم وخارجه، وهذه حقيقة لا تقبل الجدل، كل اكتشاف علمي - كما تقدم - في هذا الكون يكشف

عن هذه الحقيقة، اليوم فيما نحن فيه من هذه الجائحة -نسأل الله أن يعجل بزوالها- يكتشف العلماء كل يوم أشياء عن فايروس كوفيد ١٩، ويُعلِنون أنهم لا يزالون يجهلون الكثير، أليس كذلك؟ إذاً هناك أشياء مجهولة لنا.

الكون المرئي المكوّن من المادة العادية، هل يعلم أخى الكريم أنه لا يشكّل إلا نحو خمسة في المئة فقط من كُتلة العالم، بينما الباقي من هذا الكون باعتراف علماء الكون، وهو خمس وتسعون في المئة مجهول، ثمانية وستون في المئة يقولون: طاقة مظلمة، وسبعة وعشرون في المئة: مادة مُظلمة، تحيّل معي! خمسة وتسعون في المئة من تركيبة الكون البشر وتقنياتهم عاجزون عن فهمها أو رصدها حتى، نحن نعرف أننا لا نعرف، ونعترف أننا نجهل، ولا معنى لإنكار ما نجهل لمجرد أننا عاجزون عن فهمه وتفسيره، وكون الشيء بعيداً عن الأمور المعهودّة لا يقتضي أن يكون محالاً، لا سيما مع قيام الدليل على صدق المُخبر به.

٦. الأمر الثاني: العقل أضعف من أن يحيط علماً بكل شيء، وهذا ما مضى الحديث عنه في الحلقتين السابقتين.

٧. الأمر الثالث: الحواس ليست المعيار الوحيد لإثبات الأشياء، وعليه؛ فإذا كان ما أدركه الحسّ موجوداً، فلا دليل على أن ما لم يدركه الحسّ غير موجود، وهذه قضية عقلية، عدّم العلم ليس علماً بالعدم.

ثمَّ إنَّ من قال: إنَّ غير المحسوس غير موجود؛ فقد خالف العقل والحسَّ أيضًا، وسيستقُط بكلامه أُسسُ العلم التجريبي من أصله، لم يرَ أحد الجاذبية، لم يرَ أحد الذَّرة هذه المكونة للمادة، لم يرَ الإنسان أشياء كثيرة، إذاً مصادر المعرفة أكبر من أن تكون الحسَّ أو العقل، وللعقول والحواس حدود يقفان عندها، إذا كان الإنسان عاجزًا عن إدراك كيفية رُوحه مع علمه بوجودها، وعن إدراك عقله ودكائه مع أنه يدرك بهما؛ أقول: إذا عجزت بعقلك وحواسك عن إدراك ما بين جنبيك، فأنت عن إدراك ما هو أبعد أعجز.

٨. الأمر الرابع: الخبر الصادق مصدر من مصادر المعرفة، كل العقلاء

يدركون أن الأشياء تدرك بالحس وبالعقل وبالخبر الصادق أيضًا، ولا ينفك أحد قط عن قبول الأخبار، حتى الملاحدة أنفسهم، الذين يزعمون أن رُفُض الوحي؛ لأنه مجرد خبر، هم يقبلون نتائج أبحاث العلمية وفلسفية لم يجربوها، ما جربوها بأنفسهم، إنما قبلوا فيها أخبار غيرهم، الأنبياء عليهم الصلاة والسلام دلَّت الأدلة القطعية اليقينية على أنهم صادقون مُبرِّزُونَ من الكذب، والخبر الصادق واجب القبول، فإذا أخبرونا عن الغيبات وجب قبول أخبارهم، ومن أنكرها فبغير حُجَّة.

٩. الأمر الخامس: ليس في أخبار الغيب ما يضاد أحكام العقل، وهذا

كما بينته قبل قليل، يتضح أن كل الغيوب المخلوقة التي وُجدت أو

التي ستكون ممكنة في نفسها، وليست مستحيلة عقلاً، وعليه فإنكارها -أيضاً- إنكار بلا حُجَّة.

١٠. الأمر السادس: الوحي معصوم، والعقل غير معصوم، والمعصوم مقدّم على غير المعصوم، وهذا فيما للعقل فيه إدراك، فكيف بما ليس للعقل فيه إدراك كأمور الغيب، إذًا واجب أن يُسلّم للوحي فيها، ومن أقصى الوحي فإنه سيضل ويختار، منصب التحكيم لا يحتمل الفراغ والشغل، إما وحي معصوم، أو وعقل غير معصوم، فأيهما أولى بالاحتكام إليه والتسليم له عند المنصف؟ الجواب واضح، لاحظ أن الذين جعلوا الوحي الإلهي خلفهم ظهرياً لم ينفكوا في الحقيقة عن وحي غير أنه وحي بشري يحكمه الهوى، ولا عصمة له، الله ﷻ يقول: ﴿يُوحَىٰ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢] أما أهل الإيمان فمُعْتَصِمُونَ بوحي معصوم عن الخطأ.

١١. الأمر السابع والأخير: الإيمان بالغيب فطرة إنسانية، والله ﷻ كَرَّمَ بها الإنسان، ولا يدافع هذا إلا من في صدره كِبَرٌ واتبع هواه. الإيمان بالغيب مغروس في فطر الناس كافة، ولذا؛ تجدهم في كافة العصور مؤمنين بعقائد تتضمّن غيبات كثيرة، ولا حظ أن هذا قد ظهر اليوم ما يؤكدُه في الغرب في هذا العصر، وذلك من خلال اللّهث خلف الأفكار الباطنية أو

الغموصيات الحديثة، علوم الطاقة وما إليها، اعتناق الديانة البوذية، إلى آخر ما هنالك، ما سبب هذا؟ الناس بحاجة إلى ملء الفراغ الذي أحدثه الواقع المادي المعاصر والنزعات العقلانية المتطرفة، فهم يريدون سدّ حاجة النفس وإشباعها وتهدئتها باعتقادات غيبية وإن كانت -مع الأسف- خاطئة، دَعَكَ من كل هذا، انظر إلى حال الملاحدة الذين هم أعظم المنكرين للغيبات، الواقع أنهم يعيشون في غابة كثيفة من الغيوب، هو غارقون في الإيمان بالغيب كما يقال: من ساسهم إلى رأسهم.

خُذْ مَثَلًا: الملاحدة كافة يتبنّون (نظرية دارون) التي هي نظرية التطور والانتخاب الطبيعي، فدَعْنَا نَسألهم: الخلية البسيطة الأولى التي هي نواة الخلق كافة عندهم، هل رآها أحد منكم يا معشر الملاحدة، أم أنها غيب؟ عملية الانتخاب الطبيعي والانقسام للخلايا وتطورها، انتقال الأحياء من طُور إلى طُور، هل أَحْسَسْتُمْ به، هل شاهدتموه بأعينكم، أم أنه غيب؟

هم في الحقيقة مؤمنون بالغيب، ويعتمدون على الأخبار، فما الذي ينكرونه إِذَا على أهل الإيمان؟ الخلاصة: أن من سلّم بهذه الأمور السبعة أظن -والله أعلم- أنه سيسهل عليه الإيمان بالغيب، والإقناع به أيضًا.

أما بالنسبة للتناقض الذي يقع فيه هؤلاء المنكرون للغيب، فلا شك أنه حاصل، هم يكذبون بالشيء ويصدقون نظيره، الملاحدة -خُذْ مَثَلًا- يكذبون أن الله خلق

آدم من طين، ثم تناسل البشر بعده، لأنه عندهم غيب غير محسوس، لكن في المقابل يصدقون بأن أصل الإنسان خلية وُجدت قبل ملايين السنين، ثم تطورت من خلال الانتخاب الطبيعي، مع أن هذا غيب أيضاً، لكن لماذا هو مقبول عندهم، والغيب الذي يذكره أهل الإيمان مع أن مصدره وحي قرآني معصوم غير مقبول؟

خُذْ أيضاً أنهم يتناقضون في قضية أخرى، وهي: أنهم يجحدون الأخبار، ويقبلونها في آنٍ واحد، أنت إذا ناقشت أحدهم، فاستدلّ بنظرية ما، فنقول له: هل طبّقتها أنت، هل أدركتها أنت بنفسك؟ سيقول: لا، إنما قام بها فلان، ونصّ عليها علان، وهذه مناقضة للمنهج المزعوم، وصل إلى ما يعتقد عن طريق تصديق الخبر، وليس عن طريق الحس، إذا؛ لم تعيب يا أيها المُلحد على أهل الإيمان قبول أخبار الغيب، إذا كانت أخبارك تتحدث عن محسوسات، فأخبار الرسل الغيبية عن اليوم الآخر، والملائكة، ونحو ذلك أيضاً تتحدث عن محسوسات، لكنها تُحسُّ بعد الموت، فإذا كانت هذه أخباراً وتلك أخباراً، فأخبار الرسل أولى بالقبول؛ لإ قيام البراهين القطعية على صدقهم.

المقدم: شيخ صالح، هناك سؤال حلقة اليوم؟

الشيخ: نعم، هناك سؤال، ومصدر للفائدة:

أما السؤال: كيف يمكن التأصيل للإيمان بالغيب عقلاً؟ إن أحببت أن أذكّر

بهذه الأمور السبعة على سبيل الإجمال:

١٢. أولاً: ثمة أشياء مجهولة لنا داخل العالم وخارجه.

١٣. ثانياً: العقل أضعف من أن يحيط علماً بكل شيء.

١٤. ثالثاً: الحواس ليست المعيار الوحيد لإثبات الأشياء.

١٥. رابعاً: الخبر الصادق مصدر من مصادر المعرفة.

١٦. خامساً: ليس في أخبار الغيب ما يضاد أحكام العقل.

١٧. سادساً: الوحي معصوم، والعقل غير معصوم.

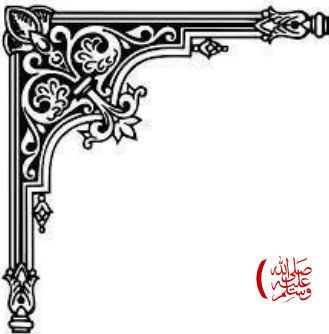
١٨. سابعاً: الإيمان بالغيب فطرة إنسانية.

أمّا الفائدة التي أتمنى أن يراجعها المستمع والمستمعة الكريمة: «تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن» للشيخ السعدي رحمته الله، هذا الكتاب العظيم، أوصي بمراجعة صحيفتين أو ثلاث منه، من (٢٣١ إلى ٢٣٣).

أيضاً موضع يسير للشيخ السعدي أيضاً في كتابه التفسير الذي هو: «تيسير

الكريم الرحمن» في ص (٤٠) عند تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣].





الحلقة الخامسة

دلائل النبوة (سيرته) صلى الله عليه وسلم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدم: حياكم الله فضيلة الشيخ في هذه الحلقة، وفي ظلِّ سيرة نبينا ﷺ، لو نبدأ بالتمهيد لهذا الموضوع، وربما البعض يتساءل: كيف تكون سيرته هو ﷺ أيضاً دليلاً على صدقه؟ أحياناً يتبادر إلى الذهن أن نأخذ الدليل على صدق الشيء من خارجه.

الشيخ: أقول: الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا، وصلى الله على الهادي المبشر النذير، والسراج المنير، نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما مزيدا، أما بعد:

فقبل أن نصل إلى جواب ما تفضلت به، بين أيدينا مقدّمات أربع:

١٩. **المقدمة الأولى:** أن بعثة الرسل ﷺ أثر من آثار اتصاف الله

سبحانه بالرحمة والحكمة؛ لأن النفوس لما كانت متعلقة بالعلم بالله، متشوّفة إليه غاية التشوف، وهي في أمسِّ الحاجة إليه سبحانه؛ كي يُرشدّها إلى الصراط المستقيم، والعقول مهّما بلغت فإنّها لا تستقل بهذا، كان من حكمة ربنا سبحانه، ومن إحسانه إلى خلقه: أن أرسل الرسل لتحقيق السفارة بينه وبين عباده، ولذا كانت النبوة روح العالم ونوره ونظامه، ولا يزيغ عنها إلا حائر خاسر، ولا نجاة للبشرية في

الآخرة والأولى إلا باتباع الرسل، فِعِثْتَهُمْ **عَلَيْهِمُ السَّلَامُ** أعظم نعم الله على الناس، ولولا ذلك لكانوا بمنزلة البهائم، بل أسوأ حالاً، فالدنيا مُظْلِمَةٌ ملعونة إلا ما طلعت عليه شمس الرسالة.

٢٠. المقدمة الثانية: التمييز بين النبي الصادق، والمتنبئ الكاذب من أسهل الأشياء؛ لأن مَنْ يُخْبِر عن نفسه أنه نبي حاله منحصرة بين أمرين لا ثالث لهما: إما أن يكون أصدق الناس وأكملهم، وإما أن يكون أكذبهم وأخبثهم.

بمعنى: الذي يأتي فيقول: أنا نبي، لا بد أن يكون أحسن الناس، أو أسوأ الناس، ولا واسط بين الأمرين، والتمييز بين هذا وهذا من أشهر الأشياء، بل هو أسهل من التمييز بين العاقل والمجنون، والعالم والجاهل.

٢١. المقدمة الثالثة: من حكمة الله سبحانه، ومن رحمته أيضاً: أنه لم يرسل رسولاً إلا وهو متصف بأعلى صفات الكمال في النوع الإنساني، ومؤيّد مع هذا بأعظم الآيات والبراهين؛ لأن الأنبياء يُبلغون رسالات الله، فلا بد أن يُقيم الله سبحانه البراهين الواضحات على صدقهم، قال سبحانه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [الحديد: ٢٥] فهي إذاً أدلة عقلية، يقينية، ظاهرة، بيّنة، لا لبس فيها ولا غموض، وإذا كان هذا في

حق كل نبي؛ فإن حظَّ نبينا محمد ﷺ من هذه الأدلة والبراهين أكبر وأعظم، قال سبحانه: ﴿يَتَأَيَّمُوا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤] إذا: براهين نبوة النبي محمد ﷺ، ودلائل رسالته كثيرة جدًا، لا تنحصر في عدد، كل آية من القرآن هي برهان على صحة رسالته، كل حديث، كل موقف من سيرته ﷺ هو عند التأمل من أعلام نبوته.

ولاحظ هنا: أن كل برهانٍ من هذه البراهين حُجَّة في نفسه، وجمعها مع بعض ربط هذا بذاك يزيدُها قوة ودلالة.

٢٢. المقدمة الرابعة: موضوع هذه الحلقة وما بعدها - بعون الله -

براهين نبوته، وآيات رسالته ﷺ.

لكن ربما يقول قائل: ما الفائدة من تقديم هذا الموضوع إلى قوم يؤمنون بنبوته ﷺ، أليس الأجدر أن يُخصَّ طرَّحه على أناس يكفرون به عيادًا بالله، أو دخلهم شكٌّ في نبوته؟

والجواب: أن هذا حكم خاطئ، نعم، الكفار لا بد أن يُبين لهم هذا الموضوع، لكن حتى نحن معشر أُمَّته، المصدقين له ﷺ، والمفدِّين له بالأنفس أقول: نحن أيضًا بحاجة ماسة إلى أن نتذكر هذا الموضوع؛ لأن استحضار هذه البراهين

يزيد المؤمن به إيماناً و يقيناً ومحبة وتعظيمًا، ويُلُغ به بتوفيق الله مرتبة الرضا به ﷺ
 نبياً رسولاً، وقد قال ﷺ: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً،
 ومحمد ﷺ رسولاً» خرّجه الإمام مسلم^(١).

المقدم: نتقل إلى البرهان الأول، سيرته ﷺ قبل النبوة، في بداية الحلقة قدّمت
 بقصة هرقل مع أبي سفيان، وكان من أسئلة هرقل الأسئلة الذكية، أسئلة عن النبي
 ﷺ عن حاله قبل البعثة، فلو نتحدّث عن سيرة النبي ﷺ قبل النبوة كبرهان من
 براهين صدق نبوته؟

الشيخ: أول تلك البراهين: سيرته ﷺ قبل النبوة. النبي ﷺ قد بلغ الذروة في
 خُلُقَتِهِ، وبهاء طَلْعَتِهِ، وفصاحة لسانه، في شرف نسبه، وعزّة قومه، عرفه قومه بقوة
 عقله، وصحه فهمه، ورجاحة بصيرته، شهدوا له بوسع كرمه، وعُلُوّ أدبه، وطهارة
 ذاته، وعظيم شجاعته، وكثير حيائه، وبالغ مروءته، وما هذه -والله- أخلاق
 كاذب مفترٍ على الله.

لو لم يقل إني رسول أما شاهدّه في وجهه ينطق؟!
 تأمّل يا أيّها الموفق، إنسان يلتزم بالصدق والأمانة أربعين سنة، لا يكذب
 فيها على أحد من الناس، لا في بيع، ولا في شراء، ولا في غيرهما، لا يخون عهداً،

ولا يُخلف وعْدًا، هو سليم في عقله، شريف في نسبه، عَلِيٌّ في قومه، شجاع في مواقفه، صاحب بذل وعطاء، وزُهد وورع ومُواساة، كيف يتصوّر مع كل هذه الكمالات أن يتخلّى عمّا هو فيه بعد أن بلغ الأربعين فيرتكب كذبة من أعظم الكذبات على وجه الأرض، ولا يفعلها إلا أحقر البشر، فيدّعي أنه رسول من عند الله يُوحى إليه، إن هذا أبعد ما يكون وقوعًا.

ولذلك أشار القرآن إلى هذا المعنى، ونَبّه كفار قريش إليه، فقال سبحانه: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٩] يعني: إنهم صغيّريهم وكبيريهم يعرفونه معرفة تامة بكل خُلق جميل، حتى كانوا يُسمّونه قبل البعثة بالأميين، فلم لا يصدّقونه حين جاءهم بالحق المبين.

وأذكّرْك - يا رعاك الله - بما قدّمته قبل قليل، دعوى النبوة لا تصدر إلا من رجلين: إما من أصدق الناس وأفضلهم، وإما من أكذبه وأخبثهم، ومحمد ﷺ كان أحسن الناس وأصدقهم وأبرّهم.

مكث ﷺ بعد النبوة ثلاث عشرة سنة، يقارع قريشًا، يدعوهم، يعيب أهّتهم، ومع هذا كله لم يتفوّه أحد منهم قطّ باّتهامه بالكذب قبل نبوته ولو في حادثة واحدة، والله لو وجدوا عليه كذبة واحدة فقط لأعلنوها في الآفاق، وفي

«الصحيحين»^(١) ما تفضّلت به من قصة هرقل مع أبي سفيان: "سألتكم: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال: فزعمت أن لا، فعرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله".

المعروف من حال الناس أنّ من لزم الصدق في صغره كان له في الكبر ألزم، ومن غصم منه في حق نفسه كان في حقوق الله تعالى أعصم.

الخلاصة: الصدق والكمال الأخلاقي قبل البعثة من دلائل النبي الصادق، ولقد شهد لنبينا محمد ﷺ بهذا: صاحب القريب، الشّانئ البعيد، إذاً هو رسول الله حقاً.

المقدم: نتحدث في هذه الحلقة عن دلائل صدق النبي ﷺ، وكنا قد تحدثنا عن البرهان الأول: سيرته ﷺ قبل النبوة، الآن -يا شيخ صالح- لو تنتقل إلى سيرته ﷺ بعد النبوة باعتبارها أيضاً برهاناً ثانياً.

الشيخ: البرهان الثاني: سيرته ﷺ بعد النبوة، وكمال الخُلُق بعد الرسالة. النبي ﷺ كان أنموذجاً أخلاقياً فريداً لا نظير له، كان الإنسان الذي استجمع الفضائل من أطرافها والمحاسن من أشاتها، حتى إن أخلاقه ﷺ أضحت مقياس

(١) رواه البخاري برقم (٧)، ومسلم برقم (١٧٧٣).

الأخلاق، كل من طالع طرفاً من سيرته أسرته عظمة نبّله ومجده، وأيقن بصدق قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

أستأذنك في أن نعطر هذه اللحظات، ونشتف الأسماع بذكر طرف من الشمائل النبوية الكريمة:

كان النبي ﷺ أصدق الناس لهجة، وألينهم عريكة^(١)، وألطفهم عشرة، كان أحفظهم للعهد، وأوفاهم بالوعد، كان دائماً البشر، سهل الخلق، كان خلقه القرآن، كان أجمل الخلق ظاهراً وباطناً، كان وجهه يتلألُ تَلَأُلُ القمر ليلة البدر، كان كلامه كله نوراً، مدخله ومخرجه نوراً، كان أكمل الخلق في نور الظاهر والباطن، كان نوره من آيات نبوته، ولذا عند الترمذي^(٢) من حديث عبد الله بن سلام **ﷺ**، قال: «**لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه، قال: فجئتُ في الناس لأنظر إليه، فلما استبنتُ وجه رسول الله ﷺ عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب**».

لو لم تكن فيه آيات مبيّنة كانت بداهته تأتيك بالخبر

(١) "العريكة: الطبيعة. يُقَالُ: فلان لَين العريكة، إذا كان سَلِساً مُطَاوِعاً مُنْقَاداً قَلِيلَ الخلاف والنُّفُور".

"النهاية في غريب الحديث والأثر ٣: ٢٢٢ مادة (ع ر ك).

(٢) برقم (٢٤٨٥).

لم يكن ﷺ سبَّابًا، ولا فاحشًا، ولا لعانًا، كان يُطيل الصمت، ويقلّ الضحك، ما كان فظًا، ولا غليظًا، ولا سخَّابًا في الأسواق.

قال أنس رضي الله عنه: «والله لقد خدَمته ﷺ سبع سنين أو: تسع سنين، ما علمتُ قال لشيء تركتُ: هَلَّا فعلتُ كذا وكذا»^(١).

كان أشجع الناس، هذا البراء بن عازب رضي الله عنه يقول: «كُنَّا إِذَا احْمَرَّ البَأْسُ نَتَّقِي بِهِ ﷺ، وَإِنْ الشَّجَاعُ مِنَّا الَّذِي يُحَاذِي بِهِ»^(٢).

كان أكرم الناس، وأجودهم بالخير، يَصِلُ الرَّحِمَ، يَحْمِلُ الْكُلَّ، يكسب المعدم، يُقْرِى الضيف، يُعِين على نوائب الحق.

قال أنس رضي الله عنه: «مَا سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ، فَجَاءَ رَجُلٌ فَأَعْطَاهُ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ، فَرَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ: يَا قَوْمَ، أَسْلِمُوا، فَإِنْ مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطَاءَ مَنْ لَا يَخْشَى الْفَاقَةَ»^(٣).

كان ﷺ أعظم الناس حياءً، حتى إنه كان أشدَّ حياءً من العذراء في خِدرِها، كان أعظم الناس تواضعًا، حتى إن الأمة من إماء المدينة لتأخذ بيده فتدور به في

(١) رواه مسلم برقم (٢٣٠٩).

(٢) رواه مسلم برقم (١٧٧٦).

(٣) رواه مسلم برقم (٢٣١٢).

حوائجها حتى تفرغ، ثم يرجع، إذا أخذ رجل يده لم يترك يده حتى يكون الرجل هو الذي يدع يده، يكره أن يقوم إليه أحد إذا دخل، كان يجالس الفقراء، يعود المساكين، يُجيب الدعوة، كان أزهّد الناس في الدنيا، لم يمل إلى نظارتها، وما ألفت إلى زخارفها، خيّر ربه بين أن يكون ملكاً نبياً، أو عبداً رسولاً، فاختار أن يكون عبداً رسولاً، كان يقول: **«ما لي وللدنيا، ما أنا والدنيا إلا كراكب استظلّ تحت شجرة ثم راح وتركها»** ^(١).

قالت عائشة رضي الله عنها: **«ما شبع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام تباعاً من خبز بُرّ حتى مضى لسبيله»** ^(٢).

كان خير رجل لأهله، وأحسن زوج لزوجته، حتى إنه كان في بيته يخدم أهله، ما عاب طعاماً قطّ، إن اشتهاه أكله، وإلا تركه، كان يلاطف الأطفال، ويرحم النساء، ويوصي بهنّ، أخبر عن نفسه ﷺ فقال: **«إني لأدخل الصلاة وأنا أريد أن أطيلها، فأسمع بكاء الصبي، فأتجوّز في صلاتي ممّا أعلم من وجد أمّه من بكائه»** متفق عليه ^(٣).

(١) رواه الترمذي (٢٣٧٧)، وابن ماجه (٤١٠٩).

(٢) رواه مسلم برقم (٢٩٧٠).

(٣) رواه البخاري برقم (٧١٠)، ومسلم برقم (٤٧٠).

بل كان يرحم الحيوان، ويعطف عليه، فأمر بإحسان الذبح، وحدّ الشفّرة، وإراحة الذبيحة، ونهى أن يُتخذ شيء فيه الروح من الحيوانات غرضاً -أي: هدفاً- لمجرد التصويب-، ونهى عن اتخاذ الدواب كراسي لمجرد الجلوس، وكان يُميل للهرة الإناء؛ لتشرب.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «كُنّا مع رسول الله ﷺ في سفر، فرأينا حُمرة، -طائر كالعصفور- معها فرخان لها، فأخذناهما، فجاءت الحُمرة تعرش، -أي: تزُفرف- فلما جاء رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ فَجَعَ هَذِهِ بَوْلِدِهَا، رُدُّوهُ وَلِدَهَا إِلَيْهَا**»^(١).

بل تجاوزت رحمته ﷺ للجُماد، فإنه ﷺ كان يخطب في مسجده -قبل صنّع المنبر- إلى جذع نخلة، فلما صنّع له المنبر، تركه، فصاح الجذع صياح الصبي؛ شوقاً إليه، فأتاه، فضمّه إليه حتى سكن، وما هو إلا قطعة من خشب، فأَيّ رحمة هذه! كان أعظم الناس عفواً وحِلماً، كان أحلم في النفار من كلِّ حَلِيم، وأسلم في الخصام من كلِّ سَلِيم، جبّذه مرّة أعراييّ جبّذة شديدة أثّرت في صفحة عنقه، فما زاد على أن التفت إليه، ثم ضحك، ثم أمر له بعطاء.

(١) رواه أبو داود برقم (٥٢٦٨).

قالت عائشة رضي الله عنها: «ما خَيْرَ رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمة الله» متفق عليه^(١).

التفقيؤ في هذه الرياض طويل طويل، وحسبنا من الربيع شذاه، ومن العُدران ما وسع الإناء.

المقدم: وهذه المواقف وهذه الصفات الجليلة لبنينا ﷺ لعلها كانت سبباً من أسباب أن يتحول العدو اللدود إلى صديق ينافح ويدافع عن هذه العقيدة، نرى - مثلاً- عكرمة ابن أبي جهل، نرى خالد بن الوليد الذين كانت آباؤهم يحاربون هذا الدين؛ أصبحوا هم من أقوى من يدافع عن دين الله ﷻ، فلعل من صفة النبي ﷺ ما أعان على ذلك.

الشيخ: لا شك في هذا ولا ريب.

المقدم: وأنتم تتحدثون أحياناً يتبادر إلى ذهني اعتراض سمعته قديماً عن مثل هذه الأمور، يعترضون -أحياناً- بقضية أن التاريخ يكتبه المنتصر، يُقال: ما وردتنا هذه السيرة إلا من أشخاص مسلمين ونحو ذلك، كيف نردّ على هذا الاعتراض؟

(١) رواه البخاري برقم (٦٧٨٦)، ومسلم برقم (٢٣٢٧).

الشيخ: لا شك أن هذا الكلام مرفوض، وغير مقبول؛ الذين عرفوا النبي ﷺ لم يكونوا المسلمين فقط، كان هناك يهود، وكان هناك نصارى، كان هناك أناس في المدينة، كان هناك أناس في الشام، كان هناك أناس في مصر، كان هناك أناس في اليمن، في البحرين... إلى آخره، والكل يُرصد حياة النبي ﷺ، وبين أيديهم كتب، بين أيديهم تراث، هناك في هذا العصر مستشرقون كثير، درسوا حياة النبي ﷺ، وفتشوا، وكانوا يحرصون على أن يجدوا الرِّلة واحدة له ﷺ، أو المنقبة السيئة وحاشاه ﷺ، وما حصل شيء من هذا قط، ولا شك أن مثل هذا التواتر العظيم شيء أكبر من أن يُشكَّك فيه، لا يمكن أن نقبل أن يأتي شخص اليوم فيشكِّك مثلاً في كرم حاتم، هذا أمر أصبح تواتراً، بل صار شيئاً أكثر من التواتر بكثير، إذاً هو قضية قطعية لا شك فيها ولا ريب.

المقدم: نستعرض أبرز الفوائد من كل ما سبق في الحديث عن البرهان الأول، وهو سيرته ﷺ قبل النبوة، وأيضاً البرهان الثاني سيرته ﷺ بعد النبوة؟

الشيخ: الذين نريد أن نصل إليه باختصار شديد: هذا هو محمد بن عبد الله ﷺ، كان عظيمًا في كل شيء، شهد له بهذا القاصي والداني، الصاحب والعدو، أفهذه أخلاق كاذب؟، أهذه خلال مفتِّر على الله؟ حاشا وكلا، بل هي دليل عظيم على نبوته عند مَنْ أنصف، هذه ثلاث وعشرون سنة من البعثة، وقبلها

أربعون سنة، عرفه فيها الناس جميعاً بأسمى الأخلاق، وأزكى السمائل، لم يُحفظ عنه فيها هَفْوة واحدة، أَفْتَكُون هذه حال متنبئ كاذب ينطوي باطنه على أشدّ الحُبث؟ لا والله، إن هذا لمن المحال.

وأختم بكلمة حسنة لابن حزم رحمته الله حيث قال ^(١): «فإن سيرة محمد صلّى الله عليه وآله لمن تدبرها تقتضي تصديقه ضرورة، وتشهد له بأنه رسول الله حقاً، فلو لم تكن له معجزة غير سيرته صلّى الله عليه وآله لكفى» هذه كلمة ثمينة: «لو لم تكن له معجزة غير سيرته صلّى الله عليه وآله لكفى» انتهى كلامه رحمته الله.

المقدم: هل من أسئلة نلخص فيها فوائد هذه الحلقة؟

الشيخ: الحقيقة الذي أريد أن نستفيده: جواب وسؤال، ما وجه كون سيرته صلّى الله عليه وآله قبل النبوة وبعدها من أعلام نبوته؟

أما الفائدة التي أريد أن نستفيد منها ونرجع إليها، أتمنى أن نقرأ كتاب «السمائل المَحْمَدية» للترمذي رحمته الله، أو مختصرة للألباني، حبّذا أن يكون لنا مع هذا الكتاب جولات، نقرأ مفرداً، أو نقرأ جماعياً في الأسرة، أظن أننا سنستفيد فائدة كبيرة، وستجد أثر هذا في نفسك بإذن الله.

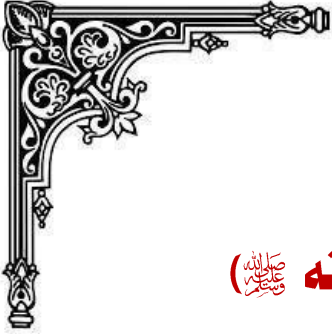
(١) "الفصل في الملل والأهواء والنحل" ٢: ٧٣.

المقدم: موضوع الحلقة القادمة وسؤالها الذي سنأخذ فيه إجابات المستمعين عبر واتساب البرنامج؟

الشيخ: لا نزال في سلسلة: "براهين نبوة النبي ﷺ"، ولعلَّ الله أن يُيسِّر فنقتطف فوائد تتعلق بِرَهَائِنِ، هما: إخباره ﷺ بالغيبيات، والأمر الثاني: المعجزات الحسية له ﷺ.

والسؤال - حفظكم الله -: اذكر واحدًا من أخباره ﷺ التي فيها ذكر لمغيبات حصلت بعد ذلك، أو معجزة حسية أثرت فيك؟





الحلقة السادسة

دلائل النبوة (معجزاته ﷺ)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدم: أهلاً بكم في هذه الحلقة الثانية التي نتطرق فيها إلى دلائل وبراهين صدق نبينا ﷺ، الأسبوع الماضي تحدّثنا عن سيرته ﷺ قبل البعثة وبعدها، وسألنا المستمعين عن معجزاته، وعن الأمور الغيبية التي حدّث بها ووقعت ﷺ، فلو نتحدث عن الغيب، لو تعرّف الغيب مرة أخرى، ونذكر المستمعين بما هو الغيب؟

الشيخ: الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فالأمر كما تفضّلتم لا يزال الحديث موصولاً بموضوع براهين نبوة نبينا محمد ﷺ، والبرهان الثالث الذي هو بين أيدينا الآن: أخباره ﷺ بالغيبات الواقعة، وتريد هنا: الغيب المطلق، وهو: ما غاب علمه عن العباد، وهو خارج عن علم الإنس والجن، وهذا ممّا اختصّ به ربنا ﷺ، ويظهر ﷺ ما شاء منه لمن ارتضى من رسول، قال ﷺ: ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (٢١) ﴿لَا مَنَ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦-٢٧].

المقدم: عندما يخبرنا النبي ﷺ مثلاً بالغيب، كيف نستدل من هذا الخبر الذي ورد عنه ﷺ على صدق نبوته؟

الشيخ: أخباره ﷺ بالغيبات المستقبلة دليل على صدقه؛ لأنها تقع كما أخبر، فالإصابة فيها مع تكرّر ذلك ومع كثرة ما أخبر به منها أمر خارق لطبيعة

البشر، ويسلم العقل حينذاك أنها أخبار متلقاة من ربه الذي يوحى بها إليه سبحانه، ولا يمكن أن يُقال هاهنا: إن ما أخبر به النبي ﷺ داخل في الحدس والفراسة؛ لأن الحدس والفراسة وإن أصاب بهما صاحبهما تارة فإنه يُخطئ تارات، وها هنا أصاب النبي ﷺ في كل ما أخبر به مما وقع مع كثرتة، فعلم أن هذا من وحي علام الغيوب ﷺ.

المقدم: السحرة -مثلاً- كانوا يُخبرون ببعض الغيب، ولكنهم يصدقون مرة واحدة، وتسع وتسعين تكون خاطئة، ربما هذا الفرق بين النبي وغير النبي من مدّعي النبوة؟

الشيخ: لا شك، هو كذلك.

المقدم: لو نأخذ بعض الأخبار التي أخبر بها النبي ﷺ من أمور الغيب أو بعض القصص في هذا الجانب؟

الشيخ: ولا شك أن التأمل في هذا المقام يريد المؤمن إيماناً و يقيناً، تأمل -يا أيها الموفق- فيما أسوق لك: كيف علم النبي ﷺ أن الروم سيغلبون الفرس بعد أن غلبوا، قال ﷺ: ﴿الْمَ ۝ غَلَبَتِ الرُّومُ ۝ فِي آدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝﴾ [الروم: ١-٤] البضع في اللغة: من الثلاث إلى التسع، فكان أن

غلبت الرومُ الفرسَ بعد سبع سنين، فهذا غيب وقع مصداقه، واستبان للجاحدين نور إشراقه، كيف علم النبي ﷺ هذا لو لم يكن يُوحى إليه من الله.

ولاحِظ أن البرهان ها هنا من جهتين:

٢٣. الأولى: من جهة الوقوع.

٢٤. والثانية: من جهة الإخبار به ابتداء.

أما الوقوع فقد وقع ما أخبر به وهو ثلاثة أمور:

١. غلبة الرومُ الفرس

٢. في المدة المحددة

٣. وفرح المؤمنون.

أما الجهة الثانية: فكونه يُخبر بهذا أصلاً؛ هذا بحجّ ذاته علم من أعلام نبوته ﷺ، لأنه لا يمكن لمُفتّرٍ عنده شيء من عقل أن يغامر هذه المغامرة، أن يحدّد ما سيقع مستقبلاً بتحديد زمني دقيق، بمعنى: هل عاقل يغامر بهدم كل ما بناه فيُخبر بأمر مستقبلي من عند نفسه أن يفتريه افتراء، لا يدري أيقع أم لا، أليس هذا دليلاً باهراً على أنه رسول من عند من يدبر الأمر، وهو بكل شيء عليم؟ وهذا إن تأمّلتَه وجدته كثيراً.

تأمل قوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧] فكان ما أخبر به كما أخبر.

تأمل قوله: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِمٍ لِتَأْخُذُواهَا ذُرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ [الفتح: ١٥] فوقع ما أخبر به.

تأمل -يا رعاك الله- إخباره ﷺ أن عمر وعثمان رضي الله عنهما سيموتان شهيدين، ثبت عند البخاري^(١) قوله ﷺ: «اثبت أحد، فإنما عليك نبئ، وصديق، وشهيدان»، فوقع ما أخبر به، كيف علم هذا لولا أنه وحي من الله.

كيف علم ﷺ أنه سيموت في مرضه الذي مات فيه، وأن ابنته فاطمة رضي الله عنها أول من يلحق به من أهل بيته، وثبت هذا في «الصحيحين»^(٢).

أخبر ﷺ كما في «صحيح البخاري»^(٣) أن ابنه الحسن بن علي رضي الله عنهما سيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين، فكان ما أخبر به من الاقتتال، ثم اجتمعت كلمة الصحابة بعد ذلك بسبب الحسن رضي الله عنه عام الجماعة، كيف علم هذا، لولا أنه وحي من الله.

(١) برقم (٣٦٧٥).

(٢) رواه البخاري برقم (٣٧١٦)، ومسلم برقم (٢٤٥٠).

(٣) برقم (٢٧٠٤).

أخبر ﷺ فيما بلغه من القرآن أن اليهود لن تتمنى الموت، فقال ﷺ: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝٩٤ وَلَنْ يَتَمَنَّوَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيهِمْ ۝٩٥﴾ [البقرة: ٩٤-٩٥].

أخبر ﷺ بما أوحاه الله إليه: أن أبا لهب، والوليد بن المُنْغِيرَة من أهل النار، ولازم هذا أن يموتا كافرين، قال عن الأول: ﴿سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ [المسد: ٣]، وقال عن الثاني: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [المدثر: ٢٦] مع أن احتمال أن يُسْلِمَ -ولو كذبًا ونفاقًا- وارد، فكان ما أخبر به ﷺ.

لم يتمنَّ أحدٌ من اليهود في زمنه الموت، لم يُسْلِمَ أبو لهب، ولا الوليد بن المُنْغِيرَة، فثبت أنه ﷺ لا ينطق عن الهوى، إنما هو مبلِّغٌ وحي عَلامِ الغيوب سبحانه. أخبر ﷺ عن ظهور الخوارج فظهروا^(١).

أخبر ﷺ عن نار تخرج من الحجاز، «لا تقوم الساعة حتى تخرج نارٌ من أرض الحجاز، تُضيء أعناق الإبل ببُصْرَى»^(٢): بلدة في الشام، فكان ما أخبر به ﷺ، فظهرت هذه النار سنة أربع وخمسين وستمئة، قال الذهبي رحمته الله^(٣): «أمر

(١) والأحاديث في ذلك كثيرة في الصحيحين وغيرهما.

(٢) رواه البخاري برقم (٧١١٨)، ومسلم برقم (٢٩٠٢).

(٣) «تاريخ الإسلام» ١٤: ٦٦٠.

هذه النار متواتر، ثم قال: وقد حكى غير واحد ممن كان يبصرى في الليل ورأى أعناق الإبل في ضوئها».

أخبر ﷺ أمّ حرام بنت ملحان رضي الله عنها أنها تغزو البحر مع الصحابة رضي الله عنهم، كما في البخاري^(١).

وهذا إن تأملت فيه ضروب من الغيبات التي وقعت، منها:

١. إعلامه ببقاء أمته بعده.
 ٢. أن فيهم أصحاب شوكة ونكاية في العدو.
 ٣. أنهم يتمكنون من البلاد حتى يغزو البحر.
 ٤. أن أمّ حرام رضي الله عنها تعيش إلى ذلك الزمان.
 ٥. وأنها تكون مع من يغزو البحر.
 ٦. وأنها لا تدرك زمن الغزوة الثانية.
- سنة أمور غيبية، أخبر بها الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ في حديث واحد، فوقعت كما أخبر.

أخبر النبي ﷺ كما في «الصحيحين»^(١): أن الطاعون لا يدخل المدينة، «على أنقاب المدينة ملائكة لا يدخلها الطاعون ولا الدجال».

الطاعون مرض معروف من قديم، عبارة عن عُدد وأورام تظهر غالبًا في مغابن البدن، ولا يكاد يَسْلَمَ مَنْ يُصاب بهذا المرض.

العلماء يقولون: هذا من المعجزات المحمّدية؛ لأن الطاعون قد أصاب آلاف المدن والقرى، وقد امتنع عن المدينة هذه الدهور الطويلات إذ لم يدخلها قط، إلى اليوم لم يدخل الطاعون إلى المدينة، وهذا ولا شكّ من أعلام نبوة نبينا محمد ﷺ. هذا - يا أيُّها الأخ الكريم - غيظ من فيض من أخبار كثيرة أخبر بها النبي ﷺ من أمور مستقبلّة فوقعت كما أخبر.

المقدم: ولعلكم - يا شيخ صالح - في الحلقة الماضية تحدّثتم عن دلائل صدق النبي ﷺ، وذكرتم أنها واضحة وجلية، كلها لما تُقارن مثل هذه الأشياء بمن يدّعي النبوة مثل: مُسيلمة، ونحوه، لا يوجد أبدًا أي مجال للمقارنة - وكما يُقال: بين الثرى والثريا -، وكان ﷺ أصلًا من قبل بعثته يُسمى الصادق المصدوق، فكل حاله ﷺ يؤكّد هذا.

الشيخ: لا شكّ بذلك ولا ريب.

المقدم: تحدّثتم عن المعجزات أو الأمور الغيبية المستقبلية، لكن ماذا عن الأمور الماضية، النبي ﷺ مثلاً أخبرنا عن بعض القصص للأمم السابقة ونحو ذلك أيضاً ممّا ورد في القرآن الكريم، كيف يكون هذا له علاقة بمعجزاته ﷺ؟

الشيخ: الشّأن في الغيبات الماضية مثل الشّأن في الغيبات المستقبلية، أخباره ﷺ بها دليل على نبوته أيضاً، أخبر النبي ﷺ عن غيوب وقعت أو لا تزال واقعة من أخبار الجن، والملائكة، وخلق الإنسان، خلق السماوات والأرض، قصص الأنبياء قبله، إلى غيرها، هذا عند المنصف دليل قاطع على أنه تلقّى هذا عن ربه ﷻ، ويستحيل أن تكون هذه الأخبار افتراء من عنده، وحاشاه ﷺ، فإنها أخبار كثيرة دقيقة وتفصيلية، ولا تناقض فيها ولا اختلاف، ولم يعارضه فيها معارض في وقته أو بعده، ولو كان تلقّاها عن أحد؛ - كأهل الكتاب مثلاً- لاحتاج في جمع قليل منها أن يرحل سنين عدداً شرقاً وغرباً، أن يمتلك مكتبة ضخمة يستقي منها، وكل هذا لم يكن.

٢٥. مُكْنَهُ ﷺ كان في مكة عامة حياته قبل البعثة، ولم تكن دار علم ولا مكاتب.

٢٦. وأمر ثانٍ: وهو أنه ع كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب.

٢٧. وأمر ثالث: وهو أن العقل يقضي استبعاد أن يكون ما أخبر به تقوُّلاً من عند نفسه؛ لأنه سيغامر حينها مغامرة كبيرة في نجاح

دعوته، إذ لا يأمن أن يطلع علماء أهل الكتاب أو غيرهم على ما يذكره، فيكذبونه، فتسقط دعوته، أوليس هذا دليلاً على أنه رسول من عند الله حقاً؟ بلا والله، اللهم صلّ وسلم عليه تسليماً كثيراً.

المقدم: الحلقة الماضية وجّهتهم سؤالاً للمستمعين الكرام عن أبرز أو معجزة من معجزاته ﷺ، أو أمر مستقبلي غيبي حدث به ﷺ، ووقع بعد ذلك.

المقدم: نتقل إلى البرهان الرابع، وهو: المعجزات التي أجراها الله على يد نبيه ﷺ، لو نذكر شيئاً منها، وكيف تدل على صدق نبوته ﷺ؟

الشيخ: الآيات الحسية التي أجراها الله ﷻ على يدي نبيه محمد ﷺ وهي المُسمّاة عند أهل العلم بالمعجزات، وقد سُمّي في كتاب الله ﷻ وسُنّة نبيه ﷺ بالآية، والبرهان، والبيّنة، والمقصود بها: الآيات الخارقة للعادة التي يُظهرها الله ﷻ على يد رُسله شهادة بصدقهم، ولا شكّ أنّها موجبة لتمام الإذعان، فإنّ اقتران المعجزة بدعوى النبوة يوجب علماً ضرورياً أن الله أظهرها لصدقه، كما أن من قال لمن أرسل: إن كنت أرسلتني إلى هؤلاء فقم واقعد، ففعل ذلك، هنا علمنا بالضرورة أنه فعل ذلك لأجل تصديقه.

المقصود: أن هذه المعجزات هي آيات باهرة، وخوارق دامغة، وأمر كبير، وبرهان مُنير، ما طرّق العالم مثله، وليس له معارض البتّة، وما من شكّ أن حظّ

نبينا محمد ﷺ من المعجزات أعظم من غيره من الأنبياء، وفي كلام بعض أهل العلم أنه ﷺ أعطى ثلاث آلاف معجزة ومُعْجَزَات خَاتَمُ الْأَنْبِيَاء كَثِيرَةٌ تَجَلَّ عَنْ إِحْصَاء (١) ولا غُرُو فإنه خاتم النبيين ﷺ، ورسالته هي الباقية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

من تَلُكُمُ الْآيَات: انشقاق القمر، وهو من الآيات العظيمة التي أُعْطِيهَا النَّبِيُّ ﷺ، ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١].

وعن أنس رضي الله عنه: «أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يُريهم آية، فأراهم القمرَ شَقَّتَيْنِ، حتى رأوا جِراءَ بينهما» والحديث في البخاري (٢).

وأحاديث انشقاق القمر متواترة تواتراً معنوياً، رواها جمع من الصحابة رضي الله عنهم، ولا شك أن هذه آية عظيمة، لا يكاد يعدلها شيء من آيات الأنبياء، ولذا اختصَّ بها سيدهم ﷺ.

(١) العقيدة السفرانية (الدرة المضية في عقد أهل الفرقة المرضية) ص ٨٤.

(٢) برقم (٣٨٦٨).

ومن معجزاته ﷺ: تسبيح الطعام بين يديه، فقد أخرج البخاري^(١) عن ابن مسعود رضي الله عنه وهو يحكي شيئاً مما رآه مع النبي ﷺ، فقال: «ولقد كُنَّا نسمع تسبيح الطعام وهو يُؤكل».

ومن آياته ﷺ: إخبار الشاة المشوية التي كانت على مائدته ﷺ وأصحابه أنها مسمومة، فعند أبي داود^(٢): أن يهودية أهدت له ﷺ بخير شاة مسمومة، فقال ﷺ: «ارفعوا أيديكم، فإنها - يعني: الشاة - أخبرتني أنها مسمومة».

ومن تلکم البراهين: نبع الماء بين أصابع النبي ﷺ، فقد أخرج الشيخان^(٣)، عن أنس رضي الله عنه؛ أن صلاة العصر قد حانت، فلم يجد الناس ماء، فأُتي رسول الله ﷺ بإناء، فوضع يده فيه، قال أنس رضي الله عنه: فجعل الماء ينبع من بين أصابعه ﷺ، فتوضأ القوم، فقيل له: كم كنتم؟ قال: ثلاث مئة، أو زهاء ثلاث مئة. وجاء نحو هذا عن غيره من أصحاب النبي ﷺ.

ومن ذلك: معجزة تكثير الطعام بين يديه ﷺ، وهذا قد تكرر، لما دعاه جابر رضي الله عنه إلى بيته يوم الخندق على عنز صغيرة، وشيء من الشعير، فدعا أهل الخندق

(١) برقم (٣٥٧٩).

(٢) برقم (٤٥١٢).

(٣) رواه البخاري برقم (٣٥٧٢)، ومسلم برقم (٢٢٧٩).

من المهاجرين والأنصار، وأكلوا جميعاً، والحديث في «الصحيحين»^(١)، وذكر أن الطعام لما انصرفوا كان على حاله.

تكرّر هذا أيضاً كما في «الصحيحين»^(٢) في قصة أبي طلحة رضي الله عنه معه، تكرّر هذا أيضاً في «الصحيحين»^(٣) من حديث أمّ سليم رضي الله عنها معه أيضاً رضي الله عنه ومع أصحابه، وكانوا زهاء ثلاث مئة من الصحابة.

من تلك الآيات أيضاً: انقياد الشجر له ﷺ، فقد أخرج مسلم في «صحيحه»^(٤) عن أنس رضي الله عنه، أنهم ساروا مع رسول الله ﷺ حتى نزلوا وادياً أفيح، فذهب رسول الله ﷺ يقضي حاجته، قال: فاتبعته بإداوة من ماء، فنظر رسول الله ﷺ فلم يرَ شيئاً يستتر به، فإذا شجرتان بشاطئ الوادي، فانطلق رسول الله ﷺ إلى إحداهما، فأخذ بعُصْن من أغصانها فقال: «**انقادي عليّ بإذن الله**» فانقادَت معه كالبعير المخشوش الذي يُصانع قائده، حتى أتى الشجرة الأخرى فأخذ بعُصْن من أغصانها، فقال: «**انقادي عليّ بإذن الله**» فانقادَت معه كذلك، حتى إذا كان بالمنصف ممّا بينهما لأُمّ بينهما، -يعني:

(١) رواه البخاري برقم (٤١٠٢)، ومسلم برقم (٢٠٣٩).

(٢) رواه البخاري برقم (٣٥٧٨)، ومسلم برقم (٢٠٤٠).

(٣) رواه البخاري برقم (٣٥٧٨)، ومسلم برقم (٢٠٤٠).

(٤) رواه مسلم برقم (٣٠١٢).

جمعهما - فقال: «**التمنا عليّ بإذن الله**» فالتأمتا، ثم ذكر ﷺ أن الشجرتين افترقتا، فقامت كل واحدة منهما بعد ذلك على ساق.

لَمَّا اشْتَكَى عَلِيٌّ ﷺ عَيْنَيْهِ فِي غَزْوَةِ خَيْبَرَ، بَصَقَ فِيهِمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِهِ مِنْ وَجَعٍ. والحديث في «الصحيحين»^(١).

لَمَّا كُسِرَتْ سَاقُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَتِيقٍ ﷺ، مَسَحَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَكَأَنَّهُ لَمْ يَشْتَكِهَا قَطُّ. والحديث في «البخاري»^(٢).

هذا - يا رعاكم الله - غَيْضٌ مِنْ فَيْضٍ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ، وَالْمُعْجَزَاتِ الْبَاهِرَاتِ، وَلَيْسَ يَخْفَى أَنَّ هَذِهِ الْمُعْجَزَاتِ تَدُلُّ دَلَالَةً قَاطِعَةً عَلَى صَدْقِ مَنْ جَرَتْ عَلَى يَدِهِ مِنَ الرُّسُلِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى السُّنْنَ الْكُونِيَّةَ فِي مَخْلُوقَاتِهِ تَصْدِيقًا لِنَبِيِّهِ دَلَّ ذَلِكَ قَطْعًا عَلَى صَدْقِ ذَلِكَ النَّبِيِّ، وَعَلَى إِقْرَارِ اللَّهِ لَهُ فِي دَعْوَى النُّبُوَّةِ، وَتَأْيِيدِهِ فِيهَا، وَهِيَ دَلَالَةٌ ضَرُورِيَّةٌ لَا تَحْتَاجُ إِلَى نَظَرٍ، وَتُورِثُ يَقِينًا بِمَدْلُولِهَا فَوْرَ الْعِلْمِ بِهَا، وَقَدْ تَوَاتَرَتْ بِهَا الْأَخْبَارُ وَاسْتَفَاضَتْ، وَتَلَقَّتْهَا الْأُمَّةُ جِيَالًا بَعْدَ جِيلٍ، وَخَلَقًا عَنْ سَلَفٍ.

المقدم: مَنْ يَبْقَى فِي قَلْبِهِ شَكٌّ بَعْدَ كُلِّ هَذِهِ الدَّلَائِلِ الْوَاضِحَةِ فَهُوَ بِالتَّأَكُّدِ مُحَرَّمٌ، وَشَقِيٌّ، وَرَبَّمَا رَأَيْنَا عَدَدًا مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُسْتَشْرِقِينَ، الْمُنْصَرِّينَ، سَابِقًا أَيْضًا

(١) رواه البخاري برقم (٢٩٤٢)، ومسلم برقم (٢٤٠٦).

(٢) برقم (٤٠٣٩).

الملاحظة الجُدد ونحوهم، البعض قد يُلبّس على أبناء المسلمين، ويسأل: كيف لنا أن نتحقّق من صدق كل هذه الأخبار، خاصة أنّها نُقلت إلينا ولم ربما نراها بأعيُننا.

الشيخ: ولا شك أن السؤال في محله، والمساحة التي بين أيدينا لا تسمح بالاستفاض، لكني سأجيب أربعة أجوبة مختصرة:

٢٨. **الجواب الأول:** مَنْ يُشكِّك أو ينفي هذه الأخبار يُقال له: هل

تؤمن بوجود الرب الخالق القادر ﷻ أم لا؟ فإن كان لا يؤمن بوجوده فلا معنى للنقاش معه في معجزات الرسل، وهو لا يؤمن بمن أرسلهم، المناظرة مع هذا إنما تكون في وجود الله أولاً، فإذا آمن بوجوده سبحانه؛ سهّل عليه بعد ذلك التصديق بالمعجزات، يعني: سيُسّهّل عليه أن يؤمن بأن مَنْ خَلَقَ القمر من العدم لن يُعجزه أن يجعله شطرين مثلاً، أما إن كان يؤمن بوجوده سبحانه مثل أن يكون يهودياً أو نصرانياً أو ما شاكل ذلك، فنقول له: أنت تؤمن بالمعجزات التي جرّت على يد موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام، وما جرى على يد محمد ﷺ من هذا الجنس، بل ثبوت ما جاء في شرعنا أقوى ممّا في كُتُبكم بلا ريب.

خلاصة هذا الوجه: أيُّ تشكيك في آياته ﷺ يستلزم التشكيك في آيات

غيره من الأنبياء من باب أولى.

٢٩. **الجواب الثاني:** يُقال للمكذِّب أو المتشكِّك: هل تصدِّق بالأخبار الصادقة أم لا؟ إن قال: لا، فلا شكَّ أنها سقطت مكالته؛ لأنه مباحث، وإن قال: نعم، قلنا له: المعجزات النبوية أخبار صادقة، فيلزمك التصديق بها، فإن قال: وما يُدريني أنها صادقة؟ قلنا: كيف تُثبت أي خبر صادق؟ لا يملك حينها إلا أن يقول: صدق الخبر ينبني على صدق مَنْ أخبر به، حينها نقول: قد تحقَّقنا من صدق رُواة أخبار المعجزات النبوية، وعندنا الدليل على صدقهم، ومستعدّون لإثبات هذا، فما بقي إلا أن تتجرّد للوصول إلى الحق، وتنظر نظرًا منصفًا.

خلاصة هذا الوجه: لا يمكن إثبات صحة أيّ خبر بطريق إلا ويمكن إثبات أخبار المعجزات النبوية بطريق مثلها، أو نظيرتها، أو أقوى منها.

٣٠. **الجواب الثالث:** لا يناقش في صدق المعجزات النبوية إلا مَنْ يروي الكلام جُزأً، وهو جاهل بمقاييس نقد الأسانيد والمتون عند علماء المسلمين، نحن -أستاذ عبد الله- لا نتحدّث عن أخبار تاريخية مُرسلة لا زمام لها ولا خطام، أو أنها تأثر بأهواء أو مطامع أو مُيول سياسية، أو ما شاكل ذلك، الأمر عندنا مختلف تمامًا، هاهنا منهج علمي دقيق تميّز به المسلمون عن سائر الأمم بتمحيص التّقلّة،

وتوثيق المصادر، والمقارنة بين الروايات، والترجيح بينها، كُتب في هذا آلاف المجلدات على مَرِّ العُصور، ورائد المسلمين في هذا الوصول إلى الحق بلا مُداهنة، **بدليل**: أنك تجد أنه ضَعَفَ مئات الرواة ورُدَّتْ مروياتهم مع أن فيها أشياء فيها مناقب ومعجزات نبوية، لكنها عندنا مُردودة لماذا؟ لأنها لم تنجح في الامتحان الصارم لقبُول المرويات.

خلاصة هذا الوجه: ادرس أولاً المنهج النقدي للروايات في الإسلام، ثم

ناقش بعد هذا.

٣١. **الجواب الرابع والأخير:** المعجزات النبوية بأنواعها أخبارها متواترة

تواتراً معنوياً، رواها رواة كثيرون، يستحيل تواطؤهم على الكذب، إذاً هي تفيد العلم الضروري، والتشكيك في المتواترات نوع من السَّفَسطة، وإفساد للعلوم والمعارف، ولي أن أقول لمن يُشكِّك في المعجزات النبوية على سبيل المعارضة الجدلية: ما تقول -يا أيُّها المُشكِّك- إن قلتُ لك: أن أنكر وجد من تعظّمهم وثني عليهم فضلاً عن ثبوت آرائهم، أنا أنكر وجود أفلاطون، وأرسطو، بل ووجود نيوتن، وأقول: نسبة قوانين الحركة الثلاثة له نسج خيال، أنا أنكر وجود دارون، ونظرية الطور افتراء عليه، أنا أشكُّ في وجود

آينشتاين، وإضافة نظرية نسبية العامة إليه كذب في كذب، لا تقل لي توجد صور ورسومات؛ لأني سأقول حنيها: ولم لا تكون مكذوبة مفتركة، والتاريخ يكتبه المنتصرون كما تقولون، فإن قلت: هذا عبث وسفسطة، أقول: نعم، هذا صحيح، ما قلته عبث وسفسطة، وكذلك إنكار معجزات نبينا محمد ﷺ، فإن قلت: لكن وجود من ذكرت ونظرياتهم مقطوع بها، قلت: نعم، وكذا المعجزات النبوية، فإن قلت: نحن نملك الأدلة على ثبوت ما تُشكك فيه، قلت: نعم، وكذلك نحن نملك الأدلة على ثبوت ما أنكرت.

خلاصة هذا الوجه: أي دليل يُثبت به منكرو المعجزات صحة أي خبر فيمكن الاستدلال بنظيره في إثبات المعجزات النبوية.

الخلاصة: أنا أريد إن كان للمستمعين الكرام والمستمعات الكريمات من يُحب أن يتوسّع في هذا الموضوع وهو في غاية الأهمية، ويزيد الإيمان زيادة عظيمة أن يقرأوا موضعاً في غاية الأهمية في البداية والنهاية، وهو طويل، لكنه من أحسن المواضع في بيان الإخبار بالغيبات والمعجزات، أحيلك -يا رعاك الله- إلى «البداية والنهاية» لابن كثير، طبعة هجر، ٨: ٥٣٩ - ٩: ٣١٠، من أحسن المواضع في بيان ما بيّناه أو اختصرناه في هذه الحلقة، ذاك الموضوع الذي أحيلك إليه.



الحلقة السابعة

دلائل النبوة (أحواله في دعوته وكمال شريعته ﷺ)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدم: حياكم الله فضيلة الشيخ، وهذا الموضوع الكبير الذي نواصل من خلاله التطواف في المواضيع الكبيرة حقيقة المرتبطة بالتفكير والمنهج والشرعية الإسلامية، وكنا في الحلقات الماضية قد تطرّقنا لبراهين من براهين صدق النبي ﷺ برفقتكم كان البرهان الأول: هو سيرته ﷺ قبل البعثة، ثم سيرته بعد البعثة برهانين، وبعد ذلك تحدثنا عن معجزاته ﷺ، وتحدثنا عن المعجزات التي وقعت على يديه، وأيضًا التي أخبر بها من أمور الغيب.

اليوم نواصل -إن شاء الله- البراهين الأخرى من براهين صدق النبي ﷺ، ولكن نريد في البداية أن نتحدث عن معرفة كمال الشريعة ومحاسنها، وعن أثر ذلك في الإيمان، وفي نفس الوقت أيضًا الانبهار بالمناهج الأخرى وبالأديان الأخرى، وأثر ذلك أيضًا على الإيمان سلبيًا وإيجابيًا؟

الشيخ: الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وأتباعه بإحسان،

ما من شك أن ما تفضّلت به -حفظك الله- موضوع جدير بالكلام فيه، ولكن إن أذنت لي أن أؤخر الكلام في هذا إلى نهاية البرهان السادس؛ لنقدّم بين يديه البرهان الخامس، ثم نُعرّج بعد ذلك إلى ما تفضّلت به.

المقدم: إذا نبدأ مباشرة بالدخول في البرهان الخامس من براهين نبوة النبي ﷺ، وهو كما أخبرتنا في ختام الحلقة الماضية: أحوال النبي ﷺ في دعوته، لو نتحدث عن هذا؟

الشيخ: أقول - حفظك الله -: إن أحوال النبي ﷺ في دعوته تشهد بأنه رسول من عند الله حقاً، ويمتنع معها امتناعاً تاماً أن يكون مدّعياً لهذا الشرف كذباً، وحاشاه ﷺ، وهذه الأحوال والمواقف كثيرة جداً، وسأجتزئ منها - بعون الله - ما يسمح به الوقت، وهو سبعة مواقف، وحسبنا من الماء - كما قيل - ما يبلّ شفاهنا:

١. **الموقف الأول:** كونه ﷺ عاش متواضعاً، زاهداً في الدنيا، متقللاً منها، كان يخُصِف نغله، ويحلب شاته، ويرقع ثوبه، لم يترفع لكونه مشرفاً بالنبوة، مكرماً بالرسالة، كان يأكل ما وجد، وربما بات طاوياً من الجوع، لا يجد شيئاً يأكله، ولربما رُبط عل بطنه الحجر من الجوع، كان يمرُّ عليه ثلاثة أشهر لا يُوقَد في بيته نار لطعام، لم يشبع من خبز الشعير حتى مات، وإذا جاءه مال فرّقه من ساعته، ولم يستبقِ منه شيئاً، قال جابر ﷺ: كما في «الصحيحين»^(١): «ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قط فقال لا»، ولما مات

(١) رواه البخاري برقم (٦٠٣٤)، ومسلم برقم (٢٣١١).

ﷺ لم يُخْلَف من الدنيا شيئاً يُذكر، بل كانت درعُه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعاً من شعير.

السؤال الآن: أهذه حال مدّعٍ للنبوة؟ المعقول من حال الناس امتناع هذا، فما الذي يمنعه من أن يجمع الكنوز، ويُنَمِّي الأموال، ويَبنى القصور، ما الذي يطمع فيه مُدَّعي النبوة الكاذب سوى المجد الدنيوي، والتنعُّم بالملذَّات؟! كان النبي ﷺ أبعد شيء عن هذا؛ لأنه رسول من عند الله حقاً.

٢. **الموقف الثاني:** أنه ﷺ لم يدع لأهل بيته إرثاً درهماً فما فوقه، قال ﷺ: «**لا نُورث ما تركنا فهو صدقة**»، «**إنما يأكل آل محمد من هذا المال**» يعني: مال الله، «**ليس لهم أن يزيدوا على المأكَل**»، والحديث في «الصحيحين»^(١).

لم يُوصِ ﷺ بخلافة ولا حكم، مع أن عمّه موجود، وأبناء عمّه موجودون، أترى مُدَّعيًا كاذبًا يرضى بأن يعيش أهله على الكفاف، وهو قادر على أن يجعلهم في أعلى المراتب الدنيوية؟ أليس هذا دليلاً على أنه رسول من عند الله حقاً؟

٣. **الموقف الثالث:** أنه ﷺ كان ينكر كلما يُعارض أصل دعوته من توحيد الله وعبادته وحده، حتى ولو كان ذلك رافعاً من منزلته في الميزان الدنيوي، لما

(١) رواه البخاري برقم (٣٧١١)، ومسلم برقم (١٧٥٨)، واللفظ للبخاري.

قال له رجل: يا محمد يا خيرنا، وابن خيرنا، ويا سيدنا وابن سيدنا، قال
 ﷺ: «قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَجِرْكُمْ الشَّيْطَانُ، أَنَا مُحَمَّدٌ عَبْدُ اللَّهِ
 ورسوله، مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي اللَّهُ»^(١).
 لما قال له رجل: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتُ، قال ﷺ: «جَعَلْتَنِي لِلَّهِ عِدْلًا، بَلْ مَا
 شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ»^(٢).

كَسَفَتْ الشَّمْسُ فِي عَهْدِهِ ﷺ يَوْمَ مَاتَ ابْنُهُ إِبْرَاهِيمَ، فَمَاذَا قَالَ النَّاسُ؟ قَالُوا:
 كَسَفَتْ الشَّمْسُ لِمَوْتِ إِبْرَاهِيمَ، مَاذَا كَانَ رَدُّهُ ﷺ: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ
 مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمَا فَادْعُوا اللَّهَ
 وَصَلُّوا حَتَّى يَنْجِلِي»^(٣).

إِنَّهُ لَوْ كَانَ ﷺ مُدَّعٍ لِلنَّبُوَّةِ وَحَاشَاهُ؛ لَفَرِحَ بِهَذِهِ الْحَادِثَةِ، وَأَحْسَنَ اسْتِغْلَالَهَا بِمَا
 يَزِيدُهُ رَفْعَةً فِي أَعْيُنِ الْجُهَالِ، لَكِنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ الْمُبَلِّغُ لِأَمْرِهِ.

٤. الموقف الرابع: أَنَّهُ ﷺ كَانَ يُحَرِّسُ مِنْ أَصْحَابِهِ، حَتَّى نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى:
 ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] فقال لحراسه: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ،

(١) رواه أحمد برقم (١٣٥٩٧).

(٢) رواه أحمد برقم (٢٥٦١).

(٣) رواه البخاري برقم (١٠٦٠).

انصرفوا، فقد عصمني الله»^(١). هذا وهو الذي اتفق المشركون واليهود والنصارى والمجوس على عداوته وبُغضه والترُّص به، فلم يُبالِ بأحد؛ ثقة بالله، بل أخبر الجميع أنه لا يصل إليه أعداؤه، هل لو لم يكن نبياً ﷺ حقاً سيفعل هذا؟ إن العقل ليدلّ دلالة صريحة على أنه لا يفعل هذا إلا صادق في دعواه النبوة.

٥. **الموقف الخامس:** أن القرآن العظيم الذي بلغ الغاية في الفصاحة والبلاغة والبيان، قد جاء به النبي ﷺ وهو يقول: هذا كلام الله، ليس لي فيه إلا البلاغ ثم البيان، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا آتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَنِيعَ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: ١٥]، لو كان مُدَّعِيًا وحاشاه ﷺ؛ لنسب القرآن إلى نفسه، فهو أبغ في الفخر، وعُلو الرتبة في أعين الناس، وهل يطلب المدّعي الكذاب إلا الفخر وعُلو المنزلة عند الناس؟ أو على الأقل ادّعى أنه يتلقى القرآن مباشرة من الله لا بواسطة جبريل، إن هذا لكافٍ لمن أنصف في الدلالة على أنه الصادق المصدوق ﷺ.

٦. الموقف السادس: أنه تكرر في القرآن الكريم وصف النبي ﷺ بأنه عبد خاضع لربه، وبشر لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئاً، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال سبحانه: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

لو كان مدّعياً للنبوة ﷺ وحاشاه لم لم يدّع لنفسه درجة أرفع، ورتبة أكبر؟! ٧. الموقف السابع والأخير: أن الوحي كان يتأخر عنه في وقت شدة حاجته إليه، في حادثة الإفك مثلاً، تلك الحادثة التي اشتد فيها الكرب برسول الله ﷺ وبالمسلمين، وبلغت القلوب الحناجر، شهر أو أكثر والمنافقون يرجفون ويخوضون في عرضه ﷺ، فماذا كان يمنعه لو كان مدّعياً للنبوة متقوِّلاً للوحي من عند نفسه، ما الذي يمنعه أن يقول في ابتداء الأمر كلمة حاسمة يذُبُّ بها عن عرضه، وتنقطع بها ألسنة المتخريصين، أليس من السهل لو كان كاذباً وحاشاه؛ أن يخرج على الناس بكلمة ينسبها إلى السماء، يُعلن بها براءة زوجه من أول يوم؟ لكن هذا لم يحدث؛ لأنه ﷺ لا ينطق عن الهوى، وما كان ليذَر الكذب على الناس ويكذب على الله، فاللهم صلِّ وسلم عليه وعلى آله وصحبه.

المقدم: اللهم صلِّ وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، شيخ صالح، نحاول أن نلخص من السبع النقاط هذه درسًا نستفيد منه، ونعلمه لأبنائنا!

الشيخ: ما من شكٍّ أن الدرس المستفاد من كل ما سبق أن المواقف والأحداث الكثيرة في دعوته ﷺ يقطع معها النظر المنصف بنتيجة مفادها استحيل أن تصدر هذه المواقف من مُدَّعٍ للنبوة، ولذا أجلُّ نظرك -أيُّها الموفق- في سيرته، سنَّته، ومواقف حياته، الجوانب الأسرية، والدعوية، والسياسية وغيرها، تأملها بوعي، وستُنادي بك كل صحيفة منها، لا يمكن أن يكون محمد بن عبد الله إلا نبيًّا مصطفى، ورسولًا مجتبي، ﷺ تسليمًا.

المقدم: قبل أن نتقل إلى المحور الثاني الذي هو: الجمال وحُسن الشريعة الإسلامية، وهو السؤال الذي ختمتم به الحلقة الماضية، وجهنا هذا السؤال لمستمعي ومستمعات البرنامج، واستقبلنا إجاباتهم.

المقدم: ولو نتقل إلى البرهان السادس من براهين صدق نبينا ﷺ، وهو كما أوضحتم: كمال الشريعة ومحاسنها، وأيضًا ذكرتم أن هذا الموضوع شيق وجميل، فماذا لدينا في هذا الموضوع؟

الشيخ: لستُ أخفيك -أخي الكريم- أنني في حيرة، فمن أين أبدأ! أمامي بحر مترامي الأطراف، لو لم يكن للنبي ﷺ برهانًا على صدق نبوته إلا هذه الشريعة

السَّمْحَةُ البِيضَاءُ، الَّتِي اسْتَنَارَتْ بِهَا الدُّنْيَا وَابْتَهَجَتْ، وَسَعِدَ مَنْ عَاشَ فِي ظِلِّهَا، لَوْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا هَذِهِ لَكَفَى بِهَا دَلِيلًا، دِينَ الْإِسْلَامَ أَكْمَلَ الْأَدْيَانِ، وَأَفْضَلَهَا، وَأَعْلَاهَا، وَأَجَلَّهَا، حَوَى مِنْ مَحَاسِنِ، وَالْجَلَالِ، وَالْجَمَالِ، وَالْكَمَالِ مَا يَقْتَضِي إِذْعَانُ الْمُنْصَفِ بِالشَّهَادَةِ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ بِالْحِكْمَةِ الْمَطْلُوقَةِ، وَلِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنَّهُ رَسُولُهُ حَقًّا، وَأَنَّهُ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ.

هَذِهِ الْمَحَاسِنُ مُحَاسِنٌ عَامَةٌ فِي أَصُولِ الدِّينِ وَفُرُوعِهِ، وَمَسَائِلُهُ وَدَلَائِلُهُ، فَأُضْحِي كَثِيرًا بِسَعَادَةِ الدَّارَيْنِ، وَصَدَقَ اللَّهُ إِذْ قَالَ: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

دِينَ الْإِسْلَامِ أَمْرٌ بِكُلِّ حَقٍّ، وَاعْتَرَفَ بِكُلِّ صَدَقٍ، نَدَبَ إِلَى مُحَاسِنِ الْأَعْمَالِ، وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَمَصَالِحِ الْعِبَادِ، عَقَائِدُهُ تَزُكُّو بِهَا الْقُلُوبَ، وَأَخْلَاقُهُ تَتَهَدَّبُ بِهَا الْأَرْوَاحَ، وَأَعْمَالُهُ تَصْلَحُ بِهَا الْأَحْوَالُ، جَاءَ بِإِصْلَاحِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا، وَالْجَمْعَ بَيْنَ مَصْلَحَةِ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ، وَالْفَرْدِ وَالْجَمَاعَةِ، وَأَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ. أَصْلُهُ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ، وَثَمَرَتُهُ السَّعْيُ فِي كُلِّ مَا يَجِبُهُ وَيَرْضَاهُ، حَثٌّ عَلَى الْعَدْلِ، وَالْخَيْرِ، وَالرَّحْمَةِ، زَجْرٌ عَنِ الْبَغْيِ، وَسِيءُ الْأَخْلَاقِ، نَبَذَ الْوَثْنِيَّاتِ وَالْخِرَافَاتِ وَالتَّعَلُّقَ بِالْمَخْلُوقَاتِ، عَقِيدَتُهُ سَهْلَةٌ وَاضِحَةٌ، مُوَافِقَةٌ لِلْعَقْلِ وَالْفِطْرَةِ، لَا تَنَاقُضُ فِيهَا وَلَا

عُمُوض، لم يأتِ بما تُحِيلُهُ العقول، أو يناقض العلم الصحيح، فصار صالحًا لكل زمان ومكان، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

أخباره صادقة، لا تناقض فيها، وأحكامه موافقة للحكمة، وكل علم ديني أو دنيوي نافع فقد أرشد إليه، إنه دين الحكمة والفطرة والرحمة والإحسان، اشتمل على كل المصالح في الضروريات والحاجيات والكماليات، لم يأمر إلا بخير خالصٍ أو راجح، ولم ينه إلا عن شرٍّ خالصٍ أو ما تزيد مفسدته على مصلحته، فأزوى الغليل، وشفى العليل، وأنار السبيل، واستقام به المعاش، توافق فيه المعقول والمنقول؛ في عقائده، في عباداته، في معاملاته، ما أمر بشيءٍ قط فقال العقل: ليتّه لم يأمر به، ولا نهي عن شيءٍ فقال العقل: ليتّه لم ينه عنه.

لقد دعت شريعة الإسلام المسلم أن يحدد ويحتهد في هذه الحياة، أن يضرب في الأرض بيتغي من فضل الله، لم تصنع حاجزًا بين الدين والدنيا، بل مزجت بينهما، فصارا متوافقين، وسعت حدود المباح، فالأصل في الأشياء والمعاملات: الإباحة، حُذِّ ما شئت، وألبس ما شئت، كُلِّ واشرب، كيف يحلو لك، تاجر، سافر، تعلم، اصنع، ازرع، افعل ما تريد، ولكن تجنب ما حرم الله عليك فقط، وهو قليل، إذا ما قارنته بالمباحات الكثيرة.

الإسلام دين الرحمة والإحسان، حثَّ على الرفق، والرأفة، وقضاء الحاجات، وتفريج الكربات، والرقي لأنواع الكمالات، جعل العلم والدين، والولاية والحكم متآزرّات متعاضدات.

أباح كل طيبٍ نافع، وحرّم كل حَبِيث ضار، كفَّ المظالم، ردَّ الحقوق إلى أصحابها، وُضِع للجرائم حدودًا تَرَدُّع عن مُواقعتها، وتُخَفِّف من وطأتها. بل لم يُغفل هذا الدين القويم الرحمة بالحيوان، والإحسان والرفق به، بل ومُراعاة مشاعره، حتى إنه:

نهى عن اتخاذ شيء منه غَرَضًا أي: هدفًا لمجرد القتل، تصيد طيرًا لمجرد التسلية والهواية، الإسلام يقول لك: لا، حياة الطير أوّل من عبثك. نهى أن تُتخذ الدواب كراسي للجلوس، أو تُلَعَن، أو أن تُفَجَّع الطير في أفراخها. لم يُعفل فقه الشريعة حقَّ الشاة في عدم تعذيبها نفسيًا، فمَنع أن تُذبح شاة والأخرى تنظر إليها، أو أن تُحدَّ السكين أمامها، أو أن يُقطع منها عضوٌ بعد ذبحها قبل أن تَبْرُد.

لم يَنسَ فقهاء الإسلام حق دود القَرّ، فأوجب الفقهاء على مالكه تحصيل ورق التوت الذي يُقتات به ولو بشرائه، أو أن يخلّي سبيله لئلا يهلك، حشرة صغيرة حياتها في الإسلام محترمة.

لم يُعفل فقهُنا حق النحل، فحكّم الفقهاء بوجوب أن يُبقي صاحبها شيئاً من العسل لتقتات به إن تعين غذاء لها.

لم يُعفل حق الدابة الخُلوب، فنصّ الفقهاء في هذه الشريعة على وجوب أن يقصّ حالبها أظفاره وجوباً، حتى لا يؤذي ضرعه، لم تؤذ دابة بريئة؟
من امتنع عن الإنفاق على دابته التي لا تُؤكل، وجب على السلطان أن يُجبره على ذلك، أو على بيعها دفعاً للظلم عنها، فإن لم يقدر قال العلماء: أنفق عليها من بيت المال، إنها رحمة الإسلام.

تعرف -أيُّها الموقّق- ديناً أو نظاماً راعى هذه الدقة في الرفق بالحيوان، وإذا كان هذا إحسانها بالحيوان فكيف بالإنسان؟

شريعة الإسلام جعلت الناس سواسية، لا يفضل أحدٌ أحداً بلون أو عرق، أو حسب، فمِغيار التفاضل: التقوى لا غير، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَى﴾ [الحجرات: ١٣]، شريعة الإسلام شريعة العدل، العدل في كبار الأمور وصغارها، حتى إنها عدّلت بين قدميك، فنهتكَ أن تتعلّ في قدم دون الأخرى.

حرصت الشريعة على أن يأخذ كل أحد حقه في الاقتصاد، أن تكون أسواق المسلمين ذات شفافية واستقرار، فمنعت الاحتكار، والغشّ، والنجش، وتلقّي

الركبان، وضعت هذه الشريعة الحقّة نظامًا اقتصاديًا أخلاقيًا بديعًا لم تعرف له البشرية نظيرًا، دُونك -أخي الكريم- محركات البحث الشبكية، اجث وأقرأ عن:

١. تنامي الصناعة المصرفية الإسلامية اليوم في أوروبا.
٢. عن الاهتمام بأبحاثها في المراكز العلمية والجامعات الغربية.
٣. كيف أن اعتقادًا قويًا بدأ يتشكل بأن المصرفية الإسلامية استثمار أخلاقي، وملاذ آمن لرؤوس الأموال.

شريعة الإسلام، شريعة العدل والعفو بعزة، لم تقل: مَنْ ضربك على خَدِّكَ الأيمن فأدرْ له خَدَّكَ الأيسر، بل قالت: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠].

إنها شريعة الجماعة، وجمع الكلمة، وقطع أسباب النزاع؛ فمنعت أسباب الشحناء وتقطع الصلات، حتى إنها منعت خطبة المسلم على خطبة أخيه، أو البيع على بيعه.

إنها شريعة النظافة والنظام والتعامل الراقي، إنها شريعة الذوق الرفيع، ومراعاة المشاعر، حتى إنها لم تُغفل النهي عن أن يتناجى اثنان دون ثالث، حتى إن تنظيف الأسنان في الإسلام عبادة من العبادات، والسواك أول ما يُستحب أن يفعله المسلم إذا دخل بيته.

إنها حقًا جامعة الأخلاق السَّامية، والآداب الرائعة، منَعَت الغيبة والنَّميمة والكذب والسخرية والكِبَر والحسد، وحثَّت على أضدادها.

إنها شريعة التكافل الاجتماعي، فعلاوة على الزكاة، والصدقات، قالت الشريعة: إن صلة الرحم لا تقتصر على السلام، والهدية، والزيارة فحسب، كلا؛ بل يجب إنفاق القريب الغني على قريبه الفقير، وهو حقُّ له، ﴿وَأَتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ [الإسراء: ٢٦].

لقد جعلت للجار حقًا عظيمًا حتى كاد أن يكون له حظُّ من الميراث، ناهيك عن حقوق الوالدين، والأولاد، والزوجين، والأزْملة، واليتيم، والمسكين، والخادم، والضيف، والمعلِّم، والمتعلِّم... إلى آخر ما هنالك.

إنها الشريعة الكاملة التي لم تُغفل شيئًا من أمور الدين أو الدنيا، بدقَّة مُتناهية، وتنظيم بديع، من علاقة المرء برَبِّه إلى علاقته بنفسه، إلى علاقته بغيره من إنسان، أو حيوان، أو جماد، لقد أَوْضَحَتْ له كيف يعبد ربه، وأَوْضَحَتْ له أيضًا كيف يتزوج، كيف يطلق، وكيف يبيع، ويشترى، ويأجر، ويؤزاع، كيف يُقاضي، ويطلب حقه، أو يشهد في نزاع، علَّمته كيف يأكل ويشرب، وينام ويستيقظ، بل وكيف يلبس حذاءه، لقد نَظَّمَتْ له كيف يخالط الناس، ويُحَيِّيهُم، ويجالسهم، لم تدع شاذَّة ولا فاذَّة إلا ولها فيها توجيه ونظام بديع بلا نقص ولا خلل ولا اضطراب، إنما هو الإتقان والإسعاد والتيسير.

لقد نظّمت لك هذه الشريعة كل شيء في حياتك، بل نظّمت لك كل شيء بعد وفاتك، في الإرث والحقوق وغيرها، وصدق الله: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: ١١٤].

وبعد - يا أيُّها الكريم - هذا غيض من فيض، وإلا فالحديث في هذا المقام طويل جميل لا يُمل، ويبقى السؤال بعد هذا: من أين أتى النبي ﷺ بكل هذه التشريعات الباهرة البديعة الكاملة الدقيقة: من العلاقات بين الدول في السلم والحرب، وإلى لبس الحذاء، ودخول الخلاء، وطريقة الجلوس، وإلى تعليم الأطفال الذوق الرفيع بالاستئذان في ثلاثة أوقات مفصّلة؟! من أين أتى بهذا كله؟! وكيف؟! الناس اليوم إذا أرادوا وضع نظام محدود في جزئية صغيرة، استقطبوا جماعة من أهل الخبرة ليجتمعوا اجتماعات متتالية في أوقات مديدة؛ لوضع اللائحة وصياغتها، ثم يتبع هذا لجان للمراجعة، ثم تُكتشف بعد حين ثغرات وأخطاء، فيحتاج إلى تعديلات تلو تعديلات، وبين يديك ها هنا شريعة مُحكمة، شاملة لكل مناحي الحياة، مفصلة دقيقة شافية كافية، لا خلل فيها ولا عوج، ولا يمكن الاستدراك عليها.

السؤال: أرجل أمّي واحد -مهما بلغ من الذكاء والدّهاء- قادر على أن ينظم كل مجال، وأن يضع حلاً لكل مشكلة، وأن يُرسي دعائم السعادة في الدين والدنيا؟! أم أن العقل والإنصاف يقتضي أن يُقال: إنه كان صادقاً مصدوقاً،

ورسولاً نبياً؟! ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [سورة النجم: ٣-٤]، اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

المقدم: نعود إلى السؤال الذي طرحته في البداية، وهو قضية أنه تكثيف موضوع محاسن الإسلام في هذا الزمان، مخاطبة المسلمين به وغير المسلمين، أن أهمية هذا الموضوع، وأيضاً خاصة في ظل ربما موجود بعض الشباب الذين ينظرون إلى ما لدى الآخرين من حضارة، ومن صناعة، وتقدّم، فيضَعُون ذلك ربما يجعلهم هذا يَبْهَرُون، فينسَون جليل النعمة الإسلامية وما فيها من جمال وعظْمة.

الشيخ: بالتأكيد أن توجيه الخطاب لغير المسلمين ببيان محاسن الإسلام، وتميُز الشريعة من أهم وسائل الدعوة، بل لعلّه أقصر طريق لدعوتهم، وأُنْجَع سببٍ لاستمالة قلوبهم، وإقناعهم بصحة الإسلام، وصدّق النبي ﷺ، هذا دليل واضح سهل الفهم، يلمسه الناظر فيه لَمَس اليد، ولا يحتاج إلى بحث في أسانيد، أو التحقق من الصحة... إلى آخر ما هنالك.

إن أذنت لي، يحضرنني قصة واقعية حصلت في بلد غربي:

خادمة كانت تعمل لدى أسرة مسلمة، فلَقَّت انتباهها وإعجابها نظافة المسلمين، هي إذا غسلت ملابسهم وجدتها غير ملطّخة بالنجاسة كحال بني جنسها، فوَقَر في

نفسها أنها دين راقٍ جميل، فدعاها هذا أن تسأل الأسرة وأن تبحث لتُسَلِّم بعد ذلك، والشواهد على هذا بالعشرات، بل بالمئات، بل أكثر من هذا.

الشاهد: أن محاسن هذا الدين العظيم تفعل في نفوس كثير من الكفار ففعل السحر، فما أحسن استئثار هذا الباب.

أعود فأقول: كما أننا نحتاج إلى أن نبين محاسن الشريعة لغير المسلمين، فإن المسلمين لا يقلّون حاجة عن هذا البيان، نعم هم مسلمون، ونشؤوا على هذا الدين، غير أن التحدّث بمحاسن الشريعة تحدّث بنعمة الله، والله تعالى يقول: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]، وأجل نعمة أنعم الله علينا بها -معشر المسلمين- هي هذا الدين القويم، كما أن هذه المعرفة سببٌ لزيادة الإيمان، وقوة اليقين، وكذا هي سبب للفرح بالهداية إلى هذا الدين الكريم، وهذا الفرح -يا أخي الكريم- عبادة يحبها الله، ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، وبعض الناس قد يفوته هذا الأمر؛ لأنه يغفل عن الوقوف أمام محاسنه، واستشعار جماله، لذا لا بد من بثّ هذا الموضوع والدّندنه حوله، لا سيما في خطاب الشباب، وحبّذا أن يُقرن هذا مع بيان حال الجاهلية قديماً وحديثاً، هذا إذا أردنا الارتقاء بهم إلى التدبُّن بهذا الدين عن قناعة، وحينها سيعتزون بدينهم، وسيستغلّون بإسلامهم، وسوف يسلمون -بتوفيق الله- من رياح التشكيك.

المقدم: إن كان من ختام نلخص به شيئاً مما أوردناه؟

الشيخ: عندي ثلاثة أشياء:

أولاً: سؤال أتمنى أن نتأمله بخصوص ما سبق، لماذا نحتاج إلى معرفة محاسن الشريعة، وأن نتحدث بها دائماً؟

ثانياً: أوصِ بقراءة كُتَيْبٍ صغيرٍ نافعٍ للشيخ عبد الرحمن بن سعدي رحمته الله، اسمه: «الدُّرَّة المختصرة في محاسن الدين الإسلامي»، والكتاب موجود ومطبوع، ومتوفر على الشبكة.

ثالثاً: بقي معنا السؤال المتعلق بالحلقة القادمة، سنصِل -إن شاء الله- إلى ختام موضوع براهين النبوة في الحلقة القادمة، وهو البرهان السابع، والختام مسك إن شاء الله، البرهان السابع لنبوة نبينا ﷺ: هو القرآن الكريم.

والمداخلات التي نتمنى أن تدور حولها مداخلات الإخوة الكرام هي: كيف

كان القرآن الكريم الآية العظمى لصِدْق نبينا محمد ﷺ؟





الحلقة الثامنة

دلائل النبوة (القرآن الكريم)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الشيخ: إن القرآن الكريم العظيم، والكتاب العزيز الحكيم، أعظم آيات رسول الله، محمد بن عبد الله ﷺ، قال جل في علاه: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١]، فهو كافٍ في الدعوة والبيان، كافٍ في الحجة والبرهان، وكيف لا يكون كذلك وهو الحجة الباقية على الآباد، لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا يشبع منه العلماء، هو الفصل ليس بالهزل، مَنْ تركه من جبار قصمه الله، وَمَنْ ابتغى الهدى في غيره أضله الله، بل إن القرآن الكريم أعظم براهين الأنبياء جميعًا، وأبقاها على الأعصار، وأنشرها في الأقطار، قال ﷺ: «مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْ وَحْيًا أَوْحَى اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرُهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ» والحديث في «الصحيحين»^(١).

المقدم: لو نُذِّكر المستمعين بتعريف المعجزة، ونحن نتحدث عن القرآن الكريم باعتباره معجزة، ما هي المعجزة؟

الشيخ: المعجزة: هي الآية والبرهان والسلطان الذي يأتي من عند الله ﷻ؛ تأييدًا لعبده ورسوله، وهو أمر خارق لعادة جميع الثققلين من الإنس والجن، ونبينا ﷺ

(١) رواه البخاري برقم (٤٩٨١)، ومسلم برقم (١٥٢).

قد أُعطي من الآيات والبراهين والمعجزات ما فاقَ غيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ومن ذلك هذا القرآن الكريم؛ لأنه المعجزة الوحيدة الباقية، بقيّة المعجزات التي كانت للأنبياء عليهم الصلاة والسلام انتهت بوفاتهم عليهم الصلاة والسلام ، أما هذا القرآن فإنه باقٍ إلى قُبيل قيام الساعة، فهو حجة على جميع الخلائق إلى يوم الدين.

المقدم: ونحن نتحدث عن القرآن الكريم البرهان السابع من براهين صدق نبينا ﷺ، وكنا في الحلقات الماضية قد تطرّقنا إلى ستة براهين هي:

١. سيرته ﷺ قبل البعثة.
 ٢. ثم سيرته بعدها.
 ٣. وتحدّثنا عن معجزاته ع التي أخبر بها.
 ٤. أو وقعت على يديه.
 ٥. ثم البرهان الخامس: أحواله في دعوته.
 ٦. والبرهان السادس: كمال الشريعة ومحاسنها.
- واليوم في هذه الحلقة نتحدّث عن القرآن الكريم، ولماذا كان القرآن الكريم البرهان الأكبر على صدق نبينا ﷺ؟

البعض يقول: أن هناك مثلاً معجزات حسية، ومعجزات عقلية، القرآن يقول يُعتبر مثلاً معجزة عقلية، أو معجزة تخاطب العقول أكثر من كونها شيئاً محسوساً مثل العصا، ونحو ذلك؟

الشيخ: إن كان المراد بكونه محسوساً يعني: مخلوقاً فالقرآن كلام الله، وكلام الله غير مخلوق، أما إن كان أنه موجود، وله وجود بمعنى: أنه مدوّن بين دفتيّ هذا المصحف الذي بين أيدينا فهو محسوس من هذه الجهة، وهو كذلك عقلياً يخاطب العقول، وروحيّ يخاطب الأرواح، وأخلاقيّ يخاطب الأخلاق، فهو من هذه الجهة كما تفضلتم عقلي، فهو يجمع بين الأمرين بهذا الاعتبار.

المقدم: لو نتقل بعد أن استفتحنا الحلقة بالحديث عن كون القرآن الكريم هو واحد من البراهين الدالة على نبوة نبينا ﷺ وصدّقه، وهو البرهان الأكبر، نوّد أن ندخل في التفاصيل، كيف كان القرآن الكريم دليلاً قطعياً على صدق نبوة النبي ﷺ؟

الشيخ: هذا الموضوع من السّعة بحيث لا يمكن لأحد أن يُحيط به، القرآن كله معجز، بل هو معجزات متظافرة، ألفاظه، قراءاته، نظمها، معانيها، أخبارها، أحكامها، كل سورة فيه، بل كل آية، فهو بحر لا يُدرَك قعره، ولا يُسَبَّر غوره، لفظه آية، نظمها آية، فواصلها آية، إخبارها بالغيوب آية، أمره ونهيها آية، وعده ووعيده آية، جلالته وعظّمته وسلطانه على القلوب آية، فما الذي يمكن أن نأخذ من هذا

الموضوع وَنَدَعَ؟! إنما سأكتفي - حفظك الله - بشذرات يسيرة وحسبنا من الرياض زَهْرَات، ومن النسائم نَفَحَات.

من إعجاز القرآن أولاً: بلاغة ألفاظه، واستيفاء معانيه، وحُسن نظمه، فله كمال البلاغة، ونهاية الفصاحة، ﴿كَتَبُ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ، قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣] وهذا باب واسع لا سبيل إلى استيفائه، وَصَدَقَ مَنْ وصفه: «إن له حلاوة، وإن عليه لَطَافًا، وإنه لُمُثْمِرُ أَعْلَاهُ، مُعْدِقُ أَسْفَلِهِ، وإنه لِيَعْلُوا ولا يُعْلَى، وإنه لِيَحْطِمَ ما تحته».

القرآن الكريم من فاتحته إلى خاتمته لا تخلوا آية من آية عن نُكْتة لطيفة، أو حكمة نافعة، أو بيان مُفهِم، أو عبارة تأخذ بالألباب، وتَحَيِّرُ العقول، تحير العقول بجمالها، وتحير العقول ببلاغتها، نظم القرآن وأسلوبه حقًا عجيب بديع، ليس من جنس أساليب الكلام المعروفة، ولم يأتِ أحد بنظير هذا الأسلوب، ليس من جنس الشعر أو الرَّجَز، ليس من جنس الخطابة أو الرسائل، ليس نظمُه نظم شيء من كلام الناس عَرَبِهِمْ وَعَجْمِهِمْ، إنه كلام الله، ولا يمكن أن يكون إلا من عند الله، والله لا يُشَبِّه المخلوقين، فكلامه لا يُشَبِّه كلام المخلوقين.

من إعجازه ثانيًا: استيفاء معانيه في قليل الكلام مع جمال المقال وكمال اللفظ.

تأمل قوله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا شَتَّهِهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١] قال بعضهم: جمع في هذين اللفظين ما لو اجتمع الخلق كلهم على وصف ما فيها على التفصيل لم يخرجوا عنه.

تأمل قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَكَأَلَيْهِ فِي أَلِيمٍ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصاص: ٧] جمع في آية واحدة بين أمرين، ونهيين، وخبرين، وبشارتين.

تأمل قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩] تأمل ما تحت هذه الجملة من معنى كثير مع لفظ قليل.

حكى أن أعرابياً سمع رجلاً يقرأ: ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤] فلم يتمالك وقع على الأرض وسجد، فسئل عن سبب سجدته، فقال: سجدت في هذا المقام؛ لفصاحة هذا الكلام.

وسمع رجلٌ قارئاً يقرأ: ﴿فَلَمَّا أَسْتَيْتَسَوْا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ [يوسف: ٨٠] فقال: أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام. والشواهد على هذا كثيرة.

من إعجازه ثالثاً: ما تضمنه من الحجج والبراهين، ففيه الدلائل اليقينية القطعية، والأقيسة العقلية السنيّة، فقطع بحجابه كل محتج، وخصم بجدله كل

خَصُمُ الْإِدِّ، وَصَدَقَ رَبُّنَا إِذْ قَالَ: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ

لَعَلَّهُمْ يَنْذَكُرُونَ﴾ (٢٧) ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَنْقُورُونَ﴾ [الزمر: ٢٧-٢٨].

من إعجازه رابعاً: ما تَضَمَّنَه من أخبار القرون الخالية، وقصص الأمم السالفة، وتأمل في هذا مثلاً ما تحدَّاه به أهل الكتاب من قصة أهل الكهف، وشأن موسى والخضر، وحديث ذي القرنين، فكان على ما ذكره أنبياءهم، وتضمَّنَتْه كتبهم.

من إعجازه خامساً: ما تَضَمَّنَه من أمور الغيب، فقد تَضَمَّنَ أخباراً أفاد أنها ستكون فكانت، كقوله تعالى لليهود: ﴿فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٩٤) وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ [البقرة: ٩٤-٩٥] فما تَمَنَّاه أحدٌ منهم.

وَكُحْكُمَهُ عَلَى أَبِي لَهَبٍ وَزَوْجِهِ بِالنَّارِ قَبْلَ مَوْتِهِمَا، فَمَاتَا كَافِرِينَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥] وكان ذلك في يوم بدر.

وَقَوْلُهُ ﷺ: ﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ (٣) فِي بَضْعِ سَنِينَ﴾ [الروم: ٤]

فكان ما أخبر به في آيات كثيرة.

وهذا برهان لا يجد العقل أمامه إلا أن ينصاع إلى أن الذي تكلم بالقرآن هو

العليم الخبير سبحانه، ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [يونس: ٣٧].

من إعجازه سادساً: ما فيه من الإخبار بضمائر القلوب التي لا يصل إليها إلا عَلامُ الغيوب، فتأمل قوله تعالى: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧]، أو قوله: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾ [آل عمران: ١٢٢] هذا ما حصل من غير أن يظهر منهم قول، أو أن يوجد منهم فشل.

من إعجازه سابعاً: أن ألفاظه جمعت بين الجزل والسهل، بين الأسلوب الرفيع والسهولة والوضوح، بين الفخامة والغذوبة، فلا يتوعَّر جزؤه، ولا يُستَرَدَّل سهله، ويكونان إذا اجتمعا مطبوعين غير متناثرين، ولا نجد ذلك في غيره من الكلام. لن تقع عينك قط على كلام أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، لن ترى نظماً أحسن تأليفاً، وأشدَّ تلاؤماً وتشاكلاً من نظمه، أما معانيه فذاك شأن آخر، كل ذي لبٍ يشهد له بالتقدم في أبوابه، والرُّقي في أعلى درجاته، فجاء بأفصح الألفاظ، في أحسن نظم، مضمّناً أصحَّ المعاني، ولم توجد هذه الثلاثة مجموعة سوى في كلام العليم سبحانه.

من إعجازه ثامناً: أن تلاوته تختص بما لا يوجد في غيره، حيث خشاشة مخرجه، وبهجة رَوِّقِهِ، وسلاسله نظمه، وحُسن قبوله، وأن قارئه لا يَكل، وسامعه لا يَمَلّ، وهذا في غيره من الكلام معدوم، كم يسمع المسلم القرآن الكريم؟ كل يوم، وربما كرّر سماع مقطع معين مرات كثيرة، فلا يدخُلُه مَلَلٌ البتّة، ولو أعطى ما

يسمعه حفظه من التدبر لوجد في كل مرة فائدة أو حكمة لم يتنبه لها إلا حينها، حتى كأنه يسمع هذا الكلام أول مرة، وصدق من قال:

جميعُ الكتبِ يُدركُ مَنْ قراها مِلالٌ، أو قُتُورٌ، أو سَامَةٌ
سوى هذا الكتابِ فإنَّ فيه بدائع ما تُملُّ إلى القيامة

من إعجازه تاسعاً: أنه منقول بألفاظ محفوظة، ومعانٍ مستودعة، حفظه المسلمون في صدورهم، ودَوَّنوه في صُحفهم، فلم ينحرم منه لفظ، ولا اختلَّ فيه معنى، ولا تغير له ترتيب، حتى صار من الزَّلل مضبوطة، ومن التبديل محفوظة، تستمر به الأعصار على شاكلته، وتتداوله الألسن مع اختلاف اللغات عل نظمه وصفته، لا يختل بتعاقب الأزمنة، ولا يختلف بتباعد الأمكنة، ولا يتغير باختلاف الألسنة، وصدق الله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

من إعجازه عاشراً: تيسيره على جميع الألسنة، حتى حفظه غير العرب، ودار به لسانهم، ولا يُحفظ غيره من الكتب كحفظه على الإطلاق، ولا تجري به ألسنة كجريها به، حتى إنه سهل على الأميين من العجائز أو الشيوخ قراءته مع عجزهم عن قراءة غيره من الكتب، وما ذاك إلا بخصائص إلهية فضله الله ﷻ بها.

وأنا أعرف امرأة كبيرة في السن من قريباتي رحمها الله، امرأة أمية، دخلت التحفيظ على كبر، فيسر الله لها تعلُّم قراءة القرآن، وحفظ ما تيسر منه، تفتح

المصحف، وتقرأ منه ما شاءت، ولو قرّبت لها أي كتاب آخر لم تستطع أن تقرأ منه حرفاً، وصدق الله: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: ١٧].

الوجه الحادي عشر: اقتران معانيه المتغايرة، وانسجامها، فيخرج في السورة من وعد إلى وعيد، ومن ترغيب إلى تهيب، ومن ماضٍ إلى مستقبل، ومن قصص إلى مثل، ومن حُكم إلى جدل، فلا يَبُوء، ولا يتنافر.

الوجه الثاني عشر: أنه قد تكرر بعض أخباره وقصصه بألفاظ مختلفة، وعبارات متنوعة، ولو تأملها المتدبر لتبيّن أن تحت المعادات -ولا بد- أسراراً ولطائف تُدهش الألباب.

الوجه الثالث عشر: عجزُ الأمم عن معارضته، وقد تحدّاهم ربنا سبحانه أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور من مثله، أو حتى بسورة من مثله، فنكصوا عن معارضته، وأحجموا عن مُثَالَّتِهِ، وتجرّعوا غُصَصَ العجز مع شدِّ حميتهم، وقوة أنفقتهم، وبلاغة ألسنتهم، اللغة لغتهم، والكلام كلامهم، ومع ذلك أخرسوا، ولم يزدوا على أن يخادعوا أنفسهم بالتشغيب والتكذيب، ﴿وَقَالُوا أَسْطِيزُوا الْآوَلِينَ﴾ **اَكْتَتَبَهَا فِي نَمْلِ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً** ﴿[الفرقان: ٥] مع علمهم أن صاحبهم أُمِّي، وليس بحضرة من يُملِّي، أو يكتب عنه شيئاً، لكنه العناد والجهل والعجز، ولو وجدوا إلى المعارضة بما يماثله بلاغة وفصاحة سبيلاً لفعلوا، لكن هيهات، قد

توثقت علاقته، وترادفت حقائقه، وأحكم دقيقه وجليله، ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ ۖ إِنَّ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿[الطور: ٣٣-٣٤].

إن من المُحال: أن يأتي أحدٌ بكلام يفتعله من تلقاء نفسه، ثم يطالب أهل الأرض بجمعهم أن يعارضوه في أيسر جزء منه، مقدراه ثلاث آيات من عدّة ألوف، ثم تعجز الخلائق كلهم عن ذلك، لا يمكن أن يكون هذا إلا وهو وحي من عند الله سبحانه.

المقدم: هناك مثلاً بعض الملاحدة، أو ربما بعض المعارضين لدعوة نبينا ﷺ، حاول أن يؤلف بعض المؤلفات التي يعارض بها القرآن، فكيف نرُدُّ على هذا؟
الشيخ: حفظ التاريخ أسماء يمكن أن تُعدَّ بأصابع اليد لمن رام أن يعارض القرآن، لكنه باء بالحَيَّة.

أولاً: ليس يغيب عن البال أن الحق البين يُجمع عليه الناس كافة، ثم يكابر فيه الواحد والاثنان والثلاثة من بين ملايين البشر، فتكون مكابرتهم فيه وجهًا من الوجوه التي تثبت بها ويعلب.

بمعنى: التحدي الذي وقع -حفظك الله- ليس أن يأتي أحدٌ بأي كلام، إنما أن يأتي أحد بكتاب مثله، أي: يُضارِعُه بلاغة وفصاحة، هذا لم يقع البتَّة، ولن يقع.

الذين رَأَوْا معارضته كان ما عارضُوا به من أقوى الأدلة على صدقه؛ فإنهم أتوا بشيءٍ يَسْتَحْيِي العقلاء من سماعه، ويَحْكُمُونَ بِسِمَاجَتِهِ، يَحْكُمُونَ بِقُبْحِ رِكَائِكَ، فهو مثاله: كَمَنْ أَظْهَرَ طَبِيبًا لَمْ يَشْمُ أَحَدٌ مِثْلَهُ قَطُّ، وَتَحَدَّى الْخَلَائِقُ صَاحِبَهُ تَحَدَّى الْخَلَائِقُ بَأَن يَأْتُوا بِذَرَّةٍ طِيبٍ مِثْلِهِ، فَاسْتَحْيَى الْعُقَلَاءَ، وَعَرَفُوا عَجْزَهُمْ، وَجَاءَ الْحُمُقَانُ بِعَذْرَةٍ مَنْتَنَةٍ خَبِيثَةٍ، وَقَالُوا: قَدْ جِئْنَا بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ، فَهَلْ يَزِيدُ هَذَا مَا جَاءَ بِهِ إِلَّا قُوَّةً وَبُرْهَانًا وَعِظْمَةً وَجَلَالًا؟ وَهَذَا كَمَا حُكِيَ عَنْ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَابِ، أَنَّهُ قَالَ فِي مَعَارِضَةِ الْقُرْآنِ: «يَا ضَفْدَعُ نُفْيِي، كَمْ تُنْقِينَ، لَا الْمَاءُ تَكْذِرِينَ، وَلَا الشَّرَابُ تَمْنَعِينَ».

أو مثل قوله: «وَالذَّارِيَاتُ قُمَحًا، وَالطَّاحِنَاتُ طَحْنًا، وَالْعَاجِنَاتُ عَجْنًا، وَالْخَابِزَاتُ خَبَزًا، وَاللَّاقِمَاتُ لُقْمًا، دِهَالَةٌ وَسَمْنَا»، أو كما حُكِيَ عَنْهُ أَوْ عَنْ غَيْرِهِ أَنَّهُ قَالَ: «الْفِيلُ، الْفِيلُ، لَهُ ذَنْبٌ وَبِيلٌ، وَمَشْفَرٌ طَوِيلٌ، وَإِنْ ذَلِكَ مِنْ خَلْقِ رَبِّنَا لَقَلِيلٌ»، سَبَّحَانَ اللَّهِ!!

أَهَذَا الَّذِي هُوَ أَحْسَنُ كَلَامٍ وَأَسْخَفُهُ يُعَارِضُ بِهِ أَشْرَفَ الْكَلَامِ وَأَبْلَغُهُ وَأَزْفَعُهُ، أَيْنَ الدُّرُّ مِنَ الْمَدَرِّ! وَأَيْنَ الصَّفْوُ مِنَ الْكَدَرِّ! وَصَدَقَ رَبَّنَا جَلَّ فِي عِلَالِهِ: ﴿قُلْ لَّيِّنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

وعلاوة على ما سبق: أنه ﷺ يُعلن للخلائق أجمعين، في ابتداء التحديّ بالإتيان بمثله أنهم لن يفعلوا ذلك أبداً، يتحدّاهم ثم يقول: أنتم لن تفعلوا، ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾، هذا لا يُقدِّم عليه إلا عن عِلْم لا يُخالِجه شكّ، مستند إلى وحي من الله، وإلا فعِلْم البشر وقدرتهم يضعفان عن ذلك.

الوجه الرابع عشر: أنه كتاب متشابه، يُشبه بعضه بعضاً، ويُصدِّق بعضه بعضاً، مع سلامته من وقوع خطأ، أو نقص، أو تناقض، أو اختلاف، ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، وما استطاع أحدٌ مع كثرة أعداء المسلمين المتربِّصين أن يثبت على القرآن خطأ واحداً، أو معلومة ناقصة، أو شيئاً من التعارض أو التناقض، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

الوجه الخامس عشر: هو هذه الآية السابقة بحَدِّ ذاتها هي في نفسها معجزة، هذه الطريقة في التحديّ ليست من طبيعة البشر، هي كما قول أحد الكتّاب: مثل طالب يدخل اختباراً، ويكتب في آخر الورقة للمتحن: (أتحدّاك أن تجد خطأ واحداً في إجابتي) هذا لا يفعله أحد؛ لأنه سيجعل المُمتحن يسهر ليلته في البحث عن خطأ؛ ليجده لكن هكذا يتحدّى القرآن المعاندين.

الوجه السادس عشر: أنه اشتمل على جملة من الآيات العلمية الكونية الصحيحة التي لم يُكشف عن نقابها إلا حديثًا، وهذا ما يُسمى في اللسان المعاصر: بالإعجاز العلمي.

وَأُنَبِّئُكُمْ -أولاً- إلى أن القرآن ما نزل ليكون كتاب كيمياء أو فيزياء أو فلَك، إنما هو كتاب هداية وإصلاح، ومع ذلك فقد اشتمل على جملة صالحة من البراهين والآيات التي تُرشد العقول والقلوب إلى أنه كلام الله ﷻ حقًا، ﴿سَرِّيبُهُمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

ولعلَّ من الحكمة أيضًا في تضمين القرآن شيئًا من هذه الآيات:

إقامة الحُجَّة على فئة من الناس، لا تهتم إلا بالبحث العلمي التجريبي، فدوَّها ما ترى من العجائب، ولو كان الوقت يسع لسُقت بعض الأمثلة على هذه العجائب، ولكني أتجاوزها لضيق الوقت.

الوجه السابع عشر: سُمِّو تشريعاته، وكمال أحكامه، وشمولها لكل مناحي الحياة، وجلبها للمصالح، ودَرْؤها للمفاسد مع دستور أخلاقي فَرِيد، ومنهج تربوي بديع، وهذا ما سبق تفصيل القول فيه في الحلقة الماضية، لكنني أُنبِّئُكم إلى أن الإعجاز في معاني القرآن أعظم وأكثر من الإعجاز في لفظه، وجميع عقلاء الأمم عاجزون عن الإتيان بمثل معانيه، أعظم من عجز العرب عن الإتيان بمثل لفظه.

الوجه الثامن عشر: أن هذا القرآن الكريم يجد فيه كلُّ أحدٍ بُعَيْته، ويقف فيه على ما يُبهره، كل أحد يمكنه أن يغرف من معين هذا القرآن علومًا نافعة، يجد فيه الطبيب أو الفيزيائي شيئًا مُبهرًا، يجد فيه اللغوي شيئًا عجيبًا، هكذا الأديب، المتخصص في علوم النفس، الاجتماع، التربية، إلى آخر ما هنالك، علوم نافعة جامعة، وأحكام شاملة سامية كافية شافية، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدًا﴾ [الأنعام: ١١٥].

الوجه التاسع عشر: أنه موافق للعقول والفطر، ولذا ما سمع آياته منصفٌ، وعقل هذه الآيات إلا وسلّم بأنها معقولة مقبولة، ليس في القرآن شيء معقد تنبؤ عنه الأفهام، وتنفر عنه الفطر.

الوجه العشرون وقبل الأخير: أنه جمع جميع الأحكام جمعًا كليًا في الغالب، وجزئيًا في المهم، وصدق فيه قوله سبحانه: ﴿بَلَيْنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

أخيرًا وهو الوجه الحادي والعشرون: تأثيره العجيب في النفوس، قال سبحانه: ﴿لَوْ أَنزَلْنَاهَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]، وقال سبحانه: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَبِّهًا مَّتَانِي نَقْشُورُهُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]، لا ينصت إلى هذا القرآن أحد، ويفرغ له فؤاده إلا وجد أثرًا عظيمًا في نفسه، مهما قرأه العبد يجده لا يخلق مع كثره الرّد، آثاره تتجدّد في النفوس، فسبحان الله العظيم! هو الغيث - كما

تفضّلتم- الذي تحيا به القلوب، وثُنِّيت به ثمرات الأخلاق الرَّأكِيَّة، والأعمال الصالحة، ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] نَاهِيكَ عن كونه شفاء من الأمراض الحسِّيَّة والمعنويَّة.

هذه - حفظكم الله - جُمْلَة من الآيات والبراهين التي تدل على أن هذا القرآن كلام الله ﷻ حقًا، فصَدَق ربنا: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [يونس: ٣٧]، ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ (١٠) ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠-٢١١]، ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥] فهو إذا أعظم دليل على صدق نبينا محمد ﷺ.

المقدم: من الذي سيصل إلى شرف أن يحيا قلبه بالقرآن الكريم؟

الشيخ: أبواب ما في القرآن من العلم والإيمان لا تُفَتَح إلا لمن يقرأه مُريدًا للخير، حُذِّها قاعدة: كلما أعطيت نفسك حظًّا من تدبر القرآن بتجرُّد ورغبة في الخير، غَمَرَتْكَ نفحاته، وهذا أيضًا من أوجه إعجازه، سبحان ربي! كلام واحد، ومع ذلك فهو سبب لهداية قوم، وسبب تعاسة لآخرين، قال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤]، صدق ربنا إذ قال: ﴿وَإِنَّهُ لَكَنْبٌ عَزِيزٌ﴾ [فصلت: ٤١] من

عزّته: أنه لا ينال ما فيه من الخير إلّا من أقبل عليه متواضعًا مُريدًا للحق، هناك - وهناك فقط- تتفجر له ينابيع العلم والهدى والإيمان، أما الذي شَمَخَ بأنفه، واستكبر، وأعرض، فإنه لا يزداد به إلا عَمَى، ﴿جَزَاءً وَفَاقًا﴾ [النبا: ٢٦].

الشيخ: إن كنت طالبًا للفائدة والاستزادة أوصيك بقراءة كتابين ليسا بكبيرين:

١. الأول: «النَّبأ العظيم» للدكتور محمد عبد الله دراز، فهو بديع في بابهِ في إثبات مصدريّة القرآن، وأنه كلام الله حقًا.
٢. وهناك كُتَيْب صغير للدكتور ذاري مِلر، قَسَّ نصراني دكتور في الرياضيات أسلَم بسبب القرآن، وكتب هذا الكُتَيْب، اسمه: «القرآن المعجز» موجود ومُترجم على الشبكة.





الحلقة التاسعة

مشكلة الشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الشيخ: الحمد لله الذي أكمل لنا الدين وأتم علينا النعمة، وصلى الله على خير رسول أرسل إلى خير أمة، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً
أما بعد، فأسأل الله جل وعلا أن يلهمني وإياكم تقواه والعمل برضاه.
ليس يخفى أن من أركان الإيمان اعتقاد أن كل شيء بقدر الله سبحانه، وداخل في علمه، وكتابته، وفي مشيئته، وخلقته، سواء أكان خيراً أو شراً فإنه لا يخرج شيء عن قدر الله سبحانه، فكما أن الخير بقدر الله؛ فإن الشر بقدر الله أيضاً، وعليه فكل ما يقع من أنواع الشرور، والابتلاءات، والمصائب، والسيئات، فإنه بتقدير الله سبحانه، قد علم سبحانه أنه سيكون، وكتب ذلك في اللوح المحفوظ، وشاءه وخلقته جل في علاه.

وجود الشر في مخلوقات الله ﷻ مما يستشكله بعض الناس - كما تفضلتم - ربما وجدتم يسألون: كيف يخلق الله شيئاً فيه شرٌّ مع أنه لا يحبه سبحانه؟
وسأسعى في توضيح هذا الموضوع، والإجابة عن هذا الاستشكال - بعون الله - بسوق ست قواعد، من فهمها؛ سهل عليه فهم هذا الموضوع إن شاء الله.
أول تلكم القواعد: أن الشر لا يضاف إلى الله ﷻ فعلاً أو صفة، إنما الشر في مخلوقه لا في خلقه، في مفعوله المنفصل عنه لا في فعله القائم به، وأتى يُضاف الشر

إلى ذاته أو صفاته وأفعاله سبحانه، وهو القدُّوس السلام، المُنَزَّه عن كل نقص جل في علاه؟! كيف يكون ذلك والله سبحانه على صراط مستقيم، ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦]، أفعاله كلها عدل، وأحكامه القدرية والشرعية كلها حكمة، كيف يضاف الشر إلى الله وقد قال أعلم الخلق به ﷺ: «والشر ليس إليك»^(١)؟! أي: لا يكون منه ولا يفعله، بل كل أفعاله ﷻ خير وحكمة ومصلحة.

القاعدة الثانية: ليس في مخلوقات الله شرٌّ محض، بل ولا شرٌّ غالب، إنما الموجود في المخلوقات خير محض، أو خير غالب، كل مخلوق في هذا الكون إما أن يكون خيراً محضاً، كالأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والملائكة، وإما أن يكون في وجوده خير غالب، فالله ﷻ أوجد هذه الأشياء التي فيها شرٌّ، ورَتَّبَ على وجودها وجهاً من الخير هو أغلب الوجهين، ولأجل هذا كان إيجاد هذه المخلوقات حكمة من الله ﷻ.

القاعدة الثالثة: الشر في مخلوقات الله شرٌّ نسبي إضافي، أي: هو شر بالنسبة إلى محله، أو لمن أصابه، وإن كان مع وجود هذا الشر خير من وجه أو وجوه، له أو لغيره، حالاً أو مآلاً، في الدنيا أو في الآخرة.

(١) رواه مسلم برقم (٧٧١).

ومَن فهم هذا فإنه سيتبين له شيء من حكمة الله ﷻ في تقدير وجود هذه المصائب والمُعائب في هذا الكون، إذ لا شك أنه يترتب على ذلك خيرات عظيمة، ولأجل هذا كان وجود هذه الأشياء أحبَّ إلى الله سبحانه من عدمها.

القاعدة الرابعة: الخير في مخلوقات الله ﷻ أضعاف أضعاف الشر، وهذا يُدرك بأدنى تأمل، فمن رحمة الله ﷻ بعباده، ورحمته وسعت كل شيء: أنَّ الخير في هذا الكون أكثر بكثير من الشرور، والمصائب، والابتلاءات، كل أحد يعلم أن الأصحاء أكثر من المرضى، وأن السلامة من البراكين، والزلازل، والحرائق، ومن سقوط الطائرات، وحوادث السيارات ونحو ذلك أكثر بكثير من وقوعها، إذًا الخيرات في هذا الكون أضعاف أضعاف الشرور، وهذا شيء لا يمكن حَجْده لمن أنصف.

القاعدة الخامسة: أوجه الخير فيما فيه شرٌّ قد تظهر وقد لا تظهر، وهذه نقطة هي التي يغفل عنها بعض الناس، يريد أن يكون كل شيء منكشفًا له، وهذا بالتأكيد غير واقع وغير ممكن.

بمعنى: ربما يظهر لنا شيء من الخير المترتب على وجود الشرور والمصائب، وربما يخفى علينا ذلك، فالمقام هنا مقام بحث في حكمة الله ﷻ، وحكمة الله أوسع من أن يُحيط بها عقل المخلوق، فالحكمة إذًا قد تظهر وقد لا تظهر، وعدم

ظهورها لا يعني انتفاءها، فإن عدم العلم بالموجود لا ينفي وجوده، وعدم العلم ليس علمًا بالعدم، وهذا ممَّا لا يختلف فيه العقلاء دون شك.

إذًا: الحكمة من إيجاد الشرّ موجودة، ولكن لقصور عقولنا وأفهامنا فإن الذي يظهر لنا منها شيء، وتغيب عنا منها أشياء، ونحن نستدل على ما جهلنا بما علمنا.

القاعدة السادسة والأخيرة: الشرُّ في مخلوقات الله مرادٌ لغيره لا لذاته.

بمعنى: الله ﷻ شاء وجود ما يكره من الشرور؛ لأجل ما يترتب على وجودها ممَّا يحب، قدَّر ما يكره؛ لحصول ما يُحب، وحصول ما يحب أحبُّ إليه سبحانه من قوَّاته، **والقاعدة في هذا:** أنَّ تقوُّيت الخير الغالب شرَّ غالب، والعقلاء يُدركون حُسْنَ تحصيل ما فيه مصلحة غالبية وإن كانت فيه مفسدة قليلة.

خذُ مثلاً: الدواء المرُّ الكريه، يتقرَّرُ منه شاربُه من وجه، أليس كذلك؟ وهو نافع له بإذن الله من وجه آخر، إذًا هذا مثال ينبغي أن يضعه الإنسان نصب عينيه في هذه الأمور، وهو أن الشر مخلوق لله ﷻ، لكنه مراد لغيره، وليس مرادًا لذاته. والله ﷻ أعلم.

المقدم: ندخل في موضوع مهم، وهو صلب موضوع (مشكلة الشر)، ويستشكل عند بعض الشباب خاصة الذين قد يُتابعون أشخاصًا لا يُعرف منهمجهم ونحو ذلك، أو يقرؤون هكذا كيفما اتفق، وهو قضية ما يُسمى (مشكلة

الشر)، أو مُعْضِلَةُ الشرِّ، خلاصتها: أن وجود الشر في الدنيا يتعارض مع وجود ربِّ قدير رحيم، لو نبسِّط الجواب عن هذه الشُّبهة ممَّا نحتاج إليه جميعاً؟

الشيخ: الأمر - كما تفضَّلْتُمْ - هذه شُبهة يُوردها أعداء الله ﷻ من الملاحدة على وجه الخصوص؛ للتلبّيس على أهل الإيمان، وقد أوقعت بعض الناس في حيرة، وربما في شك وارتياب، وربما فيما هو أعظم - والعياذ بالله -؛ فإنه قد وُجد بالبحث والنظر في أحوال الملاحدة أنهم يبتئون هذه الشبهة كثيراً، فتفعل فعلاً عظيماً في نفوس الجهّال ممَّن في إيمانهم ضعف، وفي علمهم ضعف، حتى قيل: إن (مشكلة الشر) حي الحُجَّة المركزية للملاحدة، وبناء على هذا؛ فإحاطة المسلم بكيفية دَفْع هذه الشُّبهة عن نفسه وعن غيره أمر مهم.

خلاصة هذه الشبهة: أنهم يقدحون في وجود الله ﷻ بسبب وجود الشر في هذا العالم، فيقولون: لو كان الرب الخالق القدير الرحيم موجوداً ما وُجد الشر في هذا الكون؛ من الكوارث الطبيعية، المصائب، الأمراض، الظلم، إلى آخر ما هنالك، إذاً وجود الشر دليل على عدم وجود الخالق وإلا لماذا ما أزاله؟

هذه هي الشبهة العليّة التي يجتهدون في التلبّيس على الجهّال بها، وإن أذنت سأذكر - بعون الله - أجوبة ثمانية مختصرة تُعين على فهم هذا الموضوع وإزالة الشبهة:

الجواب الأول أن يُقال: نُسلِّم بوجود الشر في هذه الدنيا، لكننا لا نسلّم بأنه شر محض أو شرّ مجاني - كما يعيّر بعضهم-، بل أنواع المصائب والشُرور والظلم وما إلى ذلك يترتب على وجودها خير ومصلحة ولا بد، والرب الخالق الحكيم ﷻ قدّر وجودها؛ لِمَا يترتب على ذلك من خير ومصلحة، وهذا شيء مقبول عقلاً.

إذاً: الشر الموجود في هذا الكون وإن كان شرّاً من وجه فهو خير من وجه آخر، وكل الأشياء التي يذكرون أن فيها شرّاً قد ترتب على وجودها خيرات أعظم وأعظم، فالحكمة إذاً تقتضي وجودها لا عدمها.

هذا الماء الذي يقولون: إنه يغمر في فيضانات عظيمة قُرى؛ فيُهلك ويُفسد، هو نفسه الماء الذي تحصل بسببه المصالح عظيمة، هو نفسه الماء الذي يحتاج الناس في شربهم، ونظافتهم، ومُتعتهم، وفي أشياء كثيرة، وعليه؛ فوجود الماء ترتّب عليه خير كثير وشر قليل، والشر الذي وقع في أعطافه حكمة ومصالح يُدرك بعضها من نظرٍ إنصاف.

النار التي قالوا: إنه قد حصل بسببها فساد كثير، هي نفسها النار التي انتفع بها الناس انتفاعاً عظيماً في حياتهم، أكثر بكثير من المفسدة التي تقع نادراً، إذ كل شيء من هذه الأشياء التي يُشار إلى أن فيها شرّاً فإننا نقول: إنه يترتب على

وجودها خيرات أعظم وأعظم، إذاً الحكمة تقتضي وجود شرٍّ ووجوده لا يستلزم - كما يزعمون - نفي وجود الخالق ﷻ.

الجواب الثاني: الشر في هذا العالم داخل في حُسن مجموع العالم، والنظر ينبغي أن يكون نظرًا كليًا للأشياء لا نظرًا جزئيًا، سنُخطئ خطأً عظيمًا إذا جعلنا النظر مقيدًا جزئيًا، دون أن يكون نظرًا عامًا كليًا، الآن لو وقفت أمام لوحة جميلة، فسَلَطْتَ نظرك على خطٍّ صغير من خطوطها فحسب، هل ترى حُسْنًا وجمالًا؟ لكن إذا نظرت لها بصورة عامة فسَتَجِد الحُسن والجمال، أليس كذلك؟ كذلك وجود هذه الشرور في هذا الكون هو من الحُسن الذي سيظهر لك إذا نظرت إلى مجموع العالم.

بمعنى: أي قيمة للصحة إذا كنا لم نعرف المرض! أي قيمة للغنى إذا لم نعرف الفقر! أي قيمة للنجاح إذا لم يكن ثَمَّةُ تعب ومشقَّة! لنتخيَّل هذه الحياة بدون شيء من المصائب والعقبات والمصاعب، كيف ستكون؟ ستكون ولا شك حياة باهتة لا لون لها ولا طعم، إنما نعرف حسن الأشياء بضدها، ولن نعرف الخط المستقيم إن كنا لا نعرف الخط المَعْوَج، فبضدها تتبين الأشياء.

باختصار: إن وجود المصائب والابتلاء وأنواع الشرور ضروري لحُسن العالم، فالقصر الحُسن الجميل من حُسنه وجود المَرَحاض الذي هو موضع البول والغائط

والروائح الكريهة، ومع عدمه يكون هذا القصر ناقصًا، فاقداً كمال حُسنه، هكذا ينبغي أن يُنظر إلى هذا الموضوع.

الجواب الثالث: وهو أن يُقال: إن دعوى أن الشر الموجود في هذا الكون شرٌّ مجاني لا مصلحة فيه - كما يدَّعي الملاحدة - دعوى غير ممكنة أصلاً، لماذا؟ لأن المقام يحتاج إلى علم مُحيط، والبشر فاقدون له، حتى نجزم بأن هناك شرًّا موجودًا لا يترتب عليه أي مصلحة لا في الحال ولا في المآل؛ ينبغي أن يكون علمنا علمًا واسعًا مُحيطًا، والواقع خلاف ذلك، فعلمنا قليل قاصر.

أسألك: لو رأيتُ أنا وأنت من بعيد رجلين يمسكان طفلًا، ومعهما منشار، يهتمان أن يقطعا رجله، هل من العقل والإنصاف الحكم على هذا الموقف بخير أو شر بمجرد هذا النظر، أم أنه لا بد من الإحاطة بالواقع؟

المقدم: طبعًا لا بد من الإحاطة بالواقع، ممكن يكونون أطباء.

الشيخ: إذا ربما يكونا مجرمين، لكن ربما هو طيب، وأبٌ للطفل، وهو مصاب بمرض لو سرى إلى جسده لمات، فالحكمة تقتضي قطع رجله لتسلم نفسه، وهذا هو الخير.

إذا: إذا قال قائل: إن الشر الموجود في العالم لا مصلحة من ورائه؟

فإننا نقول له: لا بد أن يكون علمك علمًا محيطًا بالواقع من كل وجه حتى تحكم هذا الحكم، وهذا ما لا سبيل إليه، ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

الجواب الرابع: إذا قال الملاحدة: إن وجود الشر دليل على نفي وجود الله! فإننا نجيب بقولنا تنزُّلاً: فماذا عن وجود الخير؟ إذا كان وجود الشر دليلاً على نفي وجود الله، ألا ينبغي أن يكون وجود الخير دليلاً على وجود الله؟ مع ملاحظة: أن الخير هو الأصل، وهو الأكثر، والشر طارئ قليل، الصحة أكثر من المرض، من هم في المستشفيات في هذا العالم أقل بكثير ممن هم خارجها، أليس كذلك؟ العدل أكثر من الظلم، السلامة من الحوادث والزلازل أكثر بكثير من وقوعها، وهذا ما لا يختلف فيه العقلاء.

أعود فأقول: القوم يستدلون بوجود المرض على عدم وجود الله، فماذا عن وجود الصحة؟ لماذا كان هذا دليلاً، ولم يكن هذا دليلاً؟ هذا أمر.

وأمر آخر: هذا المريض المصاب في رجله، المصاب في قلبه، في عينه، ماذا عن بقية أعضائه وهي أكثر بكثير، مليارات الخلايا في جسم الإنسان، غالبًا تعمل عملاً حسنًا ومتسقًا مع بعضها، أعضاء كثيرة في جسده سليمة، تؤدي وظائفها على أحسن وجه، وهذا خير، إن كان مصابًا في عينه، عنده: القلب، والكبد، والأمعاء، والقدم، واليد، والأوعية، عنده أشياء كثيرة سليمة، واحد يُقابل مئة أو أكثر، أيهما

ينبغي أن يكون عليه المعوّل؟ لا شك أن كِفّة الأكثر ينبغي أن تكون هي الراجحة، ولذا كل الملاحدة عاجزون عن الإجابة عمّا يُسمى -وأقول على سبيل التجوّز: مشكلة الخير- إذا كانوا يستدلون بـ(مشكلة الشر) فإنّنا نطرح عليهم مشكلة أكبر، وهي مشكلة الخير، والخير أكثر بكثير، لم لا يستدل هؤلاء بوجود الخير الكثير على وجود الله؟ وهل هذا إلا دليل الهوى والعمى، نعوذ بالله من الخذلان.

الجواب الخامس وهو أن يُقال: لا تلازم بين كمال الصانع، وكمال المصنوع، فوجود مصنوع ناقص لا يستلزم بالضرورة أن يكون صانعه ناقصاً؛ لاحتمال أنه صنعَه ناقصاً أصلاً، فضلاً عن أن يكون نقص المصنوع دليلاً على عدم الصانع، وهذا ما وقع فيه الملاحدة، استدلوا بنقص المصنوع على عدم صانعه، فأين العقل؟! وأين الفهم؟!

دعني أضرب لك مثلاً: من دخل إلى قصر غاية في الجودة والجمال، فيه عشرات الغرف المفروشة بأحسن فراش، المصبوغة بأحسن الألوان، المرتبة أبدع ترتيب، ثم رأى من بين غرفه غرفة مبعثرة الأغراض، قبيحة الألوان، ليست في جمال بقية القصر، أقول: من رأى هذا، هل له أن يدّعي أن باني القصر غبي قاصر العقل، فضلاً عن أن يقول: إن هذه الغرفة وجودها دليل على أن القصر لا باني له، هل هذا معقول؟ أم أن العاقل سيستدل بما رأى من إتقان القصر على دقّة

بأنه، وجمال ذوقه، وسيُحيل وجود الغرفة المبعثرة في هذه الصورة إلى سبب أو آخر، إلى حكمة لأجلها جعلها الباني كذلك، ربما أرادها مكاناً لعقاب أبنائه، ربما أرادها مستودعاً، ربما أراد أي شيء آخر.

إذاً: هكذا ينبغي أن يُنظر إلى هذا الموضوع.

دعني أضرب لك مثلاً آخر: عندنا جهازا جوال، صنعتهما شركة واحدة، أحدهما ذو جودة وإتقان، وفيه مميزات كثيرة، وكل من رآه أعجب به، والآخر مستواه ليس بذلك، ليس فيه تلك المميزات، بالكاد يُرسل ويستقبل، الشركة صنعتها هكذا لهدف تجاري معين عندهم، أريد أن تحكم على تصرُّفي، لما رأيتُ هذا الجوال الناقص قلتُ: لا يوجد صانع لا لهذا ولا لهذا، لما كان أحدهما ناقصاً إذاً كلاهما وُجدَا من العدم بلا صانع، هل تصرُّفي معقول؟ هذا هو حال الملاحظة تماماً، أتوا بمثال أو مثالين أو عشرة أو مئة من هذا العالم فيها نقص أو مصائب في مقابل ملايين الملايين من أوجه إتقان الصُّنع والرحمة بالخلق، ثم لأجل هذا النقص ادَّعوا أن هذا الكون لا خالق له، أفهذا منطق للعقلاء؟

المنطق الصحيح يقول: وجود النقص لا يستلزم انتفاء الحكمة، ونقص المصنوع لا يستلزم نقص الصانع، فضلاً عن عدمه.

الخلاصة: الله تعالى قد شاء أن تكون هذه الحياة هكذا، فيها خيارات كثيرة، وفيها شُرور بالنسبة للخيرات قليلة، وله في هذا وهذا حكم بالغة، كما شاء سبحانه أن يجعل في الحياة الآخرة دارًا ليس فيها إلا نعيم خالص، ولذات مستمرة، ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾، وجعل دارًا أخرى أيضًا في الآخرة، ليس فيها إلا البؤس والتكال والعذاب الأليم، ومن ذاق في الدنيا شيئًا من اللذة، ومسته شيء من الألم فهم -يُيسر- معنى ما في الدار الآخرة من نعيم أو عذاب، مع البون الشاسع ما بين الأولى والآخرة.

الجواب السادس أن يُقال: لا يستقيم استدلال الملاحدة بما زعموا أنه (مشكلة الشر)، بل هذا شيء لا ينقضي منه العجب، لأن الأشياء عندهم كلها مادية، ما ثمَّ إلا ذرّات اصطدمت صدفة؛ فكان هذا الكون بلا خالق، وعليه فلا غاية ولا حكمة، لا أحاسيس، لا خير، لا شر، لا وجود لمعيار ثابت للأخلاق، ومعرفة الصواب والخطأ، إذا كيف تستدلون بعد ذلك بالشر؟! وما هو معيار الشر أصلًا؟! كيف لكم أن تحكموا أن هذا شر؟! أن هذا صحيح وهذا غير صحيح؟! ما هو المعيار عندكم، أنتم قائلون بنسبية الأخلاق، بل بالعدمية الأخلاقية.

التمييز - حفظكم الله - بين الحق والباطل، والخير والشر، لا يتأتى إلا ممن يعتقد بوجود خالق حكيم وضع في القلوب فطرة تميز بين هذه الأشياء، تُدرك الحسَن من القبيح.

بمعنى: إذا أردنا أن نقول هنا خير، هنا صواب، وهنا خطأ، يجب أن نرتفع عن الأشياء المادية، هذا الحكم ليس نتاج نظرية التطور والارتقاء التي يؤمنون بها، هذا لا يمكن أن يكون إلا إذا ثبت أن ثمة رباً خالقاً هو الذي وضع في هذه القلوب هذه الفطرة التي تميز بين الصواب والخطأ، أما على أصولكم -معشر الملاحدة- فالأشياء كلها سواء، ولا فرق، أن تُطعم يتيماً، وتُحسن إليه، أو أن تقتله وتقطع أطرافه، لا فرق بين زواج شرعي وبين اغتصاب، الحكم في القانون الإلحادي كله سواء، الحياة كلها عندهم مادية، المادية ولا شيء غيرها، لا هدف، لا غاية، لا حكمة، لا مشاعر، لا أحاسيس، لا أخلاق، إذاً كيف للملاحدة بعد ذلك أن يستدلوا بـ(مشكلة الشر)، لا شر ولا خير عندهم أصلاً، وهذا يُسقط مقالاتهم من أصلها.

الجواب السابع: هذه الحجّة للملاحدة تدل على أن مفهومهم للرّب مفهوم مغلوط، -وهذه نقطة أود أن يُنتبه إليها- أن يكون الرب سبحانه رباً خالقاً واسع

العلم والحكمة، له قدرة وعزّة وملك، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد والكل عبد ذليلٌ له، هذا غير وارد عندهم.

تدري ما مفهوم الرب عندهم؟ باختصار شديد هم يريدون ربًّا عبارة عن خادم أو آلة، آلة تفعل الأشياء التي يُبرمجونها عليها، أو خادم يأمرونه فيطيع، يريدون ربًّا لا يفعل شيئاً سوى أن يُكَيِّ لهم رغباتهم، وأن يُعْقد عليهم من شهواتهم، ومتى ما مسَّهم أدنى شوكة يُبادرون فينفون وجوده، فيقولون: لا يوجد رب، هذا مفهوم الرب بالنسبة لهم، ولذلك هم يقولون: كيف يوجد شر؟! كيف توجد مصائب؟! نحن نريد ربًّا نقول له: نريد؛ فيُعطينا مباشرة، هل هذا رب؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، الرب يفعل ما يشاء، ويحكم ما يُريد، وله العزّة والكبرياء، والعبد عبدٌ لا يخرج عن كونه عبداً لربّه.

الجواب الثامن والأخير: الدنيا مخلوقة للابتلاء، لا للنعيم والإسعاد، الله ﷻ

يقول: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، فإذا كانت الدنيا ليست دار إسعاد ولا نهاية المطاف، فلا وجه لأن يُطلب حصول كل أنواع اللذات فيها، وأن يُطلب زوال كل أنواع الغُمو، فثمّة دار أخرى هي دار الإسعاد المُخْص لمن استجاب لربه، مشكلة القوم أنّ نظرهم مقصور على هذه الحياة الدنيا، قد رضوا بها واطمأنوا، وما طمَحَت أبصارهم وقلوبهم إلى ما هو أبعد منها، إن كل مَنْ يؤمن

بحياة بعد هذه الحياة هي الحياة الحقيقية، ﴿وَلَيْتَ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤] إن كل مَنْ آمَنَ بهذا؛ فسيُزول عنه كل إشكال يتعلق بهذا الموضوع؛ لأنه سيُدرك أن في هذه الحياة الدنيا مصائب وابتلاءات، لكن هذه الحياة مجرد لحظات وثوانٍ إذا ما قُورِنَت بالحياة الآخرة، وثمة جزاء وتعويض في الآخرة لمن صبر على ابتلائه ومصائبه، وكل أنواع البلى في الدنيا إذا ما قُورِنَت بجزاء صبرها في جنات الخلد فإنها والله أهون من ألم قَرْصَةٍ.

أعود فأقول: هذه الحياة مجرد لحظاتٍ وثوانٍ إذا ما قارنّاها بالحياة الآخورية الأبدية التي لا انقضاء لها، ولذا؛ إذا مرض الإنسان، أو احترق، أو ابتلى، أو افتقر، فصبر واحتسب وأدّعن لربه؛ فسيكون له في الآخرة عوض كبير جدًا، فما المشكلة إذا؟ إذا وزنا الموضوع بميزان العقل فالمسألة معقولة جدًا.

أسألك: لو قال قائل -طبعًا هو قائل وليس أنت-: مَنْ يوافق من الإخوة المستمعين أن أقْرصَه قَرْصَةً واحدة، ومقابل هذا إذا صبر أن تُعطيه إذاعة القرآن عمارة من ستة أدوار، وسيارة فارهة، وعشرة ملايين في حسابه، هل هناك مَنْ سيرفض؟ كل أنواع البلى في الدنيا إذا ما قارنّاها بجزاء صبرها في الآخرة فإنها -والله- أهون من هذه القَرْصَةِ، وأنواع النعيم الموعود به لهذا الصابر أبد الآباد أعظم بكثير من هذا الوعد الدنيوي، بل والله أفضل من هذه الدنيا كلها وما فيها بما لا مقارنة فيه.

أعود فأقول: ستزول كل الإشكالات المتعلقة بهذا الموضوع -بتوفيق الله- عند مَنْ يفهم هذه الحقيقة فهماً صحيحاً، هل الدار الدنيا دار إسعاد، هل هي نهاية المطاف، أو أن هناك داراً أخرى هي دار الإسعاد للمؤمنين، ودار الجزاء والعوض، الدنيا -يا رعاك الله- دار ممرٍّ، كل مَنْ فيها من أهل التَّرف والنَّعم، أو أهل الابتلاءات والمصائب، الكل سيموت، ثم تكون حياة أخرى يُبعثون لها، ويجازى المؤمنون الصابرون، ويُجازى المعرضون الساخطون، فأئني عدل فوق هذا العدل؟! بل للمؤمنين الصابرين أي فضل فوق هذا الفضل؟!

المقدم: نريد أن نعود إلى السؤال الرئيسي في هذه الحلقة: ما الحكمة من تقدير الله تعالى للمصائب في الدنيا؟

الشيخ: أنا أريد أن أركِّز على ركيزتين مهمتين في الجواب -أظن أن الجواب السابق فيه إن شاء الله فائدة- لكنني أقول: إن اعتقادنا -معشر المسلمين- في موضوع الشر ووقوعه في هذا الكون قائم على ركيزتين، هما:

١. كمال الرب سبحانه في علمه، وحكمته، ورحمته، وعزَّته، وعدله.

٢. ونقص العبد، نقصه في عقله، في علمه، في إدراكه.

مَنْ آمَن بكمال الله المطلق، وتنزُّهه عن النقص والعيب والظلم، وأدرك نقصه هو وضعفه فإنه سوف يزول عنه كل إشكال يتعلق بهذا الموضوع، والتوفيق بيد

الله، ولا يملك المرء حينها إلا أن يقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [سبأ: ١].

المقدم: إن كان هناك من إحالات تُحيلون المستمعين إليها كُتب أو نحو ذلك للفائدة؟

الشيخ: هنا موضع غاية في النفاسة الحقيقة، هو فصل إيماني علمي نافع جدًا لابن القيم رحمته الله في كتابه العظيم «مفتاح دار السعادة»: ٨١٢-٨٤٧، من طبعة (عالم الفوائد)، هذه خمسة وثلاثون صحيفة في الحِكم التي تُلتَمَس من وقوع السيئات من العباد، أتمنى من الإخوة القراء أن يقرؤوها، سيجدون فائدة عظيمة بإذن الله وَجَّهَ.





الحلقة العاشرة

البحث عن الحكمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الشيخ: الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وأتباعه بإحسان، أما بعد
فالحكمة: -بارك الله فيكم- وضع الشيء في موضعه المناسب له، والمُوصِل للغايات المحموده منه.

والحكمة من صفات الله الثابتة له ﷻ على الوجه اللائق به، ولا تُماثل حكمة المخلوقين، كما أن من أسمائه ﷻ «الحكيم»، وقد ورد في القرآن -كما تفضلتم كثيرًا-، ورد في نحو (تسعين موضعًا)، وأجلى معانيه: أنه ذو الحكمة.
وأدلة ثبوت الحكمة له ﷻ كثيرة جدًا، وقد ذكر ابن القيم رحمه الله في «شفاء العليل» اثنين وعشرين نوعًا من الأدلة، يدخل تحت كل نوع جملة من الأدلة الشرعية، بل ذكر رحمه الله: أن من تأمل في مواضع حكمة الله ﷻ في الخلق والأمر، وجدها -مع قُصُور النظر- تزيد على عشرة آلاف موضع، كلها دليل على ثبوت حكمته ﷻ في كل ما يُقدّر ويحكم ويخلق.

إذًا: الله ﷻ أحكم الحاكمين، وأعلم العالمين، كما هو أرحم الراحمين، له الحكمة الباهرة، والعزة القاهرة، ملأت حكمته الوجود، وبهرت العقول، حتى صارت للبصائر أظهر من نور الشمس للأبصار، وخلق وأمره كله يشهد له

بالحكمة البالغة، والنعمة السَّابِغة، والحجة الدَّامِغة، والنزاهة من الظلم واللعب والعبث، ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود:٥٦].

له سبحانه في كل ما يفعل أو يأمر أو يُقدِّر غايات مطلوبة، وعواقب محمودة، يُحمَد عليها سبحانه، ولأجلها أنزل كُتُبُه، وأرسل رُسله، وشرَعَ شرائعه، وخلق الجنة والنار، ووضَعَ الثواب عقاب، وَمَنْ فُتِحَ له بفهم في القرآن رآه من أوله إلى آخره يُرشد العقول إلى أن مصدر ذاك جميعه عن عزته وحكمته، ولهذا كثيرًا ما يَقْرِن تعالى بين هذين الاسمين «العزیز والحكيم» في آيات التشريع والخلق والجزاء، ليدل عباده على أن مصدر ذلك عن حكمة بالغة، وعزة قاهرة.

وَمَنْ له نظر صحيح، وفكر مستقيم، شَهِد بذلك فيما رآه وعلمه، واستدل بما شاهده على ما خفي عنه، فإن الكل صُنِعَ الحكيم العظيم ﷺ، ويكفي في هذا ما يعلمه من الحكمة في خلقه هو في أعضائه: صفاتها، هيئاتها، منافعها، في اشتغالها على الحكمة المطلوبة أتمَّ اشتغال.

تَأْمَل في إصبع واحد فقط من أصابعك، كيف اجتمع فيه: الجلد، واللحم، والدم، والظفر، والأعصاب، والمفاصل، والبصمات، وأشياء كثيرة وعجيبة، اجتمعت بتناسق بديع في هذا الشيء الصغير، فكيف بهذا الكون العظيم عاليه وسافله؟

تأمل مخلوقاته صحيح التأمل، وستجدها مؤسسة على غاية الحكمة، مُغشاة بالحكمة، تقرأ سُطور الحكمة على صفحاتها، وتنادي عليك: هذا صنَّع العليم الحكيم، وتقدير العزيز العليم، الذي أتقن كل شيء، وما ترى في خلقه من تفاوت. وإني لأستغفر الله العظيم من الخوض في هذا الموضوع العظيم، الذي لا أقدر ولا أهل الأرض جميعًا على الوفاء بحقه، فإنما يصفه الواصفون من حكمته سبحانه، وتنتهي إليه علومهم منها، هو كما يُدخل إنسان إصبه في البحر ثم ينزعها، فهو يصف البحر بما يعلّق على إصبه من البَلَل، وأين ذلك من البحر، فيظن السامع أن تلك الصفة أحاطت بالبحر، وإنما هي صفة ما علّق بالإصبع منه، فالأمر أجلّ وأعظم من أن تُحيط عقول البشر بأدنى جزء منه.

المقدم: وبالفعل لعلَّ مُعظم المواضيع المرتبطة بذات الله ﷻ من هذا النوع وبهذا الثقل، نسأل الله ﷻ أن يُعيننا في هذه الحلقة على إيضاح ولو خطوط عريضة نوضح فيها للمستمعين، خاصة مع كثرة الأسئلة عن الحكمة من كذا، الحكمة من أمر الله تعالى بكذا، وهذا هو السؤال القادم، ثبوت الحكمة لله ﷻ، هل يلزم منه أن تكون معلومة بالنسبة لنا كبشر؟

الشيخ: ثبوت الحكمة لا يستلزم ظهورها في كل موضع ولكل أحد، حكمة الله ﷻ أعظم من أن يحيط بها خلقه.

بمعنى: الله ﷻ ما خلق شيئاً، ولا شرع حكماً إلا وله فيه حكمة مقصودة محبوبة له، لكن تلك الحكمة منقسمة إلى جليلة وخفية، قد تظهر وقد تخفى، يعلمها مَنْ يعلمها، ويجهلها مَنْ يجهلها، وقد يجهلها جميع الخلق، فهو سبحانه يعلم ما لا نعلم، ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]، فلا يستطيع أحدٌ من الخلق الاطلاع على جميع مكنون حكمته سبحانه، ومن لم يُسَلِّمْ بهذا، يلزمه مساواة الخالق والمخلوق في معرفة المصالح وجميع دقائق الحكمة، وكيف يَسْتَوِي رَبُّ الأرباب والمخلوق من التراب؟! هل يُسَوَّى بين الظُّلوم الجُهل، وعَلَام الغيوب؟!!

والمُؤَفَّقون فَهِمُوا هذا، وانتهوا إلى ما وقفوا عليه، ووصلت إليه أفهامهم، وردُّوا عِلْم ما غاب عنهم ذلك إلى الذي هو بكل شيء عليم، تحقَّقوا أن الله في كل ما خلق وأمر وأثاب وعاقب من الحكم البَوَالِغ ما تقصر عقولهم عن إدراكه، وأنه تعالى هو الغني الحميد، العليم الحكيم، وأنه لا يُسأل عما يفعل؛ لكمال حكمته وعِلْمه، والعباد يُسألون؛ إذ ليسوا كذلك.

المقدم: هل البحث عن الحكمة في كل حكمٍ قدرِي أو شرعي مسلك رشيد؟

الشيخ: لا شكَّ أنه مسلك غير رشيد، من الخطأ العظيم أن يَرُوم الإنسان الإحاطة بحمة الله ﷻ في كل شيء، هذا من أوسع أودية الضلال، وكَم سَلَكَه من لم يُوفِّق؛ فضَلَّ وانحرف، ربما وقع في الكفر عياداً بالله، وصدَّق ابن تيمية رحمته الله حين قال:

وأصل ضلال الخلق من كل فرقة هو الخوض في فعل الإله بعلة
فإنهم لم يفهموا حكمة له فصاروا على نوع من الجاهلية

من يسلك هذا المسلك، يطلب شيئاً فوق طاقته، لو قيل للإنسان: عُدْ كل حبات الرمال، وجميع نجوم السماء؟ لكان طلباً يستحيل القيام به؛ لأن قدرته أضعف من ذلك، فالعجز هنا راجع إلى ضعف المسؤول، لا لأن الرمل أو النجوم معدومة. فحكمة الله إذاً ثابتة لا ريب فيها، ولكن العقول أضعف من أن تُحيط علماً بها جميعاً، بل أقول: إنَّ الإنسان لا يتمكن من الإحاطة بالحكمة من كل أفعال مخلوق مثله، والقاعدة المألوفة، والعادة المعروفة: (أَنَّ الأَعْلَمَ إِذَا تَمَيَّزَ شَيْئاً قَلِيلاً عَنْ أَجْنَاسِهِ وَأَشْبَاهِهِ، لَمْ يَكُنْ بُدُّ مِنْ أَنْ يَأْتِيَ بِمَا لَا يَعْرِفُونَ)، واعتبر في هذا بما جرى بين موسى والخضر عليهما الصلاة والسلام، كيف أن موسى وهو الأَعْلَمُ والأَرْفَعُ منزلة، قد خفي عليه شيء من الحكمة في بعض ما فعل الخضر، وقد قصَّ الله ﷻ علينا قصتهما في (سورة الكهف).

وفي «الصحيحين»^(١): أن الخضر قال لموسى عليهما السلام: «يا موسى، إني على علم من علم الله علَّمَنِيهِ لَا تَعْلَمُهُ أَنْتَ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ عِلْمَكَ لَا أَعْلَمُهُ»، فالاختلاف في العلم سبب في خفاء الحكمة.

(١) رواه البخاري برقم (١٢٢)، ومسلم برقم (٢٣٨٠).

فإذا كان هذا في حق مخلوق مع مخلوق، بل مخلوق فاضل مع مخلوق مفضول، فكيف في حق مخلوق جهول مع خالق عليم حكيم سبحانه؟
وقد أحسن مَنْ قال:

وما سبب الخلاف سوى اختلاف الـ علوم هناك بعضاً أو تماماً
فكان من اللوازم أن يكون الـ إله مخالفاً فيها الأناماً
فلو لم نجهل الأسرار عنها بلَغنا مثله فيها المراماً

واعتبر في هذا -أيضاً- بالحيوان البهيم، فإنه يفهم فهمًا لا ثقًا به، لكن لا يبلغ فهمه إلى أن يعرف حكمة الحكماء، وتصانيف الأذكياء، ومعارف الفطناء، فكذلك الحكماء لا يعرفون جميع حكمة الله، والله المثل الأعلى.

وإني أقول على سبيل تقريب المراد: لو أن العبد علم نصف ما يعلمه الله ﷻ، لجاز أن تكون حكمة الله فيما جهلناه في النصف الآخر، فكيف والله تعالى

يقول: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]؟

وفي «الصحيحين»^(١)، عن النبي ﷺ لَمَّا قَصَّة موسى والخضر، قال: «**وجاء عصفور فوقَ على حرف السفينة، فنَقَرَ في البحر نَقْرَةً، فقال له الخضر: ما عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ، إِلَّا مِثْلُ مَا نَقَصَ هَذَا الْعَصْفُورُ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ**». وما أَحْسَنَ مَا قَالَ بَعْضُهُمْ: «إِنْ نِسْبَةُ عِلْمِنَا إِلَى عِلْمِ اللَّهِ كَنِسْبَةِ لَا شَيْءٍ إِلَى مَا لَا نَهَايَةَ لَهُ».

إِذَا: لِيَتَّبِعَ الْإِنْسَانُ لِهَذِهِ الْقَضِيَّةِ، فَإِنَّهَا مَسْأَلَةٌ مُهِمَّةٌ، يَجِبُ أَنْ نَسْتَوْعِبَهَا جَيِّدًا؛ فَقَدْ يَزِلُّ الْمَرْءُ بَظَنِّ سَيِّئٍ يَظُنُّهُ فِي رَبِّهِ سُبْحَانَهُ، وَقَدْ يَزِلُّ لِسَانَهُ بِكَلِمَةٍ يَعْتَرِضُ بِهَا عَلَى رَبِّهِ تَوَرُّدَ الْمَوَارِدِ، وَقَدْ يَتَأَثَّرُ بِشُبُهَاتِ أَهْلِ الضَّلَالِ فِي هَذَا الْعَصْرِ، لَا سِيَّمَا مِنْ دَعَاةِ الْإِلْحَادِ وَاللَّادِينِيَّةِ، فَإِنَّهُمْ كَثِيرًا مَا يَنْفُذُونَ فِي دَعْوَتِهِمُ الضَّالَّةَ مِنْ بَابِ الْحِكْمَةِ وَالتَّعْلِيلِ، أَوْ مِنْ فُرُوعِهِ لَا سِيَّمَا مَا يَدْعُونَهُ (مَشْكَلَةُ الشَّرِّ) الَّتِي طُرِحَتْ فِي الْحَلَقَةِ الْمَاضِيَةِ، إِذَا -يَا أَيُّهَا الْمَوْفَّقُ- اقْطَعْ مِنْ نَفْسِكَ الطَّمْعَ فِي إِدْرَاكِ الْحِكْمَةِ فِي كُلِّ أَحْكَامِ اللَّهِ ﷻ الْقَدْرِيَّةِ وَالشَّرْعِيَّةِ، وَأَيِّقِنْ مَعَ هَذَا بِأَنَّ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ حِكْمَةً بِالْغَةِ.

أَنْتَ إِذَا كُنْتَ تَثِقُ بِعَقْلِ إِنْسَانٍ، وَبِمَحَبَّتِهِ لَكَ، وَبِصَفَاءِ قَلْبِهِ؛ فَإِنَّكَ سَتُسَلِّمُ لِأَفْعَالِهِ، وَإِنْ لَمْ تَفْهَمْ السَّبَبَ فِي كُلِّ فِعْلٍ لَهُ عَلَى وَجْهِ الْخُصُوصِ.

(١) رواه البخاري برقم (٣٤٠١)، ومسلم برقم (٢٣٨٠).

بمعنى: إذا كنت تثق بعقل أبيك -مثلاً- ومحبته، وبرجاجة تفكيره؛ فإنك إذا رأيت بعض الأفعال المستغربة منه ستقول في نفسك: لم فعل أبي كذا؟ لكنك ترجع إلى الأصل المُتَقَرَّر عندك بعدها وهو أنه رجل عاقل، ولا بد أن عنده سبباً لفعله، أو إذا كان اتخذ موقفاً منك، فإنك ستقول: إنني بأنه يحبني، وأنه لا يريد بي شراً، وإن كنتُ أجهل السبب.

الخلاصة: لله حكمة بالغة، هذا شيء قطعي، كونها تظهر أو لا تظهر هذا ليس شيئاً ضرورياً، قد تظهر وقد لا تظهر.

واحفظ عني -يا رعاك الله- هذه القاعدة المهمة، وحفظها: "كلمتان ممنوعتان في بابين: «كيف» في باب الغيب. و«لم» في باب القدر".

«لم» هذه ضَعَّ عندها خطأ أحمر، حذارٍ أن تحومَ هاهنا، لم يفعل الله كذا؟ لم أعطَ الله فلاناً وما أعطاني؟ لم هدى الله فلاناً وأضلَّ فلاناً؟

كذلك في مسائل الشريعة، لم حكم الله بكذا، ولم أمر بكذا، ولم نهى عن كذا؟ انتبه! هذا قد يُجرُّ إلى ما لا تُحمد عُقباه، لكن ثق وأيقن وآمن واعتقد: أن لله حكمة بالغة، وله في إخفاء الحكمة حكمة.

المقدم: شيخنا أحياناً يكون الإنسان فعلاً مُحبّاً للدين، وعلى قدر من الإيمان ونحو ذلك، ولكن أحياناً تحت ضغط الحياة، ونحو ذلك، أو تحت ضغط ما

يسمعه ويشاهده في بعض وسائل الإعلام، قد يحدث منه شعَر أو لم يشعُر نوعٌ من الاعتراض على الحكم الشرعي أو الحكم القدري، أو الأقدار التي تُصيِّبه بسبب عدم معرفته لحكم الله ﷻ، أو لحكمة الله ﷻ من وراء هذا الأمر، أو هذا الخلق، فنريد تعليقاً على هذه المسألة؟

الشيخ: هذا الموضوع الذي نتحدث فيه، فيه -رَعاك الله- خطآن متلازمان، يقعان من بعض الناس:

أولهما: التَّنْقير عن الحكمة في كل صغير وكبير كما سبق.

وثانيها: رَبط الانقياد بمعرفة الحكمة.

يقول القائل: سأطيع أمره سبحانه إن ظهرت لي الحكمة منه، أو ربما لا يتجرأ هذه المرأة القبيحة، لكنه يقوم متشافلاً ومُتشكِّكاً، أو أنه ينظر إلى قَدَر الله ﷻ بقَدَر كبير من الرِّيبة، وهذا خطر عظيم، مَبْنَى العبودية على الإيمان والتسليم، **ومن التسليم:** عدم الاسترسال في التَّنْقير عن تفاصيل الحكمة في الأوامر والنواهي والمقادير، مع الإذعان والقبول والانقياد.

إن ورد الشرع بذكر حكمة، وفهَمَها عقلك، كانت هذه زيادة في البصيرة، لكن إن لم تظهر فلا ينبغي أن يُوهن ذلك في انقيادك -يا أيُّها المُعْظَمُ لربك- ولم يقدح في امتثالك.

يقول أهل العلم: «ما سَلِمَ في دِينِهِ إِلَّا مَنْ سَلَّمَ اللهُ ﷻ، ولرسوله ﷺ، وَرَدَّ عِلْمَ ما اشْتَبَهَ عَلَيْهِ إلى عَالِمِهِ، وَلَا تَثْبُتُ قَدَمُ الْإِسْلَامِ إِلَّا عَلَى ظَهْرِ التَّسْلِيمِ وَالِاسْتِسْلَامِ، فَمَنْ رَامَ عِلْمَ ما حُظِرَ عَنْهُ عِلْمُهُ، وَلَمْ يَقْنَعْ بِالتَّسْلِيمِ فَهْمُهُ، حَجَبَهُ مَرَامُهُ عَنْ خَالصِ التَّوْحِيدِ، وَصَافِيِ الْمَعْرِفَةِ، وَصَحِيحِ الْإِيمَانِ، فَيَتَذَبَذَّبُ بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ».

ولذا لَمْ يَخْلِكِ اللهُ سُبْحَانَهُ عَنْ أُمَّةٍ صَدَّقَتْ نَبِيَّهَا، وَأَمْنَتْ بِمَا جَاءَ بِهِ أَنَّهَا كَانَتْ تَسْأَلُهُ عَنْ تَفَاصِيلِ الْحِكْمَةِ فِيمَا أَمَرَهَا بِهِ وَنَهَاها عَنْهُ، وَفِيمَا بَلَّغَهَا عَنْ رَبِّهِ، بَلْ انْقَادَتْ، وَسَلَّمَتْ، وَأَذْعَنْتْ، مَا عَرَفَتْهُ مِنَ الْحِكْمَةِ عَرَفَتْهُ، وَمَا خَفِيَ عَنْهَا لَمْ تَتَوَقَّفْ فِي انْقِيَادِهَا وَإِيمَانِهَا وَاسْتِسْلَامِهَا عَلَى مَعْرِفَتِهِ، وَلَا جَعَلَتْ طَلَبَهُ مِنْ شَأْنِهَا، وَكَانَ رَسُولُهَا أَعْظَمَ فِي صُدُورِهَا مِنْ سَوْأَلِهِ عَنْ ذَلِكَ، لَمْ يَقُولُوا: لِمَ أَمَرَ رَبُّنَا؟ وَلَكِنْ قَالُوا: بِمِ أَمَرَ رَبُّنَا؟ شَأْنُهُمُ الْبَحْثُ عَنْ أَوَامِرِهِ وَمَرَاذِيهِ؛ لَامْتِثَالِهَا.

أَمَّا الْمُعْتَرِضُ عَلَى حِكْمَةِ رَبِّهِ: فَمَا أَضْعَفُ إِيْمَانُهُ، وَمَا أَضْعَفُ عَقْلُهُ! حَدَّثَنِي بِمَا تَرَى فِي رَجُلٍ هُوَ أَحَذَقُ النَّاسِ بِصِنَاعَةِ مِنَ الصِّنَاعَاتِ، قَدْ أَحْكَمَ آلَاتِهَا وَأَسْبَاغَهَا عَلَى أَكْمَلِ الْوُجُوهِ، ثُمَّ جَاءَ رَجُلٌ جَاهِلٌ لَا مَنَاسِبَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ذَلِكَ الْحَاقِظِ بِوَجْهِهِ مِنَ الْوُجُوهِ، فَأَخَذَ يَعْتَرِضُ عَلَيْهِ فِي أَجْزَاءِ تِلْكَ الصِّنَاعَةِ وَآلَاتِهَا وَمَقَادِيرِهَا، يَقُولُ: هَلَّا كَانَ هَذَا أَكْبَرَ مِنْ هَذَا، وَهَذَا أَصْغَرَ مِنْ هَذَا؟ أَوْ كَانَ هَذَا فِي مَوْضِعٍ كَذَا وَكَذَا؟ أَلَيْسَ هَذَا مِمَّا يَسْخَرُ مِنْهُ الْعُقَلَاءُ؟ وَيَعْتُدُّونَ صَاحِبَهُ فِي زُمْرَةِ السُّفَهَاءِ؟

يعني: أنا لو جئتُ الآن إلى طيب يفصل طفلين سياميَّين مثلاً، أو طيار يقلع بطائره، أو مهندس يُعدّ لإنشاء جسر من الجسور، كلها أشياء في غاية الدقة، وأنا جاهل بهذه الأمور تماماً، ثم جئتُ أتفلسف كما يقولون، أقول: هذا من هنا يصلح، لا تفعل كذا، أنا لا أفهم حكمة لكذا، مع ملاحظة أنه يمكن لهذا المعارض إن اجتهد وتعلَّم أن يشارك الأستاذ الحاذق في صناعته، بل وأن يتقدم عليه فيها، ومع ذلك اعتراضه مدفوع - حينما يكون جاهلاً - عند كل عاقل، فما الظن بالاعتراض على من لا شريك له في حكمته، ولا شبيه له في علمه، أفلا يستحي من يرى قُبْح اعتراض مخلوق مفضول على مخلوق فاضل، ثم يَعْتَرِض على حكمة أعلم العالمين وأحكم الحاكمين سبحانه؟

والعجيب هنا: أنه يَعْتَرِض بعقله الذي هو هبةٌ ممن يعترض عليه، سبحانه الله! إذا لم يكن تعظيم ألا حياء؟! صدق ﷺ في وصف الإنسان: ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

المقدم: أودُّ أن أعود إلى ما ذكرت فضيلتكم كلمتان ممنوعتان في بابين: «كيف» في باب الغيب، و«لم» في باب القدر، لو نوضّحها في دقيقة، نُعيد التوضيح؟

الشيخ: «كيف» في باب الغيب، المسائل الغيبية المتعلقة بكيفية صفات الله ﷻ، أو بأمور الآخرة، لا ينبغي أن يُسأل عنها بـ«كيف»؛ لأن هذا خارج عن

قدرة فهم الإنسان وعقله، نحن عقولنا محصورة بمحسوسات شاهدناها أو شاهدنا نظيراً لها، أمّا مسائل الغيب فلا قدرة لعقولنا أصلاً على أن تخوض فيها، كذلك الشأن بـ«لم»، أو «ليش»، «ما السبب» في مسائل القدر أو في مسائل الشريعة التي علتها تعبدية، لا ينبغي للإنسان أن يخوض فيها؛ لأن الخوض في ذلك أيضاً خوض فيما تعجز العقول عن الإحاطة به.

المقدم: ألمحتُم سابقاً قبل دقائق إلى قضية أنه كيف يسأل الإنسان عن مثل هذه الأمور، وقضية الأدب مع الله ﷻ، والتأدب مع الله في السؤال عن مثل هذه الأمور، الحكمة من فعل الله لكذا، ومن أمر الله بكذا، فتريد في ختام هذه الحلقة ضوابط جامعة توضح لنا خلاصة المنهج الصحيح في موضوع حكمة الله تعالى في خلقه وأمره؟

الشيخ: الحقيقة أن الموضوع من السعة بمكان، ولذلك حاولتُ أن أُخصّ جملة من أشغلاته في ضوابط، بلغت بين يديّ خمسة عشر ضابطاً:

● الضابط الأول: اعتَصِمَ بالجواب الجملي، وهو: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا

تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]. الملائكة عليهم الصلاة والسلام لما ما عرفوا حكمة

الله ﷻ على التعيين في استخلاف آدم عليه السلام، وسألوا ربهم تعالى عن

ذلك فقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ

بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴿البقرة: ٣٠﴾، ما عرفوا حكمة الله ﷻ على التعيين في هذا الفعل. الله ﷻ ما بيّن وجه الحكمة على التعيين، بل أعلمهم بالجواب الجملي، فقال: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿البقرة: ٣٠﴾، فإذا كفى الملائكة هذا الجواب، فإنه يكفي المؤمنين، يجب القطع بأن جميع ما يشتبه على العقول من شأن أفعاله وأقداره سبحانه غير خالٍ عن الحكمة والمصالح والغايات الحميدة، وإن كُنّا نجهل التفصيل، ولذلك كانت الإشارة بقوله سبحانه: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿البقرة: ٣٠﴾، فلو لم تكن الحكم مرادة في أفعاله ما سألت عن ذلك الملائكة، ولولا أن الجواب الإجمالي كافٍ للموقنين، ما أُجيبوا بسعة العلم، إذا ثبتت الحكمة إجمالاً يُغني عن تتبّع تفاصيله، والجواب الجملي يُغني المؤمن عن الجواب التفصيلي.

- الضابط الثاني: قُصُور الْعِلْمِ لَا يَنْتَهِزُ مُعَارِضًا، إن لم يُحِطَ الْبَشَرُ بجميع وجوه حكمة الله ﷻ في بعض أفعاله، بل ولا شيء منها في بعضها، فله سبحانه في هذا الحُجّة الدامغة، والحكمة البالغة، والكمال المطلق، وقُصُور العبد الظَّلوم الجهول عن معرفة أعيان الْحَكَمِ على التفصيل، لا يَنْتَهِزُ مُعَارِضًا للبراهين القاطعة الدالة على ثبوت

حِكْمَة أَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ، أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ سُبْحَانَهُ، وَمَنْ أَشْرَبَ قَلْبَهُ صَفَوْا الْإِيمَانَ؛ أَغْنَاهُ هَذَا الْإِجْمَالُ، وَكُلٌّ مَنْ يَعْتَرِضُ فَإِنَّهُ لَا يَبْنِي عِتْرَاضَهُ عَلَى عِلْمِهِ، وَإِنَّمَا هُوَ يُعْلِنُ جَهْلَهُ وَقُصُورَ عَقْلِهِ.

● الضابط الثالث: الله تعالى عدل لا يظلم، ثِقْ بهذا وأيقن، والأدلة النقلية والعقلية على هذا كثيرة جداً، ودُونُكَ هَذَا الدليل العقلي:

الملك العزيز جلَّ في علاه لا يخاف من أحد ولا يَتَّقِيهِ، ولو شاء لَخَلَقَ الْخَلْقَ فِي النَّارِ ابْتِدَاءً، وَلَمْ يَحْتَجْ إِلَى تَمْكِينٍ، وَلَا تَكْلِيفٍ، وَلَا كُتْبٍ، وَلَا رَسَلٍ، وَلَا بَعَثٍ، وَلَا صُحُفٍ، وَلَا مُوَازِينَ، حِينَ عَدَلَ عَنْ ذَاكَ إِلَى هَذَا؛ عَلِمْنَا أَنْ مَرَادَهُ أَنْ يَوْصَفَ بِالْعَدْلِ، وَأَلَّا يُنْسَبَ إِلَيْهِ الظُّلْمُ، وَالْعِلْمُ بِذَلِكَ ضَرُورِي لِمَنْ هُوَ سَلِيمُ الْعَقْلِ، فَتَيَقَّنْ أَنْ رَبَّكَ عَدْلٌ لَا يَظْلِمُ وَاطْمَئِنَّ.

● الضابط الرابع: انَّهم ظنونك.

قول بعض مَنْ قَصَرَ عَقْلُهُ عَنْ مَعْرِفَةِ الْحِكْمَةِ فِي بَعْضِ أَفْعَالِهِ تَعَالَى: إِنَّهُ لَا حَكْمَ فِيهَا، بَلْ هِيَ شَرٌّ مَخْضُ، مِثْلُهُ مِثْلُ أُمِّ الصَّبِيِّ الَّتِي تَرَى الْحِجَامَةَ شَرًّا مُحَضًّا، فَتُحْجِمُ عَنْ تَحْجِيمِ يَنْفَعِهِ، وَمِثْلُ الْغَيِّ الَّذِي يَرَى الْقَتْلَ قِصَاصًا شَرًّا مُحَضًّا؛ لِأَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَى خُصُوصِ الشَّخْصِ الْمَقْتُولِ، وَيَذْهَلُ عَنِ الْخَيْرِ الْعَامِ الْحَاصِلِ لِلنَّاسِ كَافَّةً،

ويجهل أن التوصل بالشر الخاص إلى الخير العام خير مُحض، ولا ينبغي لحكيم أن يُهمله، فاتَّهم خاطرك.

● الضابط الخامس: فَرَّقَ بينما يقصر العقل عن دركه، وما يعلم العقل استحالته، أي: بينما لا يعلم العقل ثبوته، وما يعلم العقل انتفاءه، بين محارات العقول، ومحالات العقول، فإن الرسل **عليهم الصلاة والسلام** قد يُخبرون بمحارات العقول، وهي ما تعجز العقول عن معرفته، ولا يُخبرون بمحالات العقول، وهي ما يعلم العقل استحالته، فهذا لا يأتي في الشرع البتَّة.

● الضابط السادس: تأمَّل تأمُّل استرشاد لا انتقاد.

لا يعرف طرفاً من الحكمة في الشريعة إلا مَنْ فَتَحَ الله عليه، وأقبل بصدق على تأملها بتجرد لا بانتقاد، أمَّا مَنْ نظر إلى الشريعة بانتقاد؛ فلن يُفتح له باب المعرفة، ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ﴾ [النحل: ١٠٤]، أمَّا الذي ينظر إليها طالباً الرشد، فهذا الذي يُفتح عليه، وستبين له من الأسرار ما يخفى على كثير من الناس، فأمِنْ تَهْتَدِ، لتأمل آيات ربنا تأمُّل استرشاد لا تأمل انتقاد.

● الضابط السابع: تذكَّر كمال الرب، ونقص العبد.

ليتذكّر الإنسان ما يعلمه من نفسه؛ من جهله، من قلة علمه، من تردّده في الأمور، من خيّرته في أشياء سهلة، ليتأمل في رجوعه عمّا كان عليه مرارًا من وجدانه للشيء بعد اليأس منه، فإن علم الإنسان بأحوال نفسه ضروري، وهو حُجة عليه، كما قال تعالى: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ [القيامة: ١٤]، وقد وصفه العليم الخبير بأنه ظلّوم جهول.

كما عليه أن يتذكر التفاوت العظيم بين الخلق في البلادة والذكاء، ومعرفة الدقائق وحبس العواقب، فكيف التفاوت بين الخلق وخالقهم، الذي هو العليم العظيم ﷻ.

● الضابط الثامن: استدللّ بما عرفت على ما غاب عنك.

حسب العقول الكاملة أن تستدلّ بما عرفت من حكمته سبحانه على ما غاب عنها، وتعلم أن له حكمة في كل ما خلق وشرع، والمدير الحكيم من البشر إذا ثبتت حكمته، وابتغاه الصلاح لمن تحت تديره، كفته هذه المعرفة عن تتبّع مقاصده في تفاصيل كل فعل من أفعاله، فما بالك برب العالمين، أحكم الحاكمين، وأعلم العالمين، وأرحم الراحمين.

إذًا: ثبوت الحكمة إجمالاً يكفي عن تتبّع تفاصيلها.

- الضابط التاسع: معرفة الحكمة على التفصيل ليست في قوى البشر، وعليه فإذا قال قائل: لَمْ يُمْ يُخْبِر الله تعالى كل عبد من عباده بكل ما يفعلُه؟ لَمْ يُمْ يَفْقَهُمْ على وجه تديره في كل ما يريد، على حكمته في صَغِير ما ذَرَأَ وبراً وكبيره؟ فيُقال: وهل يفعل هذا مخلوق مع مخلوق؟! أَبُّ مع ابنه، صديق مع صديقه؟ فكيف بَرِّ مع عبيده؟ ثُمَّ هل في قوى المخلوق تحمُّل ذلك؟ لا، قطعاً، وهذا من عزته سبحانه، ومن رحمته أيضاً بعباده.

الخلاصة: القوى البشرية ليست مستعدة للعلم بتفاصيل حكمة الله في خلقه وأمره، وعليه فبيان تفاصيل الحِكم لهم عَبَثٌ منافٍ للحكمة.

- الضابط العاشر: الحكمة قد تكون جَلِيَّة، وقد تكون خَفِيَّة، فهي ثابتة قطعاً، لكن ثبوتها لا يستلزم ظهورها في كل موضع، ولكل أحد، وهذا ما سبق بيانه.

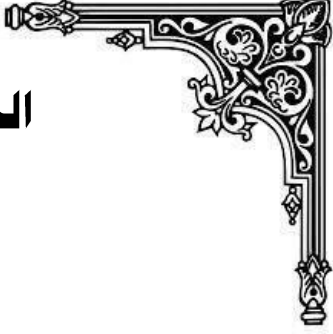
- الضابط الحادي عشر: الدنيا دار ابتلاء، ومن الابتلاء: خَفَاء الحكمة أحياناً، من الابتلاء الذي يتميز به المؤمن من غيره: خَفَاء الحكمة في بعض أحكام الله الشرعية والقدرية، فلا تستنكر هذا الخفاء.

- الضابط الثاني عشر: في عقولنا قوة التسليم، وليس فيها قوة الاعتراض، من المُتيسِّر لعقول البشر: أن يُسلِّموا لحكمة مولاهم، وأن ينقادوا لحُكمه، وليس في قُوَّتهم الاعتراض على أحكامه؛ لأن هذا يستلزم أن يكون للمخلوق عِلْم كَعِلْم خالقه، وأئى ذلك؟!
- الضابط الثالث عشر: التَّنْقير عن الحكمة في كل صغير وكبير طريق إلى الهاوية، وربط الإيمان بمعرفة الحكمة خطر عظيم، وهذا ما سبق بيانه.
- الضابط الرابع عشر: معرفة الحكمة التفصيلية نِعْمة، وجهلها نِعْمة، وتقدَّم أن لكل حُكم شرعي أو قَدْرِي حكمة مقصودة، عَلمها مَنْ عَلمها، وجهلها من جهلها، إن ظهرت للعبد حَمْد الله، وازداد يقينه بحكمة ربه، وعظمة دينه وقَدْرِهِ، وإن لم تظهر ازداد إيمانه -أيضًا- بتسليمه لربه، وقبول ما عجز عقله عن إدراكه؛ لأنه جاء من عند الله.
- الضابط الخامس عشر والأخير: مَنْ عَجَز عن معرفة حكمة مخلوق مثله، فهو عن معرفة حكمة ربه أعجز، وهذا قد سبق بيانه.

المقدم: إن كان هناك من إحالة تُحيلون المستمعين إليها؟

الشيخ: أُحيل طالب الفائدة إلى قراءة فصل نافع جدًّا، وهو (الباب الثاني والعشرون) من «شفاء العليل» لابن القيم، في حكمة الرب ﷻ، ولا سيما في إثبات الأدلة على حكمة الله، ٢: ١١٥-١٥٦، من طبعة (دار الفوائد).





الحلقة الحادية عشرة

الهداية والإضلال

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الشيخ: مسألة الهداية والإضلال من مسائل في القدر - كما تفضّلتم -، وهي من المسائل المهمة والدقيقة والعميقة، والتي - كما أشرت - قد تُستشكل عند بعض الناس، ولأجل هذا لا بد من التنبيه للتأصيل الصحيح لها، وإلا وقع خللٌ كبير. هذا الموضوع ينبغي أن يأخذه الإنسان بعلم، وبتؤدّة، وبرغبة في الوصول إلى الحق أيضاً.

وقبل أن نخوض في هذا الموضوع، لا بد - كما تفضّلتم - من مقدمات مُمهّدة تُعين بإذن الله سبحانه على ضبط هذا الموضوع، وهي من الأهمية بمكان، وأؤكد على الاهتمام بها، فلا بد من حُسن فهمها، واستحضارها أيضاً.

● **المقدمة الأولى:** يجب أن نعلم أن القدر منه شيء معلوم، ومنه شيء مستور، وعلى العبد أن يقف عند حدّ المعلوم، وهو ما ورد في الأدلة الشرعية، ولا يتجاوزه إلى المستور، يجب الإيمان بالقدر، يجب الاعتصام بأصل التسليم لله، ويجب أيضاً الحذر من الخوض فيما لا سبيل إلى معرفته من أسرار القدر.

أعود فأكرّر: القدر سر من الأسرار، أُسِدِّلتْ دونه الأستار، فلا ينبغي للإنسان أن يُنقَّب عنه؛ لأنه لن يستطيع أن يصل إلى شيء، بل سيضل، ولذا كان

السلف يقولون: «القدر سرّ الله فلا نكشفه» أي: أن العقول تعجز أن إدراك كُنْه الغاية المقصودة بأفعاله سبحانه، كما تعجز عن إدراك كُنْه حقيقته هو ﷺ.

قال أهل العلم: «أصل القدر سرّ الله تعالى في خلقه، لم يطلع على ذلك ملك مقرب، ولا نبي مرسل»، والتعمُّق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان، وسُلِّم الحرمان، ودرجة الطغيان، فالحذر كل الحذر من ذلك؛ نظراً وفكراً ووسوسة، فإن الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه، ونهاهم عن مرامه.

أخرج الآجري في «الشریعة» عن ابن عمر رضي الله عنهما؛ أنه قال عن القدر: «شيء أراد الله سبحانه ألا يُطلعكم عليه، فلا تريدوا من الله ما يُأبى عليكم».

وهذا القدر المستور هو الذي يرد عليه نهيهِ ﷺ عن الخوض في القدر حينما قال: «**وإذا ذكر القدر فأمسكوا**»، والحديث عند الطبراني ^(١).

الخلاصة: هذا موضوع لا بد من الدخول إليه بقدر من التحرُّز، فإن من القدر ما حُزن عنا علمه.

● **المقدمة الثانية:** أن الله ﷻ عدل لا يظلم، واجب عليك أن تعتقد ذلك، الله سبحانه متصف بالعدل، قال ﷻ كما في «الصحيحين»:

(١) رواه الطبراني برقم (١٤٢٧).

«فمن يعدل إن لم يعدل الله ورسوله؟»^(١)، والله سبحانه منزّه عن الظلم، بل حرّمه على نفسه، هذه حقيقة يجب أن تستيقنّها، الله سبحانه - كما ذكر في الحلقة الماضية - لا يخاف من أحد ولا يتقيه، ولو شاء الله لخلق الخلق في النار ابتداء، ولم يحتج إلى تمكين بالعقل، وتكليف بالشرع، وإنزال كتب، وإرسال رُسل، وبعث وحساب، وصُحف وموازن، لكن حين عدل عن ذلك إلى هذا أدركنا يقيناً أنه موصوفاً بالعدل، منزّه عن الظلم، ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠].

إذاً: كلما وسّوس في نفسك الشيطان فارجع إلى هذا الأصل المحكم، الله عدل لا يظلم، هذه حقيقة راسخة كالجبال، إن التبس عليك شيء في موضوع القدر، فلا ينبغي أن يشوّش على عقيدتك بعدل الله، وانتفاء الظلم عنه.

● **المقدمة الثالثة:** اعتقاد أن لله الحكمة البالغة، إذا هدى سبحانه فلحكمة، وإذا أضلّ فلحكمة، ولا يلزم - كما تعلّمنا سابقاً في ثبوت الحكمة - العلم بها، وإنما يكفي أن نستدل فيها بما علّمنا على ما جهلنا، وهذا ما مضى تفصيله في الحلقة الماضية.

(١) رواه البخاري برقم (٣١٥٠)، ومسلم برقم (١٠٦٢).

الله ﷻ أثبت لنفسه الحكمة في نصوص كثيرة، وأبان لنا عن بعض تفاصيلها، فهذا القدر كافٍ في أن تُثبت الحكمة له ﷻ، وأن نستدل في شأن ما جهلنا منها بالذي علمناه.

إذاً: لله الحكمة البالغة، فهدايته وإضلاله راجع إلى الحكمة التي يُحمد عليها.

● المقدمة الرابعة: يجب استحضار ضعف العقول، وأنها أقل من أن

تحيط علماً بهذا الأمر العظيم، الله ﷻ خلق العبد ضعيفاً، ﴿وَخُلِقَ

الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]، وهذا ما يُسلم به كل عاقل، كما أن

الله ﷻ جعل لك بصرًا محدوداً لا بصرًا مُحيطاً، كما جعل لك سمعاً

محدوداً لا سمعاً مُحيطاً، كما جعل لك قدرة محدودة لا مطلقة، كذلك

جعل لك عقلاً محدوداً لا عقلاً واسعاً، والأمر في هذا كما رُوي عن

ابن عباس (رضي الله عنهما)، كما عند ابن بطّة وغيره: «فكما جعل الله لأبصار

العيون حدّاً محدوداً من دونها حجاباً مستوراً، كذلك جعل لأبصار

القلوب غاية لا يجاوزها، وحدوداً لا يتعداها».

ولذا الموضوع الذي حُزنَ عَنَّا علمه في باب القدر، هو شيء فوق طاقة

العقل، والعقل عاجز عن إدراكه، وإذا خاض فيه تحيّر، ولذا قال السلف: مثل

القدر والخائض فيه مثل الشمس والناظر إليها، كلما نظر إليها ازداد تحيّرًا، الشمس

بصرِكَ أضعف من أن يحدِّقَ فيها، وإذا حدَّقَ عاد عليه هذا بالضرر، كذلك القدر إذا أَمَعَتْ فيه وتعمَّقت، وتجاوزت الحدود الواردة في النصوص، فإن هذا سيعود عليك بضرر وبِئيل، أنت تُدرك من نفسك أنك عاجز عن الإحاطة بأشياء كثيرة مما تقع من الناس، بل ربما تكون عاجزاً عن أن تعقل مقالات بشر مثلك، كأن يتكلَّموا في تخصُّصات لا تُحسنها، إذاً كيف يروم الإنسان أن يطلب بعقله الإحاطة بعلم العليم الحكيم سبحانه، وحكمة الكبير الواسع جل في علاه؟! إذاً أعرف قدرك، ولا تتجاوزَه، لا لأن القدر فيه ما هو ظلم، أو ما هو خارج عن حدود الحكمة، حاشا وكلا، ولكن لأن عقلك أضعف من أن يحيط علماً بتفاصيل كل قدر الله سبحانه.

● المقدمة الخامسة: لله الحجة البالغة، وليس للعباد حجة على الله،

استحضر هذا واستيقن به، ورُدَّ المتشابهات إليه، الله ﷻ يقول: ﴿قُلْ

فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩] أي: التي بلغت صَمِيم القلب،

وخالطت العقل، فمن أنصف فإنه لا يستطيع أن يدفع عن نفسه

قبول هذه الحجة، لله الحجة البالغة، والعباد ليس لهم على الله حجة،

الله هدى العباد إلى طريق الحق، وأرشد وبَيَّن، ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا

شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]، مَكَّن من الهداية، أعطى القلوب

والأسماع والأبصار، أرسل الرسل، أنزل الكتب، صرّف الآيات، أبان الدلائل والأمارات، إذاً الحُجَّةُ لله ﷻ، وليس للعباد حجة عليه ﷻ.

- **المقدمة السادسة:** اعلم أن من منع فضله لم يكن ظالماً، الهداية تفضّل من الله ﷻ، ومن منع فضله لم يكن ظالماً، من منع ما وجب عليه كان هو الظالم، والله لا يوجب العباد عليه شيئاً، والغني عن ذلك، والعباد أحقر من أن يوجبوا عليه شيئاً.

- **المقدمة السابعة:** استحضر قوله تعالى: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، الله لا يُسأل عما يفعل، وعليه فليس لك أن تتعقّب حكمه، ولا أحداً يمكنه أن يعارضه إذا شاء شيئاً، هو القادر على فعل ما يشاء، ولكمال حكمته لا معقّب لحكمه، والسبب أنه لا يفعل شيئاً سُدى، ولا خلق شيئاً عبثاً، إنما يُسأل عن فعله من خرج عن الصواب، ولم يكن فيه منفعة ولا فائدة.

من الناس هنا من يظن أن معنى: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾؛ لأن الأمر راجع إلى مشيئة لا تقتزن بحكمة، والأمر ليس كذلك، الله تعالى ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ لكماله، ولكمال عزته، وعلمه، وحكمته، ورحمته، ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾، لو كان ثمة شك في علمه أو في حكمته، ربما يكون السؤال متوجّهاً، لم يا رب فعلت كذا،



لكن الله مُنَزَّهٌ عن ذلك، فله العزة الكاملة، والعلم الواسع، والحكمة البالغة، فكيف يسأل سبحانه مع هذا عما يفعل، وإذا استيقنت بهذا سلَّمت لربك، ولم تسأل، ولم تتكلَّف.

● المقدمة الثامنة والأخيرة: استحضر مقام الأدب مع الله، إذا ولَّجت

إلى هذا الموضوع تذكَّر أنك تتكلَّم في شأن رب وعبد، في شأن السيد العظيم، الملك الذي له كل شيء، وعبد مخلوق مريبوب مدبَّر، فقير إلى ربه في كل شيء، فإيَّاك إيَّاك أن تدعوك رُعونة نفسك إلى أن تتجاوز قدرك، فتُسيء الأدب مع ربك، وما أكثر ما يقع هذا الأمر، وسوء الأدب مع الله قد يورد العبد الموارد، فتفطَن!

هذه -يا رعاكم الله- مقدِّمات مُمَهِّدات، وأصول مُحْكَمات، فاعتصم أيَّها الموفِّق بها، ورُدَّ إليها المشكلات.

المقدم: موضوع الهداية والإضلال، ويمكن ما زال المصطلح كلمة الهداية نحتاج

أن نفهما فهماً صحيحاً؟

الشيخ: موضوع الهداية -حفظكم الله- الموضوع ابتداءً بأمرين، عندنا هاهنا

مقامان: الهداية، والإضلال.

وَمُلَخِّصُ الاعتقاد الحق في هذا الباب: أن الهداية والإضلال بيد الله سبحانه، فهو يهدي من يشاء نعمة منه وفضلاً، ويضل من يشاء حكمة منه وعدلاً. وابتداءً نبدأ بالمقام الأول وهو: مسألة الهداية، والمراد هداية التوفيق، وهذه ينتظم فيها الكلام ضوابط أربعة:

● الضابط الأول: الهداية من الله، الله ﷻ هو الذي يشاء الهداية، ولو لم

يهدي الله عبده ما اهتدى، ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا

لَنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

في «الصحيحين»^(١): كان النبي ﷺ يوم الخندق يقول: «والله لولا الله ما

اهتدينا ولا تصدقنا، ولا صلينا»، فلا هداية لعبد إلا منه ﷻ، مهما فعل، إنما

الله ﷻ هو الذي يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وإذا علم الإنسان هذا دعاه إلى أن يسأل ربه الهداية، بل وأن يلح في طلبها منه.

● الضابط الثاني: الهداية محض فضل من الله ﷻ، فليس للعبد عليه حق

استحق به أن يهديه، المقام هنا ليس مقام معاوضة، العبد قدّم شيئاً

فوجب على الله أن يهديه مقابل ذلك، الأمر ليس كذلك، إنما هو

(١) رواه البخاري برقم (٢٨٣٧)، ومسلم برقم (١٨٠٢).

مُحَضُّ فضل من الله سبحانه، والعباد لا يستحقون عليه شيئاً، ﴿وَأَنَّ

الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾، ﴿يَخْنُصُ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾.

في الحديث القدسي المخرج في «صحيح مسلم»^(١)؛ يقول الله جلا وعلا: «يا عبادي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَن هَدَيْتُهُ»، إذاً القضية من أولها إلى آخرها مُحَضُّ تَفَضُّلٍ من الله، والعباد لا يُوجِبون على ربهم، ولا يستحقون عليه شيئاً إلا ما أحق على نفسه.

● الضابط الثالث: التفضُّل بالهداية راجع إلى علم الله وحكمته، بمعنى: الله

سبحانه إنما يهدي عن علم، فهو أعلم بالموضع المناسب لفضله، ولذا

قال جل وعلى في شأن الكفار الذين قالوا عن الصحابة: ﴿أَهْوَؤُلَاءِ

مَنْ أَلَّهَ عَلَيْهِمْ مِّنْ بَيْنِنَا﴾ [الأنعام: ٥٣]، ماذا رد الله عليهم؟ قال سبحانه:

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾، إذاً الله ﷻ هدى عن علم وحكمة،

حيث علم من يصلح للهداية، فاقتضت حكمته أن يضع الفضل في

محله اللائق به، هذه هي الحكمة، أن توضع النعمة في المحل اللائق بها،

المكان المُعَدُّ للبول والنجاسة -أجلَّكم الله- ليس من المناسب أن

توضع فيه الجواهر، أو الأطياب من المسك، والعود، ودهن الورد، هل

من الحكمة وضع عقد شري بغالي الأثمان في عنق خنزير؟ هذا ليس من الحكمة، الحكمة تقتضي أن يوضع الفضل في محله اللائق به، ولذا من هداه الله فليعلمه سبحانه أنه أهل للهداية، وأن الهداية تليق به فاقتضت الحكمة وضع الهداية فيه.

وهناك آية في كتاب الله ﷻ، تأملها كافٍ في فهم هذا الموضوع، فقد جمعت هذه الضوابط الثلاثة كلها، ألا وهي قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ إِلَّا يَمُنَ وَزَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَهُ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧]، هذه هي الهداية، وكانت من الله، ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ إِلَّا يَمُنَ﴾ إلى آخره، ثم قال: ﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ [الحجرات: ٨]، إذا المسألة محض تفضل من الله ﷻ، ثم قال: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ الأمر راجع إلى علم الله وحكمته.

● الضابط الرابع: وهو تفضل الله ﷻ بالهداية له وجهان:

١. الوجه الأول: الهداية الأولى، فالله ﷻ ابتداء بالهداية من شاء،

«كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَن هَدَيْتُهُ»^(١)، ﴿أَوْ مَن كَانَ مِيثًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا

لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، فالإنسان مخلوق ظلوماً

جهولاً، لا تُرك ونفسه لم يُعده الله ﷻ بمدد من عنده، ولم يفتح على قلبه، فإنه سيضل ولا بد، إذاً هناك لطيفة ابتداء الله بها من يشاء، وأوقعها في قلب من أحب، يكون القلب غافلاً فيتذكّر، يكون منحرفاً فيهتدي، ولولا تفضّل الله ﷻ عليه بذلك فإنه سيضل.

٢. أما الوجه الثاني: فهو الهداية اللاحقة، أي: أن مَنْ مَنَّ الله ﷻ عليه فقذف في قلبه الهداية، فإنه إذا عمل الخيرة هداه الله إلى خير ثان، فإن عمل الثاني هداه إلى ثالث، وهلمّ جرّاً، ليست الهداية هي ما كان في أول الأمر فحسب، كل عمل صالح لن تقوم به إلا بهداية خاصة من الله، ولو كان تسييحة، ولو كان قراءة آية، ولو كانت صلاة ركعتين، لو لم يهدك الله لذلك ما اهتديت، لكن من فضل الله أنه يجازي على الحسنة بحسنة، ومن ثواب الهدى: الهدى بعده، قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧]، قال سبحانه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾﴾

فَسَيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿٦﴾﴾، والأدلة على هذا كثيرة.

إذاً: لا بد من ملاحظة هذا الأمر، فما أكثر الغفلة عنه، كثير من الناس إذا تلا قول الله ﷻ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] إنما يتذكّر الهداية الأولى،

ويسأل الله الثبات عليها، لكن يغفل عن أن هناك هدايات أخرى هي الهدايات اللاحقة، أنت بحاجة إلى أن تُهدى إلى الصراط المستقيم، وبحاجة إلى أن تُهدى في الصراط المستقيم، وكل ذلك من الله سبحانه، فهو المُعد، والممد جل في علاه، هذه هي -رعاكم الله- اختصار الضوابط التي يرجع إليها موضوع الهداية.

المقدم: كيف يحصل المسلم على هذه الهداية، البعض يرى من نفسه مثلاً تقصيراً في العبادة، وربما ثقلها على نفسه، كيف أصبح مُهتدياً، كيف أحظى بهداية التوفيق، أو الهداية في ممارسة الطاعة بعد الطاعة؟

الشيخ: عندنا هاهنا أمران:

١. الأمر الأول: من استيقن أن الهداية بيد الله ﷻ، سأل هذه الهداية من هي بيده، وهو الله ﷻ، والله أكرم من أن يرد صادقاً في طلبه، والله لا يمكن أن يصدق القلب في طلب الهداية، ثم يحرفه الله عن الصراط المستقيم، ولا يأخذ قلبه إلى الخير، هذا مستحيل، كرم الله ﷻ أعظم من ذلك.

٢. الأمر الثاني: أن يجتهد الإنسان حتى يكون قريباً من رحمة الله ﷻ، إذا علم منك الصدق، والاجتهاد، والرغبة في الخير فإنه سيهديك إلى

الحق، ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى﴾

[الليل: ٥-٧]، هذه قاعدة يحسن أن تضعها دائماً بين عينيك.

المقدم: تحدثنا قبل الفقرة عن موضوع الهداية، ننتقل الآن إلى موضوع الإضلال، وهو الموضوع الذي ربما يستشكل عند أكثر أو عند بعض الناس، فلو نلج إلى هذا الموضوع؟

الشيخ: الأمر - كما تفضّلتم - ربما موضوع الهداية لا يحصل عند بعض الناس فيه كبير إشكال، لكن إذا جاء إلى موضوع الإضلال فإن الأمر قد يختلف، وأؤكد ما ذكرته سابقاً: هذا الموضوع موضوع مهم ودقيق، فإذا أوغلت فيه فأوغل فيه برفق، واستحضر أولاً المقدمات الثمان السابقة.

ثم اعلم - يا رعاك الله - أن للإضلال أيضاً ضوابط أربعة:

- **أول تلك الضوابط:** أن نعلم أن الله ﷻ هو الذي قدّر الضلال وشاءه، ولو شاء سبحانه ألا يضل العبد فلن يضل، العباد أضعف من يعصوا الله قسراً، والله أعزّ من ذلك، فسبحان الذي إذا عُصي فإنما يُعصى بمشيئته لعزّته وحكمته، فإنما يقع مما يكره مُراد له كوناً، وليس مراداً له شرعاً، وكل ذلك لحكمة يعلمها.

من أدلة هذا: قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ [فاطر: ٨]، ومنها قوله: ﴿مَنْ يَشَاءِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَاءُ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩]، ولا شك أن علم الإنسان في هذا يجعله يخاف غاية الخوف، ثم أن يلجأ إلى الله سبحانه أن يُعيذه من الضلال، فالأمر بيده وحده لا شريك له.

● الضابط الثاني: أن الإضلال محض عدل من الله -انتبه لهذا، فَفَهِم هذه الجزئية محلّ إشكالات كثيرة بتوفيق الله- الإضلال عدل، لم؟
الجواب: لأن الإضلال عقوبة -افهم هذا جيّداً- الإضلال عقوبة، وإيقاع العقوبة المستحقة، ووضعها في محلها عدل، والعدل ممدوح، وصاحبه محمود، ما وجه هذا؟
الله قد أقام الحجة، وأزال المعاذير، مكّن من الهداية، أعطى العقول والأسماع والأبصار، لم يُخلّ بين العبد وبين الأصول إلى الحق، أرسل الرسل، وأنزل الكتب، وصرّف الآيات، وضرب الأمثال، فلم يكن للعبد حجة، ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

قال ﷺ كما في «الصحيحين»^(١): «لا أحد أحب إليه العذر من الله، ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين».

(١) رواه البخاري برقم (٧٤١٦)، ومسلم برقم (١٤٩٩).

وفي «مسلم»^(١) قال: «من أجل ذلك أنزل الكتاب، وأرسل الرسل»، إذا كان ذلك كذلك، ثم صدف العبد عن الحق، وانصرف عن الاستجابة لربه، ألا يكون ظالماً، ألا يستحق العقوبة بعد ذلك؟

الجواب: بلى.

إذا كان الله سبحانه قد مكّن من الهداية، وأمر عباده، وحذّرهم وأنذرهم، وأرسل الرسل المبشرين والمنذرين، وأعطى الآيات التي تُدعِن معها العقول، ثم إن العبد بعد ذلك أبى الإقبال على ربه، أليس مُسيئاً ظالماً؟ الجواب: بلى، ومن كان ظالماً استحق الله أن يعاقبه بإضلاله، قال سبحانه - قال سبحانه: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ [فصلت: ١٧] أي: هداية الإرشاد والدلالة، فماذا كان؟ قال سبحانه: ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾، إذاً ماذا كان بعد ذلك؟ أضلّهم الله ﷻ، وكانوا جديرين بهذا.

إذاً: ثِقْ وأيقن أن الله لا يضل عبداً ويعاقبه إلا بعد وصول الحجة الرسالية إليه، قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ بِبَيِّنٍ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥]، فهذا الإضلال عقوبة منه لهم، حيث بيّن لهم الحق فلم

(١) رواه مسلم برقم (٢٧٦٠).

يقبلوه، فعاقبهم بأن أضلهم عنه، وما أضل سبحانه أحداً قط إلا بعد هذا البيان، ومن عرف هذا زالت عنه شكوك كثيرة، وعلم حكمة الله ﷻ في إضلال من يضلّه من عباده، ولذا تأمل القرآن فما أكثر تصريحه بهذا في مواضع عديدة، كقوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥]، كما قال سبحانه: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء:١٥٥]، كما قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ أَزْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾ [النساء:٨٨]، والأدلة في هذا تدل بكل صراحة على أن الله ﷻ يعاقب القلوب التي أعرضت عنه بإضلالها، وتنبّه إلى أن هذا بخلاف من كان ضلاله لعدم بلوغ الرسالة، وعجزه عن الوصول إليها، فذاك له حكم آخر، والوعيد في القرآن إنما يتناول الأول، وأما الثاني فإن الله لا يُعَذِّبُ أحداً إلا بعد إقامة الحجة عليه، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥]، كما قال ﷺ: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥].

الخلاصة: الإضلال عقوبة، وإيقاع العقوبة في محلها عدل، والله سبحانه يُحمد على هذا العدل.

● **الضابط الثالث:** العقوبة بالإضلال إضافة إلى أنها عدل كما سبق، فإنها راجعة إلى علم الله وحكمته أيضاً، الإضلال راجع إلى علم الله وحكمته، لم؟

الجواب: لأنه علم أن هؤلاء الضالين لا يستحقون الهداية، ولا تليق بهم، وليسوا أهلاً لها، الله ﷻ إنما يتفضل حيث تقتضي الحكمة التفضل، ويمنع فضله حيث تقتضي الحكمة منع ذلك.

وأقرب لك المقام بمثال: أرايت إلى شخص بلغ الغاية في الإجرام، فأقيم بين يدي الحاكم، وبإمكان الحاكم أن يعاقبه، أو أن يُخَلِّي سبيله، ونحن نعلم من قرائن الأحوال عن هذا المجرم، أنه لو خرج من باب المحكمة بعفو، فأقرب إنسان يراه سيسرقه، وربما يقتله، فيشيع الرعب بين الناس، هل من الحكمة التفضل عليه بالعفو، أم أن التفضل على مثله سَفَهٌ بعيد عن الحكمة، وأن الحكمة تقتضي معاقبته؟

المقدم: فعلاً تقتضي الحكمة معاقبة مثل هذا.

الشيخ: إذاً الفضل لا بد أن يُوقَّع في محله اللائق به، وإلا كان سَفَهًا، والله منزّه عن ذلك.

الخلاصة: إذا أضلَّ الله من أضل فإن هذا عن علم منه ﷻ؛ لأن هؤلاء لا تناسبهم الهداية، ولا تليق بهم، فالخنازير لا تليق بهم وضع الجواهر الثمينة في أعناقها، والهداية أشرف وأعلى، فإذا فهمت هذا زال عنك الإشكال.

ولأسهل عليك هذا الأمر أقول: انظر إلى حال الكفار الضالين في الآخرة، أخبر الله عنهم أنهم إذا رأوا النار عياناً يسألون العودة إلى الدنيا، لم؟ ليعملوا صالحاً

غير الذي كانوا يعملون، فماذا قال الذي يعلم كل شيء سبحانه: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]، سبحان ربي! أي نفوس خبيثة هذه؟ إذا بلغ الخُبث بهذه النفوس إلى هذه الدرجة، أفيليق أن يتفضل الله عليه، سبحان ربي، عاينوا العذاب، لم يعد هناك أدنى شك في صدق الله ورسوله ﷺ، ومع ذلك لو رُدُّوا إلى الدنيا لَعَادُوا إلى التكذيب مرة أخرى، إذًا الحكمة كل الحكمة في أن يُضِلَّ هؤلاء.

● الضابط الرابع والأخير: عقوبة الله ﷻ بالإضلال نوعان:

١. الأولى: عقوبة على ترك ما أمر الله به.

٢. والثانية: عقوبة على فعل ما نهى الله عنه.

النوع الأول: كونهم ما فعلوا، وبيانه: أنهم لما قامت عليهم الحجة، وبلغتهم الرسالة، كان الواجب أن يُذعنوا، وأن يقبلوا هدى الله، لكنهم ما فعلوا، فاستحقوا أن يضلَّهم الله ﷻ، قال سبحانه: ﴿وَنَقَلْبُ أَفْعَدْتُهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، أول مرة هذه حينما بلغتهم الحجة، كان الواجب عليهم أن يُقبلوا، فما أقبلوا، فأضلَّ الله قلوبهم، قال سبحانه: ﴿ثُمَّ أَنْصَرَفُوا سَرَفًا﴾ الله ﷻ قُلُوبَهُمْ ﴿[التوبة: ١٢٧].

أما النوع الثاني: فعقوبة على فعل، وهو ما صدر منهم من كفر، ومعصية، وصدوف عن الحق، وجحد لأمر الله، فالله ﷻ يعاقبهم على هذا بأن يزيدهم ضلالة، كل معصية فإنها عقوبة على معصية قبلها، كل انحراف فإنه عقوبة على انحراف قبله، ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ﴾ (٨) ﴿وَكَذَّبَ بِالْحَسَنَىٰ﴾ (٩) ﴿فَسَيَسِّرُهُ لِّلْعَصَىٰ﴾، و﴿وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾ [النساء: ٨٨]، ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]، في نصوص كثيرة.

إذا: المعصية التي وقعت عقوبة على ذنب سابق، والذنب السابق عقوبة على ذنب قبله، وهلمَّ جرًّا، إلى أن نصل إلى الذنب الأول وهو: الانصراف عن الحق، ﴿وَنَقَلِبْ أَفْعَادَهُمْ أَبْصِرْهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠].

المقدم: هل لنا أن نبحث في هذا الموضوع، ونوغل فيه أكثر، أم هذا غاية ما يمكن الوصول إليه في هذا الموضوع، ثم نكفّ ونترك الخوض في التفاصيل؟

الشيخ: إلى هنا انتهى علم العباد بالقدر، وما بعده فمخزونٌ عنا علمه، ما تقدّم أي شيء وراءه خط أحمر - كما يقولون - ليس لك أن تتجاوزه، وإيّاك ثم إيّاك أن تخوض أكثر من هذا القدر، فإن الشيطان قد يوسوس لبعضنا باستفسارات واستشكالات وإيرادات، وهذا لا وجه له ولا محل، فكفّ - يا أيّها الموفق - جِماح نفسك، فلا سبيل إلى علم ما زاد عمّا مضى.

المقدم: من أراد أن يقرأ مثلاً حول هذا الموضوع أكثر، أو أراد أن يرى أقوال العلماء في مثل هذه المسائل إن كان هناك تقترحون إحالة أو شيء؟

الشيخ: أحسن من رأيتُه - في الحقيقة - بحث، أو لعلَّه أحسن من بحث هذه المسألة: ابن القيم رحمته الله في كتابه العظيم «شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر، والحكمة والتعليل»، ومن أراد الاختصار، الكتاب كله عظيم في باب القدر، ولا أظن أن هناك كتاباً أحسن منه في هذا، لكن من أراد موضعاً يسيراً في موضوع الهداية، أوصيه بالرجوع إلى: ج ١ ٢٦٧ - ٢٧١ من طبعة (عالم الفوائد).





الحلقة الثانية عشرة

الاحتجاج بالقدر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الشيخ: فليس يخفاكم - يا رعاكم الله - أن المؤمن هو الذي يتقي الله فيفعل المأمور، ويترك المحذور، ويصبر على ما يصيبه من المقدور، ويستعين بالله سبحانه على كل ذلك، كما قال ﷺ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وإذا أذنب استغفر وتاب، لا يحتج بالقدر على ما يفعله من السيئات، ولا يرى للمخلوق حُجّة على رب الكائنات، بل يؤمن بالقدر ولا يحتجّ به هائئنا، كما في الحديث الصحيح^(١) (حديث سيّد الاستغفار)، وفيه قوله ﷺ: «أعوذ بك من شر ما صنعتُ، أبوء لك بنعمتك عليّ، وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»، فيقرّ بنعمة الله عليه في الحسنات، ويعلم أنه هو الذي هداه، ويسرّه ليسرى، ويقرّ بذنوبه، ويتوب منها، يقرّ في نفسه قائلاً: أطعْتُك بفضلِكَ، والمنّة لك، وعصيتُك بعلمك والحجة لك، فأسألك عفوك ومغفرتك.

وفي الحديث القدسي المخرّج في «صحيح مسلم»^(٢): «يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفّيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه».

(١) رواه البخاري برقم (٦٣٠٦).

(٢) رواه مسلم برقم (٢٥٥٧).

المقدم: ربما هذا يقودنا إلى تساؤل آخر هو الاحتجاج بالقدر بشكل عام، متى يكون جائزاً، ومتى يكون غير منطقي، متى يجوز للإنسان أنه يحتجّ بالقدر؟

الشيخ: القدر يؤمن به ويحتج به في البلايا والمصائب، وليس في المعاصي والمعائب، ما قدر من المصائب فإنه يجب الاستسلام له، وهذا من تمام الرضا بالله رباً، أما الذنوب فليس للعبد أن يذنب، وإذا أذنب فعليه أن يستغفر ويتوب، فيتوب من المعائب، ويصبر على المصائب.

توضيح ذلك: أن المؤمن يطمئن إلى القدر في المصائب، إذا نزلت به مصيبة من المصائب التي فرطت، ولا يمكنه منازعتها، اطمئن إلى تقدير الله، واستروح إليه، فتهون عليه مصيبته، ويكتسب الطمأنينة والسكينة والتسليم؛ لأنه يعلم أن تقدير الله خير له، فيقول: «**قَدَّرَ اللهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ**»^(١).

يتذكر قوله ﷺ: «**عَدْلٌ فِي قَضَائِكَ**»^(٢)، فهو يعترف بأن تقدير الله سبحانه خير له فيطمئن إلى ذلك، ويرجو أن يكون سبب تكفير للسيئات، ورفعة للدرجات، والله سبحانه يقول: ﴿**مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ**﴾.

[التغابن: ١١]، قال علقمة بن قيس رضي الله عنه - أحد التابعين - في هذه الآية: «هو الرجل

(١) رواه مسلم برقم (٢٦٦٤).

(٢) رواه أحمد برقم (٣٧١٢).



تُصِيبُهُ الْمَصِيبَةُ فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَيُسَلِّمُ لَهَا وَيَرْضَى «أي: أن من رضي بذلك، وسلّم لأمره تعالى القدري، هدى الله قلبه، فاطمأن ولم ينزعج، ورزق الثبات والصبر والتوفيق، فنال ثواباً عاجلاً مع ما يدّخر الله له من الثواب يوم القيامة.

والخلاصة: الاحتجاج بالقدر إنما يسوغ عند المصائب لا المعائب، فالسعيد يستغفر من المعائب، ويصبر على المصائب، كما قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْيِكَ﴾ [غافر: ٥٥]، أما الشقي فهو يجزع عند المصائب، ويحتج بالقدر على المعائب.

المقدم: هذا يقودنا إلى السؤال يقودنا إلى الواقع الذي نرى أحياناً في الواقع من احتجاج بعض الناس بالقدر على ما هم فيه مثلاً من معاصي، أو من تقصير في الواجبات، وارتكاب المحرمات، ويمكن في مقدّمة الحلقة ذكرنا سؤال بُعث للشيخ عبد العزيز بن باز رحمته الله، من إحدى الأخوات المستمعات للإذاعة، وكانت تشكو من زوجها الذي مثلاً لا يصلي، ولا يصوم، ويقول: أنه إذا كنت من أهل اليمين فأنا من أهل اليمين، وإذا كنت من أهل النار فأنا من أهل النار، وبالتالي فهذا قدر الله ولا يد لي في ذلك، فما تعليقك على هذا؟

الشيخ: ما من شك أن من الخذلان، وقلة التوفيق، بل وسوء الأدب مع الله أن يحتج العبد بالقدر على المعاصي، فيزعم أن القدر عُذر له في أن لا يفعل ما

أمر، وأن ينتهك ما حُرِّم عليه، ثم يتبجَّح قائلاً: الأمر كله مقدور، كأنه يقول: أنا مسلوب الإرادة، ولا قدرة لي على تغيير قدر الله، كأنه يزعم أنه مجبور، يفعل الشيء الذي لا قدرة له على دفعه عنه، وإذا قيل له - كما تفضلتم -: افعل ما أمر الله، لربما قال: لن أفعل حتى يخلق الله في هذا الفعل، وإذا قيل له: كُفَّ عن ما حُرِّم الله، قال: لا أفعل حتى يخلق الله التوبة في قلبي، ولو كان القدر حجة على فعل المعاصي لما كان أحد ملوماً على معصية أو كفر، فلا يُلام إبليس، ولا فرعون، ولا قوم نوح، أو هود، أو مشركو العرب، وهذا ظاهر البطلان، ما أشبه فعل من يتعلَّل بالقدر في هذا المقام بفعل إبليس، إبليس أول من احتج بالقدر على ربه، وعارض الأمر بالقدر، فإن الله تعالى لما قال له: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣]، كان من جوابه أن قال: ﴿فِيمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦]، بدل أن يقول: يا رب أنا ظلمت نفسي وأخطأت فاغفر لي، إذا به يقول: يا رب أنت الذي أغويتني، وأنت الذي أضللتني، وكم في هذا من سوء الأدب مع الله سبحانه. إذاً هذه الحجة حجة إبليسية، وهي حجة كثير من المبطلين، ومنهم المشركون في عهد النبي ﷺ، الذين قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

المقدم: يبدو أن هذه الحجة فعلاً قديمة، وقد أوردها المشركون في عهد النبي ﷺ، والقرآن الكريم ذكر ذلك، فقد احتج المشركون بالقدر على شركهم وضلالهم، لكن يبدو أن كلمتهم عندما قالوا: لو شاء الله ما أشركوا، قد تُشكل على البعض، وقد يقول البعض: فعلاً لو شاء الله ما أشركوا، فلو نوضح هذه الآية ونقف معها؟

الشيخ: لا سبيل إلى فهم هذا الموضوع، إلا بعد الاستيقان بالحقيقة القطعية، ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦]، أقواله سبحانه حق، وقضاؤه كله عدل، جل ربنا وعز، وموضوعنا الذي نتحدث فيه الآن فرع عن موضوع الهداية والإضلال الذي فصل فيه القول في الحلقة الماضية، فلا بد من استحضار ما ذكر هناك من مقدّمات وضوابط، جنباً إلى جنب مع الذي نتحدث عنه اليوم، أما عن السؤال الذي تفضّلتم به، فإن الله ﷻ قد قال في سورة الأنعام: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، ثم قال تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْكَبْلُغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩]، هاتان الآيتان من سورة الأنعام حرية بالوقوف عندهما، ففيهما من الفوائد الشيء الكثير:

١. أول فائدة نستفيدها من هذه الآية: أن الاحتجاج بالقدر على

الذنوب والمعائب مسلك المشركين، هم الذين قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا

أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاءُنَا وَلَا حَرَمًا مِنْ شَيْءٍ﴾، فمن احتج بالقدر على

المعاصي فإنه سالك مسلكهم، لا مسلك المؤمنين المتقين.

٢. والفائدة الثانية: أن الله سبحانه قد جمع في هذه الآية بين الحجة

الشرعية، والمشیئة القدرية، وكلاهما له، وهذا هو الحق الذي يجب

الإيمان به؛ لأن الله سبحانه قال: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾، ثم قال:

﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، الحجة البالغة هي الحجة الشرعية،

بلغت صميم القلب، وخالطت العقل، فلا عُذر معها، أرسل الله

الرسول، وأنزل الكتب، صرّف الآيات، ضرب الأمثال، قامت الحجة

على العباد، وبانت المحجة، وانقطع العذر، ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ

وْمُنْذِرِينَ لِّنَّا لِيَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]،

وهو سبحانه أرحم وأحكم من أن يُعذّب من له عُذر، ثم بيّن سبحانه

قدره فقال: ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩]، إذاً هذا الذي

يجب على العباد أن يجمعوا بين الإيمان بالحجة الشرعية، والمشیئة

القدرية، ما كان من هؤلاء المشركين الذي لا يُخَالِج الإنسان فيه أدنى شك، أنه كان واقعاً بمشيئتهم وقدرتهم التي لم تخرج عن مشيئة الله وقدره، وهذا كافٍ في كونهم يتحملون مسؤولية ما اجترحوها، ويُجزون يوم القيامة بما كانوا يعملون، والله سبحانه عدل لا يظلم.

٣. **الفائدة الثالثة:** هذه الآية تدل على أن حجة المحتج بالقدر حجة

داحضة، حيث قال سبحانه: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾، «الفاء» هنا هي التي تسمى (الفصيحة)، وهي مؤذنة بكلام محذوف، بمعنى: إذا كان ما احتج به هؤلاء المشركون ما هو إلا اتباع للظن، وتحرُّص، فإن لله الحجة البالغة، ولا حظ هاهنا أيضاً بتقديم الخبر على المبتدأ الذي يفيد الاختصاص، فالحجة البالغة لله لا لكم، وعليه، فكل من احتجَّ بالقدر فإن حجته داحضة، والحجة لله عليه، وليس له حجة على الله.

٤. **نأتي الآن للفائدة الرابعة، وفيها جواب السؤال:** هذا الذي قاله

هؤلاء المشركون: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ أهو حق أم باطل؟



نقول: هو حق، لكن وجه الإنكار أنهم أرادوا به باطلاً، ما قال المشركون هذه المقالة لأنهم يريدون إثبات القدر والتسليم له، إنما أرادوا معارضة أمر الله بالقدر، وتسويغ شركهم، وهذا هو الضلال المبين، فهي إذاً كلمة حق أُريد بها باطل، فاستحقوا الإنكار عليه، ولا شك ولا ريب أن هؤلاء المشركين يتبعون الظن والهوى، وليسوا مريدين للحق؛ **بدليل:** أنهم لا يُسوِّغون الاحتجاج بالقدر على هذه الشاكلة في كل موضع، إذ لو طعن أحدهم فيهم أو في آلهتهم لآذوه، فأين الاحتجاج بالقدر هاهنا، واعتبر في هذا بموقفهم من النبي ﷺ وأصحابه، كيف آذوهم، وعادوهم، وحاربوهم، لمَ ما قالوا: لو شاء الله ما خرج النبي ﷺ علينا بدعوته، فعلينا أن لا نُعاديهِ؛ لأننا حينها سنعارض مشيئة الله، فتبيّن أنهم -وهكذا كل محتج بالقدر- ليسوا إلا متبعين لأهوائهم لا غير.

المقدم: أظن أننا بحاجة أيضاً أن نناقش بتفصيل أكبر كلام من يحتج بالقدر على المَعائب وعلى المعاصي، كيف نجيب عن شُبّهته؟

الشيخ: هذه الحُجّة لا شك أنها حجة باطلة، وعذر قبيح، لا يجوز لأحد أن يعتذر به.

◀ ويدل على هذا ثمانية أوجه:

- الوجه الأول: أن هذه الحجة لا شك أنها حجة باطلة، لم؟ لأنها حجة لا تطرد، بمعنى: إذا كان القدر علّة العذر، فشرط العلّة أن تطرد، أي: كل ما وجدت العلة وجد الحكم، كلما وجد القدر وجد العذر، لكن هذ ليس مطّردًا.

وأكبر دليل عليه: أن يُقال لهذا الذي يدّعي أن القدر عُذر له في أن يقعد عن الطاعة، ولماذا كان القدر عذراً في مطالب الدين، ولم يكن عذراً في مطالب الدنيا؟ لم نرك -يا أيها المُحتج- تنهض في مصالح الدين، لكننا رأيناك كثيراً تنهض في مصالح الدنيا، وتبذل ما تستطيع لتحصيلها، إذا أمرك هواك نشدت، وإذا أمرك مولاك تعاجزت، وهل هذا إلا محض الهوى؟

هذا الذي يحتج بالقدر نقول له: إن كان الأمر كما تزعم من أن القدر عذر للعود عن الواجب، فلا تأكل، ولا تشرب، ولا تلبس، وإذا مسّك ما مسّك من ضرر، فإنه ينبغي عليك أن تسلّم لقدر الله، فلا تبادر إلى الأكل إذا مسّك الجوع، ولا تبادر إلى الشرب إذا مسّك العطش، بل إذا ابتليت بالأمراض فهذا قدر الله عليك، أن تنتظر قدراً آخر يزيل هذا المرض، ولو أصبت -وأعيذك بالله- باحترق في جسدك، فعليك أن تسكن، وأن تنظر إلى هذه النار التي تسري في



جسدك، ولا تُحرِّك ساكنًا؛ لأن هذا قدر الله، وأنت قد التزمت بأن لا تفعل شيئاً، وأن تستسلم للقدر، وإذا اعتدى عليك إنسان ظلمك، أخذ مالك، بل قتل ابنك، وقطَّع أوصال أبيك، فإن عليك أن تبتسم في وجهه وتقول: هذا قدر الله، فعليّ أن أسلِّم، وإذا استدان أحد منك مالاً ولم يرجعه، أو اشترى سلعة ولم ينقدك ثمنها، فحذارٍ أن تطالبه بشيء، هذا قدر الله فسلِّم له، هل تلتزم يا -أيها المحتج- بهذا؟ أنت تعلم يقيناً أن واقعك خلاف هذا تماماً، نحن نراك إذا أصبت بمرض في جسدك طرقت باب كل طبيب للعلاج، وصبرت على ما ينالك من ألم العملية الجراحية، ومرارة الدواء؛ طلباً للشفاء، فلماذا لا تفعل مثل ذلك في مرض قلبك بالمعاصي؟ نراك وأنت مريض تؤمر بالدواء فتشربه ونفسك لا تشتهيهِ، تُنهي عن الطعام الذي يضرُّكَ فتتركه ونفسك تشتهيهِ، كل ذلك طلباً للشفاء، لم نرك تمتنع عن شرب الدواء، لم نرك تأكل الطعام الذي يضرُّكَ ثم تحتج بالقدر، فلم تترك ما أمر به الشرع، وتفعل ما نُهي عنه، وتحتج بالقدر؟ نراك لو عُرض عليك وظيفتان، إحداها ذات مرتبٍ أكثر، فإنك تحرص عليها دون الناقصة، فكيف تختار لنفسك في عمل الآخرة ما هو الأدنى، ثم تحتج بالقدر.

الخلاصة: الاحتجاج بالقدر في هذا المقام احتجاج باطل، ولو طرَدناه فلا يمكن للناس أن يعيشوا أصلاً، فهي إذاً علّة باطلة غير صحيحة.

• الوجه الثاني: هذه الحجة حُجة باطلة بطلاناً ضرورياً لمُنافاتهما الفطرة

التي فطر الله الناس عليها، وهي طلب ما ينفعهم، ودفع ما يضرهم، وهذا أوضح من أن يستدل عليه، ولذا لو أن إنساناً وقف على جبل وصاح بآخر يندره قائلاً: العدو قادم، أو السَّبع قادم، أو السيل قادم، هل في فطر العباد مُسلمهم، وكافرهم، مؤمنهم بالقدر، أو منكرهم له، هل في فطرة أحدٍ أن يقول: انتظر يا هذا، أليس هذا بقدر الله؟ إذاً عليّ أن أستسلم، وإن شاء الله نجاتي فسأُنجو، هل هذا يفعله أحد؟ لا والله، لا يفعله أحد؛ لأنه مخالف للفطرة التي فطر الله الناس عليها.

رسول الله ﷺ هو النذير والبشير، الله أخبر عنه أنه نذير يُنذر عذابه، ﴿إِنْ

هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦]، فإذا كان يندرك من عذاب الله،

فإن تصديقك له سيقضي بالضرورة أن تستجيب له، وأن تفرّ مما يعود عليك بالمكارة، وعدم هذا دليل على ضعف تصديقك، وليس على أنه لا قدرة لك على الاستجابة، فتبيّن بهذا أنها حجة داحضة.

• الوجه الثالث: هذه الحجة التي يُحتج بها حجة تعليل ولجج،

وليست حجة علم، فلا يحتج بالقدر هنا إلا من يغالط حسّه، ويكابّر نفسه، بمعنى: كل من يحتج بهذه الحجة على تعطيل أوامر الله

سبحانه، هو أول من يعلم من نفسه أنه إنما يتعلّل ويخاصم بها، وليس أنه بعد اجتهد ونظر علمي وصل إلى أن عليه عدم الطاعة وعدم الانتهاء عمّا حرّم الله، وهذا بيّن لا ينازع فيه منصف.

دعني أقول: الاحتجاج بالقدر يندرج فيما يسمى في عصرنا: فنّ التهرّب من المسؤولية، فأسهل شيء على الإنسان أن يُلقِي باللائمة على غيره ليُبرئ ساحته، ويتخلّص من تأنيب الضمير، وحالة الشعور بالخطأ التي تُثقله.

• **الوجه الرابع - وهو وجه واضح مختصر:** - الإنسان دعنا من كل

هذه التشنّجيات يا أيّها المحتج، إنما تأمل معي في هذه الجملة، الإنسان إما أن يكون مريداً للطاعة، أو غير مريد له، أما الذي يريد طاعة الله فلن يعتلّ بالقدر، بل سيطيع، وأنت ترى هذا بعينك يا أيّها المحتج؛ لأن الإرادة التامة مع القدرة الكاملة ينتج عنها الفعل بإذن الله، والله **وَعَلَىٰ رِجْلَيْكَ** يسرّ العبادة وسهّل أمرها على العباد، ولم يحلّ بينهم وبينها، أما من قعد عن الطاعة فقد علمنا يقيناً أنه غير مُريد لها، إذ لا مانع يمنعه، ولو اعتلّ بالقدر فإننا نعلم أنه كاذب في دعواه، ولا عذر له، إذ لا تُغالط يا أيّها المحتج بالقدر نفسك، أنت غير مريد للطاعة، ضع الأمور في نصابها، وسمّها باسمها.

● **الوجه الخامس:** يُقال للمحتج بالقدر على فعل المعصية: ما الذي أعلمك بأن الله قدّر لك أن تعصيه قبل أن تعصيه؟ نحن جميعاً لا نعلم ما قدّر الله لنا إلا بعد أن يقع، أما قبل أن يقع فلا ندري، لا ندري ما الذي يُراد بنا، فهل عندك علم قبل أن تُمارس المعصية أن الله قدّرها عليك؟ **الجواب قطعاً:** لا، ما عنده جواب، ما عنده معرفة بهذا، إذاً لم لا تُقدّر أن الله قدّر لك الطاعة وتطيعه؟

أعني: إذا قلت لك صلّ، ثبّ إلى الله، فقلت: الله ما كتب عليّ أن أصلي، إذا كتبه عليّ صليت، **أقول:** ما يدريك أنه لم يكتب لك الصلاة، أنت لا تدري ما سيكون بعد قليل، فلم لا تُقدّر في نفسك أن الله كتب لك أن تصلي فتبادر إليها، احتجاج الإنسان بحجة على أمر يفعل قبل أن تتقدّم حجته على فعله احتجاج باطل؛ لأن الدليل يتقدّم المدلول، **بمعنى:** أنت قدّرت الآن أن الله كتب عليك المعصية فعصيت، فلماذا لم تُقدّر أن الله كتب لك الطاعة فتطيع؟ القدر سرّ مكتوم، لا يعلمه إلا الله، ولا نعلم ما قضى الله وقدّر إلا بعد الوقوع، فإذا كنت أقدمت على المعصية بزعم أنك مستسلم للقدر، فلم لا تعكس الأمر، فتقدم على الطاعة، وتقول: أنا أستسلم للقدر، ألسنت لو ذكر لك أن للمدينة التي تُريد الوصول إليها طريقين:

١. **الطريق الأول:** معبّد آمن.

٢. والثاني: صعب مخوف، ألسنت تسلك الآمن؟ ستقول: بلى، فنقول: إذا لم تسلك في معاملتك ربك الطريق المخوف، المحفوف بالأخطار، وتدع الطريق الآمن الذي تكفل الله تعالى بالآمن لمن سلكه، ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْآمَنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

● الوجه السادس: أن يُقال لهذا المحتج: اعلم أن هذا الاحتجاج قد نهي عنه الشرع، فإن كنت مؤمناً بالله فيلزمك أن تستجيب لشرعه، سواء استوعبت هذا الموضوع جيّداً، أم لم تستوعبه، الاحتجاج بالقدر على مخالفة الأمر قد نهي عنه الشرع، في «الصحيحين»^(١) من حديث علي رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ في بقيع الغرقد في جنازة، فقال ﷺ: «ما منكم من أحد إلا قد كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ أَوْ مِنَ الْجَنَّةِ»، فقال رجل من القوم: ألا نتكىل يا رسول الله؟، في رواية لمسلم: يا رسول الله أفلا نمكث على كتابنا، وندع العمل؟، هذا رجل يسأل رسول الله ﷺ، هذا ما نبحث فيه الآن، هل لهم أن يعتذروا بالقدر، وبما هو مكتوب عليهم فيدعوا العمل ويتكبلوا على القدر؟

(١) رواه البخاري برقم (٤٩٤٦)، ومسلم برقم (٢٦٤٧).

اسمع جواب الرؤوف الرحيم لهذه الأمة ﷺ، قال ﷺ: «لا»، هذا نهي من لدن رسول الله ﷺ، فواجب على العبد أن ينتهي، قال ﷺ: «لا، اعملوا» هذا أمر، بالعمل، «فكلُّ مُيسَّر لما خُلِقَ له، أما من كان من أهل السعادة فييسَّر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاء فييسَّر لعمل أهل الشقاوة»^(١)، ثم تلا قول الله ﷻ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَانْتَفَى ۝۵ وَصَدَقَ بِالْحَسَنَى ۝۶ فَسَنِيْرُهُ لِلْعُسْرَى ۝۷ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ۝۸ وَكَذَّبَ بِالْحَسَنَى ۝۹ فَسَنِيْرُهُ لِلْعُسْرَى﴾، إذاً هذا شيء منهى عنه في الشرع، ومن كان مسلماً فواجب عليه أن ينتهي.

● **الوجه السابع:** هذا الاحتجاج بالقدر علاوة على أنه منهى عنه في

الشرع، فإنه لا فائدة منه، المحتج به يحتج بما لا فائدة فيه، إنما هو يضيع عُمره، ويبعّث حقه.

مثل المحتج بالقدر مثل إنسان طارت شرارة من نار إلى بيته، بدأ بيته يشتعل، قيل له: أدرك البيت، وأطفئ النار، فقال: انتظروا، هذه الشرارة أليست من قدر الله، إذاً لا بد أن أنتظر حتى يأتي قدر من الله يطفئها، فجلس فاحترق بيته، هل هذا - يا أخي الكريم - يفعله عاقل، أو هذا عنده خلل في عقله؟

(١) رواه البخاري برقم (٤٩٤٩).

أنا أقول في الحقيقة: هذا المحتج بالقدر حاله أسوأ من ذاك، لم؟ لأن الذي وصلت الشرارة إلى بيته لم يكن له فيها فعل، لكن هذا الذي يحتج بالقدر على المعاصي، هو الذي أورد نفسه معصية الله، فيستحق على ذلك العقوبة، إذاً بدلاً من أن تندب حظك، وتعلّل بما لا حجة فيه، قُمْ بادِر إلى طاعة الله، كُفّ نفسك عن محارمه، ادفع قدر الله بقدره، وفِرّ من قدره إلى قدره.

ومن المفيد هنا: ذكر القصة التي أخرجها الشيخان في «صحيحهما»^(١): وهي أنه لما أقبل عمر رضي الله عنه إلى الشام، فبلغه وقوع الوباء بها، أراد الرجوع، فقال أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه: أفراراً من قدر الله؟ فقال عمر رضي الله عنه: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، نعم، نَفِر من قدر الله إلى قدر الله، أرأيت لو كانت لك إبل فهبطت وادياً له عُدتان: إحداها خضبة، والأخرى جذبة، أليس إن رعيتهما الخضبة رعيتهما بقدر الله، وإن رعيتهما الجذبة رعيتهما بقدر الله؟

● **الوجه الثامن والأخير:** يُقال لمن يحتج بالقدر على التفريط في حق

الله عليه: أنت علاوة على وقوعك في الذنب الأول، وعلاوة على أنك تفعل شيئاً لا فائدة منه، أنت قد وقعت في ذنب ثانٍ؛ لأنك تريد أن تعارض أمر الله بقدره، تريد أن تضرب القدر بالشرع، وهذا

(١) رواه البخاري برقم (٥٧٢٩)، ومسلم برقم (٢٢١٩).

مخالف للشرع، وفيه إساءة للأدب مع الله سبحانه، وما هذه الحال - كما سبق - إلا حال إبليس الذي قال: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩]، وعليه فمن أراد الله سعادته، إذا وقع في الذنب والتقصير قال ما قاله أبواه آدم وحواء عليهما السلام: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، أما المخذول فيحتج بما احتج به إبليس، ﴿بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾، فانظر لنفسك يا أيها الموفق بمن تقتدي، ومع من تريد أن تكون؟

هذه بعض الأوجه التي يُجاب بها قول من قال بالاحتجاج بالقدر على ترك ما أوجب الله، ويزعم أن القدر حجة له على فعل ما حرّم الله.

المقدم: لو نلخص على الأقل مثلاً إجابة صغيرة، أو في سطر مثلاً التعامل مع هذه القضية، التعامل مع من يحتج بالقدر على ارتكابه للمعاصي، سواء كان الشخص نفسه، أو مثلاً ابن من أبنائه، أو الزوج، أو الزوجة أو نحو ذلك ممن يحيط بنا، كيف نتعامل في سطر واحد، أو في دقيقة؟

الشيخ: أنا أقول من أحسن الأوجه التي تبين هذا المقام: الوجه الأول؛ لأنه مقنع تماماً، تُقلب الحجة عليه في شأن الدنيا، هو يحتج بالقدر في الدين، اقلب



عليه الحجة في الدنيا، إذا جاء وقت الطعام قل: يا ابني عفواً لا ينبغي لك أن تأكل، لماذا؟ اجلس في مكانك حتى يأتيك الطعام ينزل لك بشيء يخرق لك السقف وينزل إليك، وإلا فليس لك أن تتحرّك؛ لأن هذا هو القدر، نفس الحجة هذه، عندها سيدرك تماماً أنه إنما يقع في لجّج، ويخاصم خصومة، ولا يرجع إلى علم، ولا يرجع إلى حجة في قوله.

المقدم: إن كان هناك إحالة، أو من أراد الاستزادة حول هذا الموضوع تقترحون عليه أن يعود إلى مصنف أو كتاب؟

الشيخ: في الحقيقة لعلّ من أحسن من تناول هذا الموضوع: شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله، من أراد الفائدة وكان طالباً لها، فإني أوصيه بالرجوع إلى رسالة قيّمة صغيرة له عنوانها «الاحتجاج بالقدر»، مطبوعة مفردة، وموجودة على الشبكة، وموجودة أيضاً في «مجموع الفتاوى» شيخ الإسلام في المجلد الثامن، من صحيفة (٣٠٣) إلى (٣٧٠)، إن كنت تريد الفائدة فهذه الرسالة تشفيك وتكفيك بإذن الله.





الحلقة الثالثة عشرة

نسبية الحقيقة في الميزان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدم: لو نبتدئ بالحق، الحقيقة ربما مُقتبسة من كلمة الحق، ما هو الحق؟
الشيخ: الموضوع - كما تفضّلتم - ربما فيه شيء من الغموض، ولكن سأحاول أن أتناوله بتوفيق الله ﷻ بشيء من التيسير والتسهيل، بعيداً عن تعقيدات الفلسفة وما فيها من قضايا عميقة.

الحق في أصل مادته اللغوية: يدل على إحكام الشيء وصحته، من (حَقَّ الشيء يَحِقُّ إذا ثبت ووجب)، فالحق والحقيقة: الشيء الثابت الذي لا يسوغ إنكاره، والحكم المطابق للواقع وهو ضدّ الباطل، والله ﷻ هو الحق، وجوده حق، ربوبيته وألوهيته وكَماله حق، وقوله وفعله حق، ووَعده حق، ولقاؤه حق، ورُسُلُه حق، وكتبه حق، ودينه الإسلام هو الحق، وكل ما يُنسب إليه سبحانه فهو حق، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَبَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [الحج: ٦٢]، ونبينا محمد ﷺ حق، نبوّته حق، شريعته حق، ولم يُوحَ إليه إلا الحق، ولم يخرج من فمه إلى الحق، ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٨].

في «الصحيحين»: أن النبي ﷺ كان يقول في تهجده إذا قام من الليل: «أنت الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك حق، وقولك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبؤون حق، ومحمد ﷺ حق، والساعة حق».

المقدم: ربما قضية الحق تقودنا أيضاً إلى مصطلح آخر، وهو قضية المطلق، هل الحق المطلق شيء موجود، وهل هو شيء ثابت في نفسه بغض النظر عن اعتقاد الناس فيه، قبل ذلك ما هو الحق المطلق، كلمة المطلق ماذا نعني بها؟

الشيخ: نريد بذلك أنه حق من حيث هو حق في ذاته، وهو مطلق أي: خارج عن أي اعتبار آخر، وهذا ولا شك ثابت ولا يخالف فيه من كان عنده عقل، الحق المطلق ثابت، كون الشمس الآن طالعة هذه حقيقة مطلقة، سواءً اعتقدنا هذا أو لم نعتقده، هذا لن يؤثر في الواقع شيئاً، كونك تكلمني وأكلمك الآن هذا حقيقة مطلقة، ولو أنكر هذا من أنكره، فإن هذا لا يُغيّر في الحقيقة شيئاً، واحد زائد واحد يساوي: اثنين، هذه حقيقة ثابتة لا علاقة لها باعتقادنا، قتل الأبرياء ظلماً هذا منكر، هذه حقيقة ثابتة وهَلَمْ جَرّاً.

إذا: ثمة حقائق مستقلة في ثبوتها لا تتأثر سلباً أو إيجاباً بما يدور في أذهاننا من تصور لها وعدم تصور.

المقدم: هل يمكن الوصول إلى الحق، هل يمكن معرفة الحق بوضوح مثلاً؟

الشيخ: نعم ولا شك، الحق يمكن طلبه، ويمكن الوصول إليه، ليس هو شيئاً غامضاً، أو مُلتبساً، أو هُلامياً، ولولا هذا ما أمر الله ﷻ باتباعه، وما نهي عن الزيف عنه، وما نهي عن كتمانته، وعن لبسه بالباطل، يقول الله ﷻ: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [يونس: ١٠٨]، من أراد الحق فإن الله ﷻ سيُيسِّر له الوصول إليه.

المقدم: ما مصدر الحق، من الذي يطلق على هذا الحق أنه حق؟

الشيخ: الحق مصدره من الله ﷻ، فهو الذي أحقَّه، وهو الذي فطر العباد على معرفته والاهتداء إليه، وهو الذي أعطى وسائل إدراكه، ويسَّر أسباب الوصول إليه، وأقام الأدلة عليه، وأرسل الرسل به، قال تعالى: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ [البقرة: ١٤٧]، وقال سبحانه: ﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ [يونس: ٨٢]، ولا يجادل في هذه الحقيقة إلا أعمى البصيرة، قال سبحانه: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ [الرعد: ١٩]، وبعد البعثة المُحمَّدية على صاحبها الصلاة والسلام، أهل الإسلام هم الذين فازوا بالحق من بين أهل الأديان، قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ذَلِكَ يَأْنِ لِلَّذِينَ كَفَرُوا أَتَّبِعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا أَتَّبِعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [محمد: ٣-٢].

المقدم: في قضية اليوم المنهج الصحيح في ضبط موضوع الحق، إن كان هناك من أصول أو قواعد؟

الشيخ: ينضبط هذا الموضوع بتقرير أربعة ضوابط:

• **الضابط الأول:** الحق ثابت موجود، بغض النظر عن التزامنا به، أو عدم التزامنا.

• **الضابط الثاني:** الحق الذي أوجب الله ﷻ اتباعه واضح وليس غامضاً، أو مُلتبساً.

• **الضابط الثالث:** يجب البحث عن هذا الحق والسعي في إصابته.

• **الضابط الرابع:** الحق يمكن الوصول إليه، وقد يسره الله لمُبتغيه، قال

سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾

[العنكبوت: ٦٩].

المقدم: ننتقل إلى المحور القادم، وهو موضوع الحلقة، نسبية الحقيقة، اليوم

نسمع بعض الشباب يقول: الحقيقة نسبية، لا أحد يملك الحقيقة المطلقة ... إلى آخر ذلك من الإطلاقات والعبارات، فنريد أن نعرف ما معنى نسبية الحقيقة؟

الشيخ: معنى نسبية الحقيقة: أن الحقيقة تختلف من شخص لآخر، ومن

وقت لآخر، أرباب هذا التوجه يقولون: الحقيقة مُوزَّعة من حيث الاحتمال المفتوح

بين الناس جميعاً، وليس للأشياء حقيقة واحدة في نفسها، والأمر - كما تفضّلت - كثيراً ما نسمع هذه العبارات وأضرابها، وغالباً ما يكون هذا في موضع جدال في قضايا شرعية، وغالباً ما يكون للتملّص من التزام بما لا يوافق الهوى، لكن ربما تطوّر الأمر عند آخرين، حيث يقصدون حصول الفوضى الفكرية، بزعم أن ما تراه أنت حق، وما يراه مخالفك حق أيضاً ولو كان ديناً آخر، ولو كان مذهباً ضالاً، ولو كان فعلاً منكراً، فلا مجال أن تجزم بصوابك، أو بخطأ غيرك، فضلاً عن أن تُنكر عليه، يقولون: انظر إلى العسل، يجده الصحيح حلواً، ويجده المريض مرّاً، وهو شيء واحد، كذلك الشأن في الحقيقة، هذا مثال ضربوه وهو بطبيعة الحال مغالطة، مغالطة منطقية تسمى: مغالطة التفكير التشبيهي، أي: التشبيه الزائف، العسل حلو في نفسه بلا شك، دُقناه أو لم ندقّه، إنما يجده المريض مُرّاً لعله ومانع من استطعامه، وليس لأنه في الواقع مُرّ، كما أن من وضع حائلاً بينه وبين الشمس فلا يُقبل قوله إنها غير طالعة، أليس كذلك؟

إذاً نسبية الحقيقة - وأودُّ أن أثبته هنا - إلى أنها قد تكون شعاراً يُمَرَّر تحته أنواع الشُّبهات، والانحرافات، بل والكفريات، ولربما حلَّ هؤلاء هذا التوجه بحُلّا التقدم والتطور والتسامح والانفتاح إلى آخر ما هنالك.

المقدم: ربما كثير من الأفكار السابقة التي طرحناها في البرنامج من شبهات ونحوها، كان لها أصل فلسفي انبثقت منه، فهل هذه الفكرة من هذا القبيل؟

الشيخ: نعم، يمكن اعتبار أصل هذه الفكرة راجعاً إلى مذهب العندية السفسطائي، وهو أحد المذاهب السفسطائية الثلاثة المشهورة التي هي: العنادية، والعندية، واللاأدرية.

العندية مذهب فلسفي، وأنا أقولها تجوُّزاً، وإلا فإنه لا يمثّل مذهباً فكرياً متكاملاً، إنما هو نوع من العشية التي تأخذ طابع الفكر والفلسفة، يرى أصحاب هذه الفلسفة أن الحقائق تتبع الاعتقادات، فما اعتقدته قديماً فهو الواقع قديم، وما اعتقدته حديثاً فهو الواقع حديث، ما اعتقدته موجوداً فهو موجود، ما اعتقدته معدوماً فهو معدوم، وحين أقول: هو معدوم ليس في اعتقادك، إنما يزعمون أنه في الواقع هو كذلك، الإنسان مقياس كل شيء، والمُعتَبَر في مصادر المعرفة هو الثبوت الذهني، والمعرفة لا تتعلّق بالموضوع المعروف، بل بالذات العارفة، وهذا المذهب يُعزى تأسيسه إلى أحد فلاسفة اليونان، واسمه (بروتا قوراس) المتوفى سنة: ٤١٠ قبل الميلاد.

المقدم: كنّا قد تحدثنا عن العصر القديم ونسبية الحقيقة في ذلك الزمان ونحو ذلك، العصر الحديث ربما المذاهب فيه أكثر، فهل هناك مذهب من المذاهب المعاصرة تبني هذه المسألة، أو هذا الفكر؟

الشيخ: تلقّف هذا الفكر القديم تيارات فكرية معاصرة مختلفة إلحادية وغير إلحادية، وجدت في هذا المذهب بُغيتها، وما يُحقّق هدفها، وإن كانوا بطبيعة الحال ليسوا على درجة واحدة في تبنيه.

وأستأذنك في تفصيل القول في هذا الموضوع بعض الشيء؛ لأن بعض شبابنا قد يُردّد كلاماً وهو لا يتصوّر أبعاده ومآلاته ولا ما يتقاطع معه من مذاهب وأفكار، أبرز المذاهب والفلسفات المعاصرة التي تبنت نسبية الحقيقة بقدر كبير من الغلو والمبلغة، وألبست مذهب العنصرية القديم لباساً جديداً، هو ما يسمى: بفلسفة ما بعد الحداثة، ما بعد الحداثة يريدون بها المرحلة اللاحقة للحداثة التي انتهت بانتهاء الحرب العالمية الثانية، هذا التيار تيار فكري يتشكك في الحقيقة، والعقل، والهوية، والموضوعية، ويحمل في أعطاسه فلسفة فوضوية عدمية لا معقولة، حيث يرى كل شيء غير مستقر، وليس له أساس ثابت، وليس ثمة حقائق مطلقة، الفكرة الأبرز عند هؤلاء هي النسبية العنصرية، فلا حقائق ثابتة يمكن للعقل أن يتوصّل إليها، ولا أخطاء يقدر على كشفها وتصحيحها، ولا معيار يفصل بين الصواب والخطأ،

هو مذهب يتضمّن نفي الأسس الأخلاقية أو الشرعية، والقاعدة الوحيدة الصالحة عنده هي (كل شيء مقبول)، هذه الفلسفة قائمة على الشك والتعددية المفرطة المؤدية لفقدان الهوية، وإبطال كل الحقائق التي جاءت بها الأديان، قامت على تزويب كل ما اتفقت عليه البشرية من الحقائق، الحقيقة النسبية يشكّلها كل إنسان بنفسه، ولا تُفرض عليه من الخارج، ولا مجال للحكم على شيء بصواب أو خطأ، كل شيء في هذه الحياة نسبي، ولا مركزية لشيء، فالأشياء متساوية، هذا المذهب يسعى لنفس ما يسمى (الثنائية الضدية)، الخير والشر، الصواب والخطأ، الجميل والقيح، لا بد من تجاوز هذا كله، المنتجات الثقافية عند هؤلاء متكافئة، وعليه فلا يمكن تأصيل أيّ فكر ولا الثبات على أي عقيدة؛ لأن الأصل لا وجود له، لا يوجد شيء يملك في ذاته مبدأ استقراره، لا وجود لأصل يمكن تأصيله، وهذا في الحقيقة نسف للعقل، الغاية التي يسعى إليها هؤلاء ويُصِرّحون بها، ويُقرّرونها في كتبهم هي: الوصول إلى مرحلة نهاية اليقينيات، وانهلال الأصول، أن يكون العالم نسقاً سائلاً بلا يقين أو معنى أو غاية، وأن يصبح الإنسان بلا هوية، ولا عقيدة، ولا حدود، هذا باختصار خلاصة هذا المذهب.

المقدم: ما أثر هذه الفلسفة على الدين والتمسك به، يمكن كثير من المسلمين حتى وإن لم يكن لديه عناية بقضايا الفكر ونحو ذلك، يكون قد سمع

فعلاً بما بعد الحادثة، أو هذا المصطلح، هذا المذهب، فماذا عن أثر ذلك على الدين وعلى تمسُّكنا بديننا؟

الشيخ: لولا وجود خطر لهذا التيار الفلسفي على تمسُّك المسلمين بدينهم، وعقيدتهم لكان الخطب، لكن هيهات، هذا التيار يسعى السعي الحثيث في الطعن في الدين، وتشويهه، والعبث بأصوله، وتشكيك أهله فيه، ونُلجِّص هذا في أمرين يجتهد هؤلاء في تقريرهما وهما في غاية الخطورة:

- **الأمر الأول:** جعل العقائد تصوّرات مرُتَمِّنة بمستوى الوعي، متغيّرة بتغيّر العصور، ومن ذلك الاعتقاد في الله العظيم سبحانه، فإنه في منظور هؤلاء يكون بحسب مستوى الإنسان العقلي، ومدركاته الذهنية والنفسية، إن اعتقدته رباً متّصفاً بالكمال فلا بأس، وإن اعتقدت فيه النقص -تعالى الله عن ذلك- فلا بأس، وإن اعتقدته مفهوماً بلا حقيقة ولا وجود فلا بأس أيضاً، كل من اعتقد في الله عقيدة فهو مُصيب فيها، ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾، وغني عن البيان أن هذا من أعظم الكفر بالله سبحانه.

- **الأمر الثاني:** كسر معنى الخطاب الشرعي وتمييعه، وذلك عن طريق فكرة الرمزية والتأويل، بمعنى: هؤلاء يقولون بنفي وجود أي مدلول

صريح لأي نص شرعي، ينفون أن يكون ثمة معناً مراداً للمتكلم به، جميع النصوص تحتل معاني بعدد القارئ لها، هي فضاء واسع بالإسقاط، والتأويل حسب الأهواء، لك أن تفهم العبادة في قوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ٣٦] كما تشاء، لك أن تُفسّر عندهم الصلاة، والزكاة في قوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [النساء: ٧٧] كما يحلّ لك، وهلمّ جرّاً في كل أدلة الكتاب والسنة، لا يوجد أي ضابط علمي، ولا رادع شرعي، هذا باختصار، انسلاخ من هذه الشريعة بالكلية، هذا إلحاد في آيات الله، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخَفُونَ عَلَيْنَا﴾ [فصلت: ٤٠]، ما أشبه هؤلاء بمن قال الله ﷻ فيهم، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

المقدم: بعد بيان خطورة هذا المذهب، لا بد أن نقف معه لنناقشه، فلو تُورد لنا شيئاً من المناقشة لهذا المذهب؟

الشيخ: الكلام في نقد مذهب نسبية الحقيقة يطول جداً، لكنني أقتصر على بعض الأوجه:

● أولاً: هذا المذهب مذهب هادِم للدين والأخلاق، ولكل نظام اجتماعي، في ظلاله لا قيام لدين، ولا استقامة لمعاش، ولا انتظام لدولة.

● ثانياً: هذا المذهب لا سبيل لعقل أن يتمذهب به أصلاً، إنما هو مسلك لجحٍ وخصومة، يُلجأ إليه لأجل التشغيب لا غير، أمّا أن يلتزم به إنسان في كل وقت، وفي كل مسألة هذا شيء غير مُمكن، ومن ادّعاه فقد كذب، والتناقض ملازم له قطعاً، وواقعه أكبر شهادة عليه، **بدليل:** أنك تجد طرح هؤلاء المتكرّر الذي لا يقومون ولا يقعدون إلا بالدّندنة عليه، لا أحد يمتلك الحقيقة المطلقة، وهذه حقيقة مطلقة، تمسّكوا بها بقوة، وكرّسوا أنفسهم للدعوة إليها.

دليل آخر: تجد هؤلاء عندهم الطّعن، والغمز في المتمسكين بدينهم، تجد عندهم رميهم بالتخلّف والرجعية، **السؤال:** أين النسبية؟ النسبية تقتضي أن يكون دائماً في موقف الحياد، ألا يتخذ أو موقف سلبي أو إيجابي من أي قضية، فاتضح إذّا أن النسبية ليست قضية علمية عندهم، إنما هي ستار لتحقيق المآرب.

● **ثالثاً:** من قال: لا توجد حقيقة مطلقة، نسأله: هل كلامك هذا حقيقة مطلقة؟ إن قال: نعم، فقد سقطت قاعدته؛ لأنه أقر بوجود

حقيقة مطلقة، وإن قال: كلامي ليس حقيقة مطلقة، قيل: إذاً لا يمكنك الإلزام به، وليس لك أن تدعوا إليه، فهي مقولة تُسقط نفسها بنفسها.

● رابعاً: ما هم عليه من المذهب يقتضي تصويب أي قول، وعليه فنقول: نحن نعتقد بطلان مذهبكم، فيلزمكم تصويبنا بناءً على نسبية الحقيقة، فيكونون قد أقرّون على أن مذهبهم باطل، وهذا كافٍ في رد مذهبهم؛ لأن من شهد على قوله بالبطلان فقد كفى خصمه تبين فساد مذهبه.

● خامساً: هذا المذهب كما قال أهل العلم: «أوله سفسطة، وآخره زندقة»؛ لأنه في الابتداء يجعل الشيء ونقيضه حقاً، ثم ينتهي بتخيير الناظر بين النقيضين ليختار من المذاهب ما يروق لهواه، ويسوّي بين الاعتقادات والأفعال الصالحة والفاصلة، ولا شك أن هذا كفر وزندقة.

● سادساً: لا يمكن أن تستقيم حياة الناس بناءً على هذا المذهب، وستفسد فساداً لا صلاح معه؛ لأنه بناءً على إلغاء الحقيقة المطلقة، سيُلزمهم أن يسوّغوا لكل أحد أن يفعل أي شيء؛ لأنه رغب فيه،

أو رأى فيه مصلحته، حتى لو كان قتل الأبرياء، وتقطيع الأطفال، واغتصاب النساء، والسطو على حقوق الآخرين، ومتى ما عُرض لأن فعله جريمة، فله بناءً على هذا المذهب أن يردّ ببرود ما ترونه أنتم جريمة أراه أنا مُتعة، والحقيقة نسبية، فأَي فساد وراء هذا الفساد.

بالمناسبة: هذا المذهب سيجد فيه العُلاة من الخوارج ونحوهم الحُجّة لهم في قتل المسلمين والمستأمنين بغير حق، إذ يمكن حين الإنكار عليهم أن يقولوا: ما ترونه أنتم إفساداً نراه نحن جهاداً، والحقيقة نسبية، فأَي فساد يؤول إليه هذا المذهب.

المقدم: ذكرتم ستة أوجه، وكنتم قد تنبّهتم إلى أنها عشرة أوجه لمناقشة ما بعد الحادثة، أو مذهب ما بعد الحادثة؟

الشيخ: نحن نناقش حقيقة الفكرة التي تتبنّى نسبية الحقيقة بغض النظر عمّا بعد الحادثة أو غيرها، والمذاهب التي تتبنّى هذه الفكرة - كما ذكرت سابقاً - مذاهب كثيرة، لكنني ركّزت على أخطرهما، أعود وأقول:

● **الوجه السابع:** القول بالنسبية للحقيقة لا دليل عليه، وهذا كافٍ في سقوطه.

توضيح هذا: أن يُقال لمن يتبنّى هذا المذهب: ما الدليل على أن الحقائق جميعاً نسبية؟ فإن زعم إقامة دليل فقد سقط قوله من أصله؛ لأن مذهبه قائم على رفض مبدأ الدليل الثابت الذي يجب التحاكم إليه والانصياع لحكمه، وإن زعم أنه

لا دليل عليه فقد سقط قوله أيضاً؛ لأن القول الذي لا دليل عليه غير صحيح، ولا سبيل إلى التحقق من صدقه، فهو إذاً ساقط.

● **الوجه الثامن:** هذا القول يشهد الحس والواقع والإجماع البشري على بطلانه، البشر مُسلّمهم وكافرهم متفقون على حقائق مطلقة، من مثل: أن الظلم قبيح، أن البرّ بالوالدين حسن، أن العطف على الفقير ممدوح، أن الأجرة على العمل واجبة، أن لكل حادث محدثاً، إلى آخر ما يعجز الإنسان عن حصّره، إذاً هذا الاتفاق البشري القطعي على ثبوت حقائق مطلقة كافٍ في بطلان القول بنسبية الحقيقة.

● **الوجه التاسع:** يُقال لمن يتبنّى القول بنسبية الحقيقة: لو قُدِّر أنه مرض ابنك، واختلف رأي طبيّين فيه، أحدهما قال: إجراء العملية خطر على حياته، والآخر يقول: عدم إجراء العملية هو الخطر على حياته، فماذا ستصنع، هل ستلتزم بمذهبك، وحينها كيف ستصرّف؟ ولا أظن عاقلاً سينحو إلى هذا؛ لأنه سيغامر حينها بحياة ابنه، إذاً لا بد أن يجتهد في البحث والسؤال حتى يصل إلى الرأي الصواب، فيقتنع أن قول هذا صواب، وأن قول هذا خطأ، وحينها سينتقد عليه مذهبه، وحينها أيضاً سنقول له: لم أبيت المغامرة في شأن الأبدان، وارتضيتهما في شأن الأديان؟!

● الوجه العاشر والأخير: مشكلة هؤلاء أنهم وقعوا في مغالطة التعميم المتسرع؛ لأنهم يقولون: الحقيقة نسبية، فاللوحة الفنية تراها أنت جميلة، وأراها أنا قبيحة، إذاً الحقيقة نسبية، هكذا بكل بساطة كما يقولون، وهذه هي مغالطة التعميم المتسرع، هل كل الأشياء مثل اللوحة؟
المقدم: طبعاً لا.

الشيخ: هذا مثل من يصف قطرة للعين جرّبها، لكل من أصابه مرض في عينه، وهل إذا نجحت القطرة في مرض ستناسب كل مرض؟ **الصواب:** أن من الحقائق ما هو مطلق - كما سبق - وهي الحقائق المجردة القائمة على دليل صحيح ثابت، أو البديهيّات العقلية ونحوها، هذه مطلقة ثابتة غير متأثرة باعتقادنا فيها، هي مطلقة لذاتها، ومن الحقائق ما هو نسبي، وهي الحقائق المتوقّعة على المتغيّرات أو الأذواق، فالعلم التجريبي الذي يرتبط بثبوته بمتغيّر، فإنه يتغير بتغيّر معياره، ولذا نجد أنه مع تقدّم العلوم التجريبية تتغيّر بعض المعطيات العلمية بحسب الاكتشافات الجديدة، كذلك القضايا الذوقية هي أيضاً نسبية، حكمي على لوحة بأنها جميلة، وحكمك عليها بأنها قبيحة، هذا أمر نسبي، فهذه حقائق نسبية لذاتها، هذه أوجه عشرة لمناقشة هذه الفكرة باختصار.

المقدم: وقد وصلنا إلى مَنْ يطلق القول بنسبية الحقيقة من المسلمين، وقد لا يكون لا يقصد ما سبق، وإنما يقصد أن هناك أمور اجتهادية في الشريعة، بدليل كثرة الخلاف بين الفقهاء، فلا أحد يقطع بصواب قوله، وخطأ قول مخالفه، فكيف نردّ عليه أو كيف الجواب على هذا القول؟

الشيخ: الجواب يتلخّص في خمسة أمور:

١. الأمر الأول: الإطلاق الذي أطلقوه أعمّ من الموضوع، فكان ينبغي

التعبير بكلام يفهم المقصود وهو المسائل الاجتهادية، دون هذا التعميم الذي يلبس الحق بالباطل.

٢. الأمر الثاني: حين نقول: إن هناك حقائق ثابتة في نفسها، فإن هذا

لا أنها معلومة لكل أحد، بل قد يصيبها المرء، وقد يخطئها، يخطئها لجهله، لقصوره، لأسباب أخرى.

٣. الأمر الثالث: المسائل ليست على درجة واحدة، ثمّة مسائل بديهية

لا يختلف فيها العقلاء، ثمّة مسائل ظاهرة ظهوراً بيّناً، وأدلتها قاهرة بحيث لا تخفى على من أراد الحق؛ كصحّة الإسلام من بين الأديان، فهذه لا غدر لمن بلغه العلم في مخالفتها، ومن المسائل ما هو دون هذه في القوة وهي: المسائل الاجتهادية التي لم تتبيّن فيها الأدلة ذلك

التبني، فمثل هذه لا إنكار فيها على المخالف، مع اعتقاد أن الحق فيها واحد ثابت يعلمه الله، من أصابه فله أجران، ومن أخطأه فله أجر واحد.

إذاً: نسبة الحقيقة ولوازمها شيء، والتعامل مع الخلاف والمخالف في المسائل الاجتهادية شيء آخر.

٤. الأمر الرابع: حتى المسائل الاجتهادية ليس الاختيار فيها منوطاً بالتشهي، أن أختار ما يحلو لي فيها، إنما هناك قواعد يتعين الأخذ بها في الاجتهاد، في التعامل مع الأقوال، في التعامل مع الأدلة والترجيح بينها.

٥. الأمر الخامس: مشكلة بعض الشباب: أنهم يخوضون في مسائل شرعية أو غير شرعية هي أكبر من مستواهم، أو يبحثون في أشياء تخصّصية لا يُحسنون فهمها وضبطها والترجيح بين الأقوال المختلفة فيها، ولا يتوفّرون على الأدوات المعرفية اللازمة لهذا، فيصابون بشيء من الحيرة والاضطراب، فتجده يقول: المسألة نسبية ولا يمكن الجزم بشيء، والسبب أنه ما فهم، مع أنه لو أحسن فهمها، وأتى الشيء من بابه لما قال هذا الكلام!

المقدم: لكننا نطمع أيضاً في كلمة أخيرة نختم بها الحديث قد تعلق في الذهن بعد كل هذا التعمُّق في هذه القضية؟

الشيخ: إن كان من شيء فالوصية لأحبي وإخوتي بثلاثة أمور:

• **الأمر الأول:** يقول الله سبحانه: ﴿فَمَا ذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢]،

فليس لمن عرف الحق أن يتزخَّر عنه مهما كثرت الشعارات البرَّاقة.

• **الأمر الثاني:** لنحذر لنحذر من القواعد والعبارات المُجمَّلة المُلتبسة، فلربما كان في حشوها السَّم الرُّعاف.

• **الأمر الثالث:** احترام المخالف المستحق للاحترام، وحُسن الحوار، والتزام

الأدب، هذا كله شيء، وتذويب الأول، والتخلِّي عن العقائد الراسخة

والثوابت والقيم شيء آخر، والخلط بين المقامين خطأ كبير، والله تعالى أعلم.

المقدم: نريد إحالة معيِّنة لكتاب معيَّن، أو لمن أراد الاستزادة حول الموضوع،

والتعمُّق أكثر؟

الشيخ: أُصدقك القول؛ ما وجدت كتاباً أوضح مسألة الحق مثل: «القرآن»،

ولذلك أوصي من كان له اهتمام بهذا الموضوع أن يقرأ آيات الحق في القرآن، وقد

وردت هذه الكلمة في أكثر من مئة موضع، تأمَّلها ستجد فيها بُغيثك بإذن الله.





الحلقة الرابعة عشرة

بين الشك واليقين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الشيخ: موضوعنا اليوم موضوع من أعظم الموضوعات؛ لأنه حديث عن سبب النجاة، وسبب للهلاك، موضوعنا يتحدث عن نعيم وعذاب، اليقين بالله ﷻ ودينه، وهو العلم التام الذي لا يخالطه شك، الموجب للعمل، هذا هو النعيم، وضده وهو الشك: الذي هو التردد بين طرفين مع عدم الميل إلى أحدهما، فهذا إن تعلّق بأصول الدين كان حيرة، وعذاباً، وربما كان طريقاً إلى العذاب، والمطلوب منا معشر المسلمين والنافع لنا هو اليقين بالمطالب الدينية، قال النبي ﷺ: «أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله لا يلقى الله بهما عبدٌ غير شاكٍ فيهما إلا دخل الجنة» أخرجه مسلم (١).

ولذا كان اليقين شرطاً في الانتفاع بكلمة التوحيد، اليقين غذاء القلب ودواؤه، وشفاءه وحياته ونوره وقوّته ولذّته، اليقين أساس الدين، سمة أهله، ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ [الحجرات: ١٥]، اليقين سبيل الهداية والفلاح، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ ﴿١﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢﴾ [البقرة: ٤-٥]، فقد اليقين سمة الهالكين،

قال سبحانه عن الكافرين: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيِقِينَ﴾ [الجمانية: ٣٢]، الشكُّ أَلَمٌ في القلب، وضيق في الصدر، ولوعة تستولي على النفس، بخلاف اليقين، فإنه برد وطمأنينة وسكينة، وانشرح، إنه حلاوة وفرحة وسرور، ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِٗٔ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢].

المقدم: وبعد هذه المقدمة لازلنا نتساءل، لماذا يُطرح مثل هذا الموضوع، ربما نسمع أحياناً بعض التربويين وبعض الدعاة أحياناً يُحذّر من طرح مثل هذه المواضيع، ولا تفتحوا الباب، وتُمت مثل هذه المواضيع بعدم ذكرها ونحو ذلك، فهل هناك حاجة لطرح موضوع الشك واليقين؟

الشيخ: بكل تأكيد، الوعي بهذا - في نظري - أهم من الوعي في أشياء أخرى كثيرة مهمة، ثمّة اليوم صراع مَرِير يدور رَحَاهُ في نفوس بعض الشباب والفتيات، حتى إنهم يُراوحون في دينهم بين شك ويقين، هناك شكوك قوية واقعية تُساور بعضهم، تتعلّق بالحقائق الإيمانية الكبرى؛ الإيمان بالله، صدق النبوة المحمدية، صحة الإسلام، ثبوت اليوم الآخر، إلى آخره، وهؤلاء ليسوا مُعرِضين، هؤلاء يطمحون إلى الارتقاء إلى سماء اليقين، لكن الشكوك تجذبهم إلى الأسفل، هو حقّاً هم مُقعّد، وحيرة قاتلة، الأمر خطير جداً، ثمّة اليوم فلسفات معاصرة

شكوكية منتشرة، عبّئت بعقول كثير من الشباب، فأدخلتهم في دَوّامة من الحيرة والتّيه، لا يوصلون معها نوره.

ناقشتُ مرّة شاباً قد عصفتُ به بعض هذه الفلسفات، حتى صار شاكاً في غالب الأشياء إن لم يكن شاكاً فيها كلها، حتى إنني تحيّرت في كونه متيقناً من كوني جالساً أمامه، أم هو في شك من هذا أيضاً، كل من يعرف هذا الواقع فعليه مسؤولية كبيرة تجاه هؤلاء الشباب، أن يساعدهم في الوصول إلى برّ الأمان، أن يبصروا النور، أن يشعروا بالطمأنينة والاستقرار، أن يُلقوا عن أنفسهم هذا الحِمل الثقيل، أن تستريح قلوبهم، وأن تسكن نفوسهم.

المقدم: هل مُعطيات العصر الحديث هي التي تُحتم علينا معالجة مثل هذه المواضيع؟
الشيخ: نعم بلا تردّد، نحن نعيش في ظلّ حملات تشكيك طاغية، وأمواج منه عاتية، أعداء الله يبيّثون الشكوك ليل نهار، يقعدون للشباب بكل صراط يصدوهم عن سبيل الله، يشكّكونهم في وجود الله، في ربوبيته، في ألوهيته، في كتابه، في نبيه ﷺ، في سنته، في القدر، في الغيب، في الأحكام الشرعية، بل حتى في البديهيّات العقلية، ولا والله ما بالغتُ مثقال ذرة.

قبل عُقود قريبة لم يكن بنا حاجة إلى أن نطرح هذا الموضوع كما نطرحه اليوم، لكن الوضع الآن اختلف، العالم لم يعد قرية صغيرة، بل هو أشبه بغرفة صغيرة، ما يُطرح

في أقصى الغرب في (شيكاغو)، أو في أقصى الشرق في (طوكيو)، تتطلع عليه في اللحظة نفسها، وتتفاعل معه وأنت في بيتك متكئ على أريكتك، أليس الأمر كذلك؟ هذا الوضع استغله أهل الضلال أعظم استغلال، فجيش الملاحدة واللادينون وجميع أصناف الضلال جئشوا جيوشهم من خلال الشبكة ووسائل التواصل والفضائيات، ورئشوا سهامهم لإصابة ضعاف الإيمان في مقتل، والله المستعان!

المقدم: ماذا نصنع مع أبنائنا، كيف نجيبهم هذه التيارات، ومثل هذه الأفكار التي ربما أصبحت أقرب إليهم من أي وقت مضى خاصة مع الأجهزة الحديثة؟

الشيخ: الأمانة التي استرعاك الله -إياها أيها الأب، وأيتها الأم، وأيها المعلم والمربي- سيسألك الله عنها، فأعد للسؤال جوابًا، «**كلُّكم راعٍ، وكلُّكم مسئول عن رعيته**»^(١) هذا كلام الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ.

باختصار: نحتاج مع أبنائنا أن نستعمل تاءات: التحصين، الترشيده، التربية.

أمَّا التحصين فالمسائل الفاشية التي تُطرح اليوم، وهي مسار إشكال وشكوك، وتستوعبها عقولهم، فلا بد أن تعطيهم فيها جرعة تحصين، وإن شئت فأقول: أن تعطيهم جرعة تطعيم، تقول لهم: هناك فكرة خاطئة هي كذا وكذا، الصواب كذا وكذا، بأسلوب سهل واضح يفهمونه، إذا كانت المبادرة منك هنا أنت تضمن أنه

(١) رواه البخاري برقم (٨٩٣)، ومسلم برقم (١٨٢٩).

إذا وردت على ابنك الشُّبهة، فلديه -بعون الله- خط دفاع أولي، وأنا أتحدث عن الأشياء المنتشرة التي هي قريبة جداً منه؛ لأنه إذا وردت عليه سيقول: هذا ما حدَّثني عنه والدي، هذا هو الخطأ الذي حدَّرتني منه الوالدة، وتمرَّ عليه العاصفة بحدوء، الفيروسات الخطيرة المنتشرة يتعيَّن معها التطعيم، وأظن أننا في هذه الأيام أصبحنا على قناعة تامة بهذا، أليس كذلك؟ الفيروس المضر بالأبدان خطير، والفيروس المضر بالآديان أخطر، والتطعيم الحسي مهم، والتطعيم المعنوي أهم.

نحتاج ثانياً إلى التاء الثانية وهي: الترشيد الثقافي، نحتاج إلى الترشيد في مصادر معرفتهم، ومنصَّات ثقافتهم، مَنْ يتابعون، إلى مَنْ يستمعون، ماذا يشاهدون؟ أصبحت الرقابة الذكية اليوم متعيِّنة، فالعقارب والحيات منتشرة، ولربما لبست ثياباً ناعمة مزخرفة، وتحت الثياب سُمَّ يقطر.

إن الأفاعي وإن لانت ملامسها عند الثقلب في أنياها العطب

نحتاج إلى تاء ثالثة وهي: التربية، نحتاج إلى التربية الإيمانية الإقناعية.

لا بد من التفريق بين حالين: إيمان العادة، أو دين المرئى، والمنشأ، وبين إيمان القناعة، ودين الاستيقان، هذه حقيقة لا بد أن نتصارع بشأنها، شريحة كبيرة من شبابنا وفتياتنا، إيمانهم من النوع الأول، نشأ في بيئة مسلمة، من أبوين مسلمين، ويمارس شعائر الدين تقليداً دون أن يذوق غالباً طعم الإيمان، ويصل إلى حلاوته، هذا الإيمان إيمان الإلف والعادة لا يُجدي على صاحبه شيئاً إذا ابتلي بقصف الشبهات،

أو زحفت إليه جحافل الشكوك، وأدنى ربح سئميّله، إلا أن يطف الله به، أما صاحب إيمان القناعة واليقين فهو يرُفُل في عافية من مضلات الفتن بتوفيق الله؛ لأنه على بصيرة، لأنه على نور من ربه، لأنه على بينة من ربه، ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]، الله ﷻ غرس الإيمان في قلوبهم، فلا يتزلزل، وأمدّهم بمدده فلا تصيبهم أشواك الشكوك، يصلي أحدهم لأنه مقتنع بالصلاة، يفعل ما أمر به، ينتهي عن ما نُهي عنه؛ لأنه متحقّق من أن هذا هو الصواب، فيباشره وهو فرح مطمئن، فأني لهذا أن تعبت الشبهات بيقينه.

على كل حال الحديث هاهنا ذو شُجون، ولعلّ الله سبحانه أن ييسّر بسط الكلام عنه مستقبلاً.

المقدم: لكن هنا ربما في إشكال أنه كثير من الآباء والأمهات، ربما ليسوا بالعمق الواحد منهم ربما يلاحظ مثلاً على ابنه الخلل في الصلاة، أو الخلل في الحجاب، لكن أن يدخل في قضايا العقيدة، ربما هو نفسه ليس من أهل هذا الشأن، فكيف يعمل؟

الشيخ: نحن بحاجة هاهنا إلى أمرين أولاً وثانياً:

- **أما الأول:** فأعِدُّوا لهم ما استطعتم، لا بد أن تبدأ بنفسك؛ لأنك أنت أيضاً في خطر، نحن حينما نتكلّم عن أبنائنا عن شابيننا، هذا لا

أنا نحن ربما أقول كبار السن، أنا في منأى، مرّت بنا حالات ربما يكون الرجل جداً جَد، تجاوز الستين وقع الآن في إلحاد، لا ينبغي لأحد أبداً أن يقول: أنا في منأى، لكن تركيزنا على الشباب لأنّ الخطر في حقهم أكثر، فأنت من المهمّات أن تُحصّن نفسك، وبالتالي تُحصّن من تحت يديك ممن استرعاك الله ﷻ إيّاهم.

● الأمر الثاني: لا أستطيع الموضوع أكبر منّي، هنا عليّ أن أوصل قلبه وعقله، أن آخذه إلى شخص يستطيع أن يزيل عنه غيابه هذه الغيوم، ويزيل عنه أشواك الشكوك، وبالتالي يرجع إن شاء الله إلى صحته وعافية.

المقدم: ما السبيل إلى تحصيل اليقين، والسلامة من الشكوك؟

الشيخ: من المقاصد الجليلة التي يعتني بها أولو الألباب: السعي في تحصيل

اليقين، وزيادة الإيمان، ودفع الشكوك والآفات عن هذا الإيمان، ﴿وَيَزِدَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا

إِيمَانًا﴾ [المدر: ٣١]، فإيا من يطلب اليقين اعرف قدر ما أنت طالب، فهو أعلى

المراتب، وتسَلِّح بالصبر والهمة العالية، واستعن بالله من قبل ومن بعد.

الجواب عن السؤال طويل حقاً، لكني سأكتفي - بإذن الله - بسِتِّ وصايا:

١. أولاً: القرآن القرآن، هو الحبل المتين الموصل إلى اليقين، يقول سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ۝١٠٠ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۚ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُُّسْتَقِيمٍ ۝﴾ [آل عمران: ١٠٠-١٠١]

١٠١، انظر إلى حال مؤمني الجن، ما إن سمعوا القرآن إلا وأورثهم اليقين، ﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَتَأْمَنَّا بِهِ وَلَن

نُشْرِكَ رَبَّنَا أَحَدًا ۝﴾ [الجن: ١-٢]، هُجِرَان القرآن الذي لا يعرفه بعضنا إلا في رمضان، هذا شيء لا بد اليوم أن يتغيَّر، تلاوة القرآن بتدبُّر - وأكثَر: بتدبُّر - وجبة إيمانية يومية، احرص على أن تتغذَّى بها روحك، وإلا فإنها ستحُور قواك.

٢. ثانياً: معرفة أسماء الله وصفاته، وتدبُّر معانيها، هذا من أوسع أبواب اليقين، لا بد أن تُفَرِّغ من وقتك واهتمامك لها، والساير إلى الله من طريق أسمائه وصفاته قد حيزت له السعادة بحذايرها.

٣. ثالثاً: دراسة السيرة، ودلائل النبوة، والشمائل المحمدية، فالرضا به ﷺ نبياً رُكِّن ركنين في بلوغ اليقين، وهذه الدراسة سبب موصل إليه.

٤. رابعاً: دراسة محاسن الإسلام وجماله وكماله، فهذا السبب العظيم يرتقي بك في مراقي اليقين درجات عالية، ومن وقّرت عظمة الإسلام في قلبه فلو تزحزحت الجبال عن أماكنها، فلن يتزحزح يقينه قدر شعرة، وإذا أردت أن تعرف عظيم أثر هذا الموضوع فانظر إلى حال من أسلم من الكفار، تجد أن كثيراً منهم قد فعلت محاسن الإسلام في أنفسهم فعل السحر، قد رأيت من هذا نماذج عديدة.

حضرتُ مرة مجلساً، وكان أحد الدعاة يدعو فيه كافراً إلى الإسلام، فذكر له شيئاً من محاسن الإسلام، ثم قال له: ما رأيك أن تدخل في الإسلام؟ فقال في معنى كلامه: أنا لن أقول إنني أريد الدخول في الإسلام، أنا أتشرّف بالدخول في هذا الإسلام.

حضرتُ مجلساً آخر: كان الداعية يدعو فيه امرأة للدخول في الإسلام، فكان يفيض في بيان محاسن الإسلام، وكانت تكتب باهتمام ما يقول في مذكرة معها، في أثناء كلامه أوقفته وقالت: عندكم هذا الخير كله وتحصرونه على أنفسكم، لماذا لم نسمع بهذا من قبل؟

مع الأسف بعضنا لا يستشعر هذه العظمة، وهذه النعمة التي نحن فيها، إذاً لا بد من التركيز، ولا بد من التذكير.

٥. خامساً: الدراسة المتأنية لتوحيد الربوبية، ودلائل وجود الله ﷻ وعظمته، وتأمل الآيات الكونية والشرعية الدالة على هذا، وهذه الآيات وهذه الدلائل والبراهين تُكسب القلب يقيناً وثباتاً، تُكسب الجوارح طاعة وعبادة.

٦. سادساً: الحذر من مُضعِفات اليقين وقوادحه، وسدّ كل سبيل يوصل إلى هذا، وعدم إرخاء السمع إلى شياطين الإنس، ومقاطعهم، ومواقعهم، وتُتبهم، وحساباتهم، مهما غامرت فلا تغامر بدينك، السلامة لا يعدلها شيء، لا تقل أعرف الواقع، وأرد على المخالف، إِيَّاكَ أن تجازِف، أهل العلم الراسخون يكفونك المَؤونة، والسباحة في جُج البحار ليست إلا لأهل التأهل التام.

وحذارِ أيضاً أن تسمع شكوك صاحبك أو غيره، فلربما تسَلَّلت إلى قلبك.

لا تُحْمِ حَوْل الحمَا واطْلُبِ السَّلامَةَ
إن السَّلامَةَ من سَلَمَى وجارَها ألا تَمَرَّ على حالِ بَوادِيها

المقدم: ماذا تنصح مَنْ وقع في شيء من الشكوك، والحيرة؟

الشيخ: وهذا من أهم الأشياء، وأود أن أنبّه إلى أن بين يدي مجموعة من الوصايا، هي ست عشرة وصية، لكن لا أظن أنها تنفع بتوفيق الله ﷻ إلا مَنْ كان مُريداً للخير، راغباً في السلامة من عَوادي هذه الشكوك:

- **أولاً:** إن نزل بك شك في مسألة دينية فلا تيأس، وحذار أن تكون ممن يعبد الله على حرف فتتقلب على عَقَبَيْكَ، والله مع الصابرين الصادقين، اصدق الله وسيصدقك، توكل عليه، وسله بقلب حاضر شفاءك من مرضك، وأبشر بفرج قريب، فإن من أخلص تخلص، ومن نصر الله نصره، ومن ذكر الله ذكره.
- **ثانياً:** ربما ابتليت بالشك بسبب ذنب أذنبته، فأحدث توبة، إياك أن تكون ممن عُوقِبَ على سيئاته، فأبدل من بعد اليقين شكاً، ومن بعد الطمأنينة حيرة، فإن من بعد عن الإيمان بعد عن الأمان، واعلم حينها أنه لا مخرج لك من هذه الورطة إلا أن تفرع إلى ربك بالتوبة، والاستغفار، والتضرع.
- **ثالثاً:** دواء الشك في مبادئه: المرور عليه، فلا تُفجِّمه في قلبك، ولا تُكرِّر إثارته فيه، فرمما كان سانحاً يزول عن قريب، وإن هجم عليك فتشاغل عنه بنافع أو مباح.
- **رابعاً:** لا بد من التفريق بين الشك العلمي، والوسوسة القهرية، فالأول يُعالج بالعلم، والثاني يُعالج بالطب، الطب الشرعي، بكثرة ذكر الله، والاستعاذة به سبحانه من الشيطان، وكذلك الطب

الحسي، ربما علاج من أخصائي نفسي ثقة يحصل به الشفاء - بإذن الله - وهذا قد جُرب.

● **خامساً:** دوام الشكوك أضّر الأشياء على القلوب؛ فعيّل بالعلاج، العاقل لا يرضى بالمكث تحت حكم الشكوك، بل يبادر بالعلاج بأسرع ما يمكن حتى يتمتّع ببرد اليقين، إذ لا بد من حزم وعزم في قطع الشكوك، فجدّ واجتهد، إهمال الشكوك قد ينقلك إلى دركات من الضلال، قد يُورد صاحبه الموارد، وإدراك الخلل من قريب أنجّع في العلاج، واعلم أن الحق عزيز كريم، لا يناله المعرض عنه، ومن ساء قصده فلن يفهم البراهين المزيّلة لشكّه، ولن ينتفع بها، فتواضع تجرّد للحق.

● **سادساً:** ابتغ الحق والهداية حيث ابتغاهم الخليل إبراهيم عليه السلام، **﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ﴾** [الصافات: ٩٩]، أخلص لله، والتجىء، وتضرّع، وتواضع، **﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾** [التغابن: ١١].

● **سابعاً:** الشك مرض في القلب، وغالب الشكوك سببها الجهل، فتعلّم ما تجهل، تعلّم ما يُشكل عليك من مصدر موثوق، فهذا دواؤك، وما أقرب الشفاء بإذن الله، واعلم أن أكثر الجهل بحقيقة الشريعة سببه عدم الهم لا عدم الفهم، وإلا فالشريعة واضحة، لا لبس فيها بحمد

الله، فالهمة الهمة في التعلم، واعتمد بعد الله على أهل العلم الثقات،
وانتفع بوصية المخلصين لا المغرضين.

والجهل داء قاتل وشفاهه أُمُـرَان بِالْتَرْكِيبِ مُتَّفَقَان
نَصٌّ مِنَ الْقُرْآنِ أَوْ مِنْ سُنَّةِ وَطِيبُ ذَاكَ الْعَالَمِ الرَّبَّانِي

● ثامناً: اعتصم بمبدأ التوفيق بين المقرر والمُبهم، إذا شككت في قضية
فرجح ما يتفق أو يقرب مع يقينك، وابن المجهول على المعلوم، واتخذ
ما تيقنته أساساً لتعالج به ما تشك فيه.

● تاسعاً: لا بد من معارضات نافعة عند الشكوك الغالبة، ومن ذلك:
المعارضة بما يقتضيه الاحتياط، والاحتياط دائماً هو الأخذ بما جاء في
الإسلام، فإنه لا أنجى من المخاوف من الإسلام، والآخذ بما فيه سالم على
كل حال، لن يخسر شيئاً، بخلاف من تنكب طريقه، كما قال بعضهم:
وَرَغَّبَنِي فِي الدِّينِ أَنْ دَلِيلَهُ قَوِيٌّ وَيُخْشَى كُلَّ شَرٍّ يَخْذُهُ
وَكَرَّهَنِي لِلْكَفْرِ أَنْ فَسَادَهُ جَلِيٌّ وَيُخْشَى كُلَّ شَرٍّ يَقْضِيهِ

● عاشراً: تدرج لتصل، إذا ابتليت بشكوك متعددة فتدرج في حلها واحداً
بعد واحد، ولا تحاول البحث فيها جميعاً في وقت واحد، فهذا ما
سيصعب معه حلها.

● **حادي عشر:** حذارٍ من أن ينقلب شكُّك جحداً وإنكاراً، ما شكَّكت في ثبوته أو تحيَّرت فيه فليس لك أن تُنكره، ليبقى الشك شكاً، مشكلة وتزول عن قريب بإذن الله، أما الإنكار بلا برهان فجهالة وخطر، فإن عدم الإدراك عند العقلاء لا ينفي الحقيقة، ولا تلازم بين عدم المعرفة، والحكم بالبطلان، الإنكار يحتاج إلى دليل، والشاك ليس معه دليل.

● **ثاني عشر:** الترجيح ينوب عن التأكيد، متى تعدَّرت عندك اليقين التام فالترجيح نائب عنه، وفيه فُسحة لك، والعقلاء يحكمون بالمرجح، ويهملون شكوكهم، بمعنى: بعض الناس إذا ساورته الشكوك الدينية فإنه يقول: إما اليقين التام وإلا فلا، يريد كما يقولون: مائة بالمائة، ولا يتزحزح عن شكوكه إلا بهذا، مع أنه يمكن أن يتدرَّج من شكٍّ إلى يقين عن طريق الترجيح، ستون بالمائة مثلاً خطوة جيِّدة، تقود من بعد إلى مائة بالمائة - إن شاء الله - إذا سَكِنَ نفسك بهذا واطمئن، الترجيح للشاك مسلك نافع مجرَّب، وبه ينال نَسَمَات اليقين إن لم يذُقْ حلاوته، ﴿فَإِنْ لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ [البقرة: ٢٦٥]، والشوب البالي كما قالوا: خير من العُري.

● **ثالث عشر:** ما لم تفهم تفاصيله فلا تجعله مشكوكاً فيه، بعض الناس يسوّي بين المجهول والمشكوك، فيشك في كل ما لم يفهم تفاصيله من الشريعة، فيغرق في أمواج من الشك من هذا الباب، وهذا لا شك أنه خطأ، الشك شيء، والجهل أو عدم إدراك التفاصيل شيء آخر.

أقرب فهم هذا بمثال: في حياتنا أشياء كثيرة نُسلم بها مع عدم فهمنا لتفاصيلها، ولم يُشكّل هذا الجهل عائقاً في التعاطي معها، أكثر الناس مثلاً لا يفهمون كيف ينتقل الصوت فيزيائياً عبر الجوال أو الهاتف، ومع ذلك فهم يستعملونه دون إشكال، ولم يكن هذا معضلة عندهم، وما سمعنا بمن يقول: إما أن أفهم طريقة عمله أو لن أستعمله، إذّا يمكن التسليم بما لم تفهم تفاصيله من حقائق الشرع في القدر، في الغيبات غير ذلك، ولن يمثّل عدم الفهم عائقاً أمام إيمانك إن كنت صادقاً.

● **رابع عشر:** فرّق بين المستحيل عادة والمستحيل عقلاً، بين المَحارة والمُحال، بين الممكن البعيد والممتنع، بعض الناس يَدُبّ الشك إلى فؤاده بسبب عدم إدراكه هذا الفرق، فيجعل المستحيل عادة في حكم المستحيل عقلاً، وهذا غلط كبير، تجد أنه يشك في بعض أمور الغيب؛ لأن عقله يستبعد لها لعدم إلفه لها، مع أنها عقلاً ممكنة، ولا تُعارض مسلماً عقلياً، ونحن قد رأينا في هذه الحياة أموراً كثيرة كانت

معدودة في السابق من المُستبعد تمام الاستبعاد، فصارت اليوم من المسلّمات، أن تسمع صوت أحد في اللحظة التي يتكلّم بها وهو بعيد عنك آلاف الأميال، بل وأن ترى صورته، من يصدّق بهذا قبل مائة وخمسين عاماً، ومن يُنكر هذا اليوم؟ لا أحد، إذاً لا بد من التفريق بين هذا وهذا، وقد وجدنا أن بعض الشباب شك لعدم تفريقه هذا الفارق السهل اليسير.

● **خامس عشر:** الحِمِيّة قبل العلاج، العلاج لا ينفع عادة ما لم تصحبه حِمِيّة من أسباب المرض.

رَأَوْا أَلْفَ بَانٍ لَا يَقُومُ بِهَادِمٍ فَكَيْفَ بَيَانٍ خَلْفَهُ أَلْفَ هَادِمٍ

إذاً أنت طيب نفسك، وتعرف من أين تأتيك الشكوك، فأغلق النوافذ.

● **سادس عشر والأخير:** لا تحفل بالمخالفين للحق الجليّ، لا تقل: لو

كان حقاً لم يكن له مخالف، بعض الناس يتزعزع إذا رأى مخالفاً لما هو عليه، قلّ أو كثر، وهذا في الحقيقة لا التفات إليه عند العقلاء، العقل يُعرف بدليله، وليس بالموافق أو المخالف، فأزفّق بنفسك، أزفّق بنفسك إن رأيت مخالفاً لما تعتقد، فإن من الناس من أنكر المحسوسات، ومنهم من أنكر جميع العلوم، ومنهم من عبد الشيطان،

بل منهم من عبد القروء، إذاً مثل هؤلاء لا ينبغي أن تحفل بهم، أنت على الحق المبين، اصبر على هذا الحق، وتوكل على الله ﷻ في الثبات عليه، هذه وصايا مختصرة - أسأل الله تعالى أن ينفع بها -.

المقدم: إذا كان من وصية نختم بها في دقيقة أو أقل؟

الشيخ: ما عندي إلا كلمة واحدة، أريد أن أذكّر نفسي وإخواني بها: اليقين أعظم مواهب الكريم سبحانه، فكُن من الشاكرين، وكُن للثبات عليه من السائلين، هذا زمان عظيم، قد رأينا مصداق ما أخبر به النبي ﷺ كما في صحيح مسلم^(١): «يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيَمْسِي كَافِرًا، أَوْ يَمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا»، والله هذا شيء رأيناه رأي العين، فاسأل الله ﷻ بصدق أن يثبتك على هذا الدين القويم في كل لحظة، في كل سجود، سَلِ الله ﷻ أن يثبتك، وقُل: «يَا مُصَرِّفِ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»^(٢).

المقدم: إن كان من إحالة أو من كتاب توصون المستمعين به حول موضوع الشك واليقين؟

(١) رواه مسلم برقم (١١٨).

(٢) رواه مسلم برقم (٢٦٥٤).

الشيخ: أتمنى - حفظك الله - أن يقرأ طالب العلم وطالب الفائدة منزلة اليقين من كتاب «مدارج السالكين» الجزء الثالث، صحيفة (١٧٠)، طبعة (عالم الفوائد)، فكلامه فيها رحمته الله كلام في غاية الحُسْن.





الحلقة الخامسة عشرة

دعوت فلم يستجب لي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الشيخ: إن الدعاء حبل ممدود بين السماء والأرض، وصلة بين الله وعباده، به صلاح دينهم ودنياهم، يفعزون إليه لتحقيق حاجاتهم، وتنفيس كرباتهم، وليس شيء أكرم على الله منه، بالدعاء الخالص لله ﷻ تحقيق التوحيد بأنواعه، فهو العبادة حقاً، ودليل تعظيم العبد للمعبود، وحسن ظنه به، ولذا حصر النبي ﷺ العبادة فيه فقال: «**إن الدعاء هو العبادة**»^(١)، وقرأ هذه الآية: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، والحديث عند أحمد.

حَثَّ ربنا ﷺ عباده على الدعاء، وغضب على من تجافى عنه، قال ﷺ: «**من لم يسأل الله يغضب عليه**»^(٢)، والحديث عند أحمد.

وفي «الحلية» لأبي نعيم قال عطاء ﷺ: «جاءني طاووس فقال لي: يا عطاء إياك أن ترفع حوائجك إلى من أغلق دونك بابه، وجعل دونك حجاباً، وعليك بطلب حوائجك إلى مَنْ بابه مفتوح لك إلى يوم القيامة، طلب منك أن تدعوه ووعدك بالإجابة». الدعاء خير سلاح يتسلح به المؤمن، ويدفع عنه البلاء، هو

(١) رواه أحمد برقم (١٨٣٨٦)، والترمذي برقم (٢٩٦٩)، وقال "حديث حسن صحيح"، وأبو داود (١٤٧٩)، وابن ماجه (٣٨٢٧).

(٢) رواه الترمذي برقم (٣٣٧٣).

عُدَّتْهُ وعتاده، وأعجز الناس من عجز عنه، قال ﷺ: «**إن أبخل الناس من بخل بالسلام، وأعجز الناس من عجز عن الدعاء**» أخرجه ابن حبان^(١)، الدعاء ربح بلا تعب، ومغنم بلا عناء، تجارة رابحة يملكها الفقراء، ويملكها الأغنياء.

فالخلاصة: الدعاء سبب من أعظم أسباب السعادة في الدنيا والآخرة، وأما الاستشكال فسيأتي الكلام عنه إن شاء الله.

المقدم: نبدأ بهذه المقدمة، وننتقل منها إلى بيان نبذة مختصرة عن آداب الدعاء، وعن أسباب الإجابة، ولعل مما ينافي آداب الدعاء أن يقول الإنسان: (دعوتُ فلم يُستجب لي)؟

الشيخ: آداب الدعاء التي على العبد أن يحافظ عليها آداب كثيرة، بعضها واجب، وبعضها مستحب، ولا شك أنها من أعظم أسباب إجابة الدعاء، ومن أخذ بها فلن يستشكل هذا الاستشكال - إن شاء الله -. وسوف أجمل - بتوفيق الله ﷻ - أهم تلك الآداب فيما يأتي:

أول ذلك وأهمه: أن يسأل العبد الله وحده.

فاجعل سؤالك للإله فإنما في فضل نعمة ربنا نتقلب

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٤٤٩٨).

وحذارٍ من دعاء غيره، فإنه الهلاك والخسارة، ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧].

ودعوة الأموات تُحبط العمل وتسلخ الإيمان خاب من فعل

ومن الآداب: أن يفتح الداعي دعاءه بحمد الله والثناء عليه، وليظهر الافتقار إليه، وليصلي على النبي ﷺ، وليخفض صوته في الدعاء بين المخافتة والجر، ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥]، قال ابن جريج رحمه الله: «يُكره رفع الصوت والنداء والصياح في الدعاء، ويؤمر بالتضرُّع والاستكانة»، وحبَّذا أن يتوسَّل الداعي إلى ربه بأنواع التوسُّل المشروعة، وليتحرَّى أوقات الإجابة ما أمكن، وليرفع يديه، وليعزم في دعائه ويجزم، قال النبي ﷺ: «لا يقولنَّ أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، ليعزم في الدعاء، فإن الله صانع ما شاء، لا مُكره له»، متفق عليه^(١).

(١) رواه البخاري برقم (٧٤٧٧)، ومسلم (٢٦٧٩) وهذا لفظ مسلم.

وليكن حاضر القلب أثناء دعائه، مستيقناً بإجابة ربه، قال النبي ﷺ: «ادعُوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاءً من قلب غافل لاهٍ» أخرجه الترمذي^(١).

ومن أراد أن تُجاب دعوته فليجتنب أكل الحرام، وشرب الحرام، ولبس الحرام. ومن الآداب: الإكثار من الدعاء في الرخاء والشدة، فقد قال النبي ﷺ فيما خرَّجه الترمذي^(٢): «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْتَجِيبَ اللَّهُ لَهُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَالْكُرْبِ فَلْيُكْثِرِ الدَّعَاءَ فِي الرِّخَاءِ».

ومن الآداب: أن يُلِّحَ على ربه سبحانه في دعائه، قال الإمام الأوزاعي رحمه الله: كان يُقال أفضل الدعاء: الإلحاح على الله ﷻ، والتضرُّع إليه، وليحذر من استعجال الإجابة، فقد قال ﷺ: «يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ، فيقول: قد دعوتُ فلم يُستجب لي» متفق عليه^(٣).

وأخيراً: ليُجتنب الاعتداء في الدعاء، وهو التجاوز الحد الشرعي فيه معنأً، أو لفظاً، أو أداء وهيئة، هذه أهم الآداب باختصار.

(١) أخرجه الترمذي برقم (٣٤٧٩).

(٢) أخرجه الترمذي برقم (٣٣٨٢).

(٣) أخرجه البخاري برقم (٦٣٤٠)، ومسلم (٢٧٣٥).

المقدم: في هذه العبارة حول إجابة الله ﷻ للدعاء، هل لنا أن نقول: أن ذلك من أدلة وجوده ﷻ، ومن أدلة ربوبيته؟

الشيخ: نعم ولا شك، قال أهل العلم: من براهين وجود الله، وربوبيته، ووحدانيته، واتصافه بصفات الجلال والكمال: إجابته للدعوات في كل الأوقات، فلا يُحصى الخلق ما يعطيه السائلين سبحانه، وما يجب به من برٍّ وفاجر، ومسلم وكافر، كم من إنسان عبر التاريخ رفع يديه إلى السماء ودعا الله فحصل له مطلوبه، هذا شيء أعرفه في نفسي، وتعرفه أنت في نفسك، ويعرفه المستمعون في أنفسهم، ومن لا يتذكر شيئاً من هذا، فالأخبار المتواترة عن ملايين البشر الذين دعوا الله فاستجاب لهم كافية، وفي التاريخ القديم والحديث أخبار مستفيضة عن أناس صالحين مشهورين بإجابة الدعاء، ناهيك عن ما جاء في الكتاب والسنة من استجابة الله سبحانه لأدعية أنبيائه، هذه أخبار متواترة، ولا يُكذَّب بالأخبار المتواترة إلا مشعَّب متلاعب.

الخلاصة: تحصل للناس المطالب الكثيرة في قديم الدهر وحديثه، ولا يعرفون لها شيئاً من الأسباب سوى الدعاء، والطمع في فضل الوهاب، وهذا برهان مشاهد في كل الأوقات، لا يُنكره إلا مباحث جاحد.

إذا؛ ثمة رب قدير رحيم سمع الدعاء وأجابه، بل أقول: مجرد لجوء الإنسان إلى الخالق سبحانه بالدعاء وقت الشدة -وهذا شيء لا ينفك عنه الناس جميعاً- هذا وحده كافٍ في إثبات وجود المتوحد بربوبيته سبحانه الذي فطر العباد على هذه الفطرة.

المقدم: لا يخفى أن هناك من بعض الشبه التي يروج لها الملاحدة منها: أننا نجد المسلمين يدعون ولا تأتي الإجابة، فأين من يدعونه لم لم يجبههم؟، وربما بعض الناس لا يصل إلى هذا القدر من الانحراف، لكن قد يداخله شيء من الشك والحيرة في فهم وجه الجمع بين وعد الله بالإجابة، وأنهم لا يجدون الإجابة، فكيف نُجيب على هذا الإشكال؟

الشيخ: الإشكال موجود فعلاً عند بعض الشباب، ويكثر السؤال عنه، وقبل الإجابة أقدم كما طلبتم بست مقدمات ممهّدة تُسهّل فهم الموضوع الفهم الصحيح بتوفيق الله، فأحضرها أيّها المستمع الكريم في ذهنك، وأنت تسمع ما يأتي إن شاء الله من أجوبة:

- أولاً: الله تعالى حكيم، الله متصف يقيناً بالحكمة، والحكمة: وضع الشيء في أعدل مواضعه وأتقنها، هذا أمر قطعي، عليه آلاف الأدلة، فتعجل إعطاء المدعو أو تأخيره أو إبداله بخير منه كل ذلك راجع إلى حكمة الحكيم سبحانه.

- ثانياً: الله أصدق القائلين، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]، وإذا وعد سبحانه فإنه لا يُخلف الميعاد، فإياك أن يتزعزع إيمانك بهذا.
 - ثالثاً: إذا جاء في بعض الأدلة إطلاق، وجاء في بعضها تقييد؛ فالواجب حمل الأدلة المطلقة على المقيّدة.
 - رابعاً: يجب الجمع بين الإيمان بأن الله غفور رحيم، والإيمان بأنه شديد العقاب، قال سبحانه: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [٤٩] وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿[الحجر: ٤٩-٥٠].
 - خامساً: علمنا قاصر، وعقولنا ضعيفة لا تُحيط إدراكاً بكل شيء، والله تعالى علمه واسع شامل لكل شيء، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.
 - سادساً: الدنيا دار ابتلاء لا دار إسعاد، الدنيا ليست هي الجنة، والأخرة هي دار الجزاء الأوفى.
- هذه المقدمات الست مقدمات مهمة، ولعلّه يتضح معها جوانب لفهم هذا الموضوع، ويُستغنى عن كثير من الكلام، ومع ذلك فلا بد من إجابات شافية بتوفيق الله سبحانه.

المقدم: أحياناً بين فترة وأخرى يظهر على السطح إنسان مثلاً يُسيء الأدب مع الله ﷻ، ويسيء الأدب مع النبي ﷺ، وأحياناً يتناقل الناس ذلك في مواقع التواصل الاجتماعي، يريدون الرد عليه، فيشتهر أكثر، ويجد الإنسان مثل هذه الأشياء أمامه، الإنسان البسيط عندما يصادف مثل هذه (هاشقات) أو مثل هذه الحسابات، ما نصيحتكم له؟

الشيخ: النصيحة لنا جميعاً أن نُثبت الباطل بالإعراض عنه، ونحافظ على قلوبنا وأسماعنا من الاستماع، وفتحها لهذا الكلام، أنا أعتقد أن هذا في حق كثير من الناس مغامرة غير محسوبة للعواقب، هذا أمر يختص بعلاجه أهل العلم، وأهل ولاية الأمر من العلماء والولاة، هم الذين يختص بهم هذا الأمر، ومن عداهم فالأولى بهم الإعراض عن ذلك، ودعاء الله ﷻ بالهداية، ودعاء الله ﷻ بالسلامة والعافية.

المقدم: نعود إلى المقولة أو الشبهة التي يوردها بعض الملاحدة وأحياناً قد ترد على أذهان البعض أننا نجد المسلم يدعو الله ﷻ وقد لا تأتيه الإجابة فيسأل الملحد مثلاً أين من تدعونه لم لم يجيبكم؟، لو ندخل في الإجابة على هذه الشبهة؟

الشيخ: بين يدي اثنا عشر وجهاً للجواب عن هذه الشبهة:

١. الوجه الأول: هذه الشبهة مردودة؛ بأنه سبحانه قد أجاب دعوات كثيرة، وهذا معروف كما تقدّم في القديم والحديث في وقائع أكبر

وأكثر من أن تكون متواترة، إذاً من قال: دعوتُ فلم أجدُ إجابة، فيقال له: أنا وغيري كثير كثير دعونا فوجدنا الإجابة، والمُثبت مقدّم على الناس، ودعني أدّرك أيها القائل، وأدّرك نفسي بأدعية كثيرة دعوناها واستجيبت لنا، كم دخلنا امتحانات ودعونا الله بالنجاح ونجحنا، كم سافرنا أو خرجنا من بيوتنا ودعونا بالسلامة ورجعنا سالمين، كم سألنا التوفيق في معاملات وتيسّرت لنا، كم مرضنا وسألنا الشفاء وشُفينا، كم دعونا أن نبلغ رمضان وبلغناه، مواقف كثيرة نُسيت -مع الأسف- وكانت التذكُّر لتلك الأدعية التي لم تتحقّق لنا بعينها، ﴿قُلِ الْإِنْسَنُ مَا أَكْفَرُهُ﴾ [عبس: ١٧]، وصدق الله في وصفه من لم يقدره حق قدره، ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَهُ فَلَمَّا نَجَّكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧].

٢. الوجه الثاني: لا يقول هذا الكلام عبد خاضع لربه سبحانه، الدعاء الذي يُجاب وتُنظر إجابته هو الدعاء الذي يكون من عبد لربه، وليس من المستكبر عنه، الذي يقول بلسان حاله، أو بلسان مقالته: إما أن تُعطيني كلما أريد أو أنكر وجودك، أو إما أن تعطيني الآن دون تأخير وإلا شككت في قدرتك ورحمتك، هذا لا يليق أن تعامل

به بشراً مثلك؛ كآب، أو أم، أو مسؤول، البحث في هذا الموضوع ينبغي أن يبدأ أولاً بتحديد العلاقة بين العبد وربّه، ما هي؟ هل هي علاقة عبودية وخضوع، عبودية وخضوع من عبدٍ لربه الذي يُحبه، ويخاف عذابه، ويرجو رحمته، لربه الذي يعتقده كامل الأسماء والصفات، له العلم الواسع، والحكمة البالغة، والغنى التام، والقدرة الكاملة، لربه الذي يؤمّل أن يتفضّل عليه بالإجابة، ولا مُكره له ولا مُغالَب، أم هي علاقة معاوضة ومصالح كما يُقال، مَنْ فهم الصواب في هذا المقام سهل عليه استيعاب الموضوع برُمّته، وإلا فليُصلح اعتقاده أولاً قبل البحث في موضوع الدعاء.

بمعنى: حين يقول قائل: دعوتُ فلم يستجب لي، نحن نسأله: ما معنى إجابة الدعاء، وما مفهومها عندك، هل هي معاوضة، دعوتُ فأين الإجابة، لم تأخرت عليّ، أعطيت فتريد أن تأخذ، لك حق على الله وتريد أن تستخلصه، الأمر ليس كذلك، المفهوم الصحيح للإجابة هو: أنّ الله تعالى يُجيب دعاء المتضرّع بمشيئته المقترنة بحكمته، عندنا هنا ثلاثة أشياء: الله تعالى يجيب دعاء المتضرّع المفتقر لا المستكبر أو الشاك، أو الذي يريد أن يختبر وجوده سبحانه، أو قدرته، أو غناه، الله أعز من أن يجيب هذا، قال سبحانه: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يَحِبُّ

الْمُعْتَدِيْنَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ

اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿الأعراف: ٥٥-٥٦﴾، والله سبحانه يوجب بمشيئته لا بإكراه

أحداً أو إلزامه، تعالى عن هذا علواً كبيراً، ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ

شَاءَ﴾ ﴿الأنعام: ٤١﴾، وهو يوجب بحكمته وليس عبثاً، وحكمته قد تقتضي التعجيل

بإعطائه المطلوب أو تأخيره، أو إعطاء بدل عنه، كما سيأتي.

٣. الوجه الثالث: إجابة الدعاء دليل على وجوده سبحانه وليست امتحاناً

لوجوده، يقولون: دُعْنَا نَمْتَحِن وجوده، إن كان موجوداً سيعطينا، وإلا

فليس موجوداً، هذه انتكاسة وقلب للحقيقة، فالله هو من يبلو عباده

وَيَمْتَحِنُهُمْ، وليس العكس.

أعود فأقول: إجابة الدعاء دليل على وجوده سبحانه، وعدم الإجابة ليست

دليلاً على انتفاء وجوده؛ لأن الدليل كما يقول الأصوليون: لا ينعكس، فلا يلزم

من عدمه عدم المدلول عليه؛ لأنه قد يثبت بدليل آخر، وعندنا على وجوده

سبحانه وربوبيته آلاف الأدلة، كما أن عدم الإجابة له تفسيرات عديدة معقولة،

إذاً: جعل عدم الإجابة دليلاً على الإلحاد مغالطة سخيفة، وحجة داحضة.

٤. الوجه الرابع: من ينكر وجود ربه سبحانه بناءً على أنه دعاه فلم يعطه

سؤله، هذا لا يريد رباً عزيزاً قديراً يتصف بالعزة والمشيئة والكبرياء، هذا

يريد خادماً له، يريد خادماً مأموراً، وظيفته أن يُلبّي له طلباته، وينفّذ له أُمّياته، أو يريده كما يسمونه (روبوت) مبرمج على تنفيذ كل ما يُطلب منه، والله سبحانه يتعالى ويتنوّه عن هذا.

٥. الوجه الخامس: عدم إعطاء المرء سُؤله قد يكون أثراً من آثار اتصاف

الله سبحانه بالرحمة، نعم اتصاف الله ﷻ بالرحمة قد يقتضي منعك مما تطلب، من رحمته سبحانه أنه يمنع عبده ما يطلبه لعلمه أنه يضرّه، قال سبحانه: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾

[الإسراء: ١١]، قال العلماء: هذه الآية في الرجل يدعو على نفسه وأهله

بالشر في حال الغضب، كم الذين يدعون الله في أوقات ضعف، أو غضب، أو جهل، يدعونه بأشياء لو أُجيبت لعاد عليهم هذا بالضرر.

ومن هذا ما أخرج مسلم^(١) في صحيحه عن أنس رضي الله عنه؛ أن رسول الله

ﷺ عاد مسلماً من المسلمين قد خفت فصار مثل الفرخ، فقال له رسول الله ﷺ:

«هل كنت تدعو بشيء أو تسأله إياه؟» قال: نعم، كنت أقول: اللهم ما كنت

معاقبه به في الآخرة فعجله لي في الدنيا، فقال رسول الله ﷺ: «سبحان الله! لا

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٨٨).

تُطيقه أو لا تستطيعه، أفلا قلت: اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار»، قال: فدعا الله له فشفاه.

إذا؛ ليس كل إجابة لسؤال تكون رحمة، بل ربما كانت الإجابة وبالاً، ونحن بصغر عقولنا وغرورنا نظن أننا أحطنا علماً بكل شيء، وعرفنا ما هو الأصلح لنا تماماً، فتنقّص حين لا يُلجئ لنا، رأيت طفلاً مريضاً يطلب من أبيه طعاماً أو شراباً تعلّقت نفسه به، لكنه يضربه ويزيد مرضه، الامتناع عن الإجابة هنا هو الرحمة، وغضب الطفل بعد الرفض من نقص عقله، وما أشبهنا في كثير من الأحيان به، والعبرة هنا: كم هي عقولنا صغيرة عن استيعاب عواقب الأمور، كم تكشفت لنا الحقائق اللاحقة عن جهلنا في التقدير، وعن سوء اختيارنا، فلنفوِّض أمورنا إلى العليم الرحيم، فوّض الأمر إليه هو أولى بك منك.

الخلاصة: من رحمته سبحانه أنه قد لا يجيب دعاءً يعلم أنه يعود على طالبه بالضرر، قال سبحانه: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

٦. الوجه السادس: عدم إعطاء المرء سؤاله قد يكون أثراً من آثار اتصاف الله سبحانه بالعزّة والغضب، ربما كان منعك من شيء تُحبه؛ لأنك بارزت الله بالعصيان، وتكبرت عن طاعته، فعوقبت بحرمانك

ما تحب، قبل أن تسيء الظن بربك راجع نفسك، فلربما كان سبب منع الإجابة هو ما جنته يداك، ومن منا يزكي نفسه؟ وهذا في الحقيقة فيهم رحمة بك من جهة أخرى، وذلك أن تأخر حصول ما دعوت به يدعوك إلى أن تفتش نفسك وتراجعها، وتتوب إلى الله سبحانه مما تقترف.

٧. الوجه السابع: عدم إعطاء المرء سُؤله قد يكون أثراً من آثار اتصاف الله سبحانه بالحكمة، ربما كانت الإجابة منافية للحكمة، ربما كانت الحكمة في المنع، ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١]، والله سبحانه أعلم بمصالح العباد في هذا العالم، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، ولذا لم يجب سبحانه دعوة نبيه نوح وهو الحبيب إليه، حين دعا الله فقال: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَكَمِينَ﴾ [هود: ٤٥]، لم يجب سبحانه خليله إبراهيم عليه السلام حين قال: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]، ولم يجب خليله محمداً ﷺ حين قال: «سألت ربي ثلاثاً، فأعطاني ثنتين ومنعني واحدة، سألت ربي ألا

يهلك أمتي بالسنة فأعطينيها، وسألته ألا يهلك أمتي بالغرق
فأعطينيها، وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها» أخرجه مسلم^(١).

إذاً: قد تقتضي الحكمة منع المطلوب أو تأخير الإجابة.

٨. الوجه الثامن: عدم إجابة الدعاء لا يمكن أن يكون دليلاً على عدم المدعو، فضلاً عن أن يعارض أدلة وجوده سبحانه القطعية، الله ﷻ قد ثبت وجوده وثبتت عظمتة سبحانه بأدلة قطعية كثيرة جداً، وأما كونه لم يجب من دعاه فهذا مردّه عند العقلاء لعدم إرادته لا لعدم وجوده.

أقرب هذا بمثال: إذا تحققت أن أحداً جالس خالف جدار بسماع صوته مثلاً، ثم ناديته بصوت مسموع فلم يجبك، فليس لعقل أن يقول: هو غير موجود، إنما سيقول: هو لا يريد أن يجيب، ولماذا لم يجب؟ هذا بحث آخر يتعلّق بالحكمة لا بالوجود، كذلك الأمر هنا الله سبحانه موجود، لكنه لم يعطك سؤالك؛ لأن هذه إرادته المقترنة بحكمته، وقد ندرك الحكمة، وقد لا ندركها.

٩. الوجه التاسع: اطمئن، إجابة الدعاء المستجمع شروطه حاصلة ولا

بد، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا

(١) أخرجه مسلم (٢٨٩٠).

دَعَانُ ﴿البقرة: ١٨٦﴾، لكن لا يلزم من الإجابة إعطاء المطلوب، الإجابة أعمّ من إعطاء المطلوب، قد تكون الإجابة به، وقد تكون بغيره، أي: كل داعٍ استجمع شروط قبول الدعاء، واجتنب موانعه فإنه يُستجاب له قطعاً، لكن تتنوّع الإجابة، فتارة تقع بعين ما دعا به، وتارة بعوضه، أن يُدّخر له أجره في الآخرة، أو أن يُدفع عنه بلاء في الدنيا، ومرجع هذا إلى حكمة أحكم الحاكمين سبحانه، وتوضيح هذا جاء في قول النبي ﷺ الذي أخرجه الإمام أحمد في المسند^(١):

«ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن تُعجّل له دعوته، وإما أن يدّخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها، قالوا: إذا نُكثِر؟ قال: الله أكثر»، وبهذا ينتفي الإشكال من أصله، الدعاء عبادة نافعة ولا بد، والإجابة حاصلة لا محالة.

. ١٠

لوجه العاشر: تحقّق إجابة الدعاء له شروط وله موانع، فمتى توفّرت الشروط وانتفت الموانع فليبشر العبد بالإجابة، وعليه فمن دعا وتأخر

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (١١١٣٣).

تحقق ما يطلب فعليه أن يسأل نفسه، هل استجمعت شروط الإجابة، تباعدت عن موانعها، وأنصحته عند الإجابة أن يدع الغرور جانباً، وأن يجيب بتجرد وصدق، كم ندعو ونستبطن الإجابة، وعندما نظر بعين ثاقبة في أحوالنا ينكشف لنا أن العلة فينا، والله المستعان.

. ١١

لوجه الحادي عشر: قد يقول قائل: ما قلته صحيح، ربما ندعو وفي أنفسنا ما فيها، لكن ماذا عن دعوات من صالحين برفع الظلم عن المظلومين، وتفريج كربة المكروبين، ومع ذلك تتأخر الإجابة، أليس رفع الظلم عن المظلومين خيراً قطعاً، إذا لم لم تأت الإجابة؟

والجواب: نعم، هذا خير ولا شك، ولكن ليس بالضرورة أن يكون خير الخيرين - وهذه مسألة مهمة فانتبه لها - قد يتراوح الأمر بين خير وخير، فالحكمة هاهنا تحصيل أكثرهما خيراً، وهذا ما لا يختلف فيه العقلاء، وعليه فقد يعوِّض المظلوم على دعائه وعلى صبره على بلائه بتكفير السيئات، وجزاء عظيم بالجنة، ودرجات رفيعة فيها، وهذا أكثر خيراً له من رفع الظلم عنه، واعتبر في هذا بقصة حصلت في العهد النبوي، في الصحيحين^(١): «أن امرأة أتت النبي ﷺ فقالت:

(١) أخرجه البخاري (٥٦٥٢)، ومسلم (٢٥٧٦).

إني أُصرع، وإني أتكشّف فادعُ الله لي»، -تريد دعاء من النبي ﷺ أن يعافيه من هذا البلاء-، فقال النبي ﷺ: «إِنْ شِئْتَ صَبِرْتَ وَلَكَ الْجَنَّةُ، وَإِنْ شِئْتَ دَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يَعَافِيكَ؟» فقالت: أصبر، ثم قالت: إني أتكشّف فادعُ الله لي ألا أتكشّف فدعا لها»، لاحظ -يا رعاك الله- أن دخول الجنة كان هو الأفضل في حقها.

. ١٢

لوجه الثاني عشر والأخير: إذا طرح مُلحد هذه الشبهة فاعلم -يا رعاك الله- أنه مغالط متلاعب قطعاً، لماذا؟ هذا ليس باحثاً عن الحقيقة، بدليل: أنه إن تأخرت الإجابة أنكر وجوده سبحانه، وإن تحقّق ما يدعو به فوراً فسيقول حصل هذا صدفة، إذاً هو منكر بكل حال، فليحذر المسلم من تلبّسه، هذا باختصار ما تيسّر في الإجابة عن تلك الشبهة.

المقدم: ما هي الوصية التي يوصي بها المسلم إذا دعا الله ﷻ وسأله بإلحاح، وتأخر حصول مطلوبة؟

الشيخ: أوصي نفسي وإياه بخمس وصايا مختصرة:

١. أولاً: أن يعظّم الله في قلبه، هذا أساس كل شيء، وعليه المعوّل ومنه البداية، الله على كل شيء قدير، لا يُعجزه شيء، والله لو شاء أن

يعطيك سؤالك، بل أن يبلغك أقصى أمانيك في لمح البصر فعل،

﴿وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [سورة التغابن: ٧]، لكن له الحكمة البالغة.

٢. ثانياً: ثِقْ بربك وحكمته، توكل عليه، فَوَضِ الأمر إليه، أحسن الظن

به، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِّلْقَوْمِ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

٣. ثالثاً: لا تيأس ولا تقنط، وكرِّر الدعاء ولا تكسل، وأبشر بفرج قريب.

يا راقداً الليل محزوناً بأوله إن البشائر قد يطرقن أسحارا

٤. رابعاً: تذكَّر ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ [الضحى: ٤]، تذكَّر: ﴿وَمَا

عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [القصص: ٦٠].

٥. خامساً وأخيراً: فِتِّش في نفسك، وأصلح ما فسَد، وأحدث توبة،

وأكثر من الاستغفار، والله تعالى أعلم.

المقدم: إن كان من أراد الاستزادة حول هذا الموضوع، إن كان من إحالات،

أو تقترحون عليه بعض المقترحات؟

الشيخ: عندي وصية: أتمنى أيُّها المستمع الكريم إذا قرأت القرآن أن تتبَّع

دعوات الأنبياء فيه، قِفْ عندها متأملاً ولو قليلاً، قف عند معناها ومبناها وأدبها،

وستجد أنه سيُفتح لك باب من العلم والإيمان كبير، وعود لسانك أن ينسج على

منوالها، هذه هي الوصية المتعلقة بهذا الموضوع.





الحلقة السادسة عشرة

حرية الإنسان بين الإطلاق والتقييد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدم: اليوم موضوع أيضاً ثقيل، ويمكن من المواضيع التي تُطرح كثيراً في الإعلام (موضوع الحرية)، ويحدث فيه الكثير من الآراء المختلفة، وتعودنا منكم أن تقدّموا كل حلقة بتمهيد يوضّح لنا مشكلة الموضوع؟

الشيخ: الأمر - كما تفضّلتم - موضوع الحرية بمفهومها المعاصر مسار جدل كبير نظراً لاختلاف الناس في فهمها، وتطبيقها، ولا يُنكر أن هذه الكلمة كانت تهواها النفوس سابقاً، وتهشّ لسماعها، وفي التراث الأدبي العربي شواهد كثيرة على هذا، لكن الأمر في هذا العصري قد تغيّر، إذ أضحت الحرية من أكثر الكلمات إشكالاً، فلها تعريفات شتى تُستعمل في حق، ويُندَرع بها إلى باطل، ويتكلّم بها الصديق والزنديق، فما أحرأها أن توضع تحت مجهر التأمل لضبطها، ومعرفة حدودها، وصوابها من خطئها، وذلك أن كلاً يحمل الحرية على هواه، حتى الوقح يُعدّ وقاحته حرية، المسرف يُدرج إسرافه في الحرية، الشاب يصف شذوذه بالحرية وهكذا، فكم لقي هذا القلب من تعسّف وتشويه وعبث، حتى إنه أصبح مَرَكَباً ذلولاً للتمرّد، وقنطرة لتجاوز القيم، ووسيلة إلى هدم أركان الفضيلة.

المقدم: كأنكم تقولون: أن الحرية مرفوضة جملة وتفصيلاً، يمكن هذا من أكثر ما يوجه إلى الإسلام أن الإسلام مضاد للحرية، هل الحرية مرفوضة جملة وتفصيلاً؟

الشيخ: بالتأكيد لا، المرفوض منها هو الحرية الزائفة، المرفوض هو التوظيف السيئ للحرية، وهو شيء منتشر مع الأسف.

عندنا منهجان في تحديد ما هي الحرية وضوابطها، فحرية معتدلة نافعة، يُقرّرها الإسلام بعدله ورحمته وحكمته، وحرية زائفة متمردة ينتهجها المتمردون على شرع الله على اختلاف نحلهم، وسيأتي بيان هذه بإذن الله ﷻ.

المقدم: ما هو المنهج الصحيح في التعامل مع المصطلحات البراقة، أنتم ذكرت في المحور الأول قضية أنه الحرية من الكلمات التي تهاواها النفوس، ولا زال البعض تحت بريقها ربما تزلّ به القدام، فكيف نتعامل مع المصطلحات البراقة مثل مصطلح الحرية؟

الشيخ: السؤال في غاية الأهمية! على المسلم العاقل ألا يكون سريع الاستجابة للمصطلحات التي لم ترد في الكتاب والسنة لا في مجال القبول، ولا في مجال الرد، لا سيّما تلك المصطلحات التي لها معانٍ فضفاضة ضبابية، أو هي متحركة متغيّرة من عصر إلى عصر، إنما عليه أن يتريّث، وأن يضعها في ميزان الشرع، ليقبلها في ضوءه، أو يردّها.

والشرع ميزان الأمور كلها وشاهد لفرعها وأصلها

اليوم هناك صراع في العالم مشتعل، هو صراع المصطلحات والشعارات، فما أكثر ما تُروّج المفاهيم الفاسدة تحت ستار مصطلحات جميلة، وشعارات برّاقة، ألفاظ

مزخرفة حلوة، لكن تحتها سُمّ الزُعاف، وليس عبثاً أن كان مما خافه النبي ﷺ على أمته، أولئك الذين يُطَوِّعون الكلمات لترويج الباطل؛ ففي «المسند»^(١) مرفوعاً، وروي موقوفاً: «**إن أخوف ما أخاف على أمتي كُلِّ منافقٍ عليم اللسان**».

الواقع يشهد أنه لا يحتاج بعض المنافقين ودُعاة الشر إلا أن يُحسنوا اختيار الكلمات والتلاعب بالمصطلحات، ليجعل الأعمار يتقبّلون أبشع أنواع الأفكار، غلوّاً أو انحلالاً.

والعجيب أن الكلمات التي يصعب تحديد معانيها بشكل دقيق ومنها: كلمة الحرية، هي التي تمتلك أحياناً أكبر قدر من التأثير على أولئك، ولربما احتاجت الحاجة بالبراهين إلى وقت وجهد كبير لمقاومتها، وتخفيف أثرها في النفوس.

المقدم: أحياناً المصطلحات الفضفاضة مثلما ذكرتُم مثل مصطلح الحرية يصعب الإمساك بها، يصعب أن نصل إلى تعريف محدد خلاص نقول: والله هذه هي الحرية، السطر الفلاني هو الحرية، تعريف الحرية، فهل بإمكاننا أن نعرّف الحرية؟

الشيخ: الأمر كما -تكرّمتم- الحرية ليس لها مدلول مطلق يتفق عليه الناس، بل مفهومها يختلف باختلاف الثقافات والأهواء والدوافع، وكثير من الصراع الذي نعيشه اليوم بين الخير والشر، بين العدل والبغي، راجع في حقيقته إلى الاختلاف على

(١) رواه أحمد برقم (١٤٤).

ضابط الحرية، الحرية مصطلح مستعمل في مجالات عدّة، طرقه متخصّصون في مجالات متنوعة؛ كالفلاسفة، والحقوقيين، القانونيين، السياسيين، علماء النفس والاجتماع، وغيرهم، وإذا نظرنا فيما بين أيدينا من معاجم فلسفية حديثة، ربما نجد كلاماً عاماً في معنى الحرية؛ كقولهم: إنها القدرة على تحقيق فعل، أو امتناع عن تحقيق فعل دون خضوع لأي ضغط خارجي، أو قولهم: هي استقلال الفرد في تصرّفاتة، وعدم انقياده لأي سلطة، باختصار وبعيداً عن تعقيدات المصطلحات، يمكن تلخيص المعنى المعاصر للحرية في جملة قصيرة وهي: إطلاق الإرادة في الاختيار.

ولاحظ -يا رعاك الله- أن هذه الجملة القصيرة ربما تحتاج في شرحها وتوظيفها في مختلف المجالات إلى مجلدات عدة.

الذي أريد أن أقول: ربما نجد للحرية تعريفات نظرية متقاربة، لكن ضبطها أو تحديد ما يندرج تحتها عملياً هذا ما يختلف فيه الناس اختلافاً كبيراً.

المقدم: وإذا اختلفنا نعود إلى الكتاب والسنة لنجد غايتنا، ولنجد الطريق الصحيح في فهم المصطلحات والمفاهيم مثل: الحرية، فهل الحرية مصطلح موجود في كتاب الله، وفي سنة النبي ﷺ، أو هناك ما يشير إليه؟

الشيخ: بهذا اللفظ لا ورود للحرية في القرآن، ولا في السنة فيما أعلم، بحسب المعنى الاصطلاحي المتقدّم، إنما توجد الحرية المقابلة للرق، وهذا موضوع

آخر، ليس المقصود في إطلاقات المعاصرين، وعليه فيتعيّن النظر فيما يندرج تحت هذا المصطلح من المعاني، فيُقبل ما كان صواباً، ويرد ما كان باطلاً - كما سيأتي إن شاء الله-.

المقدم: لو بدأ بالحرية الزائفة، ما هي معالم هذا النوع من الحرية هل يمكن أن نوضح أكثر؟

الشيخ: الحرية الزائفة هي الحرية المطلقة عن أي قيد، أن تفعل أي شيء دون أن يُقيّدك شيء، وهي الحرية التي تزوج اليوم في الغرب -مع الأسف الشديد-، هذه الحرية الزائفة المتطرفة تتميز بسمات أهمها ثلاث:

١. أولاً: أنها تدعو إلى الأثرة، أو ما يسمى اليوم بالأنانية، الأولوية المطلقة فيها للفرد لهواه، لمصلحته، وليس لمصلحة المجتمع.

٢. ثانياً: في هذه الحرية لا يُقبل على المرء رقيب ولا حسيب، ولا أمر ولا نهي.

٣. ثالثاً: هذه الحرية ليس فيها معيار ثابت للحق والباطل، أو ميزان

للخير والشر، أو ضابط للقيم السّامية والسّافلة، وعليه فهي حرية

منفلتة ألّغت كل قيد، بل ألّغت كل قيمة، وأعظم قيمة ألّغتها: الدين

الحق، فتحت ظلال هذه الحرية لا فرق بين أن يُعبد الله الرحيم

الرحمن، وأن يُعبد الحجر، أو البقر، أو الشيطان.

أما الأخلاق عند هؤلاء المتحررين المُنفَلِتين فليس لها معيار إلا اللذة، والمنفعة، والهوى، هذه الحرية أَرَحَّت العِنان للشهوات، فباسمها يمكن للإنسان أن يمارس كافة أصناف الشذوذ، وجميع أنواع الفجور، وأن يجهر بأي رأي، ولو عارض شرعاً، أو خالف خُلُقاً، أو صادم عُرفاً ومجتمعاً، إنها حرية زائفة، أولها بَهْرَجَة، وقد يكون فيها إمتاع، لكن آخرها فساد وضياع، نعم هو ضياع، فما الذي أفرزته هذه الحرية عند أولئك سواه؟ هل أورثتهم سعادة حقيقية؟ **الجواب:** لا، بل بُؤساً وضيقاً يهربون منه بكل وسيلة، بل أصبحت الحياة ذات قيمة رخيصة عندهم، حتى إن أحدهم -وهو الذي يدعو إلى الحرية- قد ينتحر لفقد عشيق، بل لهزيمة في لعب، فما قيمة هذه الحرية التي ما أَعْنَت عنهم فتياً ولا قطميراً، أي قيمة لحرية لا يملك فيها الإنسان تحكماً في غريزة، أو كَبْحاً لانفعال، أي رق أذل من هذا الرق، غير أن المؤسف حقاً أن مفاهيم هذه الحرية قد غزتنا في دورنا لتجعل ناشئ المسلمين ينشأ في عُزلة عن دينه وتاريخه، هم يريدون من الفتاة المسلمة والفتى المسلم أن يكون حرّاً، ولو نَقَب السفينة ليغرق ويُغَرِّق، حرية تُغرقه أولاً في أمواج الشهوات تحت مظلة الحرية الشخصية، ثم تُغرقه في لجج الشك تحت مظلة حرية التفكير، ثم تطرحه على ساحل التمرد على دينه ومجتمعه تحت مظلة حرية الرأي.

وأخيراً: تهوي به في وادٍ سحيق من الإلحاد والردة تحت مظلة حرية الاعتقاد، هذه هي الحرية بوجهها القبيح، ظاهرها الرحمة، وباطنها العذاب، شعارها الانفتاح، وحقيقتها أغلال ثقيلة، الإنسان تحت رايتها أسير لذة يطيعها، وشهوة تقوده، وهوى يتحكم فيه، حاله كعُصن ضعيف، أي نسيم مرَّ به أماله فتارة تميلة صورة، وتارة يجذبه منصب، وتارة يستعبده الدينار والدرهم، فيتخذ حينها إلهه هواه، ويتبعه بغير هدى من الله، لقد عمي هؤلاء وصمّوا عن أن الإنسان عبد شاء أم أبى، لا ينفك من العبودية البتّة، إما أن يكون عبداً لله فيتحرّر من عبودية ما سواه، وإما أن يكون عبداً للشهوة أو الشهرة أو المال، حتى لربما كان عبداً لثوبه، وهذا شيء عجيب، أن يكون الإنسان عبداً لثوبه.

في «صحيح البخاري»^(١) قال ﷺ: «تَعَسَّ عبد الدينار، والدرهم، والقطيفة، والخميصة»، الخميصة: نوع من الثياب.

الخلاصة: الوجه القبيح للحرية يتجلّى حينما يكون معناها نظرياً أو عملياً الاستقلال عن دين الله الحق، فهنا ستكون أسوأ الأشياء.

المقدم: أحد المستمعين أشارت إلى أن شيء من هذا، أودّ أن تعلقوا على تعليقها، تقول الحرية يجي شخص مثلاً يقول: أنا ولي أمرك، مثلاً ما في سفر، ما

(١) رواه البخاري برقم (٢٨٨٦).

في عمل، ما في روحة، هذا غلط، وتجي مثلاً واحدة تقول: أنا حرة حتى تتمرد لفظياً وسلوكياً على الدين هذا أيضاً غلط، حرية وسطية هي أخذ حقل الطبيعي، وليس تعدي الحدود، ما رأيك في مشاركتها؟

الشيخ: هذا الكلام -بارك الله فيكم- شيء لا يُنكر، لا يُجحد أن هناك تعسفاً في استعمال الحق، الحق الذي أُعطي في الشريعة لأحدٍ ما بوصفٍ ما؛ كولي أمر على بنت مثلاً، كونه يتشدد فيما لا مجال فيه للتشدد، هذا أمر واقع لا يُنكر، لكن هذا لا يجعلنا -كما تفضّلت- أننا نفتح الباب على مصراعيه ونقول: الحل هو أن يُفتح كل شيء، وأن يزول كل قيد، الحرية -كما سيأتي- هي باختصار: أن تأخذ حقلك وأن تفّي بحق غيرك، وهذا سيأتي بيانه -إن شاء الله- قريباً.

المقدم: تحدثتم سابقاً عن الحرية الزائفة، ماذا عن الحرية في ظلال ديننا الحنيف، دين الرحمة، وكرامة الإنسان؟

الشيخ: سبق أن ذكرتُ أن هذا المصطلح بمعناه المعاصر ليس له ورود في الكتاب، وليس له ورود في السنة فيما أعلم، لكن ثمة معانٍ يمكن اعتبارها من مفهوم الحرية في جانبها الصحيح، وقد جاء بها الإسلام، ويمكن أن نلخصها في خمسة أشياء:

● أولاً: الحرية في مقابل الرق - كما تقدّم - وهذه الحرية هي الأصل في الناس، والرق طارئ، وله أحكامه الفقهية الخاصة.

● ثانياً: الحرية بمعنى شرف النفس، وكرم الخلق، وشهامة الخاطر، بحيث يشق المرء بها عصا الطاعة للباطل، والانقياد للضّيم والسفاسف، وهذا ما تغنّت به العرب في جاهليتها، ورأت أنه يجتمع فيها جميع مكارم الأخلاق، فالحرّ عندهم هو الكريم الذي لا نقيصة فيه، كما في لامية العرب:

ولكن نفساً حُرّة لا تُقيم بي على الذّم إلا ريث ما أتحوّل
والحرية بهذا المعنى شيء أكده الإسلام وشدّ وثاقه.

● ثالثاً: الحرية بمعنى ثبوت الإرادة والاختيار للعبد، فهو يفعل بمشيئته، ويتحمّل مسؤولية اختياره.

- رابعاً: الحرية بمعنى إباحة الانتفاع، والاستمتاع بالمباحات في ضوء الشريعة، قال ﷺ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ، وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

- خامساً: الحرية بمعنى الخلو من العقائد الباطلة، ومن التعلُّق بالملخوقين والأهواء والشياطين.
- إذاً: جاء الإسلام بالحرية المشرقة الصادقة المسعدة، فليست سعادة الإنسان في حرية البهائم لا والله، إنما في الحرية التي انضبطت بضوابط الإسلام، وتظللت بظلاله.
- ويمكن إبراز شيء من معالمها في الأوجه العشرة الآتية:

- أولاً: أهم وأول حرية نادى بها الإسلام: حرية القلب من التعلُّق بالخلق، وتحرُّر الاعتقاد من الخرافة، والهوى، والتقليد الأعمى، بحيث يكون القلب والجوارح لله وبالله.
- ثانياً: الحرية التي أقرها الإسلام حق للإنسان، بل ضرورة، فهو يفعل الخير باختياره فيثاب، ويفعل الشر باختياره فيتعرَّض للعقوبة، فهي إذأ مناط التكليف، قال سبحانه: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٧-١٠].

- ثالثاً: قِوام الحرية في الإسلام أن يعرف المرء ما له وما عليه، وأن يُدعِن لقواعد الإنصاف، وأن ينصاع لسلطان الحق.
- رابعاً: الحرية في شرعنا هي: قدرة الإنسان على الاختيار حيث «لا ضرر ولا ضرار»^(١)، ولاحظ أنهما طرفان لا بد من مُراعاهما لا طرف واحد، لا ضرر بالنفس ولا ضرار بالغير، تلك الحرية الجامحة التي ذكرناها آنفاً، جاءت في أحسن أحوالها بطرف واحد، قال أولئك: لا إضرار بالآخرين، أما نفسك فافعل بما شئت، فأَيّ المنهجين أعقل وأرحم؟!
 - خامساً: جاءت شريعتنا بالموازنة بين الحرية والمسؤولية، فكما أن الحرية حق لك، فالمسؤولية تجاه نفسك ودينك ومجتمعك واجب عليك، فإذا أردت ممارسة حقّ فعليك أن تؤدي واجباً، إنّ التعريف الدقيق للحرية الصادقة كان جلياً، تلمسه في كل تعاليم الإسلام، وهو أن يأخذ المرء حقوقه، ويَفِي بحقوق غيره.

(١) رواه أحمد برقم (٢٨٦٥).

- سادساً: جاء الإسلام بتوضيح الفرق بين حرية المرء أن يفعل ما يريد، وأن يفعل ما ينبغي، الأول: هو الحرية الزائفة، والثاني: هو الحرية الصادقة.
- سابعاً: بين الإسلام أن مسافة شاسعة تفصل بين الحرية والفوضى، وإذا كان العقلاء متفقيين على أنه لا يمكن أن تنفصل الحرية عن النظام، فقد جاء الإسلام ليقيدها بقيود تُوطد العدل، وتمنع الظلم، ظلم النفس وظلم الغير، إذاً الحرية في ضوء الإسلام مقيّدة لا مطلقة، منضبطة لا مُنفلتة.
- ثامناً: جاء الإسلام ليقول: إن الحرية ما لم يصحبها عدل فستسقط إلى الحضيض، إن الحرية والأخلاق الزاكية مَلزومان في قرن، لا انفكاك لهما عن بعضهما، إن الوقاحة والحرية متضادتان وليستا مترادفتين، وعليه فمنع من يظلم غيره ليس انتهاكاً للحرية، ومنع من يَنْتهك حرمة المسلمين وأمنهم ليس انتهاكاً للحرية، ومنع من يَنْتهك حرمة الإسلام ليس انتهاكاً للحرية، والنصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالمنهج الشرعي ليس انتهاكاً للحرية.

- تاسعاً: أحكام الإسلام تنادي بالمسلم: أنت حرٌّ في قولك، في تفكيرك، في كسبك، ما لم تؤدَّ حريتك إلى معارضة الدين، أو تهديد سلامة المجتمع وتقويض أركانه، أو تفويت حقِّ أهم، وما لم تؤدَّ إلى إضرار بالنفس أو بالآخرين، أنت حرٌّ ما لم تتعدَّ حدود الله، وما لم تتبع هواك، وما لم تظلم الآخرين، أو تعتدي على حقوقهم.
- عاشراً وأخيراً: المستفاد من أحكام الإسلام وأدلته أن الحرية واقع لا غاية، وهذه نقطة أوْدَّ أن أوضحها:

الحرية في الإسلام واقع لا غاية، مَنْ امتثل تعاليم الإسلام فسيكون حراً، وسيتمتع بالحرية الحقّة، وسيستروح شذاها، لكن هذا شيء، والغاية شيء آخر، الغاية تحقيق العبودية لله ﷻ، هذه هي الغاية من وجودك في هذه الحياة، وهي التي ينبغي -يا أيُّها المسلم- أن يكون تحصيلها شغلك الشاغل في هذه الدنيا، وبقدر تحقيقك لها سيكون نصيبك من الحرية.

كم هو مؤسّف أن مسلمة أو مسلماً يُقال له على سبيل النصيحة: افعل الواجب، واترك المحرّم، فيردّ ببرود: أنا حر، ما أسخف هذه الكلمة في هذا المقام، من قال لك أنك حرّ حرية الانفلات، من قال لك إن الحرية تعني تعدي حدود الله، من أعطاك الحق أن تجعل الحرية سلاحاً تُشهره في أوجه الناصحين، أنت عبدٌ

لله، مُلزم بطاعته، ولا يسعك الخروج عن هذا، ويا لله العجب كيف يسمح مسلم لنفسه أن يقول هذا وهو يعتقد أنه ينتظره غداً حساب وجزاء، والله المستعان.

الخلاصة: الحرية في العبودية لا في غيرها، هكذا يقول الإسلام.

المقدم: نريد أن نختم ببعض الأشياء التي توهّمها بعض الناس، مثلاً أن بعض الأدلة الشرعية تشهد لبعض مفاهيم الحرية الخاطئة، مثل قول الله ﷻ، البعض يستدل مثلاً بهذه الآية: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، أو قول الله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، أو قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]، البعض مثلاً يقول: أن هذا دليل على أن للإنسان الحرية في أن يعتنق ما يشاء من المذاهب والأديان ونحو ذلك، فلو تُوجهونا إلى الفهم الصحيح في هذه الآيات؟

الشيخ: المشكلة هنا من جهتين وليست من جهة واحدة: مشكلة في الكلام نفسه في الرأي نفسه، ومشكلة في الاستدلال، وفي التقوّل على كتاب الله ﷻ، وهذه والله مصيبة، وإني أقدم نصيحة لنفسي وإلخواني: حذارٍ من أن تنسب رأياً إلى الكتاب والسنة وأنت لم تتيقّن أن هذا هو مراد الله، أو مراد رسوله ﷺ! الله ﷻ يقول: ﴿لَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ [الأعراف: ١٦٩]، ومن أعظم المنكرات التي بيّنها الله ﷻ في كتابه قال: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾

[البقرة: ١٦٩]، الخوض في آيات الله ﷻ وحملها على غير محملها جُرم عظيم، على المسلم أن يكون ورعاً حذراً من ذلك، قبل أن تستدل بآية، أو تظن أنها تدل على شيء ما، اسأل وابحث حتى تصل إلى الصواب.

الأمر - كما تفضّلتم - من الناس من يزعم أن حرية الإنسان مكفولة له بحيث أنه مخير، يعتقد كما يشاء، أن يتدين بما يحلو له، أن يدخل في الدين الذي يريد، ويأخذ منه ما يريد، وأن يترك الدين الذي يريد، لا فرق في هذا بين دين الإسلام وغيره من الأديان الباطلة، وهؤلاء نسبوا هذه الحرية الباطلة مع الأسف إلى الإسلام، وتشبّثوا ببعض ما لم يفهموا وجهه من أدلة الشرع، وإذا تأملت في كلام هؤلاء وجدت أن مشكلة كثير منهم أنهم مُنْهَزَمُونَ نفسياً، ولذا فهم يحاكمون الإسلام إلى الفكر الغربي، ويطالبونه أن يذوب فيه، وأن لا تكون للمسلمين هوية، وأن تختفي معالم دينهم ومميّزاته، يريدون الإسلام مرآة عاكسة لغيره فحسب، ووظيفة المسلمين أن يزيّنوا الإسلام في أعين أهل الغرب والشرق ولو على حساب تعدي حدوده، وتحريف مفاهيمه، لقد أخطأ هؤلاء خطأ كبيراً، فالإسلام هو الدين الحق المنزّل من عند الله، المستعلي على غيره، له مقاصده، وحكمه، وأحكامه، وليس مطالباً بموافقة غيره من الأديان أو أوضاع المجتمعات، فمن آمن بأحكامه كلها فإنه سيسعد في الدنيا والآخرة، ومن كفر به فلن يضر إلا نفسه،

ولن يضر الإسلام شيئاً، ﴿وَلَا يَحْزُنُكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُوا اللَّهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٦]، لا شك أن من عرف دين الإسلام حق معرفته لا يجزم أن هذه الحرية المزعومة من أوضح الإفك وأعظم الضلال، فإن أدلة الشرع كلها، وإجماع المسلمين قاطبة قد قام على أن الدين الحق الذي لا يقبل الله من أحد سواه، بعد البعثة المحمدية هو دين الإسلام، ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، إن الدين عند الله الإسلام، ليس للمرء الخيار في الدخول في الإسلام، أو الإعراض عنه، أو الخروج منه، بل هو ملزم بالتزامه، متوعد بالخلود في النار إن أعرض عنه، ﴿وَمَنْ لَّمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ [الفتح: ١٣].

أما عما تفضّلتم به من الاستدلال بقوله ﷺ: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، أقول: هذا استدلال خاطئ دون شك، الآية ليست للتخيير بين الإيمان والكفر، إنما هي للتهديد والتخويف، وهذا أسلوب عربي معلوم، والدليل أنها للتهديد قوله سبحانه عقيها: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩]، إذاً هي تهديد ووعد لمن اختار الكفر بعد أن جاءه

النذير، كما أن فيها إظهاراً لغنى الله ﷻ، بمعنى: هذا الحق من ربكم فمن آمن فإنكم لا تنفعون الله ﷻ بإيمانكم، إن آمنتم فإنكم لا تنفعون الله بإيمانكم، وإن كفرتم فإنكم لا تضُرُّونه بكفركم، وعليه فالآية لا تدل على ما يقولون لا من قريب ولا من بعيد.

أما عن قوله سبحانه: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، فما أكثر ما يُحَرَّف معنى هذه الآية مع الأسف الشديد، هذه الآية ﴿لَا﴾ فيها، إما أن تكون للنفي أو أن تكون للنهي، فإن كانت للنفي فالآية إخبار من الله ﷻ أنه لا قدرة لكم على أن تُكرهوا أحداً على الدخول في الدين؛ لأن الدين النافع أساسه ما في القلب من الاعتقاد، وما في القلب لا سبيل إلى الإكراه عليه، أما إن كان ﴿لَا﴾ ها هنا للنهي فالمعنى: لا يُرغم أحد على الدخول في الإسلام ممن تؤخذ منه الجزية إذا بذلها، مع ملاحظة أن هذا لا ينفعه عند الله، فإنه إن مات على غير الإسلام فهو من أصحاب النار، وعليه لعنة الجبار.

وعلى كل حال الإكراه في هذه الآية راجع إلى الدخول في الدين وليس إلى الخروج منه.

أما الآية الأخيرة فهي قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]، هذه الآية آية براءة لا إقرار، فيها براءة من الكفار ومن دينهم، والسورة كلها في هذا

المعنى، وليست في إقرار هؤلاء على دينهم، فقد سماهم الله ﷻ أولاً بالكافرين ﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا لَكُمُ الْكُفْرُ وَهُوَ إِرْقَارُ هَؤُلَاءِ عَلَى دِينِهِمْ، فَقَدْ سَمَّاهُمْ اللَّهُ ﷻ أَوَّلًا بِالْكَافِرِينَ﴾ [الكافرون: ١]، ثم أعلن البراءة منهم ومن دينهم، كأنه قال: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [سورة الكافرون: ٢]؛ لأنها عبادة باطلة، وبعد ذلك إن أبيتم إلا هذه العبادة ف﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]، إذاً هذه الآية في معنى أمره تعالى لنبيه أن يقول: ﴿أَنْتُمْ بَرِئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١]، وهي في معنى قول هود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام قال: ﴿إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [هود: ٥٤-٥٥]، والله ﷻ أعلم.

المقدم: أحياناً البعض يطبق بعض تعاليم الإسلام على نفسه وعلى من تحت يده بشيء من الغلظة، ويقيد حرياته مثلاً، يجبرهم على بعض مثلاً الآراء الفقيه وما شابه ذلك، إما أن يكون أب أو زوج، كيف نتعامل معه، وأيضاً الآباء والأمهات أيضاً يسألون من طرف آخر، كيف يتعاملون مع الشاب أو الفتاة عندما يحتاج مثلاً بأشياء عن الحرية، وأنه حر يفعل ما يشاء ونحو ذلك، إن كان من نصيحة؟

الشيخ: أما عن الشق الأول فالنبي ﷺ قال: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»^(١)، ومن كان مضيقاً فإنه مسؤول، ومن كان مشدداً ظالماً فإنه والله أيضاً مسؤول، فليتقِ امرؤ ربه، وليستعد لموقف السؤال بين يدي الله ﷻ.

أما بالنسبة لما يُطرح من قبل الشباب تجاه الآباء والأمهات في مسألة الحرية، النصيحة غرس معنى العبودية في القلوب، هو بالتالي سيتلاشى أي معارضة لهذا الدين، الله ﷻ خلقنا لعبادته، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، تضخيم وتفضيل وإعظام هذا المعنى في النفوس كفيل بإذن الله ﷻ أن تسقط أمامه كل هذه المفاهيم الخاطئة.

المقدم: إن كان من إحالات أو نصائح تنصحون بها المستمعين أن يعودوا إلى مثلاً بعض الكتب وما شابه ذلك؟

الشيخ: أوصي وأؤكد على الإخوة الكرام بقراءة كتاب «العبودية» لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، فإنه في غاية النفاسة، ولو صح لي أن أسميه بغير اسمه لسميته كتاب «الحرية».



(١) رواه البخاري برقم (٨٩٣)، ومسلم برقم (١٨٢٩).



الحلقة السابعة عشرة

فوضى القراءة والتلقي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدم: موضوع آخر جديد ومستشكل، وقضية فيها تفاصيل كثيرة، قضية فوضى

القراءة والتلقي، ونحتاج مقدمة نبدأ بها، ونفهم من خلالها بشكل عام الموضوع؟

الشيخ: الأمر - كما تفضلتم يا رعاكم الله - هو أمر مستشكل فعلاً نعيشه

في هذا العصر، وليس يخفى على بصير بالواقع، ذلكم أن هناك فوضى معرفية كبيرة

نعيشها اليوم، سببها: تحولات كبرى حاصلة في العالم، ومنها هذا الانفتاح، بل

هذا الانفجار المعرفي الذي أدى إلى وقوع بعض الشباب والفتيات في مشكلات

كبرى تتعلق باعتقادهم ودينهم، أدى هذا إلى انحرافات واقعية، إما إلى طرف

الغلو، وإما إلى طرف الانحلال، وأنا أزعّم أن أهم سبب للانحراف الفكري لدى

الشباب في هذا العصر هو هذه الفوضى المعرفية التي نعيشها، مع ما صاحبها من

ضعف في الترشيد الثقافي، اليوم الكل يكتب، والكل يتكلّم، والكل يستمع

ويتلقى، واختلط كما يقولون: الحابل بالنابل، صار الواقع في نظري أشبه ببحر

كبير هائج، والشباب والفتيات فيه يسبحون ويموجون مع أمواجه، وهناك حبال

كثيرة تتدلى، قليل منها ينتهي بطوق نجاة، ينتشل المتعلّق به، وكثير منها فيه طُعم

لو التقطه هذا الشاب أو تلك الفتاة لأمكن اصطیاده وجُرّه إلى ما لا تحمد عقباه،

ولا نجاة من هذا إلا بتوفيق الله سبحانه، ثم باكتساب مهارة اختيار حبل النجاة، وتمييزه عن حبل الهلكة.

المقدم: لو ندخل أكثر، وتعمَّق في هذا الموضوع، موضوعنا اليوم فوضى القراءة والتلقي، إذًا هي فوضى مرتبطة بالمعرفة، لو نوصفها أكثر، ونوصِّف ما يحتف بها من سلبيات؟

الشيخ: قبل أن أجيب على ما تفضَّلتم به، أنبه إلى أنني حين أتكلَّم عن هذا الواقع المعرفي، والثقافي المعاصر لا أخص مكاناً دون آخر، أنا أتكلَّم عن واقع معاصر عالمياً.

الأمر الآخر: لستُ بحاجة إلى أن أُطنب في بيان أن هذا الواقع المعرفي له إيجابياته، كما أن له سلبياته، من أهم إيجابياته: سرعة الوصول إلى المعلومة، اختُصرت اليوم كثير من الأوقات والجهود التي كانت تُنفق سابقاً في البحث والتنقيب، لكن على كل حال نحن إنما نريد في برنامجنا هذا التنبيه على السلبيات لتلافيها، وليمكن الاستفادة من الإيجابيات بأمثل طريق.

● أول معلَم من معالم الواقع الذي نعيشه في جانبه المعرفي: كثرة

المنتجات الثقافية، نحن كما قدَّمت نعيش في حالة انفجار معرفي حقيقي، بغض النظر عن مستوى المحتوى، أنا هنا الآن أتكلَّم عن



الكم لا كيف، اسمع ماذا يحدث في الدقيقة الواحدة، في الدقيقة الواحدة تُنشر في تويتر ثلاثمائة وخمسون ألف تغريدة تقريباً، وليس يخفأك أن هناك إقبالاً جارفاً على وسائل التواصل من الشباب، أنا أعرف من ينفق من عمره يومياً من ست إلى عشر ساعات، يتنقل فيها بين وسائل التواصل الاجتماعي.

المقدم: ذكرتم ثلاثمائة ألف تقريباً تغريدة في تويتر يومياً؟

الشيخ: لا، في الدقيقة الواحدة يُنشر أكثر من ثلاثمائة وخمسين ألفاً أو نحوها، في الدقيقة الواحدة تُصنع ثلاثة ملايين وأربعمائة ألف سناب، في الدقيقة الواحدة يتم تحميل خمسمائة ساعة من المحتوى الفيديوي في يوتيوب بالذات، ويُشاهد سبعة ملايين ونصف مليون فيديو في هذا الموقع في الدقيقة الواحدة، في الدقيقة الواحدة تُرسل مئتا مليون رسالة بريد إلكتروني، في الدقيقة الواحدة يُنشر واحد وأربعون ألف منشور أو بوست في فيسبوك، في الدقيقة الواحدة يتم تحميل أكثر من ثلاثة وأربعين ألف صورة على موقع إنستقرام، هذا كله في وسائل التواصل، ناهيك عن أشياء أخرى تُعرض في الفضائيات، في الكتب، في المجلات، في الصحف، اليوم المطابع مع وجود هذه الثورة المعرفية في وسائل التواصل لا تزال تقذف بالكثير والكثير سنوياً، لك أن تعلم أنه في العالم اليوم يُطبع سنوياً ما يقرب من مليونين ومئتي ألف

كتاب، وينشأ ما بين ثمانية آلاف وإحدى عشرة ألف دار نشر جديدة سنوياً، إذاً أبرز سمة نعيشها اليوم هو هذا التوسّع الكبير والمعرفة والثقافة.

● الأمر الثاني: تنوع المنصّات المعرفية، والأوعية الثقافية وكثرتها، ناهيك عن الأوعية الثقافية التقليدية من كتاب، من مجلة، من صحيفة، محاضرة، ندوة، برامج تلفزيونية، أفلام مسلسلات إلى آخر ما هنالك، هاهنا اليوم منصات جديدة تسيل منها الأفكار والآراء فتتغذى العقول بأسرع طريقة وأسهلها، اليوم توجد وسائل التواصل الاجتماعي وما تحوي من كلام مكتوب، ومسموع، وما فيها من صور ثابتة ومتحركة، اليوم ثمة مواقع لمقاطع الفيديو (موشن جرافيك) والـ(إنفو جرافيك) هناك سنابات، تغريدات، بوستات، هناك غرف صوتية، اليوم هناك صوالين ثقافية، اليوم هناك مقاهي ثقافية، اليوم هناك برامج وثائقية، حوارات مناظرات فضائية، كتب مسموعة، حتى الألعاب الإلكترونية صارت منصات ثقافية تخدم فكراً وتوجّهاً، إلى أشياء أخرى ذكرت بعضها وغاب عني بعضها.

● الأمر الثالث: صاحب ما سبق حراك ثقافي غير منهجي في بعض الأحيان، ودعوات للانفتاح الثقافي غير المنضبط.

- **الأمر الرابع:** كثرة المغرضين والمشبوهين الذين أحسنوا استغلال هذه المنصات المتنوعة في نشر شبهاتهم، وبث سمومهم، في السابق كان الواحد من هؤلاء يحتاج إلى جهد حتى يصل إلى سمع وقلب المتلقي، اليوم لا يحتاج إلى هذا الجهد، أو إلى كثير من هذا الجهد، هناك سنارة يلقيها، وكل ساقطة - كما قيل - في الحي لاقطة.
- **الأمر الخامس:** وجود خداع معرفي واسع، كم هي المفاهيم الساقطة التي تلبس لباساً حسناً مزخرفاً، وتساغ بأساليب مقبولة، كم هي المغالطات المنطقية التي تُطرح في صورة حقائق علمية.
- **الأمر السادس:** التهافت عل المعلومات المعلّبة، اليوم مع كثرة المعروضات المعرفية صار هناك حرص على المعلومة السريعة والسهلة، الناس اليوم حريصون على الأكالات السريعة، هذا على حساب ماذا؟ هذا على حساب التحقيق والتدقيق، التحقيق والتدقيق في الوصول إلى الصواب، إلى المعلومة الصحيحة، هذا لا شك أنه يحتاج إلى جهد ووقت، اليوم الناس مستعجلة غالباً، تريد أن تعرف المعلومة بلمح البصر، يعني يكفي أن أكتب في (جوجل)، أقرأ أول أو ثاني نتيجة حتى لا أكلف نفسي أن أقرأ كامل الصفحة، أو الصفحة

الثانية، أو الثالثة، أنا أكتفي بالمعلومة الأولى والثانية وينتهي الأمر، لكن هل هي صواب أو خطأ، هذا لا يُدَقَّق فيه كثيراً مع الأسف الشديد.

● **الأمر السابع:** غياب الموجّه غالباً، في خِصَم هذا البحر المتلاطم غالباً مع الأسف الشديد ما يُبحر الشاب أو الفتيات يُبحر الواحد منهم وهو حديث في سنه، وخبرته، يُبحر وحده بلا مساعد أو موجّه يعينه ويصّره، وهذا ما أوقع بعض الشباب صيداً سهلاً في أيدي شياطين الإنس.

● **الأمر الثامن:** عدم التدرج، من المشكلات التي نعيشها اليوم وهي من معالم هذه الفوضى التي نتحدث عنها: عدم التدرج، بمعنى: يمكن لأي أحد أن يطلّع على أي محتوى ثقافي سواء كان مناسباً لسنه أو مستواه، أو لم يكن، وسواء أطلع على ما ينبغي أن يسبقه من معلومات أم لم يطلّع، وعدم التدرج يؤدي إلى خلل في البناء الثقافي للإنسان، العلم كل علم فيه صغير وكبير، فيه مراحل، فيه مرحلة أولية ومتوسطة ونهائية، فلا يصلح أن أعطي مبتدئاً ما أعطيه للمنتهي، وهذا التدرج مع الأسف الشديد مفقود إلا ما رحم الله.

● الأمر التاسع والأخير وهو أخطر شيء في هذه المعالم: الاطلاع غير المقلتر، كل شيء اليوم صار يمكن الاطلاع عليه والدخول في تفاصيله، ولو كان شرعاً لا يجوز الاطلاع عليه إلا في أضيق الحدود، لكن اليوم الأبواب مُسرعة، كتب الخوارج، والملاحدة ومقاطعهم، كتب السحر وتحضير الجن، كتب الأبراج، والكهانة، والشعوذة، المقاطع المنحلّة أخلاقياً، كل شيء صار الآن في متناول اليد، ويمكن أن يطلع عليه طالب في المرحلة الابتدائية.

قبل فترة التقيتُ بشاب صغير في سنه، ولكنه واقع في شكوك كثيرة، وشبهات عظيمة، الشاب فعلاً مشّت، صغير لكنه مشّت، لا يعرف أين يتجه، سألتُه قلتُ: ما السبب، من أين يعني أنت ماذا تقرأ؟ قال: أنا أريد أن أبحث عن الحق، قلتُ: جميل ابحث عن الحق، ولكن كيف فعلت؟ قال: دخلتُ على الإنترنت وبحثت عن كتب الفلسفة، وبدأتُ أقرأ، يا بني كتب الفلسفة هذه هل هي فلسفة واحدة أم مئات من الفلسفات، وكل فلسفات تنقض الفلسفة الأخرى، تريد أن تصل إلى الحق هكذا مباشرة بأن تُعبّ وتغوص في كتب الفلسفة، وتريد أن تصل إلى الحق، النتيجة أنه صار متشككاً مشتتاً ذهنياً، ضائعاً نفسياً، وهذا كله بسبب ما أسميه الاطلاع غير المقلتر.

المقدم: لو نلخص أبرز ما أفرزته وأنتجته هذه الفوضى المعرفية؟

الشيخ: لا شك أن الأمر - كما تفضّلتم - ثمة أشياء كثيرة، ثمرات متعدّدة، برزت في ضلال هذه الفوضى المعرفية، فوضى القراءة والتلقي، لكن أريد أن أنبه على أهم ثلاثة من هذه الثمرات:

١. الأمر الأول: هذه الفوضى أو الضجيج المعرفي أوقع في تشتت ذهني، فكثرت التساؤلات والشكوك حتى وصل هذا ببعضهم إلى الشك في أصول الدين، ناهيك عن فروعه، هناك حالات من التوهان الثقافي، والارتباك المعرفي، مع ضيق النفس أحياناً، سبب هذا التناقض في الطرح، كثرة الكلام والردود، هناك كما يقولون: تُخمة أدت إلى ترخّل، حتى صرنا نسمع من يقول: أين نذهب، والله لم نعد نعرف الحق مع من! وهذا من أكبر الإشكالات التي أفرزها هذا الواقع الفوضوي المعرفي الذي نعيشه.

٢. الأمر الثاني: مزاحمة مصادر التلقي المعتمدة والموثوقة والمؤتمنة، اليوم هناك دعوات إلى القراءة كثيرة، لكن الدعوات إلى القراءات النافعة التي تهتم بالكيف لا بالكم - مع الأسف الشديد - قليلة، الدعوات إلى قراءة القرآن الكريم، إلى قراءة صحيح البخاري، إلى قراءة كتاب التوحيد، إلى قراءة رياض الصالحين، إلى قراءة كتب ابن القيم، هذه -

مع الأسف الشديد- قليلة، صار الشباب أو المثقف العادي كما يقولون غالبًا منصرفًا عن هذا الإرث العلمي الصافي، عنده استعداد ليقرأ مئات التغريدات، وأن يجلس ساعات طويلة يقرأ في كلام إن كان فيه فائدة ففائدته قليلة، والغالب أن شره كثير، لكن يثقل عليه كثيرًا أن يقرأ في كتاب موثوق في العقيدة، أو في الفقه، أو في التفسير، أو في الحديث، أو حتى في معرفة دنيوية نافعة.

٣. الأمر الثالث: نفوذ كثير من أعداء الله إلى عقول بعض الشباب أو الفتيات من أبناء المسلمين.

هذا الذي فجّر مسجداً فيه مصلون مسلمون يعبدون الله، كيف وصل إلى هذه المرحلة من الانحراف، هذا الذي يتدين بذبح أبيه، أو أمه، أو قريبه، ذاك الذي يُعلن على الملأ إحصاءه، أو تلك التي تُعلن تنصُّرها، أو ذاك الذي يطعن بوقاحة في القرآن والسنة، من أوتي هؤلاء؟ الجواب بواقعية: من كتاب، من مقطع، من تغريدات، من مواقع دخلوا إليها فارغين، لكنهم خرجوا مثقلين بالأفكار والعقائد الضالة.

إذاً هذ الأمور الثلاثة أبرز ما أفرزته هذه الفوضى المعرفية مع الأسف الشديد.



المقدم: نسمع كثيراً عندما يأتي موضوع فُوضوية القراءة، أن يكون الإنسان قد تأصل شرعياً، وقد أصَّل نفسه في الجانب الشرعي قبل أن يبدأ مثلاً في قراءة للثقافات الأخرى والأديان الأخرى ونحو ذلك، فلو نُوجز معالم التأصيل الشرعي، خاصة في منهج التلقي المعرفي؟

الشيخ: هذا الموضوع موضوع كبير، ومترامي الأطراف في الحقيقة، لكنني سأوصي وأرَكِّز على خمسة أشياء:

١. أول ذلك: العلم دين، فانظروا عَمَّن تأخذون دينكم، لا يصح ولا يُقبل أن يتلقى الإنسان دينه وثقافته وما يغذي به عقله وقلبه من كل أحد، ولا سيما في هذا العصر الذي كثر فيه المغرضون، دينك أعلى ما تملك، فاعرف من أين تستقي المعلومة التي تجعلها ديناً لك، وتعتقدهما اعتقاداً.

٢. الأمر الثاني: لا يجوز التعرض للفتن، ولا يجوز نشر الشبهات، استقرت الشريعة على هذا، لا يجوز لك أن تعرِّض نفسك للفتنة، ولا يجوز لك أن تكون سبباً في نشر الشُّبهات.

سمعنا قبل قليل ما أوصانا به الشيخ ابن عثيمين رحمته الله، من حديث النبي ﷺ: «مَنْ سَمِعَ بِهِ» يعني: بالدجال، «فَلْيَنَأْ عَنْهُ» يعني: فليهرب منه، «فوالله إن

الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن فيتبعه مما يبعث به من الشبهات»^(١)، هذا وهو مكتوب بين عينيه: (كافر). إذاً أن تعرّض نفسك للفتنة، وأن ترمي بأعلى ما تملك بمغامرة غير محسوبة، هذا في الحقيقة من أعظم ما يكون من الخذلان، النبي ﷺ - كما سمعنا أيضاً فيما قدّمناه - غضب لما رأى عمر رضي الله عنه، وهو عمر، أعلم هذه الأمة وأفضلها بعد أبي بكر رضي الله عنه غضب لما رآه يقرأ شيئاً من التوراة، فكيف بالذي يقرأ في هذه الفلسفات الإلحادية، والعقائد التشكيكية، والأفكار الضالة التي تُنشر، وتُرسل أرسالاً متتابعة - مع الأسف الشديد - إلى عقول الشباب.

٣. الأمر الثالث: الشرع هو المعيار، (والشرع ميزان الأمور كلها، وشاهد لقرعها

وأصلها)، والله ﷻ يقول: ﴿فَإِنْ نَنْزَعْنَاهُ مِنْ شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ

تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، ليس

المرجع إلى عقل، ولا إلى عادات، ولا إلى آراء، إنما المرجع والمعيار الذي تُوزن به كل الأشياء هو شرع الله الحنيف.

٤. الأمر الرابع: منهج السلف الصالح الذين هم صفوة هذه الأمة

وأفضلها وأقربها إلى الحق والصواب، هو البُعد عن المشوّشات على

العقيدة، ولذا تواتر عن السلف رضي الله عنهم الوصية بالبُعد عن الاستماع إلى

(١) رواه أحمد برقم (١٩٨٧٥)، وأبو داود (٤٣١٩٠).

أولئك الذين فُتِنُوا في دينهم، وصاروا من دعاة البدع والضلالة، صاروا ينشرون الشر والفساد على الناس، فتجد أحدهم يوصي فيقول: لا تستمع إلى مبتدع، بل بعضهم يوصي ألا يجاور إنساناً مبتدعاً، يأتيه وهو عالمٌ نحير، وإمام كبير، ومع ذلك يأتيه مبتدع فيقول: قس، أقول لك كلمة، قال: والله ولا نصف كلمة، وآخر يأتيه مبتدع وهو إمام عظيم، فيتحدث أمامه، وإذا به يضع إصبعه في أذنيه، لا يريد أن يسمع منه كلمة واحدة، لم؟ لأن الدين غالٍ في نفوس هؤلاء، وليس عندهم استعداد أن يجعلوه في مَهَبِ الريح.

إذاً: إذا كنت متبعاً للسلف الصالح فعليك أن تتباعد عن كل ما يشوش عليك عقيدتك.

٥. الأمر الخامس والأخير: احرص على ما ينفعك، هذه وصية النبي ﷺ:

«**احرص على ما ينفعك**»، يا ليتك تكتبها - يا أيُّها المسلم - وتضعها بين عينيك: «**احرص على ما ينفعك**»^(١)، أشغل نفسك بالمفيد، ودَعك مما سِوى ذلك.

(١) رواه مسلم برقم (٢٦٦٤).

اليوم نسمع مَنْ يقول: نحن أمة (اقرأ)، وأمة (اقرأ) لا تقرأ، أنا أودُّ أن تُذكر الجملة بصورة صحيحة، نحن نسمع أمة (اقرأ) وينتهي الكلام، نحن أمة ﴿أَقْرَأْ بِأَسْرِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، ليس المقصود أن نقرأ، المقصود: أن نقرأ النافع، هذا هو المهم، وإلا فعَدَم القراءة قد يكون أنفع للإنسان، قد يكون أنفع للإنسان من قراءة تُورده الموارد، وبالتالي ليس المهم يا أيُّها المسلم -الذي يوقن بقاء الله ﷻ- ليس المهم ما تقرأه الآن بقدر ما ستقرأه غداً، إذا وقفت بين يدي الله ﷻ، فقل لك: ﴿أَقْرَأْ كُنْ بَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤]، القراءة المثمرة هي التي تقربك إلى الله ﷻ، هي التي تقودك إلى رحمة الله بتوفيقه سبحانه، حتى تقول: ﴿هَآؤُمْ أَقْرَأُوا كُنْيَةَ﴾ [الحاقة: ١٩]، لكن حذارٍ من أن تقول: ﴿يَلَيَنَّيْ لَمْ آوَتْ كُنْيَةَ﴾ [الحاقة: ٢٥]، اقرأ ما يقربك إلى الجنة، ويُباعدك عن النار، اقرأ ما يثقل به ميزانك، اقرأ ما ينفعك في دينك ودنيا: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْرِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١].

المقدم: وهذه النصيحة بـ(اقرأ) يستخدمها البعض أحياناً لينصح الشباب بأن يقرؤوا كل شيء، والبعض أحياناً كثير منهم للأسف يُجيدون عَرْض المعلومة، ويُجيدون الإلقاء بطريقة جذابة، فيُغرون الشباب مثلاً، أحدهم على سبيل المثال: ابتداءً سلسلة للرد على الملحدين، فابتداءً بعرض الإلحاد، ثم توقف وألحد بسبب السلسلة هذه أشخاص كثيرين، وبعضهم وقع في شكوك، الآخر مثلاً بالفلسفة

يُدخل الناس في كلمات مثلاً صعبة على أفهامهم، ويخرجهم، ويخرج مثلاً الأشخاص مثلاً بمصطلحات جديدة لا يعرفونها، ثم عندما امْتَحِنَ هو قَبْلَ أهل العلم الحقيقيين وُجِدَ أنه لا يعرف حتى الضرورات العقلية التي هي من أول ما يعرفه دارس مثلاً علم المنطق، مع أنه كان يتكلم في الفلسفة ويدخل في أمور عميقة جداً، فهؤلاء يُثيرون عدة شُبُهات، منها: لَمْ تَقَيِّدُون الشَّبابَ وتَحَرَّجُون عليهم أن يوسعوا أفقهم العلمي، وينفتحوا في الاطلاع بلا قيود، الدين ليس ضعيفاً يهتزُّ بأدنى شُبْهة، وهل إيمانكم ضعيف، ونحو ذلك، فكيف نُجيب يا شيخ صالح؟

الشيخ: الله المستعان، ما تفضلتم به فعلاً ومن العضلات المشكلة جداً في هذا الوقت، والمشتكى إلى الله ﷻ، ولكن دين الله ﷻ منصور، هو منصور ومُتَحَن، والدين منصور ومُتَحَن فلا تَعْجَب فهذه سُنَّة الرحمن

ما تفضلتم به هو في الحقيقة أو ما يُقال: شُبْهة داحضة، تعتمد على مغالطة منطقية تُسمى: مغالطة استدرار العاطفة، يعني هو يستدِرُّ عاطفة الإنسان بأنه كيف هل أنت ضعيف؟ لا، أنا لستُ ضعيفاً، إذاً اقرأ كل شيء، فهذه في الحقيقة ليست قضية علمية عقلية صحيحة، هذا تلاعب في الحقيقة بالألفاظ ليُهَيِّجَ العواطف في سبيل الوصول إلى ما يريد.

الجواب عن هذه الشبهة هو في خمسة أوجه مختصرة:

١. أولاً: دين الله ﷻ قوي، والخوف ليس عليه، إنما الخوف على الإنسان

الضعيف الذي وصفه مَنْ خلقه ﷻ بأنه ضعيف: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ

ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨].

٢. الأمر الثاني: نسأل صاحب هذه الشبهة: هل أنت تفترض العصمة

في هذا الإنسان القارئ؟

بمعنى: هل الانحراف الفكري العقدي الأخلاقي يمكن أن يقع؟ لا أظن عاقلاً

إلا وسيُجيب بالتأكيد: نعم، إذًا وصلنا الآن إلى المقصود، ونحن نعرف من أين

تأتي أسباب الانحراف، ونحدّر منها، والخطورة حاصلة، ونلمسها لمس اليد، ولذا

نحن نسأل الله ﷻ الثبات كل يوم، فإن مما يندرج في دعائنا: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ

الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] سؤال الثبات على الحق لله ﷻ.

والنبي ﷺ -وهو الرؤوف الرحيم بنا- كان يحذرننا عن فتن آخر الزمان، حتى

أخبر كما في «صحيح مسلم»^(١): «أنه يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، أو

يمسي مؤمناً ويصبح كافراً» يعني في ظرف عدة ساعات يمكن أن ينقلب دين

(١) رواه مسلم برقم (١١٨).

الإنسان، نسأل الله العافية والسلامة في آخر الزمان، وهذا شيء مع الأسف الشديد نلّمسه لَمَسَ اليد، نعرفه في أناس بأعيانهم مع الأسف الشديد.

إذاً: من أسباب الفتن في الدين: التعرّض لها مع الاتكال على النفس، والله المستعان.
٣. الأمر الثالث: قاعدة الشريعة، ونحن مسلمون نَحْتَكِمُ إليها: (كلما كانت الفتن منتشرة فينبغي أن يكون الخوف منها أعظم).

ومن أدلة هذا: دعاء إبراهيم عليه السلام، الذي حكاه الله ﷻ لنا: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، ثم بيّن السبب فقال: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضَلَّلَنَّا كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦] لاحظ أنه علّل دعاءه الذي يُنَبِّئُ عن خوف ووجل؛ أن الفتنة بالأصنام قد عظمت حتى ضلّ بها كثير من الناس، والسؤال: مَنْ يأمن البلاء بعد إبراهيم عليه السلام؟ ومن ينكر هذه الفتن التي عصفت بنا من كل جانب؟

٤. الأمر الرابع: أنا أقول: الخوف من الفتنة من علامات قوة الإيمان، وليس هذا من علامات الضعف، كلما قوّي الإيمان عظم الخوف عليه، وعظم الخوف من زواله، وعظم البُعد عن أسباب زواله، ولهذا - كما تقدّم - خاف إبراهيم عليه السلام؛ لأنه إمام الحنفاء، خاف على نفسه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، والله جل وعلا حكى عن الراسخين في العلم، فقال عنهم أنهم يدعون الله ﷻ بقولهم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا

وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ [آل عمران: ٨]، وقد سبق أن ذكرتُ: أن السلف لعِظم إيمانهم كانوا أشد شيء خوفاً على أنفسهم، وأشد حذراً من المضلّين؛ لقوتهم في إيمانهم، ولقوتهم في عقولهم، يعلمون خطر هذا الأمر، إذا لم كان كل هذا؟ الجواب: لأن الإيمان في نفوسهم عظيم، ولأنه لا مُزايَدة عليه، فأَيّ باب يُنفذ منه إلى الباطل، أو يُنفذ منه الباطل إلى القلب فإنه يتعيّن سُدّه.

٥. الأمر الخامس: اجتناب مواطن الشُّبهات، واجتناب الرعي في مراعيها، ليس ناتجاً عن ضعف في الدين، وإنما عن قوة كما تقدّم، كما أن فيه علاوة على ذلك توفير للعُمر، والعمر رأس مال الإنسان، وصرّفه فيما ينفع من علوم نافعة صافية من مهارات مفيدة، هو في الحقيقة العقل كل العقل، فما حاجتنا إلى قراءة ما قد يضر، أو لاستماع إلى مَنْ قد يضر، ما الحاجة إلى ذلك؟ والأوقات لو أنفقناها جميعاً في النافع المفيد ما أخطأ ببعضه، فكيف تُهدره فيما قد يضرنا في ديننا؟ والله المستعان.

المقدم: نريد أن نختم بأنهم ما يحتاجه الشاب والفتاة، الوصايا التي يُوصون أو تُوصيهم

بها في القراءة والاستماع من واقع خبرتك، بأي شيء ستُوصي الشباب والفتيات؟



الشيخ: حقيقة أحياناً أهمّ فقرة تكون هي الأخيرة، ويضيق الوقت فيها، الحقيقة: بين يدي عشرون وصية، ولكني أرى أن الوقت يُداهم، لعلي سأقتصر على رؤوس الأقلام - كما يقولون - وأسردها سرّداً، فما لا يُدرّك كله لا يُترك جلّه.

● **أول وصية حفظكم الله:** احذر من الغرور المعرفي، وتحلّ بالتواضع

المعرفي، أن تظن في نفسك أنك عالم بكل شيء، وأنتك تستطيع أن تُجيب عن كل شُبْهة؛ هذا خطأ كبير، لك حُدود فاعرفها، ولا تتعدّها، ليس أحد أحاط علماً بكل شيء، ليس عيباً أن تجهل أشياء، العيب هو أن تُقحم نفسك فيما لا تُحسن، مهما كان ذكاؤك قوياً فلن تستوعب كل شيء، كما أن قدرتك على حمل الأثقال محدودة، فقدرّة عقلك على حمل الأفكار محدودة.

● **الوصية الثانية:** اعرف عقيدة مَنْ تقرأ له، واعرف منهجه.

● **الوصية الثالثة:** احفظ زمانك، فإنه ثمين.

● **الوصية الرابعة:** اكتسب مهارة النقد، لا تكن متلقياً فقط، أيّ شيء

بعيد عمّا تعرفه في دينك من أصول اعتقادك، عليك أن تقرأه بقدر

كبير من الحذر، ولا تُسلم بكل شيء.

- الوصية الخامسة: تمسك بالأصول، الأصول التي تعرفها أركان الإيمان، أصول التلقي والاستدلال لهذه الشريعة، عليك أن تكون دائماً متمسكاً بها، القرآن والسنة هما الحق، وكل ما جاء به النبي ﷺ حق، وكل ما خالف ذلك فهو باطل، سواء عرفته على وجه التفصيل، أو لم تعرفه، هذه الأصول تمسك بها وأنت تقرأ، وأنت تستمع.
 - الوصية السادسة: اتخذ مستشاراً مأموناً يرشدك فيما تقرأ، وفيمن تستمع إليه، بماذا تبدأ، وبماذا تُثني، وبماذا تنتهي؟
 - الوصية السابعة: تدرج فيما تقرأ، واسلك المنهجية الصحيحة، ومن حُرِّم الأصول حُرِّم الوصول.
 - الوصية الثامنة: لا تستعجل، تريد أن تكون المثقف الكبير في يوم وليلة، هذا لا يمكن أن يكون، العلم إنما يُنال على مرِّ الأيام والليالي.
 - الوصية التاسعة: أكثر من الدعاء، دعاء الله ﷻ بالهداية وبالثبات، المقصود من هذه الثقافة والاطلاع: الوصول إلى الهداية، فاسألها من هي بيده.
 - الوصية العاشرة: كيف لا الكم.
- بمعنى: ليس المهم كم كتاباً قرأت، المهم ماذا استفدت، وإلا فقد تكون كثرة الكتب تزيدك حيرة على حيرتك.

- الوصية الحادية عشر: المعيار المعرفي وهو الوحيد، هو المصدر المأمون، هو الميزان الذي تُوزن به الآراء، هو الحرز المعرفي الذي يحرك من الأغلاط والأوهام المعرفية.
- الوصية الثانية عشرة: القراءة وسيلة لا غاية، حذار أن تنقلب الوسائل غايات.
- الوصية الثالثة عشرة: حصّن نفسك بالاعتقاد الصحيح، أولى الأولويات في هذا الزمان هو تحصين النفس بالاعتقاد الصحيح.
- الوصية الرابعة عشرة: دينك أغلى ما تملك، فحذار من المغامرة، لو كنت تمتلكه دُرّة غالية الثمن لن تجعلها مُلقاة على الطرقات، دينك والله أغلى من هذه الدرة الثمينة، إذًا عليك أن تكون حذرًا تمام الحذر أن تغامر بهذا الدين.
- الوصية الخامسة عشرة: لا يكون قلبك إسفنجية، أكثر القلوب -مع الأسف الشديد- صارت في هذا الزمان إسفنجية، بمعنى: أنها صارت مقرًا للشبهات، إن استطعت ألا تطالع إلا الحق المحض فافعل، إن استطعت ألا تقرّ إلا الصواب فافعل، فإن ابتليت فاجعل قلبك زُجاجيًا يطّلع على الباطل ويعرفه، لكن لا يتسرّب إليه، وحذار من أن يكون قلبك إسفنجيًا.

- الوصية السادسة عشرة: السعيد من وُعظ بغيره، كثير هم الذين تحبّطوا، بل كثير هم الذين تساقطوا، والسبب: استماع غير صحيح، أو قراءة غير صحيحة، إذًا حذارٍ أن تكون الساقط الذي يليه.
- الوصية السابعة عشرة: السلامة لا يعدلها شيء، فاحذر المغامرات المعرفية، والترّيف والاحتياط ليس جُبنًا، بل هو الشجاعة العقلية الصحيحة.
- الوصية الثامنة عشرة: حذارٍ من أن تحدعك التلييسات، والشعارات.
- الوصية التاسعة عشرة: القلوب ضعيفة، والشبه خطّافة، هذه حقيقة لا ينبغي أن تغيب عن ذهنك.
- الوصية العشرون وهي الوصية الأخيرة: الشُّهرة ليست معيار الثقة، المشهورون اليوم -مع الأسف الشديد- كثيرون، ولكن هذه الشهرة قد تكون ناتجة عن أسباب ليس منها الثقل العلمي، والتوسع المعرفي، كثير أو أقول: بعض المشهورين في الحقيقة هو خاوٍ من المعرفة، خاوٍ من العلم الأصيل، العلم الصحيح، ولذلك لا تجعل معيارك في القبول والتلقي للمعلومات والعلوم هو أنك أخذتها من شخص مشهور في وسائل التواصل، هذا في الحقيقة معيار غير دقيق.

المقدم: من أراد الاستزادة حول هذا الموضوع هل تقترحون عليه شيئًا؟

الشيخ: أنا في الحقيقة سأوصي بشيء هو ثمرة لكل ما سبق، أوصيك -يا رعاك الله- أخي المستمع الكريم بأن تجعل لك كتبًا قليلة عبارة عن أصدقاء لك، ما معنى أصدقاء؟ أن تكون قريبة منك جدًا تُطالعها باستمرار، تعيد النظر فيها مرة بعد أخرى، حتى إذا ختمتها أعد قراءتها مرة ثانية لعظيم ما فيها من فائدة، وإن كنت ستسألني هل تُرشح لي شيئًا؟ أجيبك: نعم سأرشح لك ثلاثة كتب، أتمنى أن تجعلها من الكتب الأصدقاء، من الأصدقاء لك:

١. أولًا: تفسير الشيخ ابن سعدي، أي شيء يُشكل عليك في فهم آية، أو تطلع تحب أن تطلع على معناها أجعل هذا الكتاب هو المصدر الموثوق عندك، وإن استطعت أن تقرأه من ألفه إلى يائه فأنا ضامن لك أنك ستستفيد فائدة كبيرة.

٢. ثانيًا: كتاب «الداء والدواء» لابن القيم رحمه الله، كتاب عظيم، لو كُتب بماء العين لكان فيه قليلًا.

٣. ثالثًا: كتاب «الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد» للشيخ صالح الفوزان حفظه الله تعالى.





الحلقة الثامنة عشرة

المنهج الصحيح في التعامل مع الشبهات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الشيخ: فموضوعنا اليوم - بتوفيق الله سبحانه - استكمال لما سبق في الحلقة الماضية. الشبهات - يا رعاكم الله - جمع: «شبهة»، ولها استعمالات متعددة، وتذكر في أبواب مختلفة، لكن مُرادنا الآن: الشبهة التي تتعلق بالعلم، و**حقيقة هذه الشبهة:** استدلال ممزوج بين الحق والباطل، وإن شئت فقل: هي الباطل الذي يُشبه الحق، وإن شئت فقل: هي الباطل في صورة الحق، وإن شئت فقل: هي إلباس جسد الباطل لباس الحق، وإن شئت فقل: هي كلام ظاهره الرحمة وباطنه العذاب، وكل ما سبق يدور على معنى واحد ألا وهو أنها استدلال يشوب فيه المبطلون الباطل بالحق، يُزخرفون الباطل حتى يخرج في صورة الحق، فيلبس الأمر على الجاهل.

المقدم: وربما يمكن في الحلقات الماضية فعلاً تطرقنا إلى الكثير من العناوين التي تدور حولها موضوع خطر الشبهات ونحو ذلك، إمّا عَرَضًا وإما بشكل مباشر، لو أيضاً نتعمّق أكثر، ونتحدث عن خطر الشبهات وإن كان من باب التذكير؟

الشيخ: التأكيد والتكرار في هذا الموضوع لا ينبغي استكثاره، فإن للشبهات خطراً وأي خطر، فإنها دِهْلِيز الفتنة ورائد الانحراف، والمِرْقاة إلى كل ضلال، إنها حقاً أعظم ما يكون خطراً، فإنها إذا وردت إلى القلب واستحكمت فيه فعلت فيه

الأفاعيل، فهل ألحد من ألحد أو ارتد من ارتد إلا بسبب الشبهة؟! وهل تفرقت الفرق إلا بسبب الشبهة؟ وهل خرج على أمة محمد ﷺ بالسيف، وقتل وفجّر وأزهب إلا بسبب الشبهة، وإذا كانت الشبهة ذات خطر قديماً فإنها اليوم أشد خطراً، إنها تفتك بالشباب والفتيات فتكاً، وما ذاك إلا لسهولة وصولها إليهم مع وسائل التواصل والاتصال، فإنها تنفذ إلى كل بيت، وتلج إلى كل حجرة، وتصل إلى من هو ملتحف بلحافه، ناهيك عن حُسن زخرفتها وجمال إخراجها وتعدد قوالبها، ثمّة مقروء، وثمّة مسموع، وثمّة مشاهد، هذه تغريده، وهذا منشور، وذاك مقطع، ربما برزت الشبهة في برنامج حوارى، ربما تحققت في مشهد تمثيلي، أو فيلم وثائقي، أو قصة، أو رواية، فإذا جمعت مع زخم حضورها تضخيم من يُلقِيها، ثم ضُمَّت إلى هذا ضعف الإيمان وضّالة التحصيل العلمي الشرعي، أدركت حينها حجم خطر الشبهة، وأنها صدقاً وباء العصر الفتاك الذي يبت الحيرة، وينشر الاضطراب، ويحل عرى اليقين.

الشُّبهة هي المسوغ للضلالة، وإلا فلو برزت الضلالة للناس بوجهها القبيح الذي لم يزخرف بشيء من الحق، فإنها لن تُقبل عليها النفوس، وهذا هو حقيقة اللبس الذي يقوم به أهل الضلال، وهو أعظم أسلحتهم التي تفتك بعقائد الناس وأديانهم؛ فإن كثيراً من الناس إنما يقفون عند الألفاظ، وتُبهرهم زخارفها دون أن

يكون منهم غوصٌ إلى الحقائق والمعاني، والله ﷻ يقول: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة: ٤٢]، لبسُ الحق بالباطل هو حقيقة إيراد الشبهات.

المقدم: ولعلكم تحدثتم عن الشبهات وكأنها هي ما يُسمونها: المنطقة الرمادية التي تكون بين الحق والضلال، وربما أيضاً النبي ﷺ في الحديث الذي تحدث وإن كان ربما من جانب فقهي «بينهما أمورٌ مُشْتَبِهَات»^(١)، أحياناً قد لا تتضح لكثير من الناس، فنأتي الآن إلى الموضوع الأهم: وهو المنهج الشرعي في تعامل المسلم مع الشبهات التي تتعلق بدينه، هذا هو سؤال الحلقة، ولو ندخل فيه.

الشيخ: الكلام هاهنا يتعلق بحالتين:

- الحالة الأولى: هي حالة العافية.
- الحالة الثانية: هي حالة الابتلاء.

أما حالة العافية من الشبهة يعني أنها ما وصلت إلى النفس، ولا ولجت إلى القلب، الواجب هاهنا: هُجْرانها والإعراض عنها تمام الإعراض، هذا واجب شرعي متحتّم، والله تعالى يقول: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [المائدة: ٥].

(١) رواه البخاري برقم (٢٠٥١)، ومسلم برقم (١٥٩٩).

والنبي ﷺ يقول كما في «صحيح البخاري»^(١): «والمهاجر من هَجَرَ ما نَهَى الله عنه». هذا الذي تحويه هذه الشبهة مما نهى الله عنه، فإن هذه الشبهات لا تخلو أن تكون إلا قولاً على الله بغير علم، أو لبساً للحق بالباطل، فهي مما نهى الله عنه قطعاً، إذاً واجب هجرانها، والله ﷻ يقول: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيءِ آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [الأنعام: ٦٨]، ﴿فَأَعْرِضْ﴾ فعل أمر، والأمر يقتضي الوجوب، وواجب على المسلم أن يُعرض عن الشبهات، بل أن يُتعد عن حماها، وألا يقرب مَرابعها أصلاً.

إِنَّ السَّلامَةَ مِنْ سَلَمِي وَجَارِقَا
أَلَّا تَحُلَّ عَلَى حَالٍ بِوَادِيَا
لا تدخل مواقع الضالين، ولا تتابع حسابات المشبوهين، ولا تقرأ كتب المنحرفين، ولا تشاهد مقاطع المخدولين ولا تطالع قنوات المفسدين، إذا كنت تفر من المجذوم فرارك من الأسد، فكيف بمجذوم القلب والعقل والدين؟
واعلم أن شرارة الشبهة إذا دخلت إلى القلب ربما أحرقتَه، فلا تغرنك دعوات التحرر والانفتاح، أو شهوة حب الاستطلاع، هذه مهارة يجب علينا أن نعود أنفسنا عليها، هي مهارة اسميها: مهارة طلب السلام، وصلك مقطع بالواتس، علمت أنه لأحد المضلين بكل ثقة وهدوء لا تفتحه، واحذفه، قد عافاك الله من البلاء، فلم تجلب الشر إلى نفسك؟ افعل هذا استجابة لله ولرسوله ﷺ، اسمع قول

(١) رواه البخاري برقم (١٠) و (٦٤٨٤).

ربك وائتمر بأمره، يقول سبحانه: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيءِ آيِنِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعَدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].

ونبينا ﷺ يقول كما في «الصحيحين»^(١): «إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللَّهُ فَاَحْذَرُوهُمْ»، احذروهم، فَعَلَّ أمر يقتضي الوجوب، هذا أمر نبينا محمد ﷺ الذي يجب علينا اتباعه، وهذه في الحقيقة هي الشجاعة، بعض الناس يظن أن هذا خَوْر وَجَبْنِ وضعف، لا والله، هذه هي الشجاعة العقلية المحموده، هذا دليل على قوة إيمانك، أن الإيمان عندك غالٍ وثمين، فأنت أحرص ما تكون على أن تحافظ عليه، ولذا تنأى بسمعك وقلبك أن يقرّ فيه شيء من الباطل، فيخاف من الشبهات، ويتباعد عنها إلا عظيم اليقين قوي الإيمان، شديد الخشية من الرحمن، ولا يتجرأ على أن يعرض يقينه للقدح إلا مَنْ هَانَ عَلَيْهِ دينه.

المهم أننا يجب علينا أن نستيقن أن الإيمان واليقين أعظم نعمة، والحفاظ على النعم واجب، وَمِنْ حِفْظِ هذه النعمة: عدم الإصغاء إلى الشبهة والنَّأْي عنها؛ فإنها

(١) رواه البخاري برقم (٤٥٤٧)، ومسلم برقم (١٨٢٢)، (٢٦٦٥).

خطافة، والقلوب ضعيفة، وما أحسن ما قال الإمام مالك رحمه الله: «مهما تلاعبت به من شيء فلا تلاعبنَّ بأمر دينك»، الشبهة وباء، ولا ينبغي التعرُّض للأوبئة، والسلامة لا يعدلها شيء، ومنع المبادي أولى من قطع التَّمادي، الشبهة نوع من الفتنة، وقد أخبر النبي ﷺ عن الفتن كما في «الصحيحين»^(١): «مَنْ تَشَرَّفَ لَهَا تَسْتَشْرِفُهُ»، كم من إنسان اغترَّ بعلمه وعقله، ولجأ إلى موقع، أو استمع إلى مُلَبِّس، فوقع في صدره شبهة فلم تخرج منه، بل فرعته وفعلت به الأفاعيل، هذا كله كان عن حال العافية.

المقدم: قبل أن تنتقل إلى حال من وقع فيه الشبهات ونحو ذلك، في الحلقة الماضية تحدثنا عن قضية (فوضى القراءة) وذكرتم أنه أعظم الناس إيماناً و يقيناً في القرآن الكريم يدعون الله ﷻ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨] فهذا ربما مثل ما ذكرتم أن الإنسان لا يغتر، ويظن أنه من الشجاعة أن يُقحم نفسه مثلاً في مجال الشبهات؟

الحالة الثانية: حال الابتلاء، وهذا يقع كثيراً مع الأسف الشديد، تأتي رسالة، أو يقع الإنسان على مقطع، يقرأ تغريدة، وربما دون أن يكون منه قصد إلى مطالعة

(١) رواه البخاري برقم (٧٠٨١، ٧٠٨٢)، ومسلم برقم (٢٨٨٦٢).

الباطل لكن الشبهة قد دخلت إلى القلب، وبدأت تؤثر فيه، فما الذي ينبغي على الإنسان أن يفعل حينئذ؟ الذي يبدو -والله أعلم- أنه ينبغي عليه سبعة أمور:

١. الأمر الأول: على أن من ابتلي بهذا أن يقوى ولا يضعف، أن يثبت ولا يسقط، أن يتماسك ولا يهتز، أنت -يا أيها المسلم- قد وفقك الله إلى الحق إلى التوحيد إلى اتباع السنة، لا ينبغي أن تعصف بك كل شاردة وواردة، هذه الشبهة ولتبقى شبهة، وتزول بتوفيق الله وإعانتته، لا تكن ضعيف القلب يؤثر فيك كل شيء، كن قوياً متماسكاً، اعلم أن ورود الشبهة ليس دليلاً على صحتها، ولا حسن سبكها أمانة صدقها، ولا عدم علمك بالجواب عنها دليلاً على انتفاء وجود الجواب، إذًا عليك أن تكون قوياً متماسكاً أمامها.

٢. الأمر الثاني: الجأ إلى الله بصدق وإخبات، عجل بهذا، اطلب الهداية من أزمة الأمور بيديه، والهداية والإضلال منه، الجأ إلى الله بصدق وأبشر بالخير، فإن الله يهدي من أناب، ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ﴾ [الرعد: ٢٧]، إن صدقت الله صدقك الله، وأزال عن قلبك ما اعتراه، حذارٍ من أن تتكاسل في هذا الأمر، تظن أن الأمر سهل متسوّف، كم من شخص وقعت في نفسه الشبهة

فسوّف، وما دعا الله بصدق بإزالتها فصرعته، ربما تعلق قلبه أيضاً بالعلماء وطلبة العلم كي يزيلوا هذه الشبهة عن قلبه أكثر من تعلقه بالله، وهذا من ضعف الإيمان والتوحيد، فالأمر كله بيد الله، والخير كله منه، اجعل فقرك واحتياجك إلى الله، والجأ إليه بصدق واضطرار، وأبشر بالخير، لن يخذلك الله، فهو الكريم الرحيم سبحانه.

٣. الأمر الثالث: عليك ألا تسترسل معها، وألا تكثر تثليلها في قلبك، بعض الناس إذا سمع بشبهة وبدأت تؤثر في قلبه، بدأ بالنظر فيها وتحليلها وتطويرها والتفريع عليها، ويجد الشيطان مدخلاً عليه من هذا الجانب، وإذا بالحبة - كما قيل - : تصبح قبة، وما هكذا المنهج الشرعي، عليك أن تُخمدتها بعدم الاسترسال معها، فلربما كانت عارضاً ووسوسة من الشيطان، وتزول عن قريب بإذن الله.

٤. الأمر الرابع: إياك أن تحكيها لأحد، لا تنشرها عند جلسائك، لا تكن سبباً في أن يتضرر غيرك كما تضررت، من الخطأ إذا جاءت الشبهة أن يكتب الإنسان في مجموعة يدخلها الصغير والكبير، ويقول: يا جماعة! ما جواب هذا الإشكال؟ أنا أشكل علي هذا

الأمر؟ هذا لا يصلح، بهذا الأمر أنت تجعل الباطل يروج، إنما عليك أن تكف عن حكايتها لغيرك.

٥. الأمر الخامس: عليك أن تذهب إلى الأطباء لتطلب العلاج، لو أصبت في بدنك بقليل أو كثير بادرت مباشرة إلى الأطباء، وهذا أمر حسن، ولكن ما يصيب قلبك أخطر، وضرره أعظم، الأطباء هاهنا هم العلماء وطلبة العلم الراسخون، عليك أن تذهب إليهم، وأن تطلب منهم الجواب الشافي، ونييك ﷺ قد قال: «**إنما شفاء العي السؤال**»^(١)، والله ﷻ يقول: «**وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ**» [النساء: ٨٣] وأولو الأمر هاهنا هم: العلماء، «**فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**» [النحل: ٤٣]، إذاً عليك أن تذهب إلى عالم أو طالب علم متمكن تظن أن عنده قدرة على جوابك عنها، تسأله ويُرِيل عنك الشبهة بتوفيق الله.

(١) رواه أبو داود برقم (٣٣٦)

وَأُنَبِّهُ هُنَا: إلى أن كثيراً من الناس اليوم، أول ما تَرَدُّ عليه شبهة لا يعرف جوابها، فإنه يبحث عن الجواب في النت، يكتب في (جوجل)، يكتب في (يوتيوب)، مسألة كذا جواب كذا، وأرى أن هذا أمر ينبغي التعامل معه بقدر من اليقظة والانتباه، ليس المهم أن تجد جواباً، المهم أن تجد جواباً صحيحاً من مصدر موثوق، يفيدك ولا يُعمِّق الشبهة في نفسك، فالوصية التي أوصيك بها: تعامل بقدر من الحذر مع من لا تعرف في فضاءات الشبكة.

٦. الأمر السادس: مهما يكن من شيء فعليك أن تستمسك بالأصول، وأن ترجع إلى القواعد، وأن ترد المتشابه إلى المحكم، فهذا نافع جداً لك.

٧. الأمر السابع والأخير: تمسك بالجواب المجمل على كل شبهة، ما هو هذا الجواب المجمل؟

هذا الجواب المجمل هو: معرفتك للحق كافية في معرفة بطلان ما خالفه، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢] أي: أنه لا يلزم لمعرفة بطلان الشبهة معرفة ما ينقضها على وجه التفصيل، إنما يكفي معرفة أنها شيء يُعارض الحق.

بمعنى: الباطل يعرف من طريقين، من خلال معرفة القادح الناقد الذي يبطل الباطل، وهناك طريق أخرى، وهي أن تعرف الحق، إذا كل ما ناقض الحق فهو

باطل، وعليه فإذا أتاني مُكَبِّسُ بشبهة تتعلق بالربوبية بالنبوة بالقرآن بالسنة بالأحكام، وأنا لا أعرف جوابها، سأقول له وأنا مطمئن: أنت أتيتني بشيء أنا لا أعرف جوابه تفصيلاً، هو عندي مُشْتَبِه، ولا مشكلة في أن يبقى مُشْتَبِهًا، لكنني أقطع أنه باطل، والدليل أنه معارض للحق، ولا يمكن أن يكون شيء يعارض الحق إلا وهو باطل، هذا هو الجواب المجمل النافع.

وكل ما سبق هو في حق عامي أو مبتدئ، أما بالنسبة للعلماء وطلبة العلم الراسخين، فإن المتعين في حقهم أن ينهضوا إلى كشف الشبهات ونقضها مع مراعاة الحكمة في ذلك، وهنيئًا لمن وَفَّقَهُ اللهُ لِيُذَبَّ عَنْ دين الله، عن كتاب ربنا، وعن سنة نبينا محمد ﷺ.

المقدم: ذكرتم من الحلول خامس الحلول: اذهب للأطباء لطلب العلاج من أهل العلم الراسخين، وكثير من الناس ربما يتجه مباشرة إلى مثل ما ذكرتم إلى الشبكة العنكبوتية، ويدخل على المواقع بحثًا عن إجابة، فما أدري إذا كان لديكم في لجنة يقين مثلاً منصة تستقبلون من خلالها أسئلة الشباب، أو يوجد مثلاً فيها أبرز الأسئلة الشائعة مثلاً في العقيدة ونحو ذلك؟

الشيخ: نعم عندنا رقم واتس -حفظكم الله- وعندنا أيضًا بريد إلكتروني نستقبل من خلالهما الأسئلة، ونجواب عليها بقدر الإمكان.

المقدم: نتقل إلى السؤال القادم وهو أمر مهم قضية: الأولى في موضوع الشبهات، هل ينشرها الإنسان بين الناس من باب مثلاً تداول المعرفة، أو من باب البحث عن حل -مثلما ذكرتم-، أم أنه يجب على الإنسان أن يكتمها؟

الشيخ: الذي يبدو -والله أعلم- أن الذي ينبغي هاهنا التفصيل: تارة تكون الحكمة في أن يمات الباطل بإخماد ذكره وإخمال ذكره، وفي هذا يقول العلماء: «الإعراض عن القول المَطْرَحَ أخرى لإماتته وإخمال ذكره»، وهذا مسلك صحيح في محله، والمسلك الآخر صحيح في محله.

بمعنى: عدم ذكر الشبهة وعدم التنبيه عليها، وغض الطرف عن الكلام فيها هذا متعين في حال ما إذا كانت الشبهة إذا كان الباطل مغموراً خاملاً لم ينتشر في الناس، أما إذا انتشرت أعني الشبهة وكان لها رواج فإن الذي ينبغي التنبيه عليها في مقام الرد عليها، وليس التنبيه عليها تنبيهاً مجرداً، إنما يُنَبِّه عليها في مقام الرد عليها، تذكر بأن من لازم ردها ذكرها.

المقدم: نتقل إلى قضية نقض الشبهة والرد عليها، سواء كان ردّاً عاماً، أو حوار خاص مع شخص مثلاً لديه هذه الشبهة أشكلت عليه، إن كان هناك من ضوابط حول موضوع نقض الشبهات؟

الشيخ: نعم لا شك أن هذا الأمر منضبط، وضوابطه من وجهة نظري سبعة، وهي:

١. أولاً: أن تكون الشبهة - كما قدّمتُ - منتشرة بالفعل، إذا أراد أن

يردها ردّاً عامّاً، ينبغي أن تكون موجودة، وأن يكون لها تأثير ورواج، والكلام فيها قد كثر، فمثل هذا ينبغي أن يحذر منه.

٢. الأمر الثاني: أن يسبقها تأصيل الحق، أن يسبق هذه الشبهة وبيّانها تأصيل الحق.

من الأمر الذي ينبغي أن يلاحظ: هو أن الرد على الباطل لا بد أن يسبقه بيان للحق حتى يكون بيان الباطل بعد ذلك وتعريته في محله.

٣. الأمر الثالث: أن يكون الرد على الشبهات ممّن هو متأهل لهذا المقام، عالم طالب علم متمكن عنده قدرة علمية على أن يرد، أما الجاهل فليس له أن يخوض في هذا المضمار البتّة، ليس المقام مقامه، مع الأسف الشديد هذا يقع كثيراً، أن تُردّ الشبهة من جاهل، وإذا به يزيد المستشكل استشكالاً ومرضاً إلى مرضه.

إذاً: أنت يا أيها الأب، أيها الأم، أيها المعلم، الصديق، إمام المسجد، إذا جاءك صاحب الشبهة قد أصابته الحيرة، فاشمله بالرفق وسعة الصدر، عامله

باللطف والأناة، فإن المطلوب إقناعه لا إفحامه، وإقباله لا إدباره، إذا جاءك مستشكل عليك أن ترحب به، وحذارٍ من أن تقابله بالتهجُّم أو السب أو النهر، فإنه قد ينفر نفورًا لا رجعة بعده، ثم إن كان عندك الجواب القاطع والبلسم الشافي فاستعن بالله، ولا تستكثر جهدًا ولا وقتًا، فهذا باب من أعظم أبواب البذل في سبيل الله، ونصرة شريعته.

أما إن لم تكن فارس هذا الميدان فاتق الله فيه، ولا تُعمِّق بضعف جوابك الشبهة في نفسك، وإنما خُذْه إلى عالم جوابه يروي الغليل.

٤. الأمر الرابع: لا بد أن يكون الرد على الشبهة قويًا مُحْكَمًا، بحيث أن أنواره تزيل كل ظلمة في القلب كانت منها، الذي لا يقوم بهذا وإنما يُرد على هذه الشبهة كما يقولون: من رأس القلم، بكلمات مقتضبة لا تشفي ولا تروي، مثل هذا ما أدى حق الإسلام عليه، ولا حصل بكلامه الشفاء، إنما ينبغي أن يكون الرد في غاية الإحكام والقوة، جهة الأسلوب من جهة المادة العلمية، هذا من المهمات التي ينبغي العناية بها.

٥. الأمر الخامس: ملاحظة المصلحة في مسألة الإجمال أو التفصيل في ذكر الشبهة، فإن هذا المقام يحتاج إلى فقه.

٦. الأمر السادس: لا بد أن يكون الرد على الشبهة عَقيب إيرادها مباشرة، ولا يصح تأخير هذا، لا ينبغي أن تكون الشبهة نقدًا، وأن يكون الجواب نسيئة، فإن هذا من الخطأ الكبير.

٧. الأمر السابع والأخير: إن كان الحوار حوارًا خاصًا مع من سأل عن شُبْهة، فينبغي التفريق بين الإنسان السليم وبين المصاب بمرض نفسي أو وسواس قهري، فإنه بالتبعية والممارسة اتضح أن كثيرًا من الشبهات والإشكالات يسأل عنها أناس عندهم مشكلة نفسية أصلاً، ومن عنده مشكلة نفسية ربما لا يحتاج إلى علم يزيل الشبهة، بقدر حاجته إلى علاج نفسي، هذا باختصار شديد فيما يتعلق بالضوابط المتعلقة بهذا الموضوع.

المقدم: ننتقل إلى ربما السؤال الأهم في حلقة اليوم، كثير من مستمعي ومستمعات الإذاعة ما شاء الله تبارك الله على قدر كبير من الوعي، ولكن السؤال هو: ما الإجراءات التحصينية التي تنصح أن تلاحظ عند تربية الناشئة للوقاية من تأثير الشبهات على الإيمان، سواء على الشباب، أو الفتيات خاصة في مرحلة المراهقة، أو في مُقْتَبَل العمر؟

الشيخ: هذا الموضوع من أهم الموضوعات وكنت أرغب أن نخصه بحلقة خاصة مستقلة ولعل الله أن ييسر هذا مستقبلاً.

لكن أُلْحِصْ الآن -بعون الله- مهمّات في هذا الموضوع، وقبل ذلك أُنبِّه إلى تنبيهات ثلاثة:

١. أولاً: المقصود بالإجراءات التحصينية: السعي في إكساب الناشئة والشباب حراسة حول عقولهم وقلوبهم، تحميهم بتوفيق الله من عواد الشبهات وآثارها الخطيرة، والغاية هنا وصولهم إلى ذوق طعم الإيمان ووجدان حلاوته، ومن خالطت بشاشة الإيمان قلبه، واستضاء بأنواره فلن يتزحزح عنه قيد شعره.

٢. ثانياً: ما يدفعنا إلى التعاون في هذا الباب الرغبة في هداية الشباب والرحمة بهم، ليس التسلط عليهم، هذا مقام إيماني عظيم، فإنَّ الحرص على هداية الخلق طريق الأنبياء **عليهم الصلوة والسلام**، ديننا إذا كان له الصدارة في قلوبنا واهتماماتنا، بذلنا له جهودنا، وأوقاتنا ونحيانا ومماتنا.

٣. الأمر الثالث والأخير: لا بد من فهم نفسيات شباب اليوم، اليوم الشباب ليسوا هم الشباب قبل ثلاثين سنة، نفسياتهم تغيرت، لغتهم

تغيرت، طرائق تفكيرهم، تعاطيهم مع القضايا تغيرت، مشاعرهم تجاه أنفسهم والآخرين تغيرت، أشياء كثيرة فيهم تغيرت، إذاً لابد أن نؤكد هذا التغير، ونحسن الحوار والتعامل معهم.

◀ بعد هذه التنبيهات نأتي إلى الوسائل أو الإجراءات كما تفضلت:

• أولاً: وأنا بين يدي عشر وسائل، أودُّ أن نضعها نصب أعيننا:

أول ذلك: الحرص على البراهين، وبالذات في أربعة موضوعات:

١. براهين ربوبية الباري ﷻ وعظمته.

٢. براهين نبوة نبينا محمد ﷺ.

٣. براهين صحة القرآن.

٤. براهين كمال هذا الدين القويم.

وقد طرحنا سابقاً في هذا البرنامج طرفاً مما سبق.

من البرامج المرشحة لهذا المقام: قراءة كُتبيات نافعة جداً، ومكتوبة بأسلوب شيق سلس، قراءتها بصورة فردية أو جماعية في المنزل بتجمعات العائلة أو الأصدقاء، هذه الكُتبيات هي للشيخ عبد الرحمن بن سعدي، صاحب التفسير المشهور ﷻ، وهي «البراهين العقلية على وحدانية الرب ووجوه كماله»، و«أصول العقائد الدينية»، و«الوسائل المفيدة للحياة السعيدة»، و«الدُّرة المختصرة في محاسن دين الإسلام»،

و«الدين الصحيح يحل جميع المشاكل»، و«القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين»، وأخيرًا «النصيحة الربانية»، كل هذه الرسائل للشيخ ابن سعدي رحمته الله. كما أن (لجنة يقين) قد أنتجت بفضل الله مجموعة أحسب أنها مفيدة في هذا الباب، موجودة في موقع الـ(يوتيوب)، بعضها بطريق (موشن جرافيك)، وبعضها مقاطع عادية، يجدها من أرادها في قناة (يقين لنقد الإلحاد واللا دينية) في (يوتيوب).

● ثانيًا: إحياء التفكير.

التفكير الصحيح عبادة عظيمة، تكثر الغفلة عنها مع الأسف! فلا بد من تعويد الناشئة عليها، وأخصّ في هذا المقام التفكير بثلاثة أمور:

١. الأمر الأول: التفكير في معاني القرآن؛ لتتعود أن نفهم كل يوم شيئًا

جديدًا من القرآن، ولو معنى كلمة واحدة، إلى متى نكرر كل يوم:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا

وَقَبَ ۝﴾ [الفلق: ١-٣]، الإنسان لا يعرف ما معنى (غَاسِقٍ) ولا

(وَقَبَ)، إلى متى؟ لماذا لا يكون عندنا حرص على أن نفهم القرآن

ونتدبره، وعندنا التفسير الذي أوصيْتُ به في الحلقة الماضية، تفسير

الشيخ ابن سعدي، أو التفسير الميسر الذي أصدره مجمع الملك فهد

لطباعة المصحف، أو غير ذلك من هذه التفاسير القيمة الموثوقة.

٢. الأمر الثاني: التفكير في معاني الأسماء الحسنى، وأُرشِّح في هذا كُتُبًا هو

«تفسير أسماء الله الحسنى» للشيخ ابن سعدي رحمته الله أيضًا.

٣. الأمر الثالث: التفكير في الآيات الكونية، إما بالمشاهدة المباشرة، أو

عن طريق المقاطع وما أكثرها في الشبكة، وأنا أقول: شبابنا غارق مع

هذه الوسائل وقابع في هذه الشبكة أكثر وقته، لماذا لا نشغلهم في

هذه المقاطع التي تزيد يقينهم، وتُعمل فكرهم في هذا الأمر العظيم؟

● ثالثًا: تحذيرهم من منافذ الشر وأصول الأفكار التي ينفذ المبطلون من

خلاله، وقد طرحنا في برنامجنا هذا بعضًا منها.

● رابعًا: الاطلاع على أخبار المهتدين إلى الإسلام وقصصهم قديمًا

وحديثًا، وفي الشبكة ما لا يُحصى من هذه المقاطع، وأذكر هاهنا

بقول النبي ﷺ: «ثلاث من كُنَّ فيه وجد بهنَّ حلاوة الإيمان: من

كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا

الله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره

أن يقذف في النار» والحديث في «الصحيحين»^(١)، معرفة أخبار

من أسلم وكره الكفر يقربك من وجدان حلاوة الإيمان، وهذا مجرب.

(١) رواه البخاري برقم (١٦، ٢١، ٦٠٤١، ٦٩٤١)، ومسلم برقم (٤٣).

● خامساً: تعظيم قدر الدين في نفوسهم مُنْذُ الصغر، ينبغي علينا أن نغرس في نفوسهم أن الدين أول شيء، وأهم شيء، وأثن شيء، بل هو كل شيء، هو المقدم وكل شيء يأتي بعده.

● سادساً: غرس الجواب المُجمل في نفوسهم، وهو ما سبق بيانه، لا بد من تعليمهم إيّاه، لا بد من تعميقه في نفوسهم؛ فإنه حاجز بإذن الله ﷻ عن وصول الأفكار الضالة إلى عقولهم.

● سابعاً: تعويدهم على مهارة طلب السلامة، وهو ما سبق الكلام عنه في هذه الحلقة.

● ثامناً: محاولة تعريفهم بالحكمة في تشريع الأحكام قدر الإمكان، فهذا مما يزيدهم يقيناً.

والحكمة قد سبق كلامنا فيها في حلقات ماضية، **والخلاصة:** معرفتها بآحاد وتفصيل الأحكام الشرعية، معرفتها تزيد الإيمان، والجهلُ بها لا يُنقص الإيمان، بل التسليم بلا معرفة حكمة يزيد الإيمان من وجه آخر، إذًا هنا وهنا أنت يزداد إيمانك. ومما أُرشِّحه في هذا: مصنفات الشيخ ابن عثيمين رحمه الله، وقد كان رحمه الله مُعتنياً ببيان الحكمة في تشريع الأحكام، فلو التُمتست من كلامه.

● تاسعاً: يا حَبْدَا أن نحرص على انتقاء صحبة صالحة لأبنائنا وإخواننا، ولا أَكْتَمَك سِرًّا إن قلت: هذا أصعب شيء مما ذكر هنا، يا ليت أن الصحبة الصالحة التي لا إفراط عندها ولا تفريط، تُشتري بالمال، والله لاستحقت دفع الغالي والرخيص، وعلى كل حال فلنسعى، والتوفيق بيد الله.

● عاشراً وأخيراً: مهما بذلنا من أسباب في هذا المضمار، فيبقى السبب الأهم، والذي قد نغفل عنه: الدعاء، إذّا الدعاء، ثم الدعاء، ثم الدعاء، والله تعالى أعلم.

المقدم: من أراد الاستزادة حول هذا الموضوع تقترحون عليه شيئاً شيخ صالح؟
الشيخ: أقترح عليه صفحتين أو ثلاثة هي مقدمة كتاب عظيم هو «كشف الشبهات» لإمام الدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمته الله، هذه مقدمة وصل فيها إلى الجواب المجمل، أتمنى أن تُقرأ؛ فإنها تستحق جداً أن نعتني بها، أتمنى من الإخوة قراءتها.





الحلقة التاسعة عشرة

التعامل مع اختلاف العلماء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الشيخ: فلمَ الحديث عن هذا الموضوع؟

الجواب: لأنه صار موضع تساؤل، بل مصدر تشويش وتشكُّك، خاصة مع ظهور الخلافات في وسائل التواصل والإعلام المختلفة، فصار كثير من الناس لا يعرف أمام هذه الخلافات إلى أين يتجه، ربما يتبادر إليه السؤال: لمَ يختلف العلماء، ونتبع مَنْ، بل ربما تطور الأمر ببعض ضعف الإيمان إلى أن يسيء ظنه في الشريعة، وأن يتهمها بالاضطراب لأنه يظن أن الخلاف راجع إلى الشريعة نفسها، وهذا بلا شك ظن خاطئ، والواقع أن أساس الخلاف راجع إلى المختلفين لا إلى الشريعة، كما سيتبين بعد قليل -إن شاء الله-.

ناهيك عن أن بعض الناس أخذ به موضوع الخلاف إلى مَنْحَى بعيد بسبب خطأ في تصوره، وصار لا يفهم من كلمة الخلاف حيث وردت إلا التسهيل، وهذا قد يُجرُّ إلى خطأ في العبودية، إذاً طرحنا لهذا الموضوع دَعَت إليه الحاجة إلى تَحْلِيلِهِ وفهمه الفهم الصحيح بلا إفراط ولا تفريط.

المقدم: نبدأ بالسؤال أيضاً الذي يَرِد على ذهن كثيراً، ربما في هذا الموضوع، هو: لماذا يختلف علماء المسلمين مع أن مصدرهم واحد الكتاب والسنة؟ ألا يفترض أن يكون رأيهم واحد بناء على المصدر الواحد الذي يستقون منه؟

الشيخ: الخلاف واقع، وجوده لا يُجحد، لكن ينبغي أن يتقرر عندنا ابتداءً: أن وجود الخلاف ليس مرجعه إلى الشرع، وليس ناشئاً منه، بل مرجعه إلى العلماء وإلى اختلاف ما أعطاهم الله ﷻ من الفهم والإدراك، وليس يخفى أن الشرع قد حثَّ على الاجتماع وترك التنازع والتفرق لما يؤدي إليه من عواقب وخيمة، الله ﷻ يقول: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، والنبي ﷺ يقول كما عند البخاري^(١): «لا تختلفوا، فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا». إذاً نستخلص مما سبق: أن الخلاف مقدّر وقوعه بين المسلمين كوناً، إلا أن المطلوب منهم السعي في إزالته قدر الإمكان، الاتفاق خير منه، وإذا وقع الخلاف، واتقى الجميع الله تعالى، وتحروا بلوغ الحق، فإنه لن يكون هذا الخلاف حينئذٍ مدعاة للتفرق وشتات الأمر وتولد الأحقاد.

◀ الخلاف بين العلماء له أسباب، أهمها في نظري أمران:

١. النظر الأول: أن الله ﷻ خلق الخلق، وجعلهم ذوي قدرات عقلية مختلفة، فأفهامهم متفاوتة من جهة حُسن الاستيعاب والاستنباط والترجيح، ولو كانوا قلوباً واحداً متساوياً ما اختلفوا، وعليه فقد يظهر لزيد من وجوه الاستنباط ما لا يظهر لعمرو.

(١) رواه البخاري برقم (٢٤١٠، ٣٤٧٦).

٢. النظر الثاني: -وهو تابع للأول-: أن الله ﷻ لم يجعل الأدلة على درجة واحدة بالوضوح والقطعية، وإنما فيها ما دلالة قطعية، وفيها ما دلالة ظنية، كما أن الأدلة متفاوتة في ثبوتها، فمنها ما هو قطعي الثبوت، ومنها ما هو دون ذلك، ولذا تتفاوت أنظار الفقهاء في فهم الأدلة وفي الاستنباط منها وفي قبولها وفي تطبيقها على الواقع أيضاً، إذا وقوع الخلاف يتسق مع طبيعة البشرية التي تقتضي النقص والضعف، ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]، وهذا في الحقيقة ليس مقصوراً على علماء الشريعة، الأطباء يختلفون، والفلكيون يختلفون، واللغويون يختلفون، وهلمَّ جرَّاء، وربما كان في المسألة دليل لم يبلغ هذا العالم، أو بلغه ثم نسيه، أو بلغه وحفظه لكنه أخطأ في فهمه وفي الاستنباط منه، فلأجل كل ذلك شاء الله ﷻ وقوع الخلاف بين أهل العلم.

ولعلنا نتلمس بعض الحكم لوقوع الخلاف بين علماء الإسلام سلفاً وخلفاً.

- الأمر الأول: أن وقوع هذا الخلاف يجعلنا نستيقن أن من له العلم الكامل هو الله ﷻ وحده، فهو ﷻ المتفرد بالكمال المُنزَّه عن كل نقص.

- **الأمر الثاني:** وقوع هذا الخلاف يحفز للاجتهد والبحث والتنقيب عن الصواب، وهذا باب من أبواب اكتساب الأجور.
- **الأمر الثالث:** وقوع هذا الخلاف يدعونا إلى عدم الغلو في العلماء، فإنهم يصيبون ويخطئون، وهذا لا نعرفه إلا حينما يقع الخلاف، الاختلاف يعني إصابة بعضٍ وخطأ آخرين.
- **الأمر الرابع:** حصول هذا الخلاف اقتضى حصول سعة للعلماء المجتهدين من بعد، وذلك أن يجتهدوا في النوازل، وأن يبحثوا عن الحلول المتوافقة مع الشريعة من بين أقوال العلماء المختلفة، ولو كانت المسائل كلها إجماعية لم يكن ثمة مجال للنظر والاجتهاد.
- **الأمر الخامس والأخير:** وجود الخلاف بين العلماء كان نافعا جدا في بناء الشخصيات العلمية الاجتهادية، فالخلافات الفقهية والمطارحات الاستدلالية والجدل العلمي الرصين كان نافعا جدا في تأهيل العلماء، وصقل أذهانهم، وشحذ أفهامهم، ولذا كان الاطلاع على الخلاف الفقهي بين العلماء من مؤهلات العلماء التي يعتنون بها، حتى قال قتادة بن دعامه رضي الله عنه -وهو أحد التابعين-: «مَنْ لَمْ يَعْرِفِ الْاِخْتِلَافَ لَمْ يَشْمِ أَنْفُهُ الْفَقْهَ».

المقدم: وربما هذا فيما يخص الخلاف نفسه ووقوعه، لكن نحن عندما ننظر إلى هذا الخلاف الذي يقع بين العلماء، هل هناك ضوابط معينة نستصحبها، أو عدسة ننظر من خلالها لخلاف العلماء؟

الشيخ: نعم بين أيدينا مجموعة من الضوابط، ننتقي منها عشرة أرى أنه لا بد من أن تكون نصب أعيننا حين النظر في كلام العلماء واختلافهم.

١. **الضابط الأول:** الخلاف بين العلماء الذي نبحت فيه هو الخلاف

بين علماء أهل السنة الذي هو خلاف فقهي لا يقدر في وُحدَتهم الحقيقية، نحن نتكلم عن خلاف فقهي، أما العقيدة ومسائل التوحيد فأهل السنة في الجملة متفقون عليها، وليست محلًا للخلاف.

٢. **الضابط الثاني:** الخلاف مقدر كونًا لحكمة بالغة.

اختلاف علماء المسلمين لم يكن دافعًا اتباع الهوى أو الزيف، إنما هي حكمة إلهية، ولها أسباب سبقت الإشارة إلى بعضها.

٣. **الضابط الثالث:** مسائل الشريعة قسمان: متفق عليه، ومختلف فيه.

معرفة هذا شيء مهم، فبعض الناس من كثرة ما يسمع كلمة الخلاف، يظن أن كل شيء مختلف فيه، وهذا ليس بصحيح، ثمة مسائل إجماعية كثيرة، ثمَّ المسائل الخلافية فيها مسائل الخلاف فيها معتبر، وفيها مسائل الخلاف فيها شاذ.

٤. الضابط الرابع: الحُكم فيما اختلف فيه الناس واحد يعلمه الله سبحانه، يُصيبه مَنْ يُصيبه، ويُخطئه مَنْ يُخطئه، أي: أنه إذا اختلف العلماء في معاملة مالية مثلاً، فبعضهم قال: حلال، وآخرون قالوا: حرام، فإن الصواب فيها واحد في علم الله، من أصابه فهو المصيب وله أجران، ومن أخطأه فهو مخطئ وله أجر واحد، ولذا القاعدة في هذا المقام هي: (ليس كل مجتهد مُصيباً، ولكل مجتهد نصيب)، (ليس كل مجتهد مصيئاً) يعني: مُصيباً للحق، (ولكل مُجتهد نصيب) أي: له نصيب من الأجر.

٥. الضابط الخامس: الواجب على كل مسلم أن يسعى لمعرفة الحق والعمل به في مسائل الاتفاق أو الخلاف، القصد يجب أن يكون معرفة مراد الله ورسوله ﷺ والعمل به، هذا قدر لا مساحة فيه، ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣].

٦. الضابط السادس: اختلاف العلماء يدل على اتفاقهم، لم؟ لأن أساس اختلافهم راجع إلى أن كل واحد منهم يريد الوصول إلى معرفة مراد الله ورسوله ﷺ، وإلى اتباع ما يحبه الله، وعليه فهم متفقون على

هذه الغاية، فلم يُجاملوا غيرهم ويوافقوهم على ما هم عليه على حساب اتباع الحق، إذا صار اختلافهم في المسائل العلمية دليلاً على اتفاقهم على ما هو أعظم، ألا وهو اتباع الحق، وتحكيم الشريعة، وتقديم التقوى على الهوى.

٧. **الضابط السابع:** الظن في علماء المسلمين الذين لهم قَدَمٌ صدق في هذه الأمة أنه لا يعتمد أحد منهم مخالفة الحق، ومعاودة أدلة الكتاب والسنة، وهذا ما عُرف باستقراء أحوالهم، وعُرف من خلال الاطلاع على حسن ديانتهم وعدالتهم، وهذا ما يقتضيه إحسان الظن بهم.

٨. **الضابط الثامن:** لا أحد من الناس يجب قبول قوله قبولاً عاماً في كل زمان ومكان، إلا رسول الله ﷺ، أما من سواه فكل أحد يؤخذ من قوله ويترك، وما أحسن ما قال ابن عباس رضي الله عنهما كما عند الطبراني: «ليس أحدٌ ألا يؤخذ من قوله ويُدع غير النبي ﷺ».

وقال مالك رحمه الله: «مَا مِنَّا إِلَّا رَأْيٌ وَمَرْدُودٌ عَلَيْهِ، إِلَّا صَاحِبُ هَذَا الْقَبْرِ» وأشار إلى قبر النبي ﷺ.

إذاً:

وَكُلُّ إِنْسَانٍ سِوَى مَا اسْتَدْرَكُوا يُؤْخَذُ مِنْ كَلَامِهِ وَيُتْرَكُ

٩. الضابط التاسع: الاختلاف العلمي المنضبط الذي غايته الوصول إلى الحق، ليس مدعاة للتفرق، ولا مُولِّدًا للأحقاد، وفي مثله تنزل المقولة المشهورة: (الاختلاف أو اختلاف الرأي لا يفسد للود قضية)، فلم يزل علماء المسلمين منذ عهد الصحابة يختلفون ويتناظرون مع بقاء الألفة والأخوة الإيمانية.

ومن الصور الرائعة لتطبيق أئمة الإسلام لهذا الأمر: ما قال يونس الصديقي رحمته الله -وهو أحد أصحاب الشافعي- قال: «ما رأيتُ أعقل من الشافعي، ناظرته يوما في مسألة ثم افترقنا، ولقيني، فأخذ بيدي ثم قال: يا أبا موسى، ألا يستقيم أن نكون إخواناً وإن لم نتفق في مسألة؟» علّق الذهبي رحمته الله على هذا بقوله: «هذا يدل على كمال عقل هذا الإمام، وفقه نفسه، فما زال النُّظراء يختلفون».

وفي هذا يقول أيضاً العباس العنبري رحمته الله: «كنتُ عند أحمد بن حنبل، وجاء عليُّ ابن المديني ركباً على دابة، قال: فتنظرا في الشهادة وارتفعت أصواتهما، حتى خفتُ أن يقع بينهما جَفَاء، وكان أحمد يرى الشهادة، وعليُّ يَأْبَى ويدفع، فلما أراد عليُّ الانصراف قام أحمد فأخذ بركابه».

١٠. الضابط العاشر والأخير: كل مسألة فيها دليل صحيح، واضح الدلالة

فلا عبرة بخلاف يقع فيها ولا التفات إليه، إذ الواجب على كل مسلم اتباع

الدليل، وإطراح ما خالفه، قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا

قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

المقدم: ذكرتم أحد المحاور: قضية الخلاف لا يفسد الوُد، ويمكن البعض سأل

عن قضية الفرق بين الخلاف والاختلاف، هل هناك فرق؟

الشيخ: ذكر بعض المعاصرين: أن هناك اختلافًا بين الاختلاف والخلاف، وأنا قد تتبعت كثيرًا هذه المسألة، وكان لي فيها شيء من البحث، فوصلتُ إلى أن التحقيق أنه لا خلاف بين الأمرين؛ لا من جهة اللغة ولا من جهة استعمال العلماء.

المقدم: وننتقل إلى السؤال الثاني: هو موقف المسلم من اختلاف العلماء، ربما يعني في السؤال السابق أو المحور السابق، تحدثنا عن الضوابط العامة، لكن المسلم وموقفه من اختلاف العلماء عندما يسأل عن أمر من أمور الفقه مثلاً، ويجد هناك رأيين مثلاً من شيخين كلاهما يعني على درجة كبيرة من العلم، وله قدر من الاحترام بين أهل العلم، فكيف يتصرف؟

موقف المسلم من المسائل الفقهية الخلافية إجمالاً له ثلاث حالات، وذلك راجع إلى فقهه وإحاطته بالعلوم الشرعية.

بمعنى: المسلم إما أن يكون عامياً، أو يكون عالماً مجتهداً، أو يكون عنده علم قد تسامي به عن مرتبة العوام لكنه دون رتبة الاجتهاد، ولكل حالة حكمها.

أمّا العامي ففرضه سؤال أهل العلم، والعمل بفتوى من استفتاه، ولم يختلف العلماء أن العامة عليها تقليد علمائها، وأنهم هم المرادون بقول الله سبحانه: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

أما العالم -وهو الذي قد حاز رتبة الاجتهاد- ففرضه أن يجتهد في المسألة، وأن يستفرغ الوسع في سبيل الوصول إلى الصواب فيما بين يديه من اختلاف، وإذا نظر وترجح له حكم فلا يجوز له العُدول عمّا وصل إليه اجتهاده إجماعاً. أمّا من كان دون مرتبة الاجتهاد؛ طالب علم، وعنده قدرة على الفهم وعنده تحصيل لا بأس به، فهذا يختلف حكمه باختلاف الحال، فإن كان يستطيع النظر في المسألة، وليرجح بين أقوال أهل العلم، وأن يصل إلى الراجح فيها، فهذا يجب عليه أن يفعل ذلك الذي يستطيع، أما إن كان لا يستطيع ذلك نزل نفسه في هذه المسألة منزلة العامي، فيسأل أهل العلم فيعمل بفتواهم.

المقدم: وما ذكرتموه واضح، لكن العامي عليه أن يستفتي أهل العلم، لكن لو اختلف المفتون الذين بلغته فتواهم، سمع في برنامجين من برامج الفتاوى مثلاً رأيين كلاهما مناقض للآخر، ماذا يفعل؟

الشيخ: الأمر واقع، وسؤال واقعي في الحقيقة، عندنا عدة أمورنا هاهنا:

- أولاً: على هذا العامي أن يكون قصده الوصول إلى الحق، أن يكون قصده الوصول إلى ما يحبه الله ويرضاه، وبالتالي هذه قضية إيمانية يجب أن يحققها في نفسه.
- ثانياً: إذا اختلفت الفتاوى عليه دون أن يكون منه تتبّع لهذا الخلاف، وعنده شيء من القدرة على أن يدرك رُجحان أحد القولين بوجه من أوجه الترجيح، فعليه أن يتبع ما يعتقده صواباً.
- ثالثاً: إن لم يكن يستطيع أن يفهم الحُجج، وأن يرجح بينها، وهذا هو الغالب على العامة، إذاً عليه أن يرجح بين المجتهدين، ليس أن يرجح في المسألة وإنما يرجح بين العلماء الذين اختلفوا، فيتبع مَنْ يراه أرجح في نفسه.

بمعنى: أقول لهذا الأخ المسلم: ماذا تفعل لو اختلف الأطباء أمامك في علاج ابنك؟ افعل في تلك المسألة مثلما تفعل في هذه المسألة سواء بسواء، قال بعض أهل العلم: مَنْ مرض له طفل، وهو ليس بطبيب، فسقاه دواء برأيه، كان متعدداً مقصراً ضامناً، ولو راجع طبيباً لم يكن مقصراً، فإن كان في البلد طبيبان فاختلفا في الدواء، فخالف الأفضل عُدَّ مقصراً، ويُعَلَم فضل الطبييين بتواتر الأخبار،

وإذعان المفضل له، وبتقديمه بأمارات تُفيد غلبة الظن، فكَذلك في حق العلماء، يُعَلِّم الأفضَل بالتسامع وبالقرائن دون البحث عن نفس العلم، والعامي أهلٌ له، فلا ينبغي أن يخالف الظن بالتَّشْهِي، فهذا هو الأصح عندنا والأليق بالمعنى الكلي في ضبط الخلق بلِجَام التقوى والتكليف.

● رابعاً: قال لنا هذا الإنسان: أنا لا أستطيع الترجيح بين العلماء، كلهم علماء أفاضل، سمعتُ فتوى للشيخ ابن باز يقول كذا، وسمعتُ فتوى للشيخ ابن عثيمين يقول كذا، إلى أين اذهب؟ نقول حينها: اذهب إلى عالم أو طالب علم واطلب منه أن يرجح لك بين القولين، ثم قلّده فيما يرجحه لك.

● خامساً: قال إنه لا يستطيع حتى هذا الأمر، نقول: إذاً عليك أن تسلك مسلك الاحتياط، عملاً بقول النبي ﷺ: «دَعْ مَا يَرِيكَ إِلَى مَا لَا يَرِيكَ»^(١).

والخلاصة: المسألة مسألة ديانة، يتبعها موقف حساب ستموت يا أيها المسلم، ثم تُبعث، وسُئِلَ عن أعمالك، ﴿فَوَرَّيْكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(١٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿[الحج: ٩٢-٩٣]، فاعمل ونظرُك متَّجَّةٌ إلى هناك، حيث ذاك الموقف العظيم.

(١) رواه أحمد برقم (١٧٢٧).

المقدم: ننتقل إلى المحور الثاني وهو: قضية أنه البعض مثلاً يجعل الخلاف وسيلة إلى التَّخَفُّف من التكاليفات، واتباع الرُّخص، فيقول مثلاً هذه المسألة مثلاً مسألة الغِناء فيها خلاف، وبالتالي فخلاص مباح، يعني أنا أسمع مثل ما أريد؟

الشيخ: الأمر -بارك الله فيكم كما تفضلتم- وهو أن من الناس قد حصل عنده خطأ في التصور والفهم، فظن أن الخلاف يلازم التسهيل، إذا قيل له: في هذه المسألة خلاف، كأنه قيل له: الأمر هَيِّن، بل كأنه قيل له: لك أن تَتَشَهَّى، وأن تأخذ من الأقوال ما تشاء، ولا شك أن هذا مفهوم خاطئ، وهذا الذي يعنيه العلماء بَنَهْيهم عن تَتَبُّع الرخص، الرخص هنا ليست هي الرخص الشرعية كما بين الشيخ صالح - وفقه الله - فيما سمعناه قبل قليل، ليست رخصة القصر أو الفطر في السفر ونحو ذلك، إنما تَتَبُّع الرخص هاهنا المقصود به: أن يختار المكلف من كل مذهب ما هو الأهلون عليه، يعني: يأتي إلى مسألة في اليسوع اختلفوا فيها إلى قولين بالتحريم والإباحة، فيأخذ بالقول المبيح؛ لأن هذا هو الأقرب إلى هواه، ثم يأتي إلى مسألة خلافية في الصيام أو الحج، فيعمل بالقول الأسهل، وهكذا ينتقل بين الخلافات يَتَنَقَّى أو يَتَّقِي فيها القول الهَيِّن، والحجة عنده: المسألة خلافية، فلا تُحْجَرُوا واسعاً، هذا المسلك مسلك خاطئ لا يجوز، ويدل على هذا: أربعة أوجه مختصرة:

١. أولاً: هذا التصرف محرم بإجماع العلماء، وفي هذا يقول سليمان التيمي رحمته الله أحد التابعين: «لو أخذت برخصة كل عالم اجتمع فيك الشر كله»، ثم عقيب ابن عبد البرّ عليه بقوله: «هذا إجماع لا أعلم فيه خلافاً»، وفي هذا يقول ابن الصلاح المحذّث المعروف رحمته الله: «واعلم أن من يكتفي بأن يكون في فُتياه أو عمله موافقاً لقولٍ أو وجه في المسألة، ويعمل بما يشاء من الأقوال أو الوجوه من غير نظر في الترجيح، ولا تقيّد به، فقد جهل وخرق الإجماع»، انتهى كلامه رحمته الله.
- إذا؛ المتقرر عند أهل العلم: أن تتبّع الرخص لا يقع إلا بمنّ هان عليه دينه.
٢. الأمر الثاني: الله سبحانه أمر برّد ما اختلفنا فيه وتنازعنا إلى الكتاب والسنة، قال رحمته الله: ﴿فَإِنْ نَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكِّمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠].
- إذا الواجب علينا: أن نرُدّ التنازع إلى الكتاب والسنة، الواجب علينا أن نبحث عن الأقرب إلى الصواب، ليس لنا أن نرد الخلاف إلى أهواء نفوسنا ومُشتهياتها، وتبّع الرخص واقتناص التسهيلات إذا مضادّ لأمر الله رحمته الله.

٣. الوجه الثالث: الله سبحانه نهي عن اتباع الهوى، قال ﷺ: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ

أَلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص:٢٦]، وقال ﷺ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ

رَبِّهِ، وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١]،

وتتبع الرخص والانتقاء من الأقوال المختلفة بالتشهي، وفي حقيقته ميلٌ مع أهواء النفوس، وهذا عين ما نهي الله عنه.

الابتلاء بالتكليف يقتضي من العبد أن يكون فيما يعرض له من مسائل أن يكون باحثًا عما يُبلِّغه تقواه، لا أن يكون تابعًا لشهوته وهواه، الواجب علينا -معشر العبيد للولي الحميد- أن تكون أهواؤنا تبعًا لديننا، لا أن يكون ديننا تبعًا لأهوائنا.

٤. الأمر الرابع والأخير: يترتب على القول بتبُّع الرخص والاحتجاج بالخلاف مفسد جمّة:

منها: الاستهانة بالدين، إذ يصير سَيَانًا لا ينضبط.

ومنها: ذهاب هيئته من النفوس، إذ يصبح لعبة بأيدي الناس، كما أنه يُجرِّثهم على تعدي حدود الشرع، وأعظم بها من مفسد.

والخلاصة: الواجب علينا عند اختلاف العلماء أن يتجرد قُصْدنا للوصول إلى الحق، وإلى ما هو أقرب لمراد الله ورسوله ﷺ، بغضِّ النظر عن كون هذا القول الأخفّ، أو هو القول الأشد.

المقدم: ولكن لا زال في البال مثلاً حديث: «اختلاف أُمِّي رَحْمَةٌ»، كيف نتعامل مع مثل هذه الأحاديث؟

الشيخ: هذا الحديث بارك الله فيكم منتشر على الألسنة، ولكن هو حديث لا أصل له، يعني: لا أصل له عن رسول الله ﷺ، ولا تجوز نسبته إليه، وهذه مناسبة ينبغي أن نذكر أنفسنا فيها بأنه لا يجوز للإنسان أن يحدث عن رسول الله ﷺ بحديث إلا بعد أن يتحقق من صحته، ويكفي في هذا حديث النبي ﷺ الذي فيه وعيد وتخويف أكيد: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»^(١)، فهذا الحديث لا يصح عن رسول الله ﷺ.

وبعض أهل العلم حمل هذا الحديث على فرض صحته على معنى صحيح، وهو أن اختلاف الأمة فبعضهم طيب، وبعضهم معلم، وبعضهم عامل، وبعضهم نجار، وبعضهم إعلامي إلى آخره، هذا الاختلاف فيه رحمة بالأمة؛ لأنه بهذا التفاوت بهذا الاختلاف يحصل تماسك الأمة، ويحصل العمران الذي هو مراد الله ﷻ.

الشيخ: أولاً: -حفظكم الله- مسألة الأخذ بالأسر، اليسر في الشريعة واقع وليس غاية، يعني: الشريعة موضوعه أصلاً على أنها ميسرة، وليس اليسر غاية نحن

(١) رواه البخاري برقم (١١٠)، ومسلم برقم (٣).

نسعى ونتطلبها، النبي ﷺ «**ما خَيْرَ بين أمرين إلا اختار أيسرهما**»^(١)، ما خَيْرَ، إذا كان المقام مقام تخير، لكن في مسائل الشريعة، ومسائل الاتباع ليست المسألة مسألة تخيير أصلاً، فاليُسْر واقع، ولكنه ليس غاية، الغاية: هي العبودية، الغاية: هي الوصول إلى مرضاة الله ﷻ، معنى كون الخلاف رحمة، يعني: أنا قلت إن هذا لم يصح فيه شيء، إنما جاء في كلام السلف أن في الخلاف سعة، والسعة هنا ليست في حق العامة يتخير، وإنما السعة في حق العلماء المجتهدين ليجتهدوا، ولينظروا في المسائل، وليصلوا إلى القول الصواب، بخلاف ما إذا كانت المسألة إجماعية ليس المقام ها هنا مقام نظري واجتهاد، تنبيه لطيف في الحقيقة وهو قد جاء في كلام بعض الإخوة وهو: أنه لا بد من الرجوع إلى العلماء الثقات، بمعنى: ليس كل من تصدّر للفتوى كان أهلاً للإفتاء، كم نسمع في وسائل التواصل في فضائيات أناساً ليسوا من أهل العلم، وليسوا من أهل الاجتهاد، يتصدّرون للفتوى، فيأتي بعض الناس ويأخذ قولهم، يعني: ليست المسألة كما نسمع: وضعها في رأس عالم واخرج منها سالم، أنت لا تفعل هذا في شأن مرض - كما ذكرت - لك، لا تضعها في رأس طبيب وتقول: أنا أخرج منها سالماً، المقصود هو، أن تصل إلى ما يحبه الله، هذا هو المقصود، والعلماء وسائل، مجرد وسائل للوصول إلى

(١) رواه البخاري برقم (٦٧٨٦)، ومسلم برقم (٢٣٢٧).

ذلك، فرجعنا إلى مسألة تتبّع الرخص وقد سبق الحديث فيها، الاحترام وعدم التعصب كلمة جميلة وأعجبتني، مهما أخذت بقول عالم، وتركت قول العالم الآخر إياك أن تتعصّب لمن أخذت قوله، وإياك أن تقدح في العالم الذي تركت قوله.

المقدم: وبقي هناك أحد الإخوة ذكر موضوع استفتي قلبك، إذا اختلف العلماء يعني ممكن الإنسان يستفتي قلبه أو هذا حديث؟

الشيخ: نعم، النبي ﷺ أمر بهذا، قال: «استفت قلبك وإن أفتاك الناس وأفتوك»^(١)، ولكن هذا في حق القلوب المعمورة بالتقوى والإيمان، وليس كل أحد يعني كذلك، القلب المعمور للتقوى والإيمان إذا تساوت الأمور عنده فليستفتي قلبه، فلعله يدلّه على الصواب.

المقدم: أيضاً ذكر أحد الإخوة قضية تقليد المذهب؟

الشيخ: هذه ربما تحتاج إلى حلقة كاملة نتحدث فيها عن مسألة التقليد، والحق الذي لا شك فيه أن الله ﷻ ما أوجب على أحد أن يتبّع عالماً في كل ما يقول في صغير ولا كبير، إنما الواجب هو أن نتبع الحق، والدليل من الكتاب والسنة، والمذاهب ندرسها ونتعلّم ما فيها لكي تكون وسيلة للوصول إلى الصواب والحق.

(١) رواه أحمد برقم (١٨٠٠٦)، والدارمي برقم (٢٥٧٥).

المقدم: نختم بقضية النبي ﷺ: يَنْبَهِنَا وَيَعْلَمُنَا أَنَّهُ «مَنْ رَأَى مِنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ»^(١)، لكن البعض يحتج يقول: لا إنكار في مسائل الخلاف، هذه القضية والله فيها خلاف فبالتالي لا إنكار فيها؟

الشيخ: ابتداء - حفظكم الله - هذه الجملة ليست آية ولا حديثاً ولا أثراً عن أحد من السلف، لا إنكار في مسائل الخلاف، إنما يذكرها بعض أهل العلم، ومرادهم خلاف ما يُفهم من عمومها، وعليه فلا بد من التفصيل فيها، وعدم أخذها على هذا العموم وهو: أنه لا يُنكر في أي مسألة وقع فيها خلاف.

◀ المسائل الخلافية متفاوتة، وهي في الجملة قسمان:

١. القسم الأول: مسائل يسوغ فيها الخلاف وهي التي تُسمَّى: المسائل الاجتهادية، وضابطها أنها المسائل التي خفيت فيها الأدلة، أو تعارضت في الظاهر.

٢. القسم الثاني: فإنها المسائل التي لا يسوغ فيها الخلاف، وهي التي بخلاف ما سبق، يعني: هي التي وقع فيها خلاف مع كونه قد ثبت فيها دليل صحيح صريح سالم عن المُعارض، فهذه المسائل الخلاف فيها غير مُعتَبَر، والعالم الذي أخطأ فيها معذور عند الله سبحانه إن

(١) رواه مسلم برقم (٤٩).

شاء الله؛ لأنه اجتهد ولم يتعمّد الخطأ، لكن ليس لمن بعده أن يتابعه على خطأه، وليس لنا أن نجعل خطأه حُجّة على الشريعة، فهذه المسائل يُنكر فيها على المخالف بلا ريب؛ لأن ما خالف الدليل الشرعي باطل، والباطل يُنكر.

أما القسم الأول: أعني المسائل الاجتهادية، فهذه لا إنكار فيها، ولم يزل الصحابة والتابعون وأئمة الهدى يختلفون فيها، ولم يعد فيها أحد منهم على أحد، ولم يطعن عليه فيها، ومن أمثلة ذلك: ما قال ابن رجب رحمته الله عن الإمام أحمد: كان الإمام أحمد رحمته الله كثيراً ما يُعرض عليه كلام إسحاق وغيره من الأئمة، ومأخذهم في أقوالهم، فلا يوافقهم في قولهم، ولا يُنكر عليهم أقوالهم، ولا استدلالهم، وإن لم يكن هو موافقاً على ذلك كله، انتهى كلامه رحمته الله، وهذه المسائل -حفظك الله- سبب عدم الإنكار فيها: أنه لا يُقطع فيها بخطأ المخالف، والإنكار إنما يسوغ عند القطع بالخطأ، مع ملاحظة وهي: أن الإنكار المنفي هنا هو العيب، أو التويع، أو التعنيف، أو ما شابه ذلك، لكن يبقى باب المناصحة، والمباحثة العلمية، والمناظرة بالحجج الشرعية فيها مفتوحاً، والله سبحانه أعلم.

المقدم: إن كان من عبارة تلخّصون فيها موضوع هذا اليوم، التعامل الصحيح مع اختلاف العلماء؟

الشيخ: أعود فأقول واذكّر بما قدمته في بداية الحلقة المسألة مسألة ديانة، فعلى كل إنسان أن يتقي الله وَعَلَى وأن يستعد لموقف السؤال بين يدي الله وَعَلَى.

المقدم: إن كان من إحالات، أو مراجع تنصحون من الرجوع إليها في هذا الموضوع؟

الشيخ: أود أن أحيل إلى كتيب صغير، في عدد صفحاته كبير، في فائدته عظيم لما اشتمل عليه من معان كريمة، ألا وهو «رفع الملام عن الأئمة الأعلام» لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله أوصي من كان عنده رغبة في الاستفادة أن يرجع إلى هذا الكتاب، وأنا ضامن له بتوفيق الله أنه سيجد فائدة عظيمة في هذا الكتيب الصغير، «رفع الملام عن الأئمة الأعلام».





الحلقة العشرون

حاجتنا إلى الدين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الشيخ: هذه الحلقة أعتقد أنها من الأهمية بمكان، وأهميتها تنبع من كونها تسعى للإجابة عن سؤال في غاية الأهمية ألا وهو: هل الدين الصحيح لنا أفراداً ومجتمعات؟ لنا به حاجة ماسة، هل هو ضرورة في وجودنا، أم هو شيء ثانوي تكميلي ليس له كبير شأن في هذه الحياة؟ وقبله أولويات هي أهم منه؟

◀ الإجابة على هذا السؤال - كما ذكرت - من الأهمية بمكان وذلك لأمرين:

١. الأول: أن ثمة شبهة تُطرح في أوساط الشباب التي يرتادونها في وسائل التواصل وغيرها، أن الدين فَضْلَةٌ في حياتنا، ليس شيئاً أصيلاً، بل ربما غُمر فيه من قناة فقدحوا وزعموا أنه عائق أمام التقدم والتمتع بمباهج الحياة، وليس يخفى أن التيارات اللادينية اليوم تعمل على قَدِيم وساق.
٢. الثاني: أنه بمعرفة الجواب الشديد نستشعر عظيم فضل الله علينا بنعمة الهداية إلى هذا الدين القويم، ونزداد تمسكاً به، ودعوة إليه.

المقدم: أيضاً نحتاج مزيد من التمهيد وربما أنا ذكرتُ في مقدمة الحلقة قضية الفطرة، وأن بعض العلماء يرى أن الدين من فطرة الانسان، أو هذا هو ما هو موجود في القرآن، ولكن هناك أيضاً آراء أخرى تقول: إن الانسان إنما تدين

واخترع بعض الأديان وبعض الآلهة ليعبدها خوفاً مثلاً من الطبيعة، وخوفاً مما يراه في الطبيعة حوله، فهل الدين شيء فطري في البشرية أم هو شيء طارئ وعارض؟

الشيخ: التدنُّن فطرة في الإنسان، التدنُّن غريزة متجدِّرة فيه، شأنها كشأن بقية الغرائز؛ كحُب الطعام والشراب والبقاء، وأي مخالفة لفطرة التدنُّن هي شذوذ وانحراف عن الفطرة السَّوِيَّة.

ومن الطريف: أن بعضهم ذكر أن التعريف الأدق للإنسان على طريقة المناطقة ليس أنه حيوان ناطق، بل أنه حيوان مُتَدَنِّن، فالتدنُّن هو الصفة الذاتية التي تُمَيِّزه عن غيره.

ومن الثابت تاريخياً: أنه لم تَحُلْ مدينة، أو حاضرة بشرية من معبد يتعبد فيه أهل تلك الحاضرة.

الخلاصة: الدين صفة ذاتية مميَّزة للطبيعة البشرية، وصدَّق ربنا سبحانه إذ قال: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بَدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾

ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿[الروم: ٣٠]، التدنُّن في الإنسان ليس شيئاً مصطنعاً ولا مخترعاً ولا طارئاً، إنما هو طبيعة حقيقية ثابتة.

ولعلِّي أُشير هنا إلى دراسة حديثة تزيدنا -معشر المسلمين- معرفة بما هو معروف، وهي الدراسة التي أجراها (البروفيسور جاستن برت) مع زميله



(البروفيسور روبرت ترياق)، كلاهما كانا يعملان في جامعة (إكسفورد)، قادا مشروعاً علمياً ضخماً مع سبعة وخمسين باحثاً من عشرين دولة عن فطرية الإيمان، فكانت نتيجة بحثهم: أن التدين حقيقة مشتركة في طبيعة الإنسان في المجتمعات المختلفة، والدراسة منشورة باللغة الانجليزية، و(البروفيسور باريت) -هذا الذي ذكرته قبل قليل-، أو بالمناسبة متخصص في علم النفس الخاص بالأطفال، يعني علم نفس الأطفال، ألف كتاباً مشهوراً، وهو مترجم باللغة العربية ومطبوع، ويمكن الحصول عليه في المكتبات، عنوانه: «فطرية الإيمان كيف أثبتت التجارب أن الأطفال يولدون مؤمنين بالله»، وقد دوّن في هذا الكتاب خلاصة تجاربه العلمية خلال عشرين سنة، وكانت النتيجة: أن الأطفال يولدون مفطورين على الإيمان بالخالق سبحانه، وقد فُتد في كتابه هذا شُبْهة القائلين: بأن إيمان الأطفال سببه تلقين الوالدين، والواقع أن الإيمان بالله ﷻ فطرة وليس نتاج تلقين، وذكر في هذا بعض الشواهد والقصاص التي أوردها.

الخلاصة: التدين في الإنسان شيء أصيل عالمي، أصيل فيه أي: هو مُتجذّر في أعماقه مُنذ ولادته، وعالمي يشترك فيه جميع البشر.

المقدم: لكن ذكرتم مثلاً كلمة الدين والتدين ونحو ذلك، ما هو الدين الذي

نتحدث عنه بالتحديد؟

الشيخ: قبل أن نسترسل، لابد أن نضع الأمور في نصابها.

الدين الذي نعنيه في حديثنا هنا هو: الإسلام، الإسلام الذي بعث الله به نبيه محمداً ﷺ، ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، هذا هو الدين الذي رضىه الله لنا، ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، هذا هو الدين الحق بعقيدته الصافية، بشريعته العادلة، بنظامه الشامل، بأخلاقه السامية، أما الأديان المحرّفة والمنسوخة؛ كاليهودية، والنصرانية، أو الوثنية؛ البوذية والهندوسية، فليست من موضوعنا، لا في قبيل ولا في دبير.

المقدم: وبضدّها كما يقولون: تتبيّن الأشياء.

قبل أن نُسلّط الضوء على قضية حاجتنا الى الدين، هل لنا أن نقف وقفة مع واقع التيارات التي تدّعي الاستغناء عن الدين؟ أصلاً هل هناك يعني تيارات تدّعي الاستغناء عن الدين؟

الشيخ: لا شك أن الساحة اليوم تروج بتيارات لادينية كثيرة تدّعي الاستغناء عن الدين، وأبرزها وأكثرها حضوراً اليوم هو: الاتجاه الإنساني، يزعم هذا الاتجاه أن الإنسان قد بلغ درجة عالية من العلم، والرشد، حتى أضحى سيّد نفسه، وحاكم ذاته، وأنه قادر على تسيير شؤونه وحل مشاكله، من غير احتياج الى أي أحد خارج عن نطاق إنسانيته، هو الذي يرسم مستقبله، هو الذي يُجَدِّد مصيره،



قد وصل إلى قَدْر من الرشاد في كل الميادين، العقل الإنساني هو مركز السيادة، ولا بد أن تكون له الأولوية المطلقة، هذا التيار يرى أن أي خضوع من الإنسان لسلطة أعلى منه هو في حقيقته تحقير لشأنه، وإنزال له من منزلته، وعليه فارتقاؤه لا يكون إلا بالاستقلالية الذاتية، وهي في حقيقتها نوع من تأليه الإنسان، هذا الاتجاه برز بقوة في القرن الثامن عشر الميلاد، وازداد غُلُوًا في القرن التاسع عشر، واستمر إلى يومنا هذا.

خلاصة هذا المذهب: استقلال الإنسان، واستغناؤه عن الوحي، والعقل البشري في زعمه بديل عن التشريع الإلهي.

والسؤال المفترض: هل حققت النزعة الانسانية ما تزعم من الرقي بالإنسان والسمو به؟ **الجواب بالتأكيد:** لا، بل إنها أوقعت الإنسان في كمٍّ كبير من الأزمات، وانحرفت بحياته الى حُفْرٍ عميقة من المُشكِلات، وأحاطت بحياته بِرُكام كبير من الصعوبات، وهل كان يُنتظر سوى هذا؟ العقل البشري أضعف من أن يستقل بالمعرفة، وأن يحيط علماً بكل شيء، وهؤلاء قد جمعوا بين المبالغة في تعظيم الإنسان مع كونهما ما قدروا الله حقَّ قدره، وما عظّموه حق تعظيمه ﷻ.

• **أول خطيئة وقع فيها القوم هي:** أن هذا الاتجاه للنزعة الاحادية، قد انتهك أول ما انتهك حُرمة الإنسان وتمييزه، مع زعمهم أنهم

يرفعون من مكانته، السبب: أنه إذا انتفى وجود الله تعالى انتفى وجود الإنسان، وأعني: انتفى وجوده الحقيقي الذي جعله الله عليه، وهو كونه مخلوقاً مكرماً مُتميّزاً عن جميع المخلوقات، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠].

بمقتضى هذا المذهب الإنسان مجرد حيوان لا ميزة له، ولا تقدير، شأنه شأن أي حيوان، بل شأنه شأن أي دودة أو حشرة أو بكتيريا سواء بسواء، وله من الحقوق مثل ما لتلك الحشرات سواء بسواء؛ لأن الكائنات الحية جميعاً متساوية في القيمة، متساوية في الحقوق.

بمقتضى هذا المذهب الإنسان جزء من المادة غيره من أجزائها، ليس له أي مضمون قيمي، أو أخلاقي، إذ أي قيمة لكتلة من الذرات المادية التي وجدت صدفة، ليست حياة الإنسان في لازم قولهم بأعلى من حياة قرد أو نملة، ولا قيمته بأعظم قيمة من فيروس من الفيروسات، الكل في اعتقادهم نتيجة صدفة عمياء لا أقل ولا أكثر.

● الخطيئة الثانية: أين الرُّقي الإنساني؟ أين المشاعر النبيلة؟ أين السلوك المستقيم؟ أين العقيدة؟ أين الأخلاق؟ أين القيم؟ لا وجود لشيء من هذا في ضوء هذا التيار الإنساني، الإنسان مجرد حيوان،

وإن شئت فقل: مجرد آلة وُجدت بلا قصد، وتزول بلا هدف، ولا شيء وراء هذا.

لقد نَحَرَت النزعة الإنسانية الأخلاق والقيم؛ لأنه لا وجود للأخلاق المطلقة بلا دين، إنكار الدين إنكارٌ للأخلاق المطلقة، وعلى هذا فلا فرق بين الصدق والكذب، وبين الأمانة والخيانة، لا وجود لقيم مطلقة يمكن من خلالها أن نحكم بصواب أو خطأ، أين المعيار الذي يفرق بين أبشع جريمة وأفضل خُلُق.

● **الخطيئة الثالثة والأخيرة:** بهذه النزعة الإنسانية المُنكِرة للدين، أنها أدخلت البشرية في نفق العدمية المحضة، فإنه إذا انتفى الدين الحق انتفى معنى الحياة، وانتفى هدفها، لم يعد لأي شيء أي معنى، لا وجود لمعنى عميق في الحياة الإنسانية، نعيش ونموت ونفنى، هكذا باختصار، عدم وعبت مغلف بظلمة وحيرة، بلا أمل ولا هدف، والإنسان في أحسن أحواله سيعيش حياة يتساوى فيها مع البهيمة، يأكل ويشرب ويبحث عن قضاء وطره، ثم يموت، وينتهي كل شيء، آدمية قاسية، ومتاهة بائسة.

الخلاصة: إن أيّ تيّار يرفع شعار الاستغناء عن الدين فإنه يؤصّل لضياع الإنسانية، بل يحكم بموتها، ويُحطّم كل مبدأ، وينسف كل قيمة، في ضوء هذه

التيَّارات اللادينية ستحوِّل البشرية إلى دمار أخلاقي، وضياح قِيَمي، وجفاف روحي، وتفتَّت مجتمعي.

والحقيقة الناصعة بعد هذا كله: أن الإيمان بالله والتمسُّك بالدين الحق هو الأساس، هو الأساس في تحقيق المعنى الوجودي للإنسان في هذه الحياة.

المقدم: وأنتم تتحدثون أتذكَّر مثلاً بعض التصرُّفات التي نراها من أنفسنا، وممن حولنا أحياناً، وأقول: هل نكون نحن ونحن مسلمون -ولله الحمد- ربما تأثرنا بشيء من هذه التيارات، فنجد مثلاً بعض الناس يكون نقول عنه: مادي، أو أخلاقه تجارية مثلاً، أو ربما أحياناً يكون الدين في آخر أولوياته، وبعضهم أحياناً يتكلَّم ويقول: لو حيَّدنا العمل الديني، لو حيَّدنا الدين مثلاً، كيف أثَّرت هذه التيارات علينا نحن كمسلمين أيضاً؟

الشيخ: هذه هي الباقعة، وهذه هي الباخعة التي نعيشها اليوم، أن هذه التيارات لها غبار، وهذا الغبار يصل مع الأسف الشديد إلى كثير من أبناء جلدتنا من ناشئتنا من شبابنا، تستنشقه أنوفهم، ويصل إلى داخل رِئتهم مع الأسف الشديد، ولذلك نحن نرى هذه النماذج، نرى هذه المظاهر الكثيرة مع الأسف الشديد، وما هذا البرنامج الذي وُقِّعت الإذاعة -إن شاء الله- بوضعه إلا وسيلة -إن شاء الله- للتفصيل والبيان بتوفيق الله ﷻ.

المقدم: ننتقل ربما إلى لبِّ الموضوع، والسؤال الذي طرحناه على المستمعين أيضاً حتى هذه الحلقة، ما حاجة الانسان إلى الدين الحق؟

الشيخ: باختصار: حاجتنا للدين أعظم من حاجتنا إلى الشمس وضئائها، بل أعظم من حاجتنا إلى الطعام والشراب، بل أعظم من حاجتنا إلى الهواء.

حاجتنا إلى الدين أولاً وقبل كل شيء: هي في كوننا نطلب الهداية والسعادة، هاتان أعظم الحاجات على الإطلاق، وهاتان مُلتصقتان بالدين لا تنفكان عنه، وهذا المعنى لخصه قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى

﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ [طه: ١٢٣-١٢٤]، ومثله قوله

سبحانه: ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨]، الدين الحق

دين الإسلام، انتقال من الظلام إلى النور، من التشُّت إلى الطمأنينة، من الحيرة

إلى اليقين، ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِنُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ

رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى

الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ

الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، هذا

الدين العظيم كله صلاح وإصلاح، دفع للشُّرور، حلُّ لجميع المُشكلات، بدونه

ليس ثمة غاية تُرجى، ولا نهاية تُطلب، هذا الدين يَهدي للتي هي أقوم، هذا الدين صدق في الأخبار، وعدل في الأحكام، إنه أحسن الشرائع، وأعدل المناهج، لن نستكمل إنسانيتنا، لن نتحقق لنا السعادة، لن ننعم بالاستقرار إلا بالتدين به، الدين الحق يعني وجود الإنسان، بل إنه يعني كل شيء، وأكرّر: كل شيء. نحن بحاجة إلى الدين في شعورنا نحن البشر، بقدرنا ومعنى وجودنا.

النظرة الإسلامية للإنسان هي أنه مخلوق أرقى من غيره، أختاره الله وكرّمه وميّزه، وجعله محل التكليف، هو مخلوق مخصوص خُلِقَ لغاية مخصوصة، وسُخِّرَ له كل شيء، ووجب الحفاظ على ضرورياته، له في إضلال الاسلام قدر، ولوجوده معنى، وحياته جديرة بالحياة.

أعظم حاجة لنا في هذا الدين الحق بعدما سبق هي كونه يُجيب لنا عن الأسئلة الوجودية الكبرى، مَنْ أوجدني؟ لماذا أوجدني؟ ماذا بعد هذا الوجود؟ هذه قضية مؤرّقة لكل إنسان، تشغل ذهنه، تُلحّ عليه بالإجابة، ومهما تشاغل عنها فلا بد أن تبرز أمامه في بعض الأوقات، تستحثه على الجواب المقنع، لتروي النفس ظمأها في معرفة حقيقة الوجود، (من أين، وإلى أين، ولم؟) لا أكتُمك سرّاً أنّي طرحتها هذه الأسئلة الوجودية الثلاثة على عدد من الكفار الذين قابلتهم في أقطار مختلفة، ولا أحتاج أن أحدثك عن الحيرة والدهشة والسكوت المُطبّق الذي

كان منهم جواباً على سؤالِي، أناس كبار مثقفون يقفون حائرين أمام أهم قضية فكرية في حياتهم، بينما أصغر طفل من المسلمين ينطلق في الجواب السديد ولا يتلغثم، أرايت نعمة الدين القويم؟ ديننا أبانٌ لنا كل شيء، صارت الأمور في أعيننا أمام قلوبنا واضحة.

السؤال الأول: مَنْ أوجدني؟ الدين الحق أبان عن معرفة الخالق سبحانه، وعن حقه علينا، لماذا أوجدني؟ أجاب الدين الحق عن هذا السؤال، أبان عن الحكمة من وجودنا، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فأكسبنا هذا الأمن النفسي، ترى هناك هدف لهذه الحياة، حرّر هذا الجواب العقل من الخرافات.

أجاب عن السؤال الثالث: ماذا بعد هذا الوجود؟ أبان الدين الحق عن المصير، عن الدار الآخرة، عن دار الجزاء، فأكسبنا الصبر في هذه الحياة، وأعطانا الطمأنينة، وبثّ في نفوسنا الأمل، وحثنا على التشمير، أقام في نفوسنا رقابة ذاتية تدفع إلى الخير وتُحذّر من الشر، نحن بحاجة إلى هذا الدين في إشباع همّة العقل، العقل يتطلّع إلى معرفة كل ما يُحيط به إلى معرفة الغيب، الماضي واللاحق، فيُلبي هذا الدين وهذا التطلع، ويُشبع هذه الرغبة، ويُقدّم التفسير الصحيح لكل ذلك، يمنح الأجوبة الكاملة لكل ما يتوق الإنسان إلى معرفته، ولكل ما تنفعه معرفته،

الدين الحق غذاء ضروري لتنمية العقل وإرشاده، إرشاده إلى التفكير السديد، والعلم الحديث لا يُسعفه في هذا؛ لأنها أمور لا تخضع للتجربة، نحن بحاجة إلى الدين لتكريم العقل في إبعاده عن السخافات والخرافات والأساطير، في توجيهه لعبادة الله العظيم المستحق للعبادة، وليس لعبادة الشجر والحجر والبقر، لقد كرم الله ﷻ هذا الإنسان بهذا الدين، ففتح له آفاق التفكير والتأمل في الآيات المتلوّة، وفي الآيات المشاهدة.

● حاجتنا إلى الدين حاجة ماسة لتغذيتنا بالعواطف السامية؛ من

الحبة والحياء والتواضع والعفو ونحوها، لن تجدها في صورتها المثالية إلا في هذا الدين الحق.

● حاجتنا إلى الدين حاجة ماسة في تهذيب النفس، حيث عوّدها

على مقاومة النزعات الطائشة، والأهواء الفاسدة، والحد من ثورتها في حاليّ الفرح والغضب، أمدها بأنجع الوسائل لمقاومة التردّد والقنوط، نحن بحاجة إلى هذا الدين لمعالجة جميع الأمراض النفسية؛ من القلق، واليأس، والخوف، والوسوسة.

- نحن بحاجة إلى هذا الدين لمنح النفس هدوءها وطمأنينتها واستقرارها، المُتدبّن هو الذي يعتقد أن كل شيء من عند الله، فهو راضٍ في حالتي السراء والضراء.
- نحن بحاجة إلى هذا الدين غذاء روحياً لنا، الدين هو غذاء الروح ودواؤها وأنسها وجنتها، عبادته وأذكاره تُقَرِّب القلب من الرب؛ فيَأْنَس وَيَنْعَم، هذا الغذاء يَمُنحه القوة، فيتحرّر من قيود الدُّلّ والجُبْن، ويبعث فيه العزة والكرامة، والأنفة من الخضوع لغير الله.
- نحن بحاجة إلى هذا الدين لمواجهة مصاعب الحياة، وتخطي العقبات، الإيمان بالربوبية، الإيمان بالقدر، الإيمان بأسماء الله وصفاته سلاح للمؤمن عظيم، لا يقف أمامه عقبة في هذه الحياة مهما بلغت مشقتها.
- نحن بحاجة إلى هذا الدين القويم لإقامة التوازن العادل بين مطالب الروح، ومطالب الجسد، بين العمل في الدنيا والعمل للأخرة، ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧]، نحن بحاجة إلى هذا الدين لرعاية أجسامنا

الرعاية الصحيحة؛ نظافة وطهارة وقوة، منع هذا الدين الإنسان من كل ما يضره، حذّر من أسباب الأمراض، دعا إلى التداوي، دعا إلى الاعتدال في الطعام والشراب، فتح باب الرخص الشرعية، نظم الغرائز.

● نحن بحاجة إلى هذا الدين لنعرف أنفسنا، ولنعرف الكون من حولنا، نحن بحاجة إلى هذا الدين في توجيهنا، وقد وجدناه يوجّهنا إلى كل نافع، ويحذّرنا من كل ضار، ويأمرنا بتقديم ما ترجّحت مصلحته، ودفع ما ترجّحت مفسدته، نحن بحاجة إلى هذا الدين؛ لأننا في طبيعتنا ضعفاء، نحتاج إلى زكن نأوي إليه، وسند نعتمد عليه، والدين الصحيح عقيدة في الله، وعبادة وخضوع له، وأنس به، إذا سجد في الدين القوة عند الضعف، والأمل عند اليأس، والرجاء عند الخوف، والصبر عند البأس، وهذا والله لا يُغني عنه مال ولا مَلَذَات ولا عقل ولا فلسفة.

● نحن بحاجة إلى هذا الدين الحق؛ لأنه مصدر القيم والآداب والسلوك والأخلاق، منه يستمدّ الإنسان قيمه ومبادئه، وبدونه تنقلب الحياة إلى غابة موحشة، نحن بحاجة إلى هذا الدين؛ لأننا

بحاجة إلى أن يكون لنا هدف أسمى في هذه الحياة، وبدونه سيغيب المعنى ويختفي الهدف.

وأخيراً: لو لم يكن في هذا الدين الصحيح إلا أنه يغرس فينا الإيمان بالقدر الذي به تضيء الحياة، وتزول منها في أعيننا القتامة والظلمة، ويُغرس فينا الأمل والصبر، لو لم يكن إلا هذا لكفى، ما أجمل أن يعيش الإنسان في هذه الحياة وأمام ناظره وفي سُويداء قلبه هذا الدستور العظيم، ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣].

تَفَرَّحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾

المقدم: ماذا عن حاجة المجتمع إلى الدين؟

الشيخ: لا تَقَلَّ حاجة المجتمعات للدين عن حاجة الأفراد، نحن بحاجة إلى الاجتماع والألفة، والدين الحق هو مؤلف القلوب المشتتة، والأهواء المتفرقة.

• نحن بحاجة إلى هذا الدين القويم في إقامة الروابط القوية بين أفراد، لا سيما الروابط المعنوية والأخلاقية؛ كالتراحم والتعاطف والتكافل والمحبة والتعاون والتناصح، لا قيام لمجتمع فاضل إلا بهذا، ولا قيام لهذا إلا بالدين القويم، أما عن إقامة الروابط القوية بين أفراد المجتمع الصغير الذي هو الأسرة فحدّث ولا حرج، لا غنى لأي أسرة عن تشريع

الدين الحق في شؤونها كلها؛ من حقوق الزوجين، تربية الأبناء، النفقة، التكافل، الميراث، الوصية وغيرها من الأشياء، نحن بحاجة إلى هذا الدين؛ لأننا بحاجة إلى ضوابط تحكم العلاقات بين جميع الأفراد من سائر الأطياف، مع تحديد الواجبات والحقوق، ثم أن ينهض المجتمع بها يباعث داخلي ووازع ذاتي، وهذا شيء لا تُسعف فيه كافة الأنظمة، وجميع القوانين، نحن بحاجة إلى الدين؛ لأننا بحاجة إلى مجتمع متوحد، متماسك، قوي الروابط، يُحافظ على مقوماته، ويصونه من الاضمحلال والذوبان، نحن بحاجة إلى عدل يضع الأمور في نصابها، ويزيل غياهب الظلم، وهذا ما تضمنه الدين الحق.

- نحن بحاجة إلى الدين في بسط الأمن، والدين الحق أعظم سلطان وأكبر وازع، ولا يُغني عنه أي سلطة أو قوة، الدين رقيب ذاتي داخلي، والمتدين الصادق يستشعر مراقبة الله له في السر والعلن، فيتردد عن أن يتخذ أي خطوة نحو إثم، أو أذية، أو ظلم، أو اعتداء.
- المقدم:** وصلنا إلى الثمرات التي يَنعم بها من يتدين بدين الإسلام فما هي

هذه الثمرات لنختم بها؟

الشيخ: لن نصل إلى ذروة التنعم بهذه الهبة العظيمة التي مَنَّ الله ﷻ بها علينا وهي هذا الدين القويم إلا بستة شروط:

١. الشرط الأول: أن نتعلمه تعلماً وافياً مفصلاً؛ عقيدة وعبادة، أحكاماً وأخلاقاً، مسلمون لا يعرفون دينهم معرفة صحيحة تفصيلية مسلمون ناقصون.

٢. الشرط الثاني: أن نؤمن بكل ما جاء به هذا الدين القويم، فلا يؤخذ بعضه ويُترك بعضه، ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨].

٣. الشرط الثالث: أن نجتهد في تطبيقه، وأخذ أنفسنا بأحكامه قدر الاستطاعة.

٤. الشرط الرابع: أن نحذر من كل ما يضاده، أو يُضعف التمسك به من شرك، وكفر، وبدع، ومنكرات، حينها سنكون في سعادة بهذا الدين غامرة، بل في جنة معجّلة.

٥. الشرط الخامس: أن نجعل له الأولوية والصدارة في حياتنا، في أوقاتنا، في سُلّم اهتماماتنا، الدين أولاً وكل شيء يأتي بعده.

٦. الشرط السادس: أن نستشعر قدر هذه النعمة، وأن نشكرها حق شكرها بالقلب واللسان والجوارح ومما يعينك -يا أخي الكريم- على استشعار هذه النعمة أن تتأمل في حال من هو فاقد لها، أو من كان فاقداً لها، ثم وهبه الله ﷻ إيها، أي: أسلم بعد كفر، تأمل في ماضيه وحاضره وستدرك أنك في نعمة لا توازيها نعمة، من الإشكالات الكبرى اليوم أن من أبناء المسلمين وشبابهم من لا يستشعر هذه النعمة العظمى التي حبانا الله إيها.

كالعيس في البداء يفتلها الظمأ والماء فوق ظهورها محمول

تدري ما يعني أن تكون مسلماً؟ إنه يعني كل شيء، يعني أنك الفائز، أنك السعيد، أنك المطمئن المتيقن العزيز، رؤيتك واضحة، قلبك سليم، روحك قوية، نفسك مطمئنة، حيزت لك السعادة بحذافيرها، الأمل والسرور والنجاة كل تلك قد وفقك الله ﷻ إليها، لم يفتك شيء في هذه الحياة، بل حياتك أكثر تألقاً وتفאוلاً وتنظيماً، وإن ثبت عليه إلى أن تغادر هذه الحياة، فزت السعادتين، وفزت في الدارين العاجلة والآجلة.

وأخيراً: أودّ أن أوصي نفسي وإخواني المستمعين، لنعلم أن من سنة الله ﷻ في خلقه: أن النعمة إذا لم تُشكر أُبدلت بضدها، فنعمة الأمن إذا لم تُشكر أُبدلت بالخوف، ونعمة الرزق إذا لم تُشكر أُبدلت بالجوع، وكذلك نعمة الدين إذا لم

تُشكر أبدلت بالكفر، ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]، لنعلم أن الإسلام أعز من ينتمي إليه، فإذا لم يجد أناساً يعرفون قدر نعمة الله عليهم به، ويعضّون عليه بالنواجذ، ويروونه غنيمة ادّخرها الله لهم، فسوف يرتحل عنهم إلى غيرهم، ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُقِيمُونَ حُجَّتَهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤].

المقدم: من أراد الاستزادة حول موضوع حاجتنا إلى الدين هل تقترحون عليه قراءة شيء معين، أو الرجوع إلى مرجع معين؟
الشيخ: أودّ أن أوصيه بأمرين:

١. الوصية الأولى: كُتِبَ صغير أوصيتُ به سابقاً وأكرّر الوصية به؛ لأنه في الحقيقة مُهم، هو رسالة صغيرة بعنوان «الدين الصحيح يحل جميع المشاكل» للشيخ عبد الرحمن ابن سعدي رحمته الله.
٢. الوصية الثانية: إن أذنت لي أتمنى أن يتفصّل الأخوة الكرام بمراجعة الحلقة السابعة من هذا البرنامج، ففيها كان البرهان السادس -يعني في ضمنها- كان البرهان السادس من براهين نبوة النبي ﷺ، ألا وهو: كمال الشريعة ومحاسنها، أظن أنه بالجمع، بينما جاء في هذه الحلقة وتلك تزيد الفائدة وتتكامل إن شاء الله.





الحلقة الحادية والعشرون

حقوق السنة النبوية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الشيخ: الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسان، أمّا بعد:

فإن التذكر بمكانة سنة النبي ﷺ، شيء مهم لنا بكل حال، فالسنة النبوية بالنسبة لنا هي الحياة، ولا حياة -أعني: الحياة الحقيقية- إلا باتباع هذا النبي الكريم ﷺ، ﴿أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

ومع ذلك فإنني أرى أن الحديث عن هذا الموضوع في هذه الأيام يمثل ضرورة قصوى، ذلكم أن ثمة حملات مركزة مُمنهجة متنوعة تستهدف السنة النبوية، وتشكك المسلمين فيها، والخطب في هذه الأيام حقًا عظيمًا؛ لأن هذه الحملة الظالمة تمس جوهر الإسلام وأساسه، إذ ما الإسلام إلا ما جاء في القرآن والسنة، المساس بالسنة طعن في صميم الإسلام، وعلاوة عن هذا فإن إنكار السنة أو التشكيك فيها فنظرة إلى الإلحاد والردة، ولذا فجهود الملاحدة واللا دينيين في تشويه السنة في أعين شباب المسلمين جهود حثيثة؛ لأنه إذا سقطت حرمتها من نفوسهم سهل أُرْهُم إلى هُوءة الإلحاد، إذًا لا ينبغي بحال أن نتساهل في دفع هذا الصّيال على أحاديث نبينا محمد ﷺ، بل ينبغي التصدي لهذا بحزم؛ لأنه حراسة للدين، وقيام بحق الله ورسوله ﷺ، ودفع لنزعة إلحادية عاتية، وإنني في هذا المقام أدق ناقوس الخطر، فأعداء السنة

والطاعنون في الأحاديث النبوية يعملون اليوم على قَدَم وساق، ولهم وسائلهم وحساباتهم ومساحاتهم ومؤلفاتهم وفضائياتهم وشُبَّههم تتسرَّب بين أوساط عوام المسلمين، بل قد جرَّفت بعضهم شبابًا وشيِّبًا، وأنا أتحدث عن واقع ولا أُبالغ، فليحذر الصالحون، وليتنبَّه المصلحون، بل وجميع المسلمين.

المقدم: الموضوع ربما ظهر على السطح أكثر في الأيام الماضية، وإن كان ربما القرآنيون ومن يُسمون بهذه التسمية ربما وجودهم في التاريخ الإسلامي قديم؛ لأنه ربما في الآونة الأخيرة والسنوات الأخيرة بدأ يزداد مثل هؤلاء، ربما أوضحتم جانبًا من أهمية الحديث عن مثل هذه المواضيع، طرحنا وطرحتم على المستمعين في ختام الحلقة الماضية موضوع حلقة اليوم وهو (حُجِّيَّة السنة)، كلمة (حُجِّيَّة السنة النبوية) ما معنى هذه الكلمة؟

الشيخ: من المعلوم -حفظكم الله- أن السنة النبوية قولية كانت أم فعلية أم تقريرية، كانت ولا تزال ولن تزال حُجَّة قائمة بنفسها، والمراد بكونها حُجَّة، والمراد بقولنا: حُجِّيَّة السنة: هو أنه يجب تحكيمها، والرجوع إليها، والتزامها، والعمل بها، ولا يجوز التردد البتَّة بالانصياع لحكمها، وأنه تثبت بها العقائد والأحكام كما تثبت بالقرآن، ويجب قبولها ولو لم تَرِد في القرآن، وقد قال ﷺ كما عند أحمد^(١) في

(١) رواه أحمد برقم (١٧١٧٣).

المسند في حقها: «أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ، أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ»، كما أن السنة بيان للقرآن وتفسير له، مفصلة لما أُجمل فيه، وهذه الجملة محل اتفاق بين الأمة جميعًا، ولا يشدّ عنها إلا زنادقة فارقوا جماعة المسلمين، واتبعوا غير سبيل المؤمنين.

المقدم: حكم من أنكر سنة النبي ﷺ، أو أنكر حُجية السنة؟

الشيخ: سبحان ربي العظيم، حال هؤلاء الذين ينكرون سنة نبينا ﷺ، أشبهه بحال من يُحوم حول جبل عظيم، يريد إزالته عن مكانه بحمل صغار أحجاره، أو كحال من يغترف من بحر بيده مُريدًا تفرّغه، لكن سيبقى الجبل جبلاً والبحر بحرًا، وستبقى السنة عزيزة، وسيبقى المخذول خائبًا.

الخلاصة: - يارعاكم الله - أن القرآن والسنة شقيقان، وأصلان متلازمان، من جحد واحدًا منهما فقد جحد الآخر، وذاك كفر وضلال وخروج عن دائرة الإسلام بإجماع أهل العلم، وما أحسن ما قال السيوطي رحمه الله في رسالته اللطيفة «مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة»: «فاعلموا رحمكم الله أن من أنكر كون حديث النبي ﷺ قولًا كان أو فعلًا بشرطه المعروف في الأصول حجة، كفر وخرج عن دائرة الإسلام، وحُشِر مع اليهود والنصارى أو مع من شاء الله من فرق الكفرة» انتهى كلامه رحمه الله.



وقال ابن حزم رحمته الله في كتابه «الأحكام»: «لو أن امرأ قال: لا نأخذ إلا ما وجدنا في القرآن، لكان كافراً بإجماع الأمة».

المقدم: ربما الحديث عن حُجية القرآن الكريم واضح، وقليل جداً من ينكر مثلاً حُجية القرآن الكريم، أو يمسّ القرآن الكريم، ومكانته لدى المسلمين بشيء، لكن ربما السنة النبوية يتجرأ البعض عليها، فلو نتحدث عن القادحين في حُجية السنة النبوية عن أصنافهم، هل هم جميعاً مثلاً على نفس الصنف ونفس النوع؟

الشيخ: إنكار السنة والقدح فيها مذهب قديم حديث، وقد قال به ضالون من مشارب مختلفة، فمنهم قديماً طوائف من الخوارج والمعتزلة والباطنية، أنكروا قدرًا كبيراً من السنة لذرائع مختلفة، ومنهم حديثاً الملاحدة المنكرون لوجود الله تعالى، والربوبيون المنكرون للنبوة، ومنهم الكفار من أهل الملل؛ كاليهود والنصارى تحت عباءة الاستشراق أو غيره، ومنهم القاديانيون، والبهائيون وأضرابهم، ومنهم أعداء الصحابة رضي الله عنهم الذين يردُّون السنة جملة بزعم أن رُواتها من الصحابة كفاراً، وحاشاهم رضي الله عنهم، ومنهم أناس تسموا: بالقرآنيين، يزعمون الاكتفاء بالقرآن والاستغناء عن السنة، ومنهم أصحاب مشارب فكرية مختلفة؛ حدائثة، أو عقلائية، أو علمانية، أو ليبرالية، أو ما لَفَّ لَقَّها، اتخذوا السنة عِزِيزين، ضيقوا حُجِّيَّتَها رُضوحاً للهيمنة الفكرية الغربية التي هم منهزمون تحت أقدامها، فزعموا

قبول طرف من الأحاديث على كُره، وهو ما تعلق بالعبادات، وردوا طرفاً آخر وهو ما تعلق بالمعاملات والحدود وما إليها، وكل فرقة من هذه لها شبه تنفرد بها، أو تتقاطع مع غيرها، ولكل منها نقاش يخصه، وصدق ربنا سبحانه إذ قال:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَاطِئِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢].

على كل حال؛ إن ظهور هؤلاء المنكرين لسنة سيد المرسلين ﷺ، يزيدنا - معشر المسلمين - إيماناً بصدق نبينا محمد ﷺ، واستيقاناً بصحة سنته، ذلكم أن ظهورهم من أعلام سنته، إذ قد أخبر ﷺ عن بُروز هذه النزعة في الأمة، فقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كما عند الترمذي^(١) وأبي داود^(٢) وغيرهما: «أَلَا هَلْ عَسَى رَجُلٌ يَبْلُغُهُ الْحَدِيثُ عَنِّي، وَهُوَ مُتَكَيٍّ عَلَى أَرِيكَتِهِ، فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله، فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه، وما وجدنا فيه حراماً حرّمناه، وإنما حرّم رسول الله كما حرّم الله»، هذا الحديث ينطبق تمام الانطباق على جميع هؤلاء المنكرين لسنة نبينا ﷺ.

(١) رواه الترمذي برقم (٢٦٦٤)، وأحمد برقم (١٧١٩٣).

(٢) رواه وأبو داود برقم (٤٦٠٥).

المقدم: ذكرتم أن من مُنكري السنة النبوية فرقة اسمها (القرآنيين) وربما هم أَلصق الناس بموضوع حلقة اليوم، لو نبسط الحديث في التعريف بالقرآنيين؟

الشيخ: القرآنيون هكذا يتسمّون، والحق أنهم مكذبون للقرآن، فَنُسبتهم نسبة ضدية كما يقال: القدريّة لمن كان مُنكراً للقدّر، على كل حال القرآنيون طائفة ضالة تزعم الانتساب إلى الإسلام، تزعم الاكتفاء بالقرآن، وأنه المصدر الوحيد للتشريع، وترُد السنة النبوية، وتدّعي الاستغناء عنها، وقد أشرتُ آنفاً أن إنكار السنة بدأ قديماً على أيدي طوائف من الضّلال، وهم في هذا بين مُقلِّ ومُكثر، منهم من ينكرها جملة وتفصيلاً، ومنهم من ينكر السنة القولية دون الفعلية، ومنهم من ينكر الآحاد دون المتواتر، استمرَّ هذا الاتجاه الشاذ في الأمة يتنقل في طوائف من أهل الضلال إلى مَطْلَع القرن العشرين الميلادي، حيث نشأت في القارة الهندية بدعم من الاحتلال الإنجليزي، فرقة ضالة تسمت بالقرآنيين أو بأهل القرآن، ادّعت نبذ الأحاديث جملة، والاعتماد على القرآن وحده بدعوى أن الكفاية حاصلة به، بل إنها -وهذا من المضحكات المبكيات- زعمت أن اتباع السنة شرك، بل ومانع من تقدم الأمة، ولهُؤلاء نشاط كبير لنشر شُبهاهم عبر جمعيات ومجلات ومؤلفات ووسائل إعلام، ثم تسرّبت نزعة الطعن في السنة، والاستغناء

عنها في اتجاهات أخرى وفي بلاد أخرى، ولهم اليوم نشاط في ترويج ضلالهم في مواقع الشبكة والفضائيات وغيرها.

◀ أما عن أبرز آرائهم فما يأتي:

١. أولاً: ردّ الأحاديث النبوية جملة وتفصيلاً، وادّعاء اتباع القرآن وحده.
٢. ثانياً: زعمهم عدم عصمة النبي ﷺ في تبليغ الإسلام.
٣. ثالثاً: إنكار كثير من الحقائق الشرعية؛ الحياة البرزخية والشفاعة أو تأويلها؛ كحقيقة الجنة والنار.
٤. رابعاً: إنكار الحدود الشرعية وكثير من الأحكام أو تأويلها بتأويلات سخيفة.
٥. خامساً: إنكار العبادات التي لم تردّ في القرآن؛ كالأذان، والمسح على الخفين، مع تلاعبهم في عبادات أخرى كالصلاة والزكاة والصيام حيث يؤدونها بحسب أهوائهم بهيئات غريبة لا يعرفها المسلمون.
٦. سادساً: تفسير القرآن بحسب أهوائهم بمعزل عن الأحاديث وآثار الصحابة رضي الله عنهم.

أمّا عن حكم هؤلاء القرآنيين، فمن المعلوم أن من ردّ السنة النبوية فقد تقدّم أنه ارتدّ وخرج عن الإسلام بالإجماع، وكفر بالقرآن في الوقت الذي كفر فيه بالسنة

إذ لا فرق بينهما، فهما من مشكاة واحدة هي الوحي الإلهي، وقد أفتى العلماء بأن فرقة القرآنيين فرقة كافرة، وأصدر سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمته الله فتوى مطولة في ردة أحد كبار القرآنيين، تجدها في الجزء الثالث من مجموع فتاويه، وقال عنهم في إحدى فتاويه كما في موقعه: «ليسوا قرآنيين، ولكنهم ضدّ القرآن، وملاحدة وضالون، بل كفار بإجماع أهل العلم» انتهى كلامه رحمته الله.

على كل؛ ينبغي أن يعلم أن انتساب القرآنيين إلى القرآن ما هو إلا ستار يُخفون خلفه أهدافهم الهدامة التي تسعى إلى تقويض الإسلام، وإلا فإن من كان صادقاً في إسلامه فلا غنى له عن اتباع السنة، وإذا كان القرآنيون التُكرائيون يزعمون اتباع القرآن، فإن القرآن أول من يُبين كذبهم وضلالهم، والآيات التي تُردّ مذهبهم بين أنه لا إسلام إلا بطاعة النبي صلّى الله عليه وآله واتباع سنته بالعشرات، كما سيأتي إن شاء الله.

المقدم: هل يمكن أن يستغني المسلمون عن السنة بالقرآن الكريم؟

الشيخ: الحقيقة أن دعوى الاستغناء عن السنة بالقرآن ما هي إلا محاولة للاستغناء عن الإسلام بزمّته، ولكن بأسلوب مُلتَوٍ غير صريح، هذه هي الحقيقة بلا مرأى، إذ لا إسلام إلا بسنة، وهذه مسلّمة قطعية لا تقبل الجدل، أما القرآنيون والتُكرائيون وأضرابهم فإنهم يزعمون أن القرآن هو المصدر الوحيد والحجة الفريدة،

فيه البيان والتبيان والغنية عن كل شيء حتى عن السنة، ويستدلون على هذا بقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩] ونحو هذه الآيات.

والجواب عن استدلالهم يكون بما يأتي:

٣. أولاً: معنى الآية التي استدلو بها ونظائرها خارج عن محل النزاع، فالحقيقة أنهم يتمسكون بغير مُستمسك، بيان ذلك أن يقال: نعم، لا شك أن القرآن فيه بيان وتبيان لكل شيء، لكن هذا لا يعني بحال الاستغناء عن السنة؛ لأن السنة كلها تدخل في آية واحدة من القرآن، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

وبين أيدينا إثر حسن يبين المقصود، وهو: ما أخرجه البخاري^(١) رحمته الله عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «لَعَنَ الله الواشِمَاتِ والْمُنْتَشِمَاتِ، والْمُنْتَمِصَاتِ والمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ الْمُغَيَّرَاتِ خَلَقَ اللهُ»، بلغ هذا امرأة فجاءت إليه فقالت: إنه بلغني عنك أنك لعنت كيت وكيت، فقال: وما لي لا ألعن من لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في كتاب الله، فقالت المرأة: لقد قرأت ما بين اللوحين فما وجدت فيه ما تقول؟

قال: لئن كنت قرأتيه لقد وجدتيه، أما قرأتِ: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]؟ قالت: بلى، قال: فإنه قد نهي عنه.

وفي هذا يقول الإمام الشافعي رحمه الله: «ليست تنزل بأحد في الدين نازلة إلا في كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها، فإن قيل: من الأحكام ما ثبت ابتداء بالسنة، قلنا: ذلك مأخوذ من كتاب الله في الحقيقة؛ لأن كتاب الله أوجب علينا اتباع الرسول ﷺ وفرض علينا الأخذ بقوله» انتهى كلامه رحمه الله.

إذاً: اتباع السنة هو اتباع للقرآن؛ لأن القرآن أرشد إلى طاعة النبي ﷺ ولزوم سنته، فمن قبل عن رسول الله ﷺ فعن الله قبل، وعليه؛ اتباع السنة لم يخرج القرآن عن كونه تبياناً لكل شيء، فإن كونه تبياناً هو باعتبار أن فيه النص على بعض الأحكام، وإحالة في البعض الآخر إلى السنة.

٤. ثانياً: من ينكر سنة النبي ﷺ يقال له: هل الإشكال عندك في كون كلام رسول الله ﷺ حجة أصلاً؟ بمعنى: لو قدر أنك وقفت أمامه وسمعت منه مباشرة، هل ستقبل قوله أم لا؟ أم أنك تلتزم حجية قوله وفعله ﷺ ولكنك تشك فيما نُقل إليك منها؟ إن كان الإشكال الذي دعاك إلى ردّ السنة هو الثاني وهو

الشك في طريقة نقلها، فهذا موضوعنا في الحلقة القادمة - إن شاء الله - وسناقشه - بعون الله - تفصيلاً هناك.

لكن خلاصة القول: أن هذا شك لا وجه له، فإن نقل حديث النبي ﷺ قد بلغ من الاحتياط والتحفظ الغاية بحيث أنك لن تستطيع أن تثبت صحة أي قول بمعايير أدق من مقاييس قبول السنة، وهو شيء لم تعرف له البشرية نظيره.

أما إن كان الإشكال عندك هو الأول، فأنت لا ترى في كلام النبي ﷺ حجة، ولا تلتزم بطاعة لأوامره ولا انتهاء عن نواهيه، ولا تصديق لإخباره، إذاً أنت لم تؤمن به نبياً رسولاً، وعليه فلا إسلام لك، فنحن إذاً نبحث مع شخص غير مسلم، إذ لا معنى للإيمان برسول مع الإعراض عنه ومعاندة أمره، والله تعالى يقول في القرآن: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤]، وهذه قضية بديهية في العقل، معلومة بالضرورة من دين الإسلام.

الخلاصة: أنت يا من يزعم أنه قرآني بين أمرين: إما أن تلتزم طاعة النبي ﷺ جملة وتفصيلاً، أو تخلع رتبة الإسلام جملة وتفصيلاً.

٥. ثالثاً: يقال لهذا القرآني: بأي حجة قبلت القرآن واعتبرته حجة

ملزمة؟ إن قلت: صدقت الرسول ﷺ في إخباره أن هذا وحي

الله، فأنا قبلته على هذا الأساس، وبالتأكيد لا جواب له إلا

هذا، فيقال حينئذ: ولم ما قُبلت إخباره أن سُنَّته من وحي الله، فإنه قد قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ، أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ»^(١)، وكان يقول ﷺ: «إِنَّهُ أَوْحَى إِلَيَّ كَذَا وَكَذَا» في أحاديث عدة، لم صدَّقته في الأول ولم تُصدِّقه في الثاني؟

٦. رابعًا: يقال لمن يدعي أنه مسلم متمسك بالقرآن فحسب، وأن القرآن وحده فيه تبيان وبيان لكل شيء: أخبرني بتفاصيل أحكام الإسلام الذي هو بيان وتبيان لكل شيء من القرآن؛ في البيع والربا والتفليس والحجر والصلح والحوالة والضمان والشركات والوكالة والشفعة والقرض، حدَّثني عن تفاصيل أحكام الإجارة والهيبة والعارية والرضاع والعدة والخُلْع، ما تفاصيل أحكام هذه من خلال القرآن؟ بل حدَّثني من القرآن عن صفة الأذان، الذي يعرفه المسلمون جميعًا، ومن خلال القرآن فحسب بيِّن لي أنصبة الزكاة، ومقدار ما يُدفع للفقير منها ولا تنسى أن تُبيِّن لي الآيات التي تفصل صدقة الفطر، ومواقيت الإحرام، وعدد أشواط

(١) رواه أحمد برقم (١٧١٧٣).

الطواف والسعي ورمي الجمار، بل ضَعُ يدي على الآيات التي وضحت الصلوات الخمس، التي يصليها المسلمون في أرجاء المعمورة بعدد ركعاتها وأذكارها وصفتها على التفصيل، مع بيان أحكام سجود السهو وصلاة العاجز؟

سأخبرك عن جوابه: فهو إما أن يقف حائرًا لا يدري ما يقول، أو ربما يتبين له أنه لا يمكن أن يطبق الإسلام الحق بمَعَزَلٍ عن السنة فيؤوب إلى الحق، وإما أن يتحدّلق فيقول: الحجة في أحكام الصلاة والصوم والزكاة إنما هي التواتر العملي بين المسلمين وليست سنة، فنقول له حينها: حسنًا، هذه إحدى المغالطات؛ لأن التواتر لا بد أن يُبنى على شيء، فعلى أيّ شيء انبَنَى هذا التواتر الذي تعتمد عليه؟

توضيح هذا: دَعْنَا الآن من المسلمين المتأخرين، وحدثني عن أول جيل تلقى هذه الأحكام وعمل بها، وهو جيل الصحابة رضي الله عنهم، وهؤلاء كانوا قبل التواتر كما هو واضح، فعلى أيّ شيء اعتمدوا في صلاتهم وأذانهم وجميع عباداتهم؟ لن نستطيع أن نقول: إنهم اعتمدوا على القرآن؛ لأنه لا وجود لِمَا ذَكَرْتُ لك في القرآن، فما بقي إلا أنهم اعتمدوا على السنة، وهنا يقال: من أين أتى النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الأحكام، من عند نفسه، أو من وحي أوحاه الله إليه؟

إِنْ قُلْتَ: مَنْ عِنْدَ نَفْسِهِ فَلَا حُجَّةَ فِي هَذَا، إِذَا التَّوَاتَرَ الَّذِي تَحْكِيهِ هُنَا لَا قِيَمَةَ لَهُ؛ لِأَنَّهُ مَبْنِيٌّ عَلَى غَيْرِ أَسَاسٍ، وَإِنْ قُلْتَ، بَلْ هُوَ وَحْيٌ مِنَ اللَّهِ، إِذَا قَدْ أُثْبِتَ أَنَّ السَّنَةَ وَحْيٌ، وَإِذَا كَانَتْ وَحْيًا فَقَدْ وَجِبَ التَّزَامُهَا، وَهَذَا هُوَ الْمَطْلُوبُ.

وَأَخْتَمُ هَذِهِ الْفَقْرَةَ بِأَثَرِ حَسَنِ: عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حَصِينٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَهُوَ أَثَرُ أَخْرَجَهُ سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ وَغَيْرُهُ، أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَذَكَّرُونَ الْحَدِيثَ، فَقَالَ رَجُلٌ: دَعُونَا مِنْ هَذَا وَجُونَا بِكِتَابِ اللَّهِ، فَقَالَ عِمْرَانُ: «إِنَّكَ أَحْمَقُ، أَتَجِدُ فِي كِتَابِ اللَّهِ الصَّلَاةَ مَفْسُورَةً؟ أَتَجِدُ فِي كِتَابِ اللَّهِ الصِّيَامَ مَفْسُورًا؟ إِنْ الْقُرْآنُ أَحْكَمَ ذَلِكَ، وَالسَّنَةُ تَفْسِرُ ذَلِكَ».

المقدم: نُنْتَقِلُ إِلَى ذِكْرِ الْأَدْلَةِ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ عَلَى حُجَّةِ السَّنَةِ، وَالَّتِي تَرُدُّ عَلَى مُنْكَرِي السَّنَةِ النَّبَوِيَّةِ عَلَى صَاحِبِهَا أَفْضَلَ الصَّلَاةِ وَأَتَمَّ التَّسْلِيمِ؟

الشيخ: لَكِنْ إِنْ أَذْنَتَ لِي حِفْظُكَ اللَّهَ، أَوْدُ أَنْ أَشْكُرَ الْإِخْوَةَ عَلَى مَدَاخِلَتِهِمُ السَّيِّدَةَ، وَأَقُولُ: مَا شَاءَ اللَّهُ تَبَارَكَ اللَّهُ أَجُوبَةُ مَفِيدَةٌ سَدِيدَةٌ وَأَمْثَلَةٌ لَطِيفَةٌ، لَكِنْ عِنْدِي تَنْبِيهُ فَقَطْ عَلَى قَوْلِنَا: (السَّنَةُ هِيَ الْمَصْدَرُ الثَّانِي لِلتَّشْرِيعِ).

أنا أقول: هَذِهِ الْجُمْلَةُ إِنْ أُرِيدَ بِكَوْنِ السَّنَةِ هِيَ الْمَصْدَرُ الثَّانِي فِي الرِّبْتَةِ وَالْمَكَانَةِ فَنَعَمْ لَا شَكَّ أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ وَهُوَ الْمَقْدَمُ، أَمَّا إِنْ أُرِيدَ الْحُجَّةُ فَالْحَقُّ أَنَّهُمَا مَصْدَرٌ وَاحِدٌ لَا فَضْلَ بَيْنَهُمَا، فَأُحِبُّبْتُ أَنْ أُبَيِّنَ هَذَا التَّنْبِيهِ حَتَّى نَكُونَ عَلَى بَيِّنَةٍ.

أما بالنسبة للسؤال الذي تفضلتم به فإنه في الحقيقة قد صيغ منكم بطريقة مناسبة؛ لأن من الحكمة أن يناقش هؤلاء بالأدلة التي يزعمون أنهم يؤمنون بها ويأخذون وإن كانوا في الحقيقة لها جاحدين لأجل أن يتم إفحامهم بأسهل طريق، وهم يزعمون أنهم يؤمنون بالقرآن إذا نحن سنناقشكم بالقرآن، والحق أن آيات القرآن قد تنوعت في الدلالة على حجية السنة، وسأورد منها ما تيسر بإذن الله.

● من تلکم الأدلة أولاً: كل آية تدل على عصمته ﷺ في إبلاغ

الرسالة، كقوله تعالى عن نبيه **عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ**: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ

الْهَوَىٰ﴾ [النجم: ٣].

● ثانيًا: كل آية تدل على وجوب الأخذ بما أتى به ﷺ؛ كقوله سبحانه:

﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

● ثالثًا: كل آية تدل على وجوب طاعته ﷺ، كقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا

اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

● رابعًا: كل آية تدل على وجوب اتباعه ﷺ، كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ

كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، ولا فرق في طاعته

واتباعه والأخذ بما جاء به بين من سمع منه مباشرة ومن بلغه كلامه بواسطة موثوقة، فالكل مطالب بطاعته ﷺ.

● خامساً: كل آية تدل على أنه ﷺ مبيّن لما أنزل الله، كقوله تعالى:

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، إذا

حديثه ﷺ بيان للقرآن بنص القرآن، ولا غنى للمبيّن عن المبيّن، فتعطيل السنة إذا تعطيل للعمل بالقرآن، ولذا كثير من الأحكام لا يمكن امتثالها إلا بالسنة بدءاً من أركان الإسلام العملية الأربعة، فهذه قد جاء بها الأمر مجملاً في القرآن وربما مع بعض التفصيل القليل، أما التفاصيل الكثيرة الواضحة فكانت من نصيب السنة، وهذا يؤكد ما قدّمته من أن إلغاء السنة يعني إلغاء الإسلام بالكلية، فلا إسلام إلا بسنة.

● سادساً: كل آية تدل على وجوب تحكيمه ﷺ عند النزاع، كقوله

تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ

بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥].

- سابعاً: كل آية تدل على وجوب ردّ النزاع إلى القرآن والسنة لا إلى القرآن وحده، كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ نَنْزَعْنَاهُ مِنْ شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩].
- ثامناً: كل آية تدل على التحذير من مخالفته ﷺ، كقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].
- تاسعاً: كل آية تدل على أنه ﷺ لا يتبع إلا ما يوحى إليه، كقوله تعالى: ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ﴾ [الأحقاف: ٩].
- عاشراً: كل آية تدل على أن السنة مُنزلة من عند الله كما أن القرآن مُنزل، كقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣] والحكمة هي السنة كما بين علماء الإسلام.
- حادي عشر: كل آية تدل على أن السنة وحي من الله، كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤]، وهذا يشمل كل ما ينطق به ﷺ من قرآن وسنة، ومن فرّق بينهما

فقد تحكّم وتكلم بلا دليل، ولذا تجد في القرآن إشارة إلى أحكام مقررّة لم ترد في القرآن، وإنما وردت في السنة.

حُذِّ مثلاً قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾ [البقرة: ١٤٣] وهي بيت المقدس مع أنه لم يرد ذكر لهذا في القرآن، وإنما دليل التوجه لبيت المقدس السنة، ومع ذلك الله يقول: ﴿وَمَا جَعَلْنَا﴾.

حُذِّ مثلاً آخر: قوله تعالى: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧] هذا نسخ للتحريم، فكان يحرم على المسلمين في ليل رمضان بعد النوم الأكل والشرب والجماع، فأين هذا في القرآن؟ لا وجود له، إنما دليله السنة، وقد اعتدَّ القرآن به.

● ثاني عشر وأخيراً: كل آية تدل على أن من أطاع الرسول ﷺ فقد

أطاع الله؛ كقوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى

فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ [النساء: ٨٠].

المقدم: ودنا لو تعطونا وصايا أو أصول جامعة في حُجِّيَّة السنة تُلَخِّص لنا

الموضوع في جمل يسيرة؟

الشيخ: بين يديَّ عشرة أصول جامعة، أرجو أنها تلخص كل شيء في هذا الموضوع:

- أولاً: السنة شقيقة القرآن، ولا غنى لواحد منهما عن الآخر، ولا ينفع الإيمان بأحدهما دون الآخر.
- ثانياً: لا تعارض بين السنة والقرآن، بل هما متفقان مؤتلفان، وكل دعوى بخلاف هذا فسببها الجهل أو سوء القصد.
- ثالثاً: لا يمكن الاستغناء عن السنة بالقرآن، وحقيقة هذه الدعوى الاستغناء عن الإسلام والسعي في تقويضه، إذ لا ثبوت لإسلام بلا سنة، ولا يفهم إسلام بلا سنة، ولا يقبل إسلام بلا سنة.
- رابعاً: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، ومن أخذ بالسنة فقد أخذ بالقرآن، ومن أعرض عن السنة فقد أعرض عن القرآن.
- خامساً: يستحيل فهم القرآن والعمل به بمعزل عن السنة، فهي بيانه وتفسيره.
- سادساً: السنة حُجة مستقلة في التشريع، فما جاء منها مطابقاً للقرآن حجة، وما جاء منها زائداً على القرآن حجة.
- سابعاً: السنة كلها حجة وجميعها وحي، قولية أو فعلية أو تقريرية، لا فرق في هذا بينما يتعلق منها بالعبادات، أم بالمعاملات، أم بالعقائد، أم بالأخلاق.

- ثامنًا: السنة حجة دائمة لا مؤقتة، كانت كذلك ولا تزال ولن تزال.
- تاسعًا: ثبوت حجية السنة واستقلالها بالتشريع ضرورة دينية إجماعية قطعية، ولا يخالف في هذا إلا من لا حظ له في الإسلام.
- عاشرًا وأخيرًا: عِداء مُنْكَرِي السنة مع الإسلام نفسه، وما إنكار السنة إلا ستار، والله ﷻ أعلم.

المقدم: إذا كان هناك إحالة أو كتاب توصون به حول الموضوع.

الشيخ: أما الإحالة فالحقيقة أنني قد جرّثُ أمام نتاج طيب مبارك إن شاء الله وفير، لكنني أحيلك إلى ثلاثة رسائل، أظن أنها مفيدة يا طالب الفائدة:

١. أولاً: رسالة لطيفة صغيرة للشيخ عبد العزيز بن باز ﷺ، اسمها «وجوب العمل بسنة الرسول ﷺ، وكفر من أنكرها».

٢. وأحيلك ثانيًا: إلى رسالة لطيفة هي «منزلة السنة في التشريع الإسلامي» للشيخ محمد أمان ﷺ.

٣. وثالثًا: أحيلك إلى رسالة علمية قيمة مطبوعة، اسمها «القرآنيون وشُبُهاتهم حول السنة» للدكتور خادم حسين ﷺ.





الحلقة الثانية والعشرون

حجية السنة النبوية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الشيخ: فالسنة يراد بها في حديثنا هنا: كُلّ ما أُضيف إلى النبي ﷺ من قول، أو فعل، أو تقرير، أو صفة، فهي على هذا مرادفة للحديث، وليس مرادنا الإطلاقات المستعملة في سياقاتٍ أخرى، كالسنة التي بمعنى المستحب، يُقال: صلى صلاة الفريضة وصلاة السنة، أو السنة بمعنى: الاعتقاد، كما يعبر علماء الاعتقاد، المراد هنا ما هو أعمّ من ذلك.

المقدم: ربما البعض يسمع أيضاً بكلمة السيرة، هل السيرة هي نفسها السنة؟

الشيخ: لا شك، السيرة لا تخلو عن أن تكون حكاية لفعله ﷺ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أو قوله، أو صفاته الخلقية، أو الخلقية، وبالتالي فهي داخلة في السنة.

المقدم: وأيضاً ما الأسئلة التي ربما تبرز هو ثمرات اتباع السنة، ما الفائدة حينما مثلاً يتبع المسلم سنة النبي ﷺ، ألا يكفي مثلاً القرآن الكريم؟

الشيخ: لا شك أن الافتتاح -افتتاح هذا الموضوع- بهذا السؤال المهم من الأهمية بمكان، ولعلك -يا رعاك الله- توافقي الشعور أن هذه الحلقة لما تعلقت بسنة نبينا المصطفى وحبينا المُجتبى ﷺ، فإننا نستروح منها أريزاً عبّقا، بذكر السنة تتعطر الأفواه، وتتشنّف الأسماع، وتترين المجالس.

أَمَّا عَنْ ثَمَرَاتِ اتِّبَاعِ سُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ فَأَقُولُ: اللَّهُ ﷻ بَعَثَ خَلِيلَهُ مُحَمَّدًا ﷺ إِلَى النَّاسِ رَسُولًا، وَجَعَلَهُ إِلَى جَنَانِهِ دَلِيلًا، فَبَلَغَ عَنْهُ رِسَالَاتِهِ، وَبَيَّنَ الْمُرَادَ عَنْ آيَاتِهِ، فَكَانَ فِي لُزُومِ سُنَّتِهِ تَمَامُ السَّلَامَةِ وَجَمَاعِ الْكِرَامَةِ، مَنْ لَزَمَهَا عُصَمَاءُ، وَمَنْ خَالَفَهَا نَدَمٌ، إِذْ هِيَ الْحَصَنُ الْحَصِينُ، وَالرَّكْنُ الرَّكِينُ، مَنْ تَمَسَّكَ بِهَا سَادَ، وَمَنْ رَامَ خِلَافَهَا بَادَ، الْمُتَعَلِّقُونَ بِهَا أَهْلُ السَّعَادَةِ فِي الْآجِلِ، وَالْمَغْبُوطُونَ بَيْنَ الْأَنَامِ فِي الْعَاجِلِ.

ثَمَرَاتُ مُتَابَعَةِ النَّبِيِّ ﷺ ثَمَرَاتٌ عَظِيمَةٌ، كُلُّ مَنْ اتَّبَعَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَاللَّهُ كَافِيهِ وَهَادِيهِ وَنَاصِرَهُ وَرَازِقَهُ، مَنْ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْفَائِزِينَ فَعَلِيهِ بِاتِّبَاعِ السَّنَةِ، ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥٢].

• مَنْ أَرَادَ رَحِمَتْهُ اللَّهُ فَعَلِيهِ بِاتِّبَاعِ السَّنَةِ، ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ

تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

• مَنْ أَرَادَ الْهُدَايَةَ وَالتَّوْفِيقَ فَلْيَتَّبِعِ السَّنَةَ، ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ

تَهْتَدُوا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

• مَنْ أَرَادَ بُلُوغَ الصَّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، فَعَلِيهِ بِاتِّبَاعِ السَّنَةِ، ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى

صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المؤمنون: ٧٣].

• من أراد النجاة، من أراد الجنة فليلزم السنة، قال ﷺ كما عند البخاري^(١):

«كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مِنْ أَبِي»، قالوا: ومن يَأْبَى يا رسول الله؟

قال: «مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى».

ولذا قال مالك رحمته الله: «السُّنَّةُ سَفِينَةُ نُوحٍ، مَنْ رَكِبَهَا نَجَا، وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا هَلَكَ».

• من أراد محبة الله فليبادر إلى طاعة رسوله ﷺ، ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ

فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

وما أحسن ما قال ابن القيم رحمته الله في كتابه «المدارج»: «ولا يحبك الله إلا إذا اتبعت حبيبَه ﷺ ظاهراً وباطناً، وصدَّقْتَه خبراً، وأطعْتَه أمراً، وأجبْتَه دعوة، وآثرْتَه طَوْعاً، وفنيت عن حكم غيره بحكمه، وعن محبة غيره من الخلق بمحبته، وعن طاعة غيره بطاعته، وإن لم يكن ذلك فلا تتعنَّ».

هذه بعض ثمرات متابعة السنة والالتزام بها، وإلا فالمقام يقتضي كلاماً أكثر من هذا بكثير.

وأنبئه هاهنا: إلى أننا إذا تكلمنا عن ثمرات الالتزام بالسنة، فلا نعني الالتزام بالسنة مع إهمال القرآن، القرآن والسنة شقيقان، كلاهما وحيٌّ من الله، المراد إذا: الالتزام بالسنة مع القرآن.

(١) رواه البخاري برقم (٧٢٨٠).

المقدم: ربما البعض أحياناً يطرح استشكالاً أو بعض مُناوئي مثلاً اتباع السنة، يرى أنه كثير من الأفعال والأقوال الواردة عن النبي ﷺ كانت تناسب ذلك الزمان، ونحو ذلك من الأمور، كيف نرُد على هؤلاء؟

الشيخ: ما أدري هل تأذن لي أن نؤجل ذلك؛ لأن هذا هو موضوع حلقتنا القادمة إن شاء الله، فسناخذه على وجه التوسع بإذن الله ﷻ، سيكون موضوعنا (حُجِّيَّة السنة وعلاقتها بالقرآن).

المقدم: إذا نُركز في حلقة اليوم على الواجب على المسلمين تجاه السنة النبوية قبل أن تنتقل -إن شاء الله- في الحلقات القادمة إلى المناوئين والحُجج التي يقولونها.

المقدم: ما حقوق السنة على أمة النبي ﷺ؟

الشيخ: وهذا هو موضوعنا الأساس الذي أودُّ أن نفتتح هذه السلسلة التي نتحدث فيها بها إن شاء الله تعالى.

◀ وبين يدي عشرة حقوق للنبي ﷺ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على هذه الأمة المحمدية:

● الحق الأول: مَحَبَّتُهَا.

من أعظم حقوق السنة علينا -معشر هذه الأمة-: محبة كل ما يضاف إلى النبي ﷺ، يجب وجوباً أن تحب كل سنة سَنَّها ﷺ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وهذا فرع عن صادق

حُبُّكَ لَهُ، فَإِنَّهُ الْقَائِلُ ﷺ كَمَا فِي «الصَّحِيحِينَ»^(١): «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»، علامة محبة النبي ﷺ: محبة سنته. إذا أُرِدْتَ أَنْ تَعْرِفَ صَدَقَ مَحَبَّتَكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَامْتَحِنَهَا بِهَذَا الْامْتِحَانِ الدَّقِيقِ، إِذَا رَأَيْتَهَا تَحِبُّ كُلَّ شَيْءٍ يَمُتُّ إِلَيْهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بَصَلَةً، فَأَبْشِرْ بِالْخَيْرِ وَاطْمَئِنِّ، وَإِلَّا فَأَعِدِ النَّظَرَ فِي حَالِكَ، وَمَنْ نَظَرَ فِي حَالِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، أَوْلَيْكَ الْمَحْبِينَ الصَّادِقِينَ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَسُنَّتِهِ رَأَى عَجَبًا، حَتَّى إِنَّهُمْ أَضْحَوْا بِحُبِّهِ الْأُمُورَ الْعَادِيَةَ الَّتِي كَانَ يَفْعَلُهَا أَوْ يُحِبُّهَا ﷺ.

وَمِنْ ذَلِكَ: مَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحِينَ»^(٢)، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّ خِيَاطًا دَعَا النَّبِيَّ ﷺ، فَقَدَّمَ لَهُ طَعَامًا كَانَ فِيهِ دُبَّاءٌ، قَالَ: «فَرَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَتَّبِعُ الدُّبَّاءَ مِنْ حَوَالِي الصَّحْفَةِ، فَلَمْ أَزَلْ أَحِبُّ الدُّبَّاءَ مِنْ يَوْمُنَا».

إِذَا عَلِمْنَا هَذَا فَحَذَارِ مِنْ بَعْضِ شَيْءٍ مِمَّا جَاءَتْ بِهِ سُنَّةُ النَّبِيِّ ﷺ، كَمَا يَقَعُ فِي هَذَا بَعْضُ الْمَخْذُولِينَ، فَإِنَّكَ قَدْ تَجَدَّهْمُ يَكْرَهُونَ أَوْ يَتَّقِزُّونَ مِنْ شَيْءٍ سَنَّهَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؛ لِأَنَّهُ يَخَالِفُ أَهْوَاءَهُمْ، وَمَا عَلِمُوا أَنَّهُمْ وَقَعُوا فِي حَفْرَةٍ هَلَكَةٍ، وَقَدْ قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ: «مَنْ أَبْغَضَ شَيْئًا مِمَّا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ وَلَوْ عَمِلَ بِهِ كَفَرَ إِجْمَاعًا، وَالِدَلِيلُ قَوْلُهُ

(١) رواه البخاري برقم (١٥)، ومسلم برقم (٤٤).

(٢) رواه البخاري برقم (٢٠٩٢)، ومسلم برقم (٢٠٤١).

تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَاحْبَطُوا أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٩]، فوطّن نفسك على محبة السنة، حتى ولو كنت مقصراً - وهذا تنبيه مهم - حتى لو قصرت في اتباع السنة الواجب عليك أن تحبها وتُجلّها، هذه قضية عقدية لا تغفل عنها، خُذ مثلاً: إعفاء اللحية جاء في فعله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وبالأمر به، هذه هي السنة، ومن حلق لحيته فهذا مقصر واقع في معصية، ومع ذلك فيجب عليه أن يحب إعفاء اللحية، وإذا رأى ذلك في الناس فرح؛ لأن هذه سنة النبي ﷺ وهو يحبه، ويجب سُنته، هذا قدّر لا تهاون فيه، السُّنة قد دَلَّت على حجاب المرأة، فالمتبرجة مقصرة عاصية ومع ذلك فواجب أن تُحب الحجاب وتعظمه؛ لأنه قد جاء في السنة وهكذا.

المشكلة هنا: أنه مع إلف التقصير في اتباع السُّنن النبوية واعتياد ذلك لربما تنشأ في النفس - عياداً بالله - كراهية لها، وعدم ارتياح لرؤيتها، وهنا مَكْمَن الخطر، إذا قصّرت في اتباع السنة فحذار أن تجمع إلى هذا ذنباً أعظم قد يعصف بإيمانك، وهو أن تَكْرَهَهَا.

● الحق الثاني: تعظيم السنة وإجلالها، والنظر إليها بعين التكریم والتشريف، هذا حق من حقوق السنة علينا معشر المسلمين، السنة مشرّفة؛ لأنها وحي من عند الله، السنة معظمة؛ لأنها هدي الرسول الأمين ﷺ، تعظيم السنة فرع عن تعظيم صاحبها ﷺ إذ يجب تعظيمه وتوقيره، وأن يُعامل

من التشريف والتكريم بما يليق به عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، والله ﷻ يقول:

﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: ٩].

وما أَلْطَفَ ما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «إذا كانت البهائم والجمادات تُعْظِمُ رسول الله ﷺ، فنحن أحقّ بتعظيمه».

إذاً: متى ما بلغت سنة ثابتة عنه ﷺ فعظمها في نفسك، متى ما سمعت حديثاً فأجلّه.

ومن لطيف ما يذكر هنا: قول الإمام حماد بن زيد رحمه الله في قوله ﷺ: ﴿لَا

تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢] قال: أَرَى رَفَعَ الصوت عليه ﷺ بعد موته كَرَفَعَ الصوت عليه في حياته، إذا قُرَأَ حديثه وجب عليك أن تنصت له كما تنصت للقرآن».

ويُضَادُّ هذا الحق: السخرية والاستهزاء بالسنة، وما أشنعها من وقاحة، وما أعظمه من إثم، فقد أجمع المسلمون على أن مَنْ استهزأ بشيء من سُنَّةِ النبي ﷺ أو

حديثه، فقد ارتدَّ عن دين الله، قال سبحانه: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا

كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا

تَعْنَدِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦].

إذاً هذه التي يسمونها (النُّكْت)، يُنَكِّت الإنسان، أقول: إن تناولت شيئاً من السنة أو الأحاديث أو حَامَت حولها، فإنها والله تهوي بصاحبها إلى الهاوية إلا أن يتداركه الله ﷻ بتوبة نصوح، نُكْتة تَضَحْك أو تُضَحِك بها ربما تبوء بسببها بسخط الله ولعنته وأنت لا تشعر.

في «الصحيحين»^(١)، قال ﷺ: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مَا يَتَّبِعُ مَا فِيهَا، يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ»، فالنصيحة إذا وصل المزاح إلى شيء يتعلق بالدين فاحفظ لسانك، وحذار من أن تخسر دينك.

● الحق الثالث: اعتقاد أنها الهداية كل الهداية، والنور والصواب وغاية الكمال، ولا يمكن أن يخرج الحق عنها، وفي «صحيح مسلم»^(٢)، قال ﷺ: «خَيْرُ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ».

وفي «البخاري»^(٣) قال ابن مسعود رضي الله عنه: «أَحْسَنُ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ»، لا هداية إلا باتباع القرآن والسنة، ومهما ابتغيت الهداية في غيرها ظللت قطعاً، أويت

(١) رواه البخاري برقم (٦٤٧٧) ولفظه "إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ، مَا يَتَّبِعُ فِيهَا، يَرُلُّ بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مِمَّا بَيْنَ الْمَشْرِقِ"، ومسلم برقم (٢٩٨٨).

(٢) رواه مسلم برقم (٨٦٧).

(٣) رواه البخاري برقم (٦٠٩٨).

إلى الهوى، وثُغِتْ في العماية، قال سبحانه: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [النقص: ٥٠]، فما ثَمَّ إلا طريقان: الاستجابة للنبي ﷺ، أو اتباع الهوى.

وإن الإنسان ليعجب من شاب من أبناء المسلمين يقول: أنا حائر، لا أدري أين الحق والصواب، وربما ذهب يتطلَّب الصواب في فلسفة قديمة أو حديثة، أو في مناهج شرقية أو غربية، أو في طرائق بدعية، القرآن والسنة بين يديه، ويصدق في هذا قول الشاعر:

وَمِنَ الْعَجَائِبِ وَالْعَجَائِبِ جَمَّةٌ قُرْبُ الدَّوَاءِ وَمَا إِلَيْهِ وَصُولُ
كَالْعَيْسِ فِي الْبَيْدَاءِ يَقْتُلُهَا الظَّمَاءُ وَالْمَاءُ فَوْقَ ظُهُورِهَا مَحْمُولُ
لا تتعب، ولا تتحير، دُونِكَ الكتاب والسنة فيهما الدواء والشفاء والغناء.

● الحق الرابع: التسليم التام لها، وتقديمها على ما عداها.

مِنْ حَقِّ السَّنةِ النَّبَوِيَّةِ عَلَى الْمُسْلِمِ: التسليم التام لها، فمتى ما بلغته سَلَمٌ وأذعن وأقبل بلا تردُّد أو تشكُّك، واطَّرح أمامها كل ما عداها، هذا واجب لا خيار فيه، يقول ربنا سبحانه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ

ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

ويقول عمر بن عبد العزيز رحمه الله: «لا رأي لأحد مع سنة سنَّها رسول الله ﷺ».

والإمام الشافعي رحمه الله يقول: «أجمع المسلمون على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد من الناس».

ومن لطيف ما يُذكر هنا: ما أخرج الإمام أحمد رحمه الله في «المسند»؛ أن رجلاً سأل عبد الله ابن عمر رضي الله عنه عن الصلاة بمئى؟ أي: لم كانت مقصورة؟ فقال له رضي الله عنه: «هل سمعت بمحمد ﷺ؟» سؤال عجيب! قال الرجل: نعم، وآمنتُ به، قال: «فإنه كان يصلي بمئى ركعتين»، انتهت القضية.

هكذا يكون التسليم والاتباع، يكفيك أن تعلم أن النبي ﷺ كان يفعل كذا، ولا خيار لك حينها إلا أن تفعل كما فعل.

ويضاد هذا الحق: مُعاندتها، أو الاستكبار، أو الاعتراض، أو تقديم غيرها، وما أكثر هذا في هذه الأزمنة المتأخرة مع الأسف الشديد! فمن الناس مَنْ إذا ذُكرت له السنة حَكَمَ فيها عقله المشوَّش، أو تَمَحَّلَ الأعذار الواهية لتركها، فأُفٍّ لكل عقل يتعقب حكم رسول الله ﷺ، تُذكر للمخذول السنة فيقول: لكن العقل يخالف ذلك، أو يقول: ولكن هذا يخالف مذهبي، أو يقول: الزمان قد تغير، ولربما وجدت بعضهم في وسائل التواصل يضع تصويماً في شيء ثبت في السنة، هل توافق على هذا، أو لا توافق؟ سبحان ربي العظيم! وهل لك خيار ألا ترتضي السنة؟

سأل رجلُ الإمام الشافعي رحمته الله عن حديث للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال له الرجل: فما تقول؟ حدّث الشافعي بحديث، قال: الجواب هو قول النبي صلى الله عليه وسلم، فيُعِيد عليه السؤال فيقول: ما تقول أنت؟ فارتعد وانتفض! وقال: أيُّ سماء تُظِلُّني، وأيُّ أرض تُقِلُّني، إذا رَوَيْتُ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقلْتُ بغيره؟

وسُئِلَ مرةً مسألة، فقال: «قَضَى رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا وكذا»، فقال له رجل: ما تقول أنت؟ فسَبَّحَ الله، وقال له: تَرَانِي فِي كَنِيسَةٍ، تَرَانِي فِي بَيْعَةٍ؟ تَرَى عَلَى وَسْطِي زُنَارًا -هذا الذي كان يضعه أهل الكتاب- أَقُولُ لَكَ: قَضَى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت تقول لي: ما تقول أنت؟! إذا هذا هو موقف المسلم الصادق، الإذعان والتسليم، وربنا سبحانه يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

إنَّ من أخطر الأشياء على دين المرء: أن يُقَابِلَ الآية أو الحديث باعتراض أو رد، هذه مسألة عظيمة غير قابلة للتساهل؛ لأنها تتعلق بأصل الدين، فإن من رَدَّ حديثًا واستكبر عن قبوله فهو على شفا هلكة، مَنْ عَانَدَ السَّنة وَأَصْرَ عَلَى تَنْكُوبِ طَرِيقِهَا فَقَدْ أَوْرَدَ نَفْسَهُ الْمَوَارِدَ، وَعَرَّضَ نَفْسَهُ لِأَمْرٍ عَظِيمٍ، وَيَكْفِيهِ أَنَّهُ مُتَوَعَّدٌ بِالْعَذَابِ الْأَلِيمِ، اللَّهُ صلى الله عليه وسلم يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، ويقول صلى الله عليه وسلم: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا

نَبِينَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿[النساء: ١١٥].

ولعلَّ ذاك المأفون إن لم يُثب، أن يندُب حظه يوم الدين ولا ينفعه، فيكون ممَّن بين الله حاله، ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٧].

هذا عدا عقوبة قد تحل به في الدنيا قبل الآخرة، قال ﷺ كما عند أحمد ^(١): «وَجُعِلَ الذَّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي».

ولعلَّنا نتأمل هذه الواقعة العجيبة، التي أخرجها الإمام مسلم رحمته الله في صحيحه ^(٢)، وهي: أن رجلاً أكل بشماله، فقال له النبي ﷺ: «كُلْ بِيَمِينِكَ»، فاستكبر عن الأمر، وقال: لا أستطيع، وقال ﷺ: «لَا اسْتَطَعْتَ، مَا مَنَعَهُ إِلَّا الْكِبَرُ»، يقول الراوي: فما رَفَعَهَا إلى فيه يعني: إلى فَمِهِ بعد ذلك، يعني: شَلَّتْ يده عياداً بالله من سوء العاقبة.

● الحق الخامس: الاستجابة لها بلا تُلْكُوْ، والمبادرة إلى تطبيقها بدقة.

(١) رواه أحمد برقم (٥١١٤).

(٢) رواه مسلم برقم (٢٠٢١).

من الواجب على المسلم تجاه السنة: أن يبادر إلى الاستجابة لها، فإذا بلغه الأمر أطاع، وإذا بلغه النهي انتهى، وإذا بلغه الخبر صدّق، هذا مقتضى الإيمان بالنبى ﷺ، ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١].

وتأمّل في هذا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، لاحظ قوله: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ فإنه إخبار صريح أن الحياة الحقيقية هي التي تكون تحت ظلال السنة، الحياة الحقيقية حياة القلب، ولا وجود لها إلا في طاعة النبي ﷺ، وفي ضدها: موت القلب، ولو تأمّل المتأمل لوجد أن النصوص قد جاءت بتسمية الأوامر الإلهية والنبوية: عُهُودًا ووصايا ورحمة وشفاء ونورًا وهدى وحياة، وما أحسن ما قال ابن القيم رحمه الله: «فله حوضان عظيمان: حوض في الدنيا، وهو سُنّته وما جاء به، وحوض في الآخرة، فالشاربون من هذا الحوض في الدنيا هم الشاربون من حوضه يوم القيامة، فشارب ومحروم، ومستقلّ ومستكثر» ثم قال: «فَمَنْ ظَمِئَ من سُنّته في هذه الدنيا، ولم يكن له منها شرب؛ فهو في الآخرة أشدّ ظمًا وأحرّ كبد».

إذا ليتنبّه المقصر والمتكاسل في طاعة النبي الكريم ﷺ؛ فإن حياته ناقصة مظلمة، إنه من قِلّة التوفيق، بل من عدم التوفيق: أن تَسْمَعَ من يقول: الأوامر النبوية والأحاديث فيها ثقل ومشقة، مع أنها والله قُرّة العيون وحياة القلوب، كفى

بالمرء جهلاً ولَوْماً أن يَصِفَ السنة النبوية بهذا، وكأنه لم يعرف أن الأوامر الشرعية لم تكن عبثاً، ولا حاجة من ربه إليه، إنما المراد مصلحة العبد ورحمته، وسعادته الأبدية.

● الحق السادس: الاكتفاء بها، والحذر من الزيادة عليها، وهذا يشمل

كل ابتداع وإحداث في الدين، فإن لسان حال المُحدث المبتدع:

سُنة النبي ﷺ غير كافية، فأنا أزيد عليها، ولم يَدِرِ المسكين أنه لم

يستفد إلا التعب والنصب، وإلا فعمله المبتدع مردود عليه، النبي ﷺ

يقول كما في «الصحيحين»^(١): «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا

فَهُوَ رَدٌّ»، رَدٌّ يعني: مردود.

ما يدري المسكين، أن البدعة وإن ازدانت أمام ناظره فهي شر الأمور

وأقبحها، في «صحيح مسلم»^(٢)؛ أن النبي ﷺ قال: «شَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ

بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ».

إذا البدعة ضلالة لا هداية، وإن حُسنَت في عينك، قال ابن عمر رضي الله عنهما:

«كُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ وَإِنْ رَأَاهَا النَّاسُ حَسَنَةً».

(١) رواه البخاري برقم (٢٦٩٧)، ومسلم برقم (١٧١٨).

(٢) رواه مسلم برقم (٨٦٧).

﴿ وَيَحْسُنْ هَاهُنَا إِيْرَادُ أَثْرَيْنِ عَظِيمَيْنِ يُبَيِّنَانِ عَظِيمَ خَطَأٍ مِنْ لَمْ يَقْنَعْ
بِالسَّنَةِ فَرَامَ غَيْرَهَا:

١. الأثر الأول: عن سعيد بن المُسَيَّبِ التَّابِعِي الجليلي رضي الله عنه، فإنه رأى رجلاً يكرر الصلاة بعد طلوع الفجر، فنهأه عن ذلك، رجل بعد صلاة الفجر صلى ركعتين السنة، ثم قام يصلي ركعتين تلو ركعتين، فسعيد رضي الله عنه قال له: لا تفعل، فقال الرجل: يا أبا محمد! أيعذَّبني الله على الصلاة؟ فقال سعيد: «لا، ولكن يُعذِّبك على خلاف السنة». والمستفاد من هذه القصة: أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يصلِّ بعد أذان الفجر إلا ركعتين، أفلا يكفي المسلم أن يتابعه صلى الله عليه وسلم في ذلك؟ أم أنه يطمح -عياذاً بالله- إلى أن يكون أعلم أو أتقى أو أخشى الله من رسول الله صلى الله عليه وسلم، إن اتباع السنة الصادق يقتضي الوقوف عند حدّها دون الزيادة عليها.

٢. الأثر الثاني: فهو عن الإمام مالك بن أنس، إمام دار الهجرة رضي الله عنه، فقد أتاه رجلٌ فقال: يا أبا عبد الله! من أين أُحرم؟ قال: «من ذي الحليفة، من حيث أُحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم» فقال: إني أريد أن أُحرم من المسجد، فقال: «لا تفعل»، قال: فإني أريد أن أُحرم من المسجد، يعني: من المسجد النبوي، من عند القبر، قال: «لا تفعل، فإني

أخشى عليك الفتنة» فقال: وأي فتنة هذه؟ إنما هي أميال أزيدها،
يعني الموضوع سهل، لماذا هذا التضخيم، فقال مالك رحمه الله: «وأي
فتنة أعظم من أن ترى أنك سبقت إلى فضيلة قصر عنها رسول الله
ﷺ» ثم تلا قول الله: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ
فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

● الحق السابع: الحرص على تعلّمها.

من حق السنة عليك يا أيها المسلم: أن تسعى في تعلّمها، إن كان للسنة في
نفسك محل عليّ، إن كنت تُحبّها وتُجلّها، إن كنت تعتقد أنّها طريقك إلى الجنة،
فلأي شيء تُقصر في تعلمها؟ لا تشمّر في الاستزادة من معرفة حديث النبي ﷺ،
ربما تقرأ في كل شيء إلا في كتب السنة، ما هذا العزوف القبيح، ينبغي أن تجدّ في
تعلّمها، وأن تتضلّع منها، احرص على أن تستزيد علماً بها، أن تتعلم سنة جديدة
كل يوم، خذ كتاباً من الكتب التي جمعت الأحاديث الصحيحة، واجتهد أن تقرأ
وأن تتعلم، أن يكون لك وجبة يومية من سنة النبي ﷺ، خذ رياض الصالحين، خذ
مختصر صحيح البخاري، خذ مختصر صحيح مسلم، اقرأ، وعامة الأحاديث
واضحة ومفهومة بحمد الله، والذي يُشكل عليك اسأل عنه، وإني لك ضامن أنك
تجد بإذن الله ﷻ هذا العلم سعادة غامرة، وأثراً حميداً على قلبك وحياتك.

● الحق الثامن: حُسْن فَهْمُهَا دُونَ غُلُوٍّ أَوْ تَقْصِيرٍ.

من حق السنة عليك: أن تفهمها على وجهها بعد أن تتحقق من ثبوتها عن النبي ﷺ، وهذه مسألة مهمة أفق عندها!

كم من الناس من ينسب إليه ﷺ أحاديث وسننًا وهي غير ثابتة، وربما نشرها في المجموعات أو وسائل التواصل وهو لم يتحقق من ثبوتها عن النبي ﷺ، وهذا مما نُهي عنه، وقد قال ﷺ: «مَنْ حَدَّثَ عَنِي بِحَدِيثٍ يُرَى أَنَّهُ كَذِبٌ فَهُوَ أَحَدُ الْكَاذِبِينَ»^(١)، مَنْ كَذَبَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ، كما أخبر النبي ﷺ، وهاهنا جعل الذي يُحَدِّثُ بِحَدِيثٍ مَشْكُوكٍ فِيهِ، أَنَّهُ فِي حَكْمِ الْكَاذِبِ، إِذَا لَا بَدَّ أَوَّلًا مِنْ أَنْ تَتَحَقَّقَ ثُبُوتُهَا، أَوَّلَ خُطْوَةٍ: أَنْ تَتَحَقَّقَ مِنْ صِحَّةِ النِّسْبَةِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ أَنْ تَفْهَمْهَا الْفَهْمَ الصَّحِيحَ، الَّذِي فَهَمَهُ السَّلَفُ الصَّالِحُ وَأُئِمَّةُ الْإِسْلَامِ الَّذِينَ سَارُوا عَلَى نَهْجِهِمْ، وَلَيْسَ أَنْ تَفْهَمْهَا كَمَا يَحِلُّ لَكَ، أَوْ أَنْ تُطَوِّعَهَا لِتُنَاسِبَ مَعَ رَغْبَاتِكَ، أَوْ أَنْ تُؤَوِّلَهَا لِتُؤَافِقَ هَوَاكَ، كَمَا يَفْعَلُهُ مَنْ قَلَّ حِظُّهُ مِنَ الْخَيْرِ، وَهَذَا -مَعَ الْأَسْفَ- يَقَعُ مِنْ بَعْضِ النَّاسِ، أَنَّهُ إِذَا جَاءَتْهُ السَّنَةُ فَإِنَّهُ يَحَاوِلُ أَنْ يَتَعَمَّقَ وَيُلَاحِظَ فِي الْخُصُومَةِ؛ لِأَجْلِ أَنْ يَجْعَلَ السَّنَةَ تَنْتَاسِبُ مَعَ الشَّيْءِ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ وَلَا يَرِيدُ تَغْيِيرَهُ، وَهَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ خَطَأٌ عَظِيمٌ، إِذَا لَا بَدَّ مِنْ فَهْمِهَا الْفَهْمَ الصَّحِيحَ.

(١) رواه أحمد برقم (١٨١٨٤).

ومَّا يوصلك إلى التحقق من الثبوت أولاً، ومن حُسْن الفهم ثانياً: أن تراجع أهل العلم الثقات الذين جمعوا بين العلم بالسنة صحيحها وضعيفها، والفقهاء فيها، وضبط أصول الشريعة، وفهم مقاصدها.

● الحق التاسع: تبليغها للناس، وتعليمها من ذوي القدرة، والدعوة إليها. إذا سمعتَ بسنة صحيحة -وأكرّر: صحيحة- فاحرص أن تَبَيِّها في الناس، حتى يَفْشُو العلم ويكثر العمل، ولك في هذا مثل أجر من عمل، وقد قال ﷺ كما صح عنه عند الترمذي^(١): «نَظَرَ اللَّهُ أَمْرًا سَمِعَ مِنَّا شَيْئًا فَبَلَّغَهُ كَمَا سَمِعَهُ، فَرُبَّ مُبَلِّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ».

وما أحسن ما قال ابن القيم رحمه الله في كتابه «جلاء الإفهام»: «وتبليغ سنته ﷺ إلى الأمة، أفضل من تبليغ السهام إلى نحر العدو».

● الحق العاشر والأخير: الدفاع عنها، والغضب لها والحمية، وهذا فرع عن صادق التعظيم والمحبة لها.

إنَّ المسلم إن كان كذلك -يعني مُعَظِّمًا محبًّا للسنة النبوية- فإنه يعظُم في نفسه أن يَرى أو يسمع مَنْ يَنْتَهِك حرمتها، أو يتعدى حدودها، أو يجترئ عليها، والمسلم الصادق يبذل ما يستطيع بالحكمة في دفع إفك المعتدين، نحن اليوم مع

(١) رواه الترمذي برقم (٢٦٥٨).

الأسف الشديد- نعيش في زمن قد كثرت فيه الطعون في السنة، وتناولت الأقرام عليها، ورَيَّشوا سهامهم القذرة تجاهها، ولعلَّ الله ﷻ أن يُيسر في حلقات قادمة، مناقشة بعض الزوابع التي أُثيرت حول السنة.

المقصود: أن واجب المسلمين حكامًا ومحكومين تجاه هذا الواقع عظيمة، ومن نصر السنة فليشر، فإن لهم نصيبًا من معية الله الخاصة التي تقتضي عونه وتأييده، فقد قال ﷺ: ﴿إِلَّا نَضُرُّوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ

أَثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْفَكَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا اللَّهُ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، ونصر الرسول ﷺ اليوم، ونصر دينه وسنته، اللهم اجعلنا ممن يقوم بهذا الحق.

المقدم: هل حب المسلم لطاعته وبغضه لمعصيته ﷺ يعد من أصول الإيمان؟
الشيخ: لا شك أن هذا من مقتضى إيمانه، أن يحب ما أحبَّ رسول الله ﷺ، وأن يُبغض ما يُبغض، موافقته في ذلك لا شك أنها من مقتضى إيمانه به عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

المقدم: إن كان من وصية أو إحالة؟

الشيخ: عندي وصية، ثم إحالة.

أقول -يا رعاكم الله-: أعظم نصر للسنة هذا اليوم في اعتقادي، وأبلغ رد على أعدائها هو أن ننصر السنة في أنفسنا أولاً، بمعنى: أن نُصحِّح علاقتنا معها،

أن نعيد برمجة حياتنا - كما يقال - في ضوءها، أن نُربِّي أبناءنا عليها، أن نُعلمها مَنْ حولنا، إذا قلنا عن أنفسنا: نحن من أهل السنة، فعلياً أن نكون أهلاً لهذا الوصف، أن نكون من أهلها عملياً لا تسمية فقط، ولنعلم أن كل خطوة في حياتنا، أن كل حركة وسكنة فيها توجيه نبوي كريم، بل نتعلم ولنطبق، وهذا يحتاج إلى سؤال العون من الله سبحانه، ثم إلى مجاهدة النفس في تعلُّمها وتطبيقها ونشرها في الناس، ومَنْ أريدُ وفَّق.

أمَّا عن الوصية: فإني أوصيك -أيها الأخ الموفق الكريم- بكتاب عظيم، هو «شرح رياض الصالحين» للشيخ ابن عثيمين رحمته الله، احرص على أن تقتني هذا الكتاب؛ فإنك إن فعلت اقتنيت كنزاً عظيماً، وصيداً ثميناً، وستطلع على جملة عظيمة من السنة النبوية مشروحة من عالم ثقة، وبأسلوب سهل، الوصية افتن هذا الكتاب، واقرأه، وليكن لك فيه قراءات مع أسرتك.





الحلقة الثالثة والعشرون

حجية السنة النبوية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الشيخ: فإن موضوع (حفظ السنة النبوية) لم يعد موضوعاً تخصصياً يُطرح لدى المتخصصين إنما هو من الموضوعات التي أضحت من الأحاديث العامة التي تطرح في مجالس الناس، ويخوض فيها كل أحد حتى من غير المتخصصين، والسبب في هذا: أنه منذ سنوات هُيئت منابر إعلامية مفتوحة لأعداء السنة، ييثون من خلالها سُموهم، وقد تأثر بها -مع الأسف- عدد ليس بالقليل، إذًا هناك مشكلة قائمة، وهي الجهود المبذولة من أعداء السنة في تشكيك الناس في سُنّة نبيهم محمد ﷺ من جهة حفظها، وإيهامهم أنها أو جلها قد ضاعت أو تَلَفَتْ، وأن الذي يروج الآن في الكتب شيء مشكوك فيه.

وهؤلاء الطاعنون صنفان: أعداء خارجيون من الملاحدة واللاذنيين والمستشرقين ونحوهم... من دونهم فرادى أو ضمن مراكز بحثية، يلبسون لباسنا، ويتكلمون بألسنتنا، لكن قلوبهم وعقولهم أسيرة لدى سابقينهم، والملاحظ أنك لو سَبَرْتَ حالهم لوجدتهم أبعد الناس عن السنة، فلا تخصص لهم فيها ولا عناية، إنما هم دُخلاء يخوضون فيما لا يحسنون.

ومن مكرهم: أنهم يستخدمون مصطلحات فضفاضة حتى لا يثيروا عاطفة المسلمين، فيقولون: نحن لا نطعن في السنة، وإنما في الموروث، أو في دين الموتى، وسهامهم لم تريح إلا إلى الأحاديث النبوية المدونة في كتب السنة.

المقصود: أن غاية أعداء الإسلام إنما هي السعي في القضاء عليه، ولا أسرع سبباً في تحقيق هذا من الطعن في السنة بدعوى أن الأحاديث مزورة، ولا يصح منها شيء بيقين، نحن في الحقيقة أمام حرب ضروس ضد الإسلام، ولا بد من وقفة جادة وتصدد حازم، لا بد من طرح هذا الموضوع، لا بد أن يطمئن كل مسلم إلى أن سنة نبيه ﷺ التي هي منار الهدى محفوظة بحفظ الله، لا بد أن يثق بهذا ويحزم، ولا بد أن يكون في حصانة بتوفيق الله من شبهات أعداء السنة.

المقدم: لكن يعني البعض ربما يقول: من أراد أن يطعن في الإسلام فرما يوجه سهامه، الأولى أن يوجهها إلى القرآن الكريم، فلماذا يتحدث مثلاً هؤلاء عن السنة بالذات ولا يتحدثون مثلاً عن القرآن الكريم؟

الشيخ: لا يستطيع القوم أن يُشكِّكوا في حرف واحد من القرآن، والسبب: أنه محفوظ في صدور المسلمين ومصاحفهم، فالمساس به خطوة غبية لا تنفع، فلم يكن لهم بُدٌّ من أن يتوجهوا إلى السنة، إذ ليس لها هذا القدر من الحفظ والاهتمام من جميع طبقات المسلمين خاصتهم وعامتهم، مع علمهم أنهم إن أسقطوا السنة

فقد أسقطوا القرآن، فلا قيام للقرآن فهمًا وعملاً إلا بإقامة السنة، على أن القرآن لم يَسْلَمْ من عدوانهم أيضاً، لكن على معانيه وليس على نقله، ولعلَّ الله تعالى أن ييسر التطرق لهذا لاحقاً.

الخلاصة: أن أعداء الإسلام يعلمون أن السنة هي الإسلام، فالإسلام الحقيقي بتفاصيله ليس إلا ما حَوَّته السنة المبيّنة للقرآن، وعليه فتشكيك المسلمين في نسبة الأحاديث إلى النبي ﷺ يعني نقض الإسلام برُمَّته، وليُعلم أن التشكيك في حفظ السنة خطوة لاحقة للشبهة السابقة التي طُرِحت في الحلقة الماضية، وهي الطعن في حجية السنة أصلاً، والدعوة للاستغناء عنها في القرآن، فيقول هؤلاء لمن بقي لم يتأثر بتلك: سَلَّمنا أن السنة حُجة، ولا غنى عنها، لكن أين هي؟ المدوّن في كتب السنة مزور مَنحُول، أما السنة الحقيقية فقد ضاعت مُنذُ قرون، هكذا يقولون! ومُهما يكن من شيء، فالسنة على رغم جهود الحاقدين محفوظة بحفظ الله، ولن يزيدها ما يُمكرون إلا ثباتاً وانتشاراً.

المقدم: تقولون -يا شيخ صالح- أن السنة محفوظة بحفظ الله ﷻ، لكن نريد يعني تأصيل شرعي لهذا، نريد أدلة على هذا القول؟

الشيخ: هذا من الأهمية بمكان؛ لأنه كما تقدم لا بد أن يستيقن كل مسلم من كون السنة محفوظة، وبالتالي فلا يَسْتَخِفُّهُ الضالون ولا يُلْبِسُ عليه المضلون،

ويكفي المسلم أن يعلم على سبيل الإجمال أن السنة وحي، وأنه ﷺ لا يقول إلا حقًا، قال تعالى عن نبيه ﷺ: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤]، والوحي محفوظ بحفظ الله، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، إذا السنة لا بد أن تكون محفوظة، والسنة من حجج الله على عباده وحجج الله محفوظة، هذا على سبيل الإجمال.

أمّا على سبيل التفصيل فعندنا عدة أدلة عقلية وعقلية، وهذه الأدلة يخاطب بها المسلم، أما غيره فينبغي أن يخاطب أولاً بالاعتراف بصدق نبينا محمد ﷺ، ثم يخاطب بعد ذلك بموضوع حفظ السنة.

◀ أقول: الأدلة التي نحن بصددتها كثيرة، وسأجتزئ ببعضها:

١. أولاً: حفظ السنة من لوازم شهادة أن محمدًا رسول الله ﷺ؛ وذلك لأن طاعته من مقتضيات هذه الشهادة، ومن البديهي أن طاعته لن تتحقق إلا إذا كانت السنة محفوظة.

بمعنى: لو أن سُنته قد ضاعت فضياعها سيمنعنا من طاعته، إذ كيف سنطيع شيئًا مجهولًا؟ إذاً سيحفظ الله السنة بيقين، ليحقق المسلم الشهادة التي أمره الله بها.

٢. ثانيًا: أركان الإسلام العملية الأربعة، بل وبقية أحكام الدين، لا تمكن معرفتها ولا العمل بها إلا بمعرفة السنة، إذاً لا بد من حفظها

حتى يتبين لنا كيف نُقيمها، فلو ضاعت لضاع الدين، ولصار أمرنا باتباع الدين عبثاً أو تكليفاً بما لا يطاق، إذ لا سبيل لنا إلى معرفته، وهذا محال.

٣. ثالثاً: إذا كان القرآن هو الكتاب المحفوظ الباقي في هذه الأمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فإن السنة لا بد أن تكون محفوظة؛ لأنه لا يمكن فهمه إلا بها، قال تعالى: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [النحل: ٦٤]، وقال سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

٤. رابعاً: الله ﷻ قد وعد بحفظ الذكر الذي أنزله، قال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وهذا الحفظ يشمل القرآن والسنة أيضاً؛ لأن السنة بوحي من الله كما سبق، فهي داخلة في الذكر، ولأن السنة بيان للقرآن، فمن حفظ المبيّن حفظ المبيّن. ٥. خامساً: أن الله ﷻ أمرنا -معشر المسلمين- بالتأسي بالنبي ﷺ، فقال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، كما أمرنا ربنا ﷻ أن نتحاكم إلى حكمه

عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فقال جل من قائل: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ

يُحَكِّمُواكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥]، وهذا حكم عام

لجميع الأمة، ولا يمكن لها -أعني: هذه الأمة- أن تتخذة أسوة أو تتحاكم إلى حكمة ما لم تبلغها سنته، فلو ضاعت السنة لصار هذا الأمر عبثًا أو تكليفًا بما لا يطاق، فكيف نُكلف بشيء لا سبيل لنا إلى تحصيله؟ والله ﷻ أرحم وأحكم من أن يكلفنا بهذا.

٦. سادسًا: من طعن في حفظ السنة، وأقرَّ بحفظ القرآن فقد تناقض؛

لأن من قبل أن يكون القرآن قد حُفظ بالإسناد المتصل إلى النبي ﷺ، فيلزمه أن يقبل أن السنة محفوظة بالإسناد المتصل إليه ﷺ.

بمعنى: الطريق التي وصلنا بها القرآن هي الطريق التي وصلتنا بها السنة، فما

الذي يجعلنا نقبل هذه ولا نقبل هذه وهما وحيان متشابهان في كيفية التبليغ؟

فإن قيل: القرآن متواتر؟

قيل: وفي السنة أحاديث متواترة أيضًا، والخصم يدعي عدم حفظ السنة جملة وتفصيلاً فبطلت دعواه.

٧. سابعًا وأخيرًا: يُقال لمن يشك في ثبوت الأحاديث النبوية: هل يمكن

أن يثبت عندك أي قول منقول لأي أحد، أم أنك ترد أي نقل؟

إن كان جوابه بالثاني فالنقاش معه منقطع؛ لأنه خارج عن حدود العقلاء، شخص يقول: أنا لا أقبل أي قول، هذا لا نقاش لنا معه.

أما إن كان لا مانع عنده من قبول النقل الثابت فنقول: ما هي الطريقة التي تثبت بها عندك النقول؟ وأنا أتحداه أن يأتي بأي طريقة يرضيها إلا وأثبت له أن السنة منقولة بطريقة أوثق وأثبت، وعليه فهو بين أمرين: إما أن يقبل الأحاديث الصحيحة، أو يرد كل قول منقول فيصبح ضحكة للعقلاء.

الشيخ: سأبدأ حديثي بكلام عن واقع حفظ السنة وعوامل حفظ السنة في عهد النبي ﷺ وأصحابه، ثم أتبع ذلك إن أذنت بالكلام عن حفظ السنة فيما بعد إلى هذا العصر.

السنة في العهد النبوي وعهد الصحابة رضي الله عنهم كانت محفوظة بحمد الله، لا ريب في هذا ولا شك، وأسباب هذا الحفظ مرجعه إلى أمور كثيرة، أسوق منها نماذج:

١. أولاً: أن النبي ﷺ حثَّ الصحابة على حفظ السنة ونقلها، فقد قال

عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «نَضَرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا، فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ

غَيْرِهِ، فَرُبَّ حَامِلٍ فِقْهِهِ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، وَرُبَّ حَامِلٍ فِقْهِهِ لَيْسَ

بِفَقِيهِ»، والحديث عند أبي داود والترمذي ^(١) بإسناد صحيح.

(١) رواه الترمذي برقم (٢٦٥٦)، أبو داود برقم (٣٦٦٠).

كما أخبر ﷺ: أن نقل الأحاديث بالإسناد شيء باقٍ في هذه الأمة، وهذا بُيُوتة له عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، حيث قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كما عند أحمد وأبي داود ^(١) بسند صحيح: «تَسْمَعُونَ وَيُسْمَعُ مِنْكُمْ، وَيُسْمَعُ مِمَّنْ يَسْمَعُ مِنْكُمْ».

كما دعا ﷺ لبعض أصحابه بالحفظ، ومن ذلك دعاؤه لأبي هريرة رضي الله عنه.
٢. ثانيًا: أن النبي ﷺ كان يكرر كلامه ثلاثًا حتى يُحفظ عنه ويُعقل، وربما راجع محفوظات بعض أصحابه.

٣. ثالثًا: تحذيره ﷺ الأمة التحذير الشديد من الكذب عليه، فقد قال ﷺ كما في «الصحيحين» ^(٢)، «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ».

٤. رابعًا: إذنه ﷺ للصحابة بكتابة حديثه، ومن ذلك قوله لعبد الله بن عمرو رضي الله عنه: «اَكْتُبْ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا خَرَجَ مِنْهُ إِلَّا حَقٌّ» ^(٣)، وأشار ﷺ إلى فيه.

(١) رواه أحمد برقم (٢٩٤٥)، وأبو داود برقم (٣٦٥٩).

(٢) رواه البخاري برقم (١١٠)، ومسلم برقم (٣).

(٣) رواه أحمد برقم (٦٨٠٢).

وفي «الصحيحين»؛ أنه سأل رجل عام الفتح أن يكتب له ما سمعه منه ﷺ، فأمر **عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ** الصحابة أن يكتبوا له.

٥. خامسًا: أن الصحابة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ** كانوا أحرص شيء على سماع حديثه **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** وحفظه، سماع حديث واحد عندهم كان شيئًا ثمينًا جدًا، يُبذل فيه الغالي والرخيص، حتى إنهم قد يرحلون الأيام الطوال لسماع حديث واحد، فقد رحل جابر بن عبد الله **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** من المدينة إلى الشام يعني: قطع مسيرة شهر كامل، لا لتجارة ولا لنزهة؛ وإنما ليسمع حديثًا واحدًا من عبد الله بن أنيس **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، فلمَّا وصل إليه واعتنقه قال له: حديثٌ بلغني عنك أنك سمعته من رسول الله **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** فخشيتُ أن أموت أو تموت قبل أن أسمع، فحدثه به.

وهذا أبو أيوب الأنصاري **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** يرحل من المدينة إلى مصر ليسمع حديثًا واحدًا فقط من عقبة بن عامر **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**.

٦. سادسًا وأخيرًا: أنهم **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ** كانوا أهل ورع واحتياط ودقة في التحديث عن النبي **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، كانوا أهل حرص شديد على أن يبلغوا بمثل ما سمعوا، وفي هذا يقول الأعمش وهو يحكي حالهم -والأعمش **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** أحد التابعين- قال: «كان هذا العلم عند أقوام، كان أحدهم لأن يجزَّ

من السماء أحب إليه من أن يزيد فيه واوًا أو ألفًا أو دالًّا»، كان الصحابة أهل تثبت في الرواية، ولربما سمعوا من يحدث بحديث فطلبوا شاهدًا يشهد معه أنه سمع من النبي ﷺ.

هذه نبذة يسيرة عن عوامل حفظ السنة في تلك الحقبة، وإلا فالمقام أوسع.

المقدم: من الناس اليوم من يقول: ما الذي يضمن لي أن هذه الأحاديث فعلاً هي من كلام النبي ﷺ، ومن الذي حفظ عن النبي ﷺ في ذلك الزمان وذلك العصر الأول؟

الشيخ: بارك الله فيكم، وقد أحسستم في طرح هذا السؤال وهذا هو بيت القصيد في طرح هذا الموضوع.

أظنك -أيها الأستاذ الكريم- تُوافقي أنه حين يأتي إنسان إلى مشروع عظيم علمياً أو عملياً، قد بُذلت فيه جهود مُضنية، ومَرَّت عليه مراحل من العمل المتظافر؛ جهود وأوقات وتعب ودراسة وفحص وتحليل وأشياء كثيرة، ثم تناول أحد كلما سبق بأطراف أصابعه، أو طعن في خصرته قائلاً: هذا لا شيء، هذا لا قيمة له، مع أنه غير متخصص فيما يُنكر، ولم يُخطِ علماً بالشيء الذي يتحدث عنه، ألا تتفق معي على أن هذا في الحقيقة لم يزد على أن أضحك العقلاء على عقله.

أعود فأقول: المشاريع الكبرى للبشرية علمية كانت أو عملية، والتي بُذلت فيها جهود عظيمة، نسفها بجرة قلم - كما يقولون - هذا سُخْف وجَهِل وخلل في التفكير، وصدق من قال:

أَنَا أَن سَهْلًا دَمَّ جَهْلًا علومًا ليس يعرفهنَّ سهلُ
علومًا لو ذراها ما قَلَّها ولكن الرضا بالجهل سهلُ

نعم الأمر - كما تفضلت أيها الأخ الكريم - من الناس اليوم من أَرخى سمعه لأعداء السنة فتأثر بشبهاتهم، وصار يقول وهو متكئ على أريكته: ما الذي يضمن لي أن البخاري أو الترمذي لم يكذبوا، ويدونوا أشياء من عند أنفسهم ثم ينسبونها إلى النبي ﷺ؟

أو يقول عن الأحاديث النبوية: هذه سواف للرواة، والله قرأت هذه الكلمة لأحدهم في وسائل التواصل، أحاديث نبوية يقول: هذه سواف للرواة، يا هذا! آلاف الأحاديث رواها آلاف الرواة الثقات، ونَحَلها مئات المحدثين الجهابذة، ودَوَّنها مئات العلماء الأثبات في مئات المدونات، هذا شيء عظيم بحق، فمن أنت؟ من أنت، وما مقدار علمك حتى تنسف هذه الجهود؟ ألم يكن الأولى بك أن تعرف الواقع قبل الحكم عليه؟ فالحكم على الشيء فرع عن تصوره، هل تظن أنه من السهولة أن يكذب أحد على النبي ﷺ، ويروج هذا وينتشر، ولا يتنبه أحد

إلا أنت؟ هل تظن أن السنة هينة عند المسلمين وعند علمائهم ومحدثيهم بهذا القدر؟ إن كان هذا ظنك فقد أخطأت خطأ عظيمًا.

دعني أوضح لك شيئًا من هذه الجهود في دقائق معدودة وبتسهيل في المعلومات، مع صعوبة في الاختصار، لكني سأحاول، وثق أنك إن فهمت ما الذي جرى من جهود جبارة في عملية نقل الأحاديث في هذه الأمة جيلاً بعد جيل حتى وصلت إلينا، أقول: إن فهمت طرفاً من هذه الجهود، وكنت مُنصفاً فستزول هذه الطعنة الجائرة عنك بتوفيق الله.

حفظ السنة - يا رعاك الله - وجمعها ونقلها وتدوينها، عملية مُضنية عظيمة

كما قدمتُ، قادهما ثلاثة أصناف من العلماء:

١. أولاً: رواة حفاظ اجتهدوا في تتبع الروايات والسماع من الأشياخ، فحفظوا ودَوَّنوا.

٢. وثانياً: أئمة نقاد من علماء الجرح والتعديل، غرَّبَلوا هذه الروايات وفحصوا أحوال رُواتها.

٣. وثالثاً: جهابذة المحدثون دَوَّنوا هذه الأحاديث في مصنفات، ونَقَّحوا ورَتَّبوا وبَوَّهوا.

أما المرحلة الأولى فإن الله سبحانه قد اختار لحفظ سنة نبيه محمد ﷺ أئمة ثقات من أهل الدين والحفظ والأمانة، وكان الواحد منهم قد بلغ من الديانة والتقوى ما يجعله يأبى أن يكذب على النبي ﷺ ولو قُرض لحمه بالمقاريض، هؤلاء الرواة الثقات وقفوا أعمارهم على تتبع الحديث وحفظه وتدوينه، فرحلوا وهجروا أوطانهم وأسهروا ليلهم وأضنوا نهارهم وهم يدورون على مَنْ عنده شيء من الحديث النبوي ليسمعه منه.

أبو حاتم الرازي أحد أئمة الحديث، قطع على قدميه في رحلته التي تنقل فيها بين أكثر من عشرين مصرًا في سماع الحديث، قطع نحو ستة آلاف كيلو متر. ابن منده استغرقت رحلته خمسًا وأربعين سنة، خمس وأربعون سنة وهو بعيد عن أهله، وهو يتجول في البلدان طلبًا للحديث، والنماذج في هذا لو شئتُ أن أسوق من الآن وإلى ساعة كاملة لن أنتهى، ولم يكن سماع الحديث شيئًا اعتباطيًا، بل كان شيئًا دقيقًا غاية في الدقة، لم يكونوا في الغالب يحدثون عن كل أحد، بل عمّن كان فطنًا حافظًا دَيِّنًا، كان الراوي يحفظ ما يسمعه من الحديث من شيخه ثم يكتبه أو يكتبه ثم يحفظه، كما كان يقابل ما كتبه بكتاب شيخه حتى يتأكد من أنه لم يخطئ فيما كتب، مع عنايتهم بالضبط والشكل لما يكتبون، وربما طلب التلميذ من شيخه أن يعيد عليه الحديث حتى يحفظه، وإذا شك في حديث من

مجموعة أحاديث مكتوبة في صحيفته، ولم يميزه من بينها؛ فإنه يترك الصحيفة ولا يحدث بما فيها احتياطاً، المهم أن نتاج هذه الجهود الجبارة كان وجود أسانيد الأحاديث التي هي مَفْخَرَةٌ من مفاخر هذه الأمة، والتي اعترف بها أعداء الإسلام وحسدونا عليها.

الأسانيد - يا رعاك الله - هي سلسلة الرواة الموصلة إلى كلام النبي ﷺ، أي: نقل الثقة عن الثقة حتى يبلغ به النبي ﷺ، وهذه خصيصة تميزت بها الأمة المحمدية وانفردت بها عن غيرها، فليس لأحد من الأمم كلها قديمها وحديثها عناية بالأسانيد، إنما هي صُحِف في أيديهم، اختلط فيها ما جاء عن الأنبياء بغيره، ولذا وقع التحريف في كتبهم، وأدخل عليهم في دينهم ما ليس منه، ودُونَك أهل الكتاب من اليهود والنصارى، هل تعلم أنه لا يوجد عندهم سندٌ متصلٌ لا لكتب العهد القديم ولا لكتب العهد الجديد، طبعاً منه ما يتكون ما يسمونه بالكتاب المقدس، ليس عندهم إسناد واحد متصل لا للعهد القديم ولا للعهد الجديد.

المقصود: أن أسانيد الأحاديث هي ضمانات الأحاديث والخاتم عليها، فلا يمكن أن تلتبس بغيرها، وهي عند العلماء معروفة محفوظة، فلا يمكن لأحد أن يُدخل فيها ما ليس منها.



وما أحسن ما قال الإمام عبد الله بن المبارك رحمته الله: «الإسنادُ من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء».

المرحلة الثانية: هي مرحلة النقد لرواة الحديث للحكم على الأحاديث في ضوء هذا النقد قبولاً أو ردّاً، وهي ولا شك مرحلة نقد دقيق، وامتحان بالغ، وفحص عميق، ولا يمرّ من خلاله إلا الشيء الثابت لا غير، وهذا ما قد تولّاه أئمة محدثون نقّاد صيّارفة، أفنوا أعمارهم في تتبّع أحوال الرواة والحكم عليهم، وكان من نتائج هذا: علّمان عظيمان لا نظير لهما البتّة عند غير المسلمين، هما: علّم الرجال، وعلّم الجرح والتعديل.

والخلاصة: أن هؤلاء الأئمة اجتهدوا في التنقيب عن أحوال رواة الحديث، وسألوا عنهم أهل العمل، ورحلوا إلى البلدان بمُشافهتهم والتعرف عليهم، فصاروا يعرفون حال كل راوٍ؛ اسمه ونسبه ومتى وُلد وأين؟ وكيف هو في الدين والأمانة والحفظ؟، وربما امتحنوه ليعرفوا هل عليه ملحوظة قاذحة فتزُد مرويّاته، كما أنهم يعرفون متى شرع في سماع الحديث، وكيف سمع، ومع من سمع؟، ثم يعرفون أحوال شيوخه الذين يحدث عنهم، وبلدانهم، ووفياتهم، وأوقات تحديثهم، وعاداتهم في التحديث، ثم يعرفون مرويّات الرواة الآخرين عن هؤلاء الشيوخ، ويقارنون مرويّاته بمرويّاتهم ليُعرف، هل أصاب أم أخطأ؟ بل ويفتشون في صحفه التي يحدث منها إن كان له صُحف،

وهل هي مضبوطة ودقيقة؟ كما يدققون في صيغة روايته، هل قال: حَدَّثَنَا فلان، أو أخبرنا، أم أنه قال: سمعتُ فلاناً، أم أنه قال: قال فلان فحسب؟ وضعوا شروطاً شديدة للرواية من الكتب، وكيفية نسخها، وطريقة قراءتها على مؤلفيها، صار لهم بصر عظيم بالرواة، ومعرفة بهم أكثر من معرفتهم بقرابتهم، حتى إنك لتجد في كتب الجرح والتعديل: أنهم يتحدثون عن أحد الرواة فيقولون: فلان ممن روى آلاف الأحاديث، يقولون: أخطأ في ثمانية عشر حديثاً فقط، هي كيت وكيت.

ثم دَوَّن هؤلاء الأئمة أحوال الرواة في كتب مصنَّفة، منها كتب دَوَّنوا فيها الرواة الضعفاء، وأخرى جعلوا للثقات، ومنها كتب عامة، ومنها كتب خاصة برؤاة بلدان معينة، بل صاروا يتفنَّنون في هذه التصانيف أكثر، فكتب خاصة بكُنى الرواة، وأخرى بأنسابهم، وكتب لطبقاتهم، وكتب وضعوها في ضبط أسمائهم، أو بيان المتشابه منها، إلى آخر ما هنالك.

المقصود: أن الله تعالى قد قيَّض لسنة نبيه ﷺ هؤلاء الأجلاء النجباء الذين ميزوا ثقات الرواة من ضعفائهم، وصحيح الحديث من ضعيفه، كل ذلك صيانة للجَناب النبوي، والمقام الحمدي أن يُنسب إليه كذب، أو أن يُحدَّث عنه بغير حديثه.

ومن لطيف ما يُذكر هنا: قول الإمام المحدث الدارقطني رحمته الله: «يا أهل بغداد، لا تظنّوا أن أحداً يقدر يكذب على رسول الله ﷺ وأنا حي».

ومن اللطيف أيضاً: أن نعلم أن هذا النهج النقدي الذي مضى عليه هؤلاء الأئمة النُّقاد كان نهجاً موضوعياً متجرداً، ليس فيه مُحاباة ولا إجحاف، لا بحق قريب ولا بحق بعيد، حتى إنهم كانوا ينقدون مَنْ يستحق النقد من الرواة ولو كان أقرب قريب لهم، فهذا الإمام أبو داؤد السَّجستاني رحمته الله، يحكم على ولده أنه كذاب. وزيد ابن أبي أنيسة يقول: «لا تأخذوا عن أخي».

والإمام علي بن المَدِيني رحمته الله يقول: «أبي ضعيف»، وجريير بن عبد الحميد يضعف أخاه؛ تجرّد وإنصاف، ودقة في الحكم على الرواة.

وهذا التمهّص جعل كل راوٍ يريد أن يروي حديثاً عن النبي صلّى الله عليه وآله يتحفّظ غاية التحفّظ؛ لأنه يعلم أن أعين النُّقاد وأسماعهم مفتوحة، ويدقّقون عليه في كل كلمة يقولها، هذا كله شيء يسير عن علم الرجال والجرح والتعديل، ولا يتسع المقام للحديث عن علوم الحديث الأخرى الكثيرة التي زادت على ستين علماً، وكان غايتها خدمة الحديث الشريف وصيانته وحمايته؛ كعلم مصطلح الحديث، والعِلل، ومختلف الحديث، ومُشكِل الحديث، وغريب الحديث، والتخريج، إلى آخر ما هنالك.

ننتقل بعد ذلك إلى المرحلة الثالثة.

المرحلة الثالثة: مرحلة تدوين الأحاديث بأسانيدھا إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله، وقد ابتدأت بصورة واضحة في منتصف القرن الثاني الهجري، ثم ما تلاه، وكان هذا

على يد المحدثين الكبار، الذين كان لهم من العناية بالحديث ورجاله القُدَح المُعَلَّا، فجمعوا الأحاديث التي سمعوها من أشياخهم في حِلِّهم وترحالهم، وضَمُّوها في الموسوعات الحديثية التي صنفوها، وتفنَّوا في ترتيبها، فتارة على الأبواب الفقهية، وتارة على أسماء الشيوخ، وتارة على مسانيد الصحابة، إلى غير ذلك.

وهذه المدوَّنان الحديثية حفظت لنا -بفضل الله ومَنه- أحاديث النبي ﷺ من الضياع والاندثار، كـ«موطأ» مالك، و«صحيح البخاري»، و«صحيح مسلم»، و«مسند أحمد»، و«جامع الترمذي»، و«سنن أبي داود» وغيرها من الكتب التي تبلغ المئات.

وهذه الكتب يَرويها العلماء في كل عصر بالسمع والإجازة، وإلى عصرنا هذا. بمعنى: يَروي التلميذُ الكتاب عن شيخه، وشيخه عن شيخه، وهكذا إلى مؤلِّف الكتاب، ثم مؤلِّف الكتاب يروي عن شيخه، ثم شيخه عن شيخه إلى النبي ﷺ، ومَن كان جاهلاً بهذا فليراجع كتب الأثبات، وهي كثيرة مشهورة.

كما وصلَّنا بفضل الله هذه الكتب مخطوطة محفوظة من التبديل والعبث، وبذل العلماء المعاصرون جهودًا عظيمة في طباعتها بعد جَمْع نُسخها من أقطار الأرض، وبعد انتقاء أفضلها، والمقابلة بينها بالتحقُّق من صحة النصوص، وليس

يخفاك أن مخطوطات كتب الحديث كثيرة جداً، ومنتشرة في مكتبات العالم، يعني لك أن تعلم أن صحيح البخاري مثلاً له أكثر من ألفين وثلاثمائة نسخة مخطوطة. ختاماً أريد أن أقول: قبل أن يتفوّه أحد بشيء يمسّ جناب الأحاديث النبوية، فعليه أولاً: أن يعرف كيف وصلتنا هذه الأحاديث وغضّه، وما هي المشاق والجهود التي قُدِّمت.

ثم ليعلم أنه يستحيل أن يكذب أحد على النبي ﷺ، ويمرّ كذبه مرور الكرام، أُكْرِر: يستحيل، وكشف كذبه من أسهل الأشياء وأيسرها.

المقدم: قد وصلنا في الحديث عن الجهود لحفظ السنة النبوية، اليوم ربما في العهد المعاصر لا زالت الجهود مستمرة، وربما نحن في هيئة الإذاعة والتلفزيون شهدنا انطلاق في وقت سابق من هذا العام أو من العام الماضي، شهدنا انطلاق المركز السعودي للتلاوات القرآنية والأحاديث النبوية، وهو من المنصات التي تُهدَف إلى تقديم الأحاديث النبوية بقوالب جديدة، تُقدِّم النص وتشرح المعنى من خلال الكوادر الشابة والمميزة من أبنائنا وبناتنا، وهذا ليس بغريب على هذه البلاد المعطاءة، وأيضاً يعني هناك مجمع خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان للحديث الشريف، نودّ أن نأخذ تعليقكم؟

الشيخ: بارك الله فيكم، وقد أحسنتم حفظكم الله في هذه اللّفتة، مُجمّع خادم الحرمين الشريفين للحديث منارة علمية في هذا العصر، تُعنى بخدمة الحديث الشريف وعلومه جمعًا وتصنيفًا وتحقيقًا ودراسة، مع بيان مكانة السنة وحمائتها من أي تجاوز في الفهم أو الاستدلال، مع استثمار أحدث التقنيات في تحقيق ذلك، وهذا المشروع لا يزال في بواكيره، ويُؤمل منه المسلمون خيرًا كثيرًا، وهو إن شاء الله خطوة عظيمة في ميدان جهود الأمة في حفظ سُنّة نبينا محمد ﷺ، جَزَى الله خادم الحرمين خير الجزاء على هذا المشروع، وجعله في ميزان حسناته، ووفق القائمين على المجمع وسدّد لهم.

المقدم: وقد تحدثنا في هذه الحلقة عن هذا الموضوع المهم، موضوع حجية السنة النبوية وحفظ السنة النبوية، المستمعين والمستمعات يتطلّعون إلى توصياتكم بخصوص هذا الموضوع، إن كان هناك من إحالات ونحو ذلك؟

الشيخ: الحقيقة موضوع واسع، ولكني أقول لمن كان طالبًا للفائدة: هناك كتاب صغير لطيف، يؤكد شيئًا مما ذكرته في الكلام السابق وهو كتاب «الرحلة في طلب الحديث» للإمام الخطيب البغدادي رحمه الله، كتاب صغير ولكنه مائع جدًا، فأوصيك يا طالب الفائدة بقراءته.





الحلقة الرابعة والعشرون

شبهات أعداء السنة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الشيخ: قد أشرت في الحلقة الماضية: إلى أن أعداء الإسلام لا شيء أسهل عليهم - في سعيهم الحثيث، لتقويضه - من الطعن في السنة؛ فإن السنة إذا سقطت سقط الإسلام، والطعن في السنة إنما يكون بإثارة الشبهات عنها، وليس يخفى على البصير أن القوم قد أجلبوا على السنة بشبهات زائفة كثيرة، وبأساليب مختلفة، ومن كان على شيء من العلم فسيتجلى له أنها من التفاهة بحيث لا تستحق الوقوف عندها، وليس من الحكمة أن أسرد في هذا المقام هذه الشبهات، إذ الأصل أن لا يُذكر شيء منها إلا بقدر الحاجة، لكنني مضطر إلى أن أشير إلى شبهتين؛ لأنهما أخطر الشبهات، ولا يزالون يُروّجون لهما في كل حين:

الشبهة الأولى: هي قولهم: (يوجد في الأحاديث ما يخالف العقل)، وهذا ما تسقط به حجّيتها أو تضعف معه الثقة بها، ولعل هذه الشبهة أكثر الشبهات وُروءًا على ألسنة أعداء السنة، وقد سبق معنا توضيح العلاقة بين النقل والعقل في حلقة ماضية، لعلها الحلقة الثالثة من هذا البرنامج، فإن شاء المستمع الكريم رجع إليها، ولا بد في المناقشة من عشر مقدمات مُمهّدة قد فُصلت في تلك الحلقة، وأُجملها هاهنا:

- أولاً: يستحيل أن تخالف آية أو حديث صحيح عقلاً صريحاً، لا معاندة بين شرع منقول وحق معقول، هذا أصل أصيل عندنا معشر المسلمين، فافتعال الخصومة بين السنة والعقل لا حقيقة له، وكل ما ادُّعي فيه هذه الخصومة انعدم فيه المثل الصادق.
 - ثانياً: ظلُّ مركزية العقل وتقدّمه وتبعية النقل، والنقل بطبيعة الحال هو أدلة الوحي كتاباً وسنة أقول: هذا الظن قضية خاطئة ييقن، والعكس هو الصحيح.
 - ثالثاً: الله ﷻ جعل العقل آلة لفهم النقل، وليس حكماً على النقل، خلقه ليكون موصلاً إليه لا قاطعاً عنه، أعطانا إياه لنُدرك به القريب لا البعيد.
 - رابعاً: أكمل الناس عقولاً، وهم الصحابة رضي الله عنهم بعد الأنبياء، لم يقع لهم أيّ تعارض بين دليل نقليّ وتقرير عقلي.
 - خامساً: كل ما ادُّعي فيه التعارض بين الحديث والعقل، فلا يخلو الأمر فيه من ثلاث أحوال:
١. الأولى: أن يكون الحديث غير ثابت عن النبي ﷺ.

٢. والثانية: عدم صحة ما ادَّعي أنه معقول، بمعنى: من ادَّعي أنه

يعارض الحديث حقيقته قضية نظرية خاطئة، سمّاها صاحبها عقلاً، وكان مخطئاً إما في التصور وإما في التصديق.

٣. أمّا الثالثة: فعدم فهم الحديث فهماً صحيحاً.

● سادساً: لابد من التفريق بين المستحيل عقلاً والبعيد وقوعاً، ومن فهم هذا الأمر زالت عنه كثير من الاستشكالات.

توضيح هذا: أنهم يقولون: (هذا مستحيل عقلاً)، فنقول: ما المستحيل عقلاً؟ المستحيل عقلاً هو ما يحكّم العقل بامتناعه، مثل أن يكون الشيء موجوداً معدوماً في وقت واحد، أن يكون الجزء أكبر من الكل، أن يكون الولد أكبر سنّاً من والده ونحو هذا، وليس عندهم مثال واحد من السنة جاء على هذه الشاكلة، إنما كثير من استشكالاتهم ترجع إلى أشياء بعيدة الوقوع، كالمعجزات النبوية مثلاً، يقولون: نبع الماء من بين أصابعه ﷺ أمر مستحيل، نقول: هذا ليس مستحيلاً، هذا بعيد الوقوع ولم نألّفه، يمكن أن نسميه مستحيلاً عادة، لكنه ممكن عقلاً، ومن أجرى هذه الآية على يد نبيه محمد ﷺ هو الرب القادر على كل شيء سبحانه، وإذا قدّر على أن يخرج دمّاً من الأصابع فما الذي يعجزه أن يخرج ماء من بينها؟

● **سابعًا:** حقيقة الإسلام هي الاستسلام لله تعالى ولوحيه، واعتقاد حاكمية القرآن والسنة، وتقديمهما على كل ما عداهما، الوحي هو المقدم وكل ما سواه فمؤخَّر، ولا تثبت قَدَم الإسلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام، ﴿وَأْمُرْنَا لِلْإِسْلَامِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١].

● **ثامنًا:** الإعراض عن الوحي، وتقديم غيره عليه أثرٌ من آثار نفاق مستقر في القلب، فليحذر اللبيب، قال ﷺ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُتَنَفِّقِينَ يُصَدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١].

● **تاسعًا:** حدود العقل ضيقة، ومجالاته محدودة، وتكريمه في إعماله في مجاله لا في تكليفه فوق طاقته.

● **عاشرًا وأخيرًا:** الغلو في العقل أساس الضلال.

بعد هذه المقدمات وبعد استيعابها أقول فيما يدَّعي أعداء السنة من أن في الحديث مخالفة للعقل: ابتداءً ينبغي أن يعي هؤلاء أن المسألة عندنا -معشر المسلمين- مسألة عقيدة قبل كل شيء، وهذا ما يتغافل عنه أولئك، ولذا فمَهْمَا أَجْلَبُوا على السنة فلن تترجح ثقة المسلمين بها أو تعظيمهم لها، ما معنى أن المسألة عقيدة؟ حين يأخذ أحد من المسلمين بآية فإنه يعتقد أنه يخضع لله ولحكمه، وإذا

أخذ بحديث فإنه يعتقد أنه ينصاع لحكم نبيٍّ يُوحى إليه من ربه، فهو خاضع لله أيضاً، وماذا يعني أن تكون خاضعاً لله؟ إنه يعني كل شيء، تدري من الله؟ إنه رب العالمين، مالك الملك، أعلم العالمين، وأحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين، هو العظيم، فحكمه في قلوبنا عظيم عظيم، ثم تقول لي بعد هذا: هذا حديث مخالف للعقل؟! أقول لك: مستحيل؛ لأن هذا حكم من خلق العقل، فالمصدر واحد، فلا يمكن أن يقع تعارض بينهما، علم الله أكبر من عقلك، وحكمته أعظم، فاسترح وأرخ، العقل مخلوق لله، ولا يمكن بحال أن يستدرك مخلوق على خالقه، يستحيل أن يُقدّم معقول مربوب على حكم ربه، هذا هو المنافي للعقل.

ثم أقول: إننا معشر المسلمين لم نعتقد هذا الاعتقاد عن جهل، بل عن علم وعقل، لذا فكل الهذيان التي تدعوها عقليات هي عندنا ساقطة بحكم العقل قطعاً، وسأضرب لهذا مثلاً أو مثليين.

في الحديث الصحيح؛ أن الشمس تسجد لله تحت العرش، وقال المُنْهَوِّك: هذا شيء لا يقبله العقل، فأقول له: هل تعتقد أن الله خلق الشمس أم لا؟ إن قلت: نعم، قلت لك:

وما المشكلة أن يسجد مخلوق لخالقه؟

ما المشكلة أن يجعل الخالق القدير مكانًا معينًا لمخلوق ليسجد فيه، وأخفى كيفية هذا عن مخلوق آخر؟

ثم هل أخطت علمًا بكل أحوال الشمس على وجه الدقة حتى صارت عندك كأنها كرة في صحن تحيط علمًا بكل تفاصيلها؟ الجواب بالتأكيد: لا، الشمس مخلوق كبير جدًا، فذكر العلماء: أن الشمس تَسَعُ أكثر من مليون أرض بحجم أرضنا تُوضع فيه، ولا تزال كثير من الحقائق المتعلقة بهذه الشمس مجهولة للناس جميعًا، فليكن سجودها منها.

ثم هل وجه استبعادك لسجود الشمس، ظنك أنها تسجد سجودًا على هيئة سجودنا على سبعة أعضاء؟ إنها تسجد سجودًا يليق بها ويتناسب مع خَلْقَتها، وأنت ترى الإنسان: إن كان صحيحًا فلسجوده هيئة، وإن كان مريضًا فلسجوده على الكرسي هيئة، وهو الإنسان نفسه، فكيف بمخلوق يختلف عنه تمام الاختلاف؟

خذْ مثلاً آخر، يقول من يقول من أعداء السنة: في الحديث أن الشيطان يبول في أذن من نام حتى أصبح ولم يُصَلِّ، وهذا يخالف العقل والحس، فلا نرى أثرًا من بول على النائم! وهذا في الحقيقة اعتراض عليل، فأنت -يا أيها المتكلم- أن كنت تؤمن بوجود الشيطان فلا وجه لاعتراضك؛ لأن بول الشيطان ليس من

جنس بولنا، كما أن خَلَقْتَهُ ليست من جنس خَلَقْتَنَا، ومن صدَّق بوجود الشيطان وهو لا يراه، فعليه أن يصدق بوجود بوله وهو لا يراه.

المقدم: كثير من مُستمعي ومستمعات الإذاعة ربما هم إن شاء الله أبعد ما يكونوا عن أن يقع في قلبهم شبهة مثلاً أو أن يُروِّجوا لشبهه حول سنة النبي ﷺ، وإنما أحياناً الإنسان يقع في نفسه شيء من الإشكال بوجود تعارض بين الحديث وبين العقل، أو بين الحديث وبين العلم الطبيعي، بينما يقرأه الإنسان مثلاً في كتب العلم الطبيعي ونحو ذلك، فماذا يفعل من وقع في نفسه شيء من الإشكال بين الأحاديث وبين ما يراه أو ما يعقل؟

الشيخ: باختصار عليه أربعة أمور:

١. أولاً: أن يُوطِّن نفسه على تقديم الوحي على كل ما عداه بكل حال.
٢. ثانياً: أن يُوقِنَ ويطمئن أنه لا يمكن أن يتعارض النقل والعقل البتة.
٣. ثالثاً: أن يكون قاصداً الوصول إلى الحق، أن يتجرد في طلبه.
٤. رابعاً: أن يبادر بلا تسويف إلى أحد من أهل العلم الذين يظن أن عندهم الجواب الشافي فيسأله، فإنما شفاء العِيِّ السؤال.

أما عن الشبهة الثانية: ممَّا لَبَسَ به أعداء السنة زعمهم أن الأحاديث الموجودة بين أيدي الناس اليوم لا يُوثق بها؛ لأن جلها أحاديث آحاد، وأحاديث الآحاد لا يُوثق بها لاحتمال خطأ الراوي ونسيانه وكذبه، فهو ليس بمعصوم، وإذا كانت الأحاديث محل شك وارتياب فلا غَرْو أن تكون مُطَرَّحة، أو على الأقل لا نقبل منها إلا ما وجدنا القرآن يدل عليه، هذا الذي ذكره أولئك وهذا الذي ذكروه مغالطة من جملة مغالطاتهم، وقد سبق في الحلقة الماضية ذكر طرف من الكلام عن حفظ السنة النبوية، وأن الأحاديث النبوية قد مرَّت بمراحل من الدراسة والفحص والتدقيق الشديد، حتى تميز الحرف الصحيح منها من غير الصحيح، فليرجع إلى تلك الحلقة من شاء.

خلاصة الشبهة: إن القوم قاسوا قياسًا فاسدًا، وهو أنهم زعموا: أن الحديث الصحيح الذي لم يبلغ مرتبة التواتر، مثله مثل أي خبر تسمعه من رجل يمر بالشارع لا تعرفه، فأنت لا تثق به، إذاً حديث النبي ﷺ عند القوم هذا قدره، وأقول: هذا الذي قالوه قياسٌ فاسد، **والحق:** أن الخبر إذا صح عن رسول الله ﷺ فإنه حجة قاطعة، ويجب قبوله في كل أبواب الدين، ولستُ ها هنا بصدد الاستدلال على هذا الأمر، فالكلام فيه يطول، لكني أُنبِّه إلى أن قياسهم فاسد،

نحن لا نتكلم عن أيّ خبر، إنما نتكلم عن حديث صحيح مروي عن النبي ﷺ، وشتان ما بين الأمرين، أخبار الآحاد المروية عن رسول الله ﷺ .

المقدم: لو نعرف ما هو حديث الآحاد، أنتم ذكرتم حديث الآحاد والحديث المتواتر، إن كان هناك من تعريف بسيط قبل أن نواصل.

الشيخ: الحديث المتواتر - سلّمك الله-: ما رواه جماعة عن جماعة يستحيل تواطؤهم على الكذب في جميع طبقات الإسناد، وأن يكون مستند خبرهم الحسّ. خبر الآحاد ليس هو الذي رواه شخص واحد عندهم، إنما هو ما لم يبلغ مرتبة التواتر، سواء كان رواه واحد، أو اثنين، أو ثلاثة، أو أربعة، أو أكثر من ذلك، هذا هو التقسيم الذي مشى عليه كثير من الناس من أن الخبر ينقسم إلى متواتر وآحاد. أقول: - حفظك الله - أخبار الأحاديث المروية عن رسول الله ﷺ، والتي حكم عليها أهل العلم بالحديث بالقبول والثبوت، هذه الأحاديث هي التي نتحدث عنها، وهي التي استفادت العلم والقطعية من أربع جهات: من جهة المُخبر، والمُخبر عنه، والمُخبر به، ومن جهة المُخبر.

● **أما من جهة المُخبر**، من الذي أخبر بهذه الأحاديث؟ إنهم أصحاب رسول الله ﷺ، إنهم أفضل الخلق بعد الأنبياء دينًا وعلمًا، ثم التابعون

وأتباع التابعين، على هؤلاء تدور الأسانيد، وهؤلاء أفضل القرون، عندهم التقوى والورع، والحفظ والإتقان، فكيف يُقاس بهم آحاد الناس؟!

- **أما من جهة المُخْبِر عنه**، فأخبار الآحاد المروية عن رسول الله ﷺ تُخبر عن الله وعن دينه وأحكامه، فهي من حُجج الله تعالى على خلقه، ولا بد أن يحفظ الله ﷻ حُججه ودينه، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

- **أما من جهة المُخْبِر به**، فهذه الأخبار إنما تنتهي بكلام رسول الله ﷺ، وكلامه عليه من الجلالة ونور النبوة ما يجعله لا يشتبه بغيره من كلام الناس وأحاديثهم عند من له خبرة به.
- **وأما من جهة المُخْبِر فإن** الذي تلقى هذا الخبر وحكم عليه وقبّله، هم أئمة الحديث الكبار الذين لهم عناية عظيمة بحديث رسول الله ﷺ، وتنقية صحيح كلامه من غيره.

إذا؛ القياس هاهنا بين خبر شخص في الشارع وخبر يأتينا صحيح عن رسول الله ﷺ قياس مع الفارق، قياس غير صحيح، حينما نقيس حديث رسول الله ﷺ الذي ثبت عنه بخبر أي أحد في أي شأن من شؤون الدنيا، فإننا نكون قد وقعنا في خطأ كبير لوجود الفرق الكبير والبون الشاسع بين هذا وهذا.

والعجيب؛ أن القوم إذا فَتَّشَتْ في أحوالهم وجدتهم جازمين قطعاً بمقولات ونقولات وأشعار كثيرة، ولا يثيرون فيها ما أثاروه في الأحاديث لكونها أخبار آحاد، كما تجدهم في تعاملاتهم وكتاباتهم في وسائل التواصل وغيرها، يقبلون أخباراً كثيرة تتعلق بأحوال الناس والمجتمع؛ من أفراح وأتراح أو قضايا سياسية أو غيرها، مع أن ما يقطعون بثبوتها منها لم يُفحص ويُدقق فيه كما دُقِّق في الأحاديث الصحيحة، بل لا مقارنة أصلاً، وهذا تناقض مَعِيب.

المقدم: نريد وصايا عامة في التعامل مع الشبهات المتعلقة بالسنة لمن ابْتُلي بالاطلاع على شيء منها، خاصة أنه أحياناً الاطلاع على شيء منها أحياناً يكون رغباً عن الإنسان، أحياناً الإنسان يجد مساحة في تويتر أو يجد مثلاً هاشتاج ونحو ذلك، فيدخل عليها ويجد بعض هؤلاء موجودين فيها، فربما يتعرض لشيء من هذه الشبهات، وصايا عامة للتعامل مع الشبهات المتعلقة بالسنة لمن ابْتُلي بالاطلاع على شيء منها؟

الشيخ: والأمر كما ذكرتم، وهذا من البلاء الذي وقع في هذا الزمان مع الأسف الشديد.

عندي عشر وصايا:

- أولاً: إذا كان من يُورد هذه الشبهة من القرآنيين الذين يزعمون أنهم يأخذون بالقرآن دون السنة، ثم يثير شبهة على السنة فإنه يقال: له قد أثار أعداء الله مثل هذه الشبهة أو قريباً منها في حق القرآن، فأبي جواب تُجيب به عليهم هو جوابنا على شبهتك.
- ثانياً: كل شبهة أُثيرت عن السنة فقد أُجيب عنها بفضل الله، فاطمئن، ليس الجواب في هذه الشبهات كان من وجه واحد، بل من أوجه عديدة، وأهل الإسلام يتحدثون أي أحد أن يثبت طعناً واحداً في حديث صحيح، وقد أُلِّفَتْ في هذا الباب مؤلفات عظيمة، فمن كان طالباً للحق نظر فيها ووجد شفاء سقمه.
- ثالثاً: خلاصة كل ما يُدعى ضد السنة فإنه لا يخرج عن جهل بالسنة ومعناها، والثابت منها من غير الثابت، مع ما يصحّب هذا من قصد سيئ وهوى.
- رابعاً: يقال لمن يطعن في السنة: ما نسبة ما تستكره من الأحاديث بالنسبة للآلاف المؤلفة منها، كم الذي تدعي استنكاره؟ حديث حديثان عشرة عشرون، ما نسبة هذه إلى آلاف الأحاديث التي تُسلم

أنت قبل غيرك أنه لا لبس فيها ولا إشكال؟ وهذا ما يبين أن أعداء السنة قد وقعوا في مغالطة منطقية هي التعميم الجائر، رأى أحدهم - لقصور في نظره وجهل وهوى في نفسه - رأى قلة قليلة من الأحاديث فيها إشكال في زعمه، وإذا به يُعمّم حكمه برد السنة جملة، فأَيّ إنصاف هذا؟

● خامساً: التنبيه إلى التناقض والمغالطات التي تقع من الطاعنين في السنة.

حُدْ مثلاً: من أكبر الشبه التي يثيرها أعداء السنة الطاعنون في حُجَّتِها أنهم يقولون: النبي ﷺ قد نهي عن كتابة حديثه، فقال: «**لا تكتبوا عَنِّي، وَمَنْ كَتَبَ عَنِّي غَيْرَ الْقُرْآنِ فَلْيَمْنَحْهُ**»^(١)، وعليه فهذه الأحاديث الموجودة في كتب السنة غير مقبولة جملة وتفصيلاً، وهذا الحديث الذي أوردوه قد أُجيب عنه بعده أجوبة، منها: أنه معلول، أعلمه الإمام البخاري وغيره بالوقف، ولو صرفنا نظراً عن هذا، فإن رسول الله ﷺ كما نهي عن الكتابة - الكتابة لحديثه - فقد ورد عنه الإذن بها، بل الأمر بها بأحاديث آخر، وهذا شيء يطوونه ولا يروونه؛ لأنه يخالف أهواءهم،

(١) رواه مسلم برقم (٣٠٠٤).

حيث ذكروا حديث النهي ولم يشيروا إلى أحاديث الإذن، وهي كثيرة، منها: أنه ﷺ قال يوم الفتح: «اَكْتُبُوا لِأَبِي شَاةَ» والحديث في البخاري^(١).

ومنها: أنه ﷺ قال لعبد الله بن عمرو رضي الله عنه: «اَكْتُبْ، فوالذي نفسي بيده ما يخرج من فمي إلا الحق»^(٢).

والأحاديث في الإذن بالكتابة أكثر وأصح، بأي شيء لم يُعَوَّلُوا عليها؟ وهل هذا إلا أمانة على أنهم يتبعون أهواءهم؟

وعلى كلِّ حال، الجمع بينما جاء من النهي عن كتابة الحديث والإذن بها يقال فيه: إن المنع جاء أولاً ثم نُسخ بالإذن بها بعد ذلك، النهي جاء أولاً خشية التباس القرآن بالسنة، فلما أُمنَ التباس جاء الإذن، وإلى ذلك ذهب جمهور العلماء، لكن بغض النظر عن كل ما سبق، أريد أن أُلْفِتَ النظر إلى المغالطة والتناقض الذي وقعوا فيه، حيث استدلوا على نفي الشيء بالشيء نفسه.

بمعنى: أنتم تنكرون الأحاديث، فكيف تستدلون على إنكارها بالحديث؟ أليس هذا تناقضاً؟ إذا أنتم بين خيارين: إمَّا أن تؤمنوا بهذا الحديث فيسقط قولكم بالإنكار، وإما إلا تؤمنوا به فيسقط استدلالكم به.

(١) رواه البخاري برقم (٢٤٣٤).

(٣) رواه أبو داود برقم (٣٦٤٦).

خُذْ مثلاً آخر: مما يُثْبِرُونَهُ من غبار تجاه السنة، أنهم يقولون: الأحاديث النبوية فيها أشياء ضعيفة، إذا الثقة فيها ضعيفة، وهذا في الحقيقة كلام هَزِيل، بل مغالطة مكشوفة، أنت يا هذا تقول: هناك أحاديث ضعيفة، فكيف عرفت أنها ضعيفة؟ لم تعرف هذا إلا من خلال حكم علماء الحديث، هم الذين يَبَيِّنُوا لك أن هذا الحديث ضعيف، إذا لم قَبِلْتَ حكمهم بضعف أحاديث، ولم تقبل حكمهم بصحة أحاديث أخرى؟ وهل هذا إلا دليل التناقض، بل والهوى الذي يتحكم فيك؟

● سادساً: التركيز على أنهم حين يطرحون شبهاتهم قد يطرحون ما لا يفهمون، بل يُنْفِطَنَ لهذا.

خُذْ مثلاً: من أشهر الشبهات التي أثارها القوم شبهة ذكرها بعض المستشرقين، وهي: الأحاديث كثيرة جداً، وهذا ما يشكك في ثبوتها، يقولون: البخاري يذكر عن نفسه أنه انتخب صحيحه من ستمائة ألف حديث، يقولون: لا يمكن أن يصدر عن شخص واحد مثل هذا العدد من الأحاديث، والحقيقة أن كلامهم هذا يدل على جهلهم، يدل على أنهم لم يعرفوا ما هي الأحاديث، ولم يتصوروا واقع الروايات، فأولاً الأحاديث ليست قولية فقط، بل إنها تشمل على أفعاله ﷺ، وعلى تقريراته أيضاً، الصحابة رضي الله عنهم كانوا يرصدون حاله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في كل صغير وكبير، ثم يتحدثون ويخبرون بهذا، والواحد من هؤلاء المنكرين لو

سَجَّلْنَا عليه في مدة سنة واحدة كل حركة له وسكنة وهمسة على مدار الساعة، كم تتوقع سنخرج من حديث؟ سنخرج بآلاف الأحاديث، إذا كيف تستنكرون كثرة أحاديث رسول الله ﷺ؟

ثمَّ إِنَّا نَقُولُ لَهُمْ ثَانِيًا: الحديث في لسان السلف والمحدثين يُعَدُّ براويهِ وليس بلفظه. بمعنى: لو سمع عدد من الصحابة كلمة من النبي ﷺ فَرَوَوْهَا، فرواية كل صحابي هي حديث مستقل، يعني مثلاً: حديث النبي ﷺ الذي يقول فيه: «نَضَرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاَهَا»^(١) إلى آخره، هذا الكلام النبوي الشريف قد رواه أربعة وعشرون صحابياً، إذا هل هو حديث أو أربعة وعشرون حديثاً؟ أربعة وعشرين حديثاً، إذا هذا عند علماء الحديث أربعة وعشرون حديثاً، إذا بالتالي لا تستبعد أو لا تستكثر أحاديث النبي ﷺ الكثيرة.

وخذ الثالثة: كثير من علماء الحديث يُدرجون في مصطلح الأحاديث -يعني كلمة (حديث) عندهم- يُدخلون في هذه الأحاديث حتى أثار الصحابة والتابعين، وبعد كل هذا ما وجه استكثرناكم لأحاديث النبي ﷺ؟

● سابعاً: تنبّه إلى عقيدة من يثير الشبهات عن السنة، فقد يكون من المصلحة ألا يكون النقاش في شُبّهته، بل في عقيدته أولاً.

(١) رواه الترمذي برقم (٢٦٥٨).

مثلاً: لو طَعَن ملحد في الأحاديث التي وردت لإثبات المعجزات النبوية مثلاً، فقد تكون الحكمة أن يبحث معه أولاً في إثبات وجود الله العظيم سبحانه؛ لأنه إذا ثبت وجود الرب القدير هانت الشبهة من أصلها؛ لأن المعجزة الخارقة للعادة، قد أجراها من هو على كل شيء قدير، ويفعل ما يريد ﷻ.

● **ثامناً:** من المهم لإزالة الشبهة التي تعترض من هؤلاء السنة، من المُهم: جمع الأدلة التي تتعلق بالموضوع المثار، ومن ثمَّ النظر في أوجه الجمع بينها أو الترجيح بحسب القواعد العلمية، فكَم يدَّعي أعداء السنة إشكالاً في حديث، وفي رواية أخرى ما يوضح الصواب ويزيل الشبهة من أصلها.

● **تاسعاً:** ينبغي التنبُّه إلى أن جملة من الشبهات التي يلبسون بها لا دليل يسند لها أصلاً، بل ولا شبهة دليل، إنما هي دعوى مجردة أو إنكار مجرد، تجدهم يقولون: هذا حديث مخالف للعقل، إذا بدأت تناقشه تقول: لم هو مخالف للعقل؟ ربما لم تجد عنده شيئاً.

● **العاشر والأخير:** التحقُّق من ثبوت الحديث ركن أساس قبل البحث في الشبهة التي تثار عليه، وما أكثر الأحاديث التي يطعنون فيها، ويُشعَّبُون على السنة بُرْمَتِها بناء عليها، والواقع أنها أحاديث ضعيفة أو مكذوبة.

الشيخ: إذا أذنت لي أن أجيب: لماذا كثرت شبهات أعداء السنة في هذه الأيام؟ أنا أعتقد أن السبب الرئيس والسبب الأعظم لهذا الأمر: هو أن ثمة منابر إعلامية، وهي التي فُتحت أبوابها لهؤلاء المرّجفين، هي أعظم الأسباب، هناك قنوات إعلامية -مع الأسف الشديد- فُتحت أبوابها لكل طاعني السنة على اختلاف مشاربهم، فضائيات يُستضاف فيها أعداء السنة، وهي فضائيات كثيرة وليست قليلة، وسائل التواصل مُتَحَمّة بهؤلاء؛ قرآنيون، عقلائيون، علمانيون، ملاحدة، نصارى، وغيرهم.

ثم هناك شيء آخر، وهو: أن هناك من يستمع لهؤلاء من المسلمين، ويروج لهم ولو بغير قصد، يعني: تجد أنه يكتب في مجموعات الواتس أو في حسابه في وسائل التواصل، انظروا ما يقول فلان، وقد يكون هذا بدافع الإنكار، وقد يكون بدافع الاستشكال، لكنه رَوَّج من حيث لا يشعر، وربما كانت الشبهة من قبل حاملة.

إذا؛ من المهم: أن نتواصى بإمادة الباطل، وإخمال أهله قدر الإمكان، سمعتُ بشبهة تتعلق بالسنة، بالقرآن، بأحكام الإسلام، ما حاجة الناس إلى أن تبثها بينهم؟ وهل تعلم أنك قد تكون سبباً في تبرُّر بعض الجهال بها؟ فالأجدر بك أن تُعرض عنها، وتطوي صفحاً عن ذكرها، وأن تنصح من يبثها في الناس سواء كان منكرًا أو مستشكلاً.

المقدم: إن كان من وصايا نختم بها هذه الحلقة؟

الشيخ: عندي - حفظكم الله - ثلاث وصايا:

- **الوصية الأولى:** هي أنه قد تقدم في حلقة ماضية، أن الواجب تجاه شبهات أعداء الإسلام عمومًا أن تُهجر ويُعرض عنها المسلم تمام الإعراض، هذا واجب شرعي مُتَحَتِّمٌ، والله ﷻ يقول: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيءِ آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [الأنعام: ٦٨]، (أَعْرِضْ) فعل أمر، والأمر يقتضي الوجوب، إذاً واجب على المسلم أن يُعْرِضَ عن الشبهات، وألا يُرْخِي لها سمعًا، وأن يطلب السلامة، فإن السلامة لا يعدلها شيء، والتعرض للشبهة مرض يُوهِن القلب ويضعف الإيمان فحذار، ونبينا ﷺ يقول كما في «الصحيحين»^(١): «إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللَّهُ، فَاحْذَرُوهُمْ»، «فاحذروهم» هذا فعل أمر يقتضي الوجوب.

- **الوصية الثانية:** أوصيك - يا أخي الحبيب - أن تتمسك بالجواب المُجَمَّل عن كل شبهة، وهو معرفتك بالحق كافية في معرفة بطلان ما

(١) رواه البخاري برقم (٤٥٤٧)، ومسلم برقم (٢٦٦٥).

خالفه، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢]، لا يلزم لمعرفة بطلان الشبهة معرفة ما ينقضها على وجه التفصيل، فالشبه لن تنتهي، إنما يكفي أن تعرف أنها معارضة للحق فاجتنبها، إذ كل ما ناقض الحق فهو باطل، إذا أتاني مُلبّس بشبهة وأنا لا أعرف جوابها فسأقول له وأنا مطمئن: أنت أتيتني بشيء لا أعرف جوابه تفصيلاً، وعندي مُشْتَبِه، ولا مشكلة أن يبقى مُشْتَبِهًا، لكنني مع هذا أقطع أنه باطل، بدليل أنه معارض للحق، ولا يمكن أن يكون شيء يعارض الحق إلا وهو باطل.

● الوصية الثالثة: ضَع - يا رعاك الله - دائماً نصب عينيك موضعين من كتاب الله، افتح قلبك لهما، تأملهما بِرَوِيَّةٍ لا بعجلة:

١. أوْهُمَا: قوله تعالى: ﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ﴾

[الفصل: ٨٧]، هذه وصية ربنا ﷺ لنبيه ﷺ، وهي وصية لنا معشر أُمَّتِهِ،

لا تُبَالِ بِمَكْرٍ أعداء الوحي، ولا يَحْدَعُنَّكَ عنها، لا يَحْدَعُنَّكَ عن

آيات الله، عن وحي الله كتاباً وسنة، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [الشورى: ١٥].

٢. ثانيهما: قوله ﷺ: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ

وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ (٥٨)

كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٥٩) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ

حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٥٨-٦٠﴾ [الروم: ٥٨-٦٠]، الله ﷻ أنزل في هذا القرآن الحقائق التي تُعرف بها الأمور وتنقطع بها الحجة، لكن أبى الظالمون إلا معاندة الحق الواضح، فمهما جئتهم بآية تدل على صحة ما جئت به، فسيقولون للحق: إنه باطل، فاصبرْ على ما أنت عليه من الثبات على الوحي وتعظيمه، ووعد الله آتٍ لا ريب فيه، وستنال جزاء صبرك وثباتك عند ربك، وإيّاك أن يَسْتَخِفَّكَ مَنْ قَلَّ يَقيَنُه بالوحي، فإنك إن لم تجعلهم منك على بال، إن لم تحذر مكرهم فإنهم سيستخفونك ويحملونك على عدم الثبات على ما أنت عليه، هذه الآيات آيات عظيمة، وما نزلت عبثًا، ويجب أن نقف عندها مَلِيًّا متدبرين، فأما أحوجنا إليها في هذا العصر، والله المستعان.

المقدم: إن كان هناك إحالة معينة، أو كتاب معين تحيلون المستمعين إليه؟

الشيخ: ذكرت سابقًا أن التراث الإسلامي في رد الشبهات عن السنة تراث كبير جدًا، إن أردتَ شيئًا يسيرًا مختصرًا تقرأ فيه، هناك رسالة صغيرة ستجدها مصورة على الشبكة، للشيخ العلامة سماحة الشيخ: عبد الرزاق عفيفي ﷺ، عنوانها «شبهات حول السنة». أمّا إن كنتَ تريد شيئًا أوسع قليلًا، فأوصيك بكتاب عظيم للشيخ: عبد الرحمن المُعَلِّمِيّ ﷺ، اسمه «الأنوار الكاشفة».



الحلقة الخامسة والعشرون

العلوم الطبيعية حدودها وموقف الشريعة منها

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الشيخ: العلم الطبيعي باختصار: دراسة الطبيعة والظواهر الطبيعية، وهو نمط معين للمعرفة الإنسانية يسعى لاستشكاف الطبيعة بمختلف ظواهرها وخصائصها والقوانين الحاكمة لها، وعليه فهو قاصر على المجال المادي المدرك بالحواس، وقائم على المنهج التجريبي المعتمد على التجربة الحسية، فهم هذه النقطة شيء مهم فيما سيأتي، وما من شك أن هذا العلم مفيد في مجاله، وانتفعت به البشرية كثيراً، وساهمت في رفاهيتها، لكن يحدث الإشكال، عندما يُتخطى بعلم من العلوم حدوده، فيخوض في مجالات العلوم الأخرى، ويحكم عليها نفيًا أو إثباتًا، وهو فاقد الأهلية لهذا.

العلم التجريبي له حدود لا يستطيع تجاوزها، ولا يقدر على الحكم على ما هو خارج نطاق استدلاله، وهو المجال المادي المدرك.

دعني أوضح ما أريد بمثال: لنقدّر أنه رأى رجل أحد العمال يبحث عن المعادن تحت رمال شاطئ عن طريق جهاز الكشف عن المعادن، فتعجب من دقة الجهاز وقدرته على الإعلام بما هو مدفون منها، فأخذ الجهاز، وبدأ باستخدامه للبحث عن أشياء بلاستيكية أو خشبية مدفونة تحت الأرض، فلما لم يجد قال: لا يوجد في هذا الشاطئ خشب ولا بلاستيك؛ لأنني استعملت هذه الآلة التي أثبتت كفاءتها في البحث عن المفقودات فلم أجد شيئاً، ما رأيك في تصرف هذا الرجل؟

المقدم: تصرف ساذج، واستخدم شيئاً في غير ما حُصِّص له وصُنِعَ له.

الشيخ: إذاً هذا الرجل ارتكب خطأ كبيراً في استعمال الجهاز في غير مجاله.

تخيّل لو أنه زاد على ذلك من شدة إعجابه به فقال: لا يوجد في الوجود خشب أو بلاستيك؛ لأنني كلما استعملت هذه الآلة لم أجد شيئاً، وأنا لا أصدق غيره! خطأه هذه المرة ليس في تصديقه هذه الأجهزة بعد أن أثبتت كفاءتها في الكشف عن المعادن، إنما خطؤه في أنه قصرَ المصدر الوحيد للمعرفة على هذا الجهاز، فهي على الرغم من كفاءتها في مجالها إلا أنها لا تكشف عن كل شيء في العالم.

بعض الناس صار يرتكب خطأً مُشابهاً في معرض حماسه للعلم التجريبي، فصار يقول: إنه لن يُصدّق إلا ما رآه بعينه، وإن العلم التجريبي هو مقصده الأَوْحَد للكشف عن أي حقيقة، وهذا القائل في الحقيقة يظلم العلم التجريبي، ويُسيء فهمَ وظيفته من حيث يظن أنه يتبعه وينصره.

المقدم: يمكن شيخنا تحدّثنا في مقدمة الحلقة أيضاً عمّن يغلّون في العلم التجريبي، ويزعمون أن المعرفة منحصرة فيه، فلو تحدّثنا عن هذه الفئة وعن هذا المسلك؟

الشيخ: الأمر - كما تفضّلتم -؛ الغلو في العلم التجريبي واقعٌ لا يُجحد، وقد أُطلق عليه تسمية خاصة وهي (العِلْمَوِيَّة)، والعِلْمَوِيَّة اتجاهٌ علمي، يحصر مصادر المعرفة وطرائق الاستدلال بالتجربة والمشاهدة والإدراك الحسي، هذا باب المعرفة

الوحيد أو الأعلى الذي يتعالى على كل شيء عند هؤلاء، هؤلاء الغلاة لما زعموا أن المعرفة منحصرة في العلم التجريبي، وأنه وحده الذي يجب عن جميع ألغاز الحياة، قرّروا أن غيره من العلوم ومناهج المعرفة لا يُعدُّ علمًا، ولا يُنتج معرفة.

والتيار الإلحادي المعاصر قد وجد في هذا الاتجاه ضالته، فطوّعه ليكون سندًا له، ولذا الملاحدة الجُدّد يعظمون العلم التجريبي تعظيمًا كبيرًا، ويبالغون في قدراته حتى جاوزوا حدوده، وصدّق مَنْ قال: «إذا كانت الطبيعة إله المُلحد، فإن العلم الطبيعي كتابه المقدّس» كتابه المقدس الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ونَتج عن هذا الاتجاه: أن زعموا أن العلم التجريبي أَلغى جميع مبررات الإيمان بوجود الخالق ﷻ، فالبراهين محصورة في الأدلة العلمية التجريبية، وما لم يخضع للتجارب فليس بعلم، وحيث إن الدين ليس مبنياً على التجارب العلمية، إذاً هو في زعمهم مجرد وهم.

والذي يَعْنِينَا الآن: النظر في الدعوى العريضة التي يدّعون، وهي المعرفة منحصرة في العمل التجريبي، وهو الطريق الوحيد الموصِل إلى العلم اليقيني، والسؤال: هل هذا الكلام صحيح؟ الجواب بالتأكيد: أنه ليس صحيحًا، ويتبين هذا من خمسة أوجه:

١. الوجه الأول: العلم التجريبي له حدود واضحة لا يمكن أن

يتخطاها كما قدّمْتُ، والبحث في المطالب الإلهية وصحة الدين

وثبوت الغيبيات ونحو هذه المسائل، هذه قضايا ليس له أن

يحكم فيها أو أن يدعي نفيها.

أُعيد: للعلم التجريبي إطار يعمل به، وحدود لا يستطيع أن يتعدّها، وإذا

خرج عن هذه الحدود فهو عاجز، وأولئك الذين يهتمون بالعلم التجريبي حقًا

يعرفون هذا تمامًا، ولأقرب المسألة بمثال:

هَبْ أَنَّنَا -أنا وأنت - في بيت، ثم وجدنا صحن طعام أمام باب البيت،

فأخذناه ليتم تحليله من قبل مجموعة من أفضل علماء العالم، أخذوه علماء التغذية

يخبروننا عن عدد السعرات الحرارية في الطعام، علماء الكيمياء الحيوية يحدّثوننا عن

العناصر التي دخلت فيه وعن كيفية ارتباطها مع بعضها، أمّا الفيزيائيون فلهم

القدرة على تحليله وفق الجسيمات الأولية، أهل الرياضيات سيكون جُهدُهم

منحصرًا في عرض مجموعة من المعادلات التي تصف سلوك هذه الجزئيات، كلُّ

اشتغل في مجاله، لكن ماذا لو أنّني سألتُ هؤلاء الخبراء المجتمعين: مَنْ صَنَعَ

الطعام؟، ولماذا صنعه؟، وما الغاية من وضعه أمام الباب؟ وهل هذا الفعل صواب

أم خطأ؟ هل سيستطيعون أن يجيبوا؟ طبعًا لا، أحسنتم، إذًا لن يستطيع الجواب؛

لأن اختصاصهم يدور على طبيعة الطعام، أي: أنهم قادرون على إجابة أسئلة «كيف»، لكنهم لا يستطيعون إجابة أسئلة «لماذا»، إذا العلم الطبيعي يُجيبنا إن استطاع عن كيف عمل القوانين الطبيعية، لكنه لا يجيبنا عن سؤال لماذا تعمل هذه القوانين؟! هذا سؤال خارج عن نطاق قدرة المنهج التجريبي.

ومن هنا يتضح فُصور العلم التجريبي عن تفسير كافة الظواهر، ويتضح أيضاً أن ثمة حاجة إلى علوم أخرى قادرة على ذلك، ومُكمّلة له، وأهم من هذا الحاجة إلى الوحي الإلهي الذي أنزله العالم بكل شيء ﷺ، خُذ أمثلة على واقع العلم التجريبي وعجزه عن الإحاطة بكل شيء:

- أولاً: العلم التجريبي لا يستطيع تقديم أحكام أخلاقية، ما حقوق الإنسان، ما حقوق الحيوان، هل الإجهاض قتل الرحيم، الاغتصاب، الغش، الرشوة، هل هذه سائغة مقبولة أم لا؟ العلم التجريبي لن يُعطيك هاهنا إجابة، العلم يساعدنا في وصف كيفية عمل العالم، لكنه لا يستطيع تقديم أي حكم أخلاقي بالتصويب أو التخطئة أو التحسين أو التقبيح، وعليه فاعتبار المنهج التجريبي الوسيلة الوحيدة للوصول إلى الحقيقة مع إنكار ما سواه، يلزم منه إنكار الأحكام الأخلاقية، فماذا يبقى لنا -معشر البشر- بعد هذه الفوضى؟

● خُذْ مثلاً آخر: العلم التجريبي لا يستطيع تقديم أحكام جمالية تتعلق بالأذواق، هذه اللوحة المعروضة أمامنا جميلة أم لا؟، صوت ذاك العصفور جميل أم لا؟، هل تلك القصيدة التي يذكرها الشاعر الآن عذبة أم لا؟ العلم التجريبي لا يجيب عن هذا، العلم يساعدنا في تفسير كيفية تَلَقُّينا الأصوات، وكيفية تصوُّرنا للألوان، لكنه لا يستطيع تقديم أيِّ حكم جمالي.

● خُذْ مثلاً ثالثاً: العلم التجريبي لا يستطيع إعطاء كيفية توظيف المعرفة العلمية، مثلاً: قد ساعد العلم التجريبي في تفسير كيفية تَهَجُّين الحمض النووي المعروف بـ(DNA) لكنه لا يبين طريقة توجيه هذه المعرفة المكتسبة، هل نستخدمها في معالجة الأمراض الجينية، أم نستخدمها في صُنْع أسلحة بيولوجية؟ العلم في هذه الزاوية صامت لا ينطق، العلم يساعد في وصف كيفية عمل العالم، لكن نحن من نُقرِّر كيفية توظيف المعرفة المكتسبة.

بعبارة أخرى: العلم لا يستطيع أن يوجهنا إلى السلوك الذي يجب أن نختاره في حياتنا، العلم يُطلعنا إلى حدِّ ما هو موجود، دون أن يُوصينا بما ينبغي.

• خُذْ مثلاً رابعاً: العلم التجريبي لا يستطيع تفسير ما وراء الطبيعة، أو عالم الغيب، أو ما يُسمى (الميتافيزيقيا)، وجود الملائكة، الجن، الحياة الآخرة إلى آخر ما هنالك، العلم التجريبي لن يحكم على هذه القضايا، لم؟ لأنها تقع خارج إطار الطبيعة المحسوسة، ونطاق العلم التجريبي محصور فيها فيما يُلاحَظ ويجرب، ولا يحق لأيِّ علمٍ تجريبي أن يتحدث عن الغيبات، يدُ التجربة أقصر من أن تمتدَّ إلى ما وراء الطبيعة لتثبت أو تنفي شيئاً منها، هذا كله ما يتعلق بالوجه الأول.

٢. أمّا الوجه الثاني: ادّعاء أن المعرفة منحصرة في العلم التجريبي، هذه دعوى ينقض بعضها بعضاً، أو كما يقولون: هذا الكلام ذاتي دَخْضي، بمعنى: هذا الزعم مبني على موقف فلسفي وليس على علم تجريبي، إذاً كيف يؤمن أحدٌ بأن الحقيقة لا يمكن الوصول إليها إلا عن طريق المنهج التجريبي وحده في حين أنه لم يستخدم المنهج التجريبي للوصول لهذه الحقيقة نفسها.

بمعنى: قولهم (إن العلم التجريبي هو الوسيلة الوحيدة للحقيقة)، هذا الكلام باطل منطقياً لماذا؟ لأنه ليس نتاج تجربة، إذاً إن كان هذا القول تقريراً صحيحاً إذاً العلم التجريبي باطل.

٣. الوجه الثالث: الملاحظة أنفسهم، مَنْ كان منهم حاذقًا في فَنِّهِ، يعترف أن العلم التجريبي لا يتحلَّى بتلك القوة التي يتظاهرون بها أحيانًا.

خُذْ مَثَلًا: (ستيفن هوكينغ) الفيزيائي المُلحد المشهور يقول: «أيُّ نظرية فيزيائية هي دائمًا مؤقتة، بمعنى: أنها فرض فحسب، فأنت لا تستطيع أن تُبرهن عليها، ومهما بلغت كثرة مرات اتفاق نتائج التجارب مع نظرية ما فإنك لا تستطيع قط أن تتيقن من أنه في المرة التالية لن تتناقض النتيجة مع النظرية» انتهى كلامه.

إذا: الادعاء بأن النظريات العلمية يقينية دائمًا، هو باعتراف أئمتهم غير صحيح، ومَّا يزيد البيان بأن النظريات العلمية ليست جميعها يقينية: أنها متغيرة غالبًا، فكيف يُدَّعى أن النظريات العلمية السائدة اليوم يقينية، وقد تصبح متروكة بعد سنة أو سنتين؟ علماء الطبيعة يقررون أن المعرفة العلمية في تغير دائم، وقليلة هي الأمور اليقينية الثابتة، المعرفة العلمية المستعملة اليوم ربما تصبح غداً معرفة علمية منتهية الصلاحية، والكتب العلمية القديمة لا فائدة لها تقريبًا، ربما قيمتها الوحيدة عند مُحِبِّي الاستطلاع التاريخي، وهَوَاة جمع الأشياء، مخازن أو مكتبات الكتب المستعملة تحاول أن تتجنب بيع أو شراء الكتب العلمية المستعملة، تحاول كثير من دور نشر الكتب العلمية الآن أن تخرج إصدارًا جديدًا مُحدثًا لكل نص

علمي كل ثلاثة أعوام، إذاً يمكن لهذا التسارع في وتيرة الاكتشاف العلمي أن يغير فهمنا وتفسيرنا للعلم الطبيعي جذرياً خلال بضعة سنين.

٤. الوجه الرابع: العلوم الطبيعية ليست على درجة واحدة، بل بعضها أقوى من بعض، توصف العلوم الطبيعية عادة بأنها: علوم صلبة، لكن ما يُغفل عنه أو يُتغافل هو أن العديد من العلوم الطبيعية لديها جانب سُفلي لَيِّن، من ذلك مثلاً: تاريخيتها، فالنظريات التي طرحتها العلوم الطبيعية لتفسير نُشوء الظواهر الطبيعية؛ ديناصورات، القارات، الكواكب، إلى آخره، هذه في الحقيقة تاريخية في جانب كبير منها، وليس تجريبية، هذه في تركيزها أنت إذا نظرت إليها وجدت أنها غالباً تدور على حدث فريد لم يتكرر حتى يُجَرَّب، ولا يمكن مُحَاكاته في المختبر، إذاً من المغالطات الكبيرة: تَخْيِيلُهُم للجهال أن العلوم الطبيعية على درجة واحدة قوية، والْحَقُّ أنها درجات متفاوتة، منها ما هو مجرد فرضيات علمية، ومنها ما هو نظريات، ومنها ما هو حقائق، كما أن منها ما يخضع للتجربة الحسية المباشرة، ومنها ما هو من قبيل التفسير الظني للظواهر الطبيعية.

المقدم: قبل الوجه الخامس ربما يعني خطرت لي هنا: أنه أحياناً يَبْنُونَ على هذه الافتراضات التاريخية، ويسدُّون الفراغات بمجموعة من القصص، ثم يبنون عليها أفلامًا وكُتُبًا وقصصًا، مثل مثلاً نظرية التطور، وما أدري إذا كُنَّا نتطرق لها إن شاء الله في الحلقات القادمة؟

الشيخ: عن قريب جدًا إن شاء الله سنتعرَّض لها بإذن الله، نحن من الحلقة الماضية وهذه الحلقة وما بعدها إن شاء الله في عدة حلقات، سنناقش بعض الأسس التي قام عليها بناء الإلحاد المعاصر، بإذن الله ﷻ، ونحن الآن واحدٍ منها.

٥. الوجه الخامس: طرق إثبات الوجود الخارجي للأشياء لا تقتصر

على طريق الإدراك الحسي، وإخضاعه للاختبار والتجربة، إنما يمكن أيضًا إثباته عن طريق معرفة آثاره، وهذا الذي ينكرونه علينا -معشر المسلمين- هم واقعون فيه، بمعنى: كثير من الحقائق التي يؤمن بها العلماء التجريبيون أنفسهم، ويبنون عليها اكتشافاتهم، لم يتم إثباتها عن طريق الحس والتجربة، إنما هم يُسلِّمون بصحة بعض الفرضيات، والتي ليس هناك سبيل لإدراكها إدراكًا حسيًا، فليس هناك من يستطيع أن يدعي أنه رأى البروتون أو الإلكترون، لكن الناس يلمسون آثارهما، وكذلك الحال في كل ما

يتصل بتركيب الذرة وخواصها، كذلك الحال فيما يتعلق بتركيب الأجرام السماوية البعيدة، ما يفصل بينها من مسافات شاسعة، ممّا لا نستطيع أن نخضعه لتجاربنا، أو نقيم الأدلة المباشرة على صحة نظرياتنا أو فرضياتنا حوله.

إذاً: كثير من القوانين الطبيعية المُسلّمة اليوم لم تخضع للتجربة، وإنما آمنّا بها لمعرفةنا بآثارها، هذا عدّا عن أن الذي يطالع كثيراً من الآراء العلمية اليوم، يجدها من قبيل تفسير الملاحظات، وليست نتاج تجربة مختبرية، بمعنى: قد يرى العالم سلوكاً معيناً لبعض ما في الكون، فيفسّره تفسيراً خاصاً، هذا التفسير ليس تجريبياً، إنما هو استنباط واستنتاج لا غير، وكلما زادت الشواهد التي تؤيد تفسيره قوّي تفسير إلى أن يصل إلى حد النظرية أو يرتقي إلى الحقيقة العلمية، وربما بقي ظنيّاً، وربما فقد شواهد فيضعف ويُلعَى بعد حين، إذاً بهذه الأوجه الخمسة يظهر: أن العلم التجريبي أحد طرق الوصول إلى المعرفة، وليس الطريق الوحيدة، ولا يمكن وصف النظريات العلمية التجريبية كلها بأنها يقينية، بل كثير منها ظني أو وهمي.

المقدم: هل العلم التجريبي يتعارض مع الإيمان بالله؟ ولو نُلخّص بشكل عام

العلاقة بين الإسلام وبين العلم الطبيعي التجريبي؟

الشيخ: الجواب على سؤالكم بالتأكيد: لا، إنما هي دعوى إحادية عريضة يُعوّزها الدليل، يزعم القوم أن ثمة تعارضاً بينهما، إما العلم التجريبي، وإما الإيمان بالخالق سبحانه، هذا الكلام يُناقش من أربعة أوجه مختصرة:

١. الوجه الأول: ينبغي التذكير ابتداءً أن العلماء التجريبيين بشر، وليسوا موضوعيين دائماً، إنما يتأثرون بالبيئة المحيطة بهم، الثقافة المحيطة بالعالم تؤثر بشدة في استنتاجات هذا العالم في النظريات العلمية، والثقافة المحيطة بكثير من العلماء اليوم ثقافة علمانيّة إحادية، تُزين قبول النظريات العلمية المعارضة للدين؛ كنظرية التطور مثلاً، فكون بعض العلماء تلقوا هذه النظريات، ويتظاهرون بأنها صحيحة، يرجع إلى أسباب نفسية أو اجتماعية ربما أكثر من كونها علمية.

٢. الوجه الثاني: ليس العلماء المتخصصون في العلوم التجريبية كلهم ملاحدة، بل ولا أكثرهم، إنما العكس هو الصحيح، كثير من العلماء مؤمنون بوجود الخالق سبحانه، ولو كان الصراع بين العلم والإيمان حقيقياً فالمنطق البسيط يقتضي أن يكون العلماء كلهم مُلحدّين، وغير العلماء فقط هم المؤمنون، لكن ليس هذا

واقع الحال، كبار علماء العلم التجريبي عبر القرون كانوا يؤمنون بالخالق ولم يكونوا ملاحظة، حُذِّ (بيكون، قاليلو، تيلار، نيوتن، ماكسل، فراداي) هؤلاء كانوا مؤمنين بوجود خالق حكيم أبداع الكون ﷻ، وهؤلاء وهم أساطين العلم التجريبي لم يروا أنه يعارض الإيمان بالخالق، بل اعتبر كثير منهم الإيمان بالله دافعه الرئيس للمُضي في البحث العلمي.

أحد الباحثين الغربيين اسمه (شالف) ألف كتاباً طُبِعَ في أمريكا عام (٢٠٠٥ م)، عنوان هذا الكتاب: «مئة سنة من جوائز نوبل»، في هذا الكتاب درس أحوال العلماء الحاصلين على جائزة نوبل في القرن الـ ٢٠ يعني: خلال مائة سنة، ما النتيجة التي خلص إليها، أو بعض النتائج التي خلص إليها؟ خلص إلى أن نسبة الملاحظة الذين حازوا على جوائز نوبل خلال هذه المدة لم يتجاوزوا ٧ % فقط، يعني عندنا ٩٣ % يؤمنون بوجود الخالق ﷻ.

٣. الوجه الثالث: يحاول الملاحظة أن يقدّموا للناس أن العلم التجريبي

كان في حرب ضروس مع الدين عبر التاريخ، وانتهت الحرب بانتصار العلم على الدين، لكن هذا الزعم غير صحيح، ليس يُنكَر أن بعض رجال الدين النصارى وقفوا ضد النظريات

العلمية في عصر النهضة، لكن محاربة بعض العلماء للإيمان بالله لا يعني تمامًا أن العلم نفسه في حرب مع الإيمان بالله، وإذا كانت هناك نقطة سوداء لتاريخ (الكنيسة الكاثوليكية) في زمن معين، فإن هذا لا يصدق على التاريخ الإسلامي، كتاب الله ﷻ يُحَثُّ على التفكير والتدبر في ملكوت السماوات والأرض، واستخدام العقل، وكان المسلمون في القرون المتقدمة يؤمنون العلم التجريبي عناية فائقة دون أن يعارضهم علماء الشريعة.

٤. الوجه الرابع: العلم التجريبي يدل على وجود الخالق وليس على الإلحاد، من أقوى الحجج عندنا - أعني: الحجج العقلية الحسية على وجود الله -: الحجة الكونية، أو ما نسميه (دليل الخلق)، كذلك الحجة الغائية، وكلتاها تعتمد على العلم التجريبي.

إذاً الخلاصة: دعوى الملاحدة أن العلم التجريبي يعارض الإيمان بالخالق سبحانه لا أساس لها، والحق أن العكس هو الصواب.

أختم بالشق الثاني من سؤالك: وهو تلخيص العلاقة بين الدين الإسلامي والعلم الطبيعي التجريبي في ضوء القرارات السابقة، سأحاول أن أُلخِّص هذه العلاقة من خلال أسئلة خمسة مختصرة مع أجوبتها:

السؤال الأول: هل الإسلام في صدام مع العلم التجريبي؟

الجواب: لا بكل تأكيد، ولا وجود لهذا الصدام المزعوم إلا في عقول من اخترع هذه الفريضة، ولا ننسى أن المسلمين كانوا سادة هذا المجال في حِقْبَةِ مضت، وكان الغرب يرحلون إليهم ويتعلمون على أيديهم، إنما الإسلام يعارض ما كان من هذا العلم خاطئاً، أو ما ترتبت عليه مفسدة راجحة، وفي المقابل فهو يُحْتُّ على تعلم ما ترتب عليه مصلحة راجحة.

السؤال الثاني: هل الإسلام يدل على كل ما جاء به العلم الطبيعي؟

الجواب: لا، الوحي الشريف ليس مقرّر فيزياء أو جيولوجيا، إنما هو أعظم من هذا وأشرف، وإن كان قد وردت فيه إشارات يسيرة تدل على بطلان الصدام السابق المزعوم، أما الباقي فمسكوت عنه ولم يعارض.

السؤال الثالث: هل العلم الطبيعي يدل على الإسلام؟

الجواب: أمّا جميعه فلا، لكن فيه أشياء كثيرة تؤيد الوحي وتُبرهن على صدقه.

السؤال الرابع: هل الإسلام يحكّم على العلم الطبيعي؟

الجواب: نعم؛ لأن أيّ بحث علمي فهو خاضع لواحد من الأحكام التكليفية الخمسة، واعتقادنا -معشر المسلمين- هو هيمنة الوحي على كل شيء سواه، فهو

المركز الذي ننتقل منه في التعامل مع كل شيء، والمرجعية النهائية التي تُردُّ إليها كافة المعارف والموجودات.

السؤال الخامس والأخير: هل العلم التجريبي يحكم على الإسلام؟

الجواب: لا بكل تأكيد، الإسلام مصدره الوحي، والوحي ليس مادياً أرضية،

إنما هو نازل من السماء ﴿مَنْ لَّدُنْ حَكِيمٌ خَيْرٌ﴾ [هود: ١] .

إذاً العلم التجريبي فاقد الأهلية ليكون حاكماً عليه، والله ﷻ أعلم.

المقدم: إن كان هناك من نصيحة أو إحالة أو كتاب معين تنصحون بحول

موضوع الحلقة؟

الشيخ: الحقيقة أنا أوصي الشباب خصوصاً، والكبار والصغار أيضاً بقراءة

كتاب لطيف قشيب مائع، اسمه: «ألف اختراع واختراع»، هذا الكتاب بالصور

والطبعة الجميلة، أصدرته بالمناسبة ليس جهة شرعية، أصدرته قناة (ناشنل

جغرافيك)، يتحدث عن الاختراعات الإسلامية التي صدرت من داخل التراث

الإسلامي، من داخل المسلمين، حقيقة كتاب جداً جداً مائع، ويزيل كثيراً من

الشبهات التي ربما تُعشَّش في أذهان بعض الناس من التعارض بين العلم والإسلام.





الحلقة السادسة والعشرون

بين الإتيان والصدفة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الشيخ: فحديثنا عن هذا الموضوع من الأهمية بمكان، تعظيم الصدفة أساس من أسس الإلحاد المعاصر، وليس يخفى مَدَى تأثير هذا التيار على ناشئة المسلمين، كما لا يخفى أن منهم من قد تنطَلَي عليه مغالطات الملاحدة في هذا الموضوع؛ كقولهم: (الكون وُجد من العدم عن طريق الصدفة، فلا يلزم أن يكون له خالق) هذه الجملة قد تُشكِل على من لم يكن عالمًا بخطئها، هذا ما يدعوننا لطرق هذا الموضوع.

المقدم: ذكرتم كلمة الصدفة، يمكن الكثير من الصدفة التي تمر عليه في الحياة العادية، يعني هل هي نفس الصدفة، ما هي الصدفة، وكيف نفهمها؟

الشيخ: المراد بالصدفة في مجاري كلام الناس: وُصف لِمَا يحدث من وقائع عَرَضًا وارتجَالًا بدون إرادة أو سبب معروف، أو بدون اتفاق أو توقع، أو أحيانًا بدون قدرة أو مهارة، ولفهمها بعيدًا عن تلبيس الضالين أذكر بعون الله ضوابط عشرة:

● أولاً: نحن نفسر بالصدفة حدثًا من جهة كونه لا ترتيب أو لا قصد

لنا في حصوله، وليس أنَّا نقرّ بأن هذا الحدث بلا سبب، بمعنى: ربما

نستخدم كلمة (صدفة) للتعبير عن جهلنا بالأسباب المباشرة للوقائع

أو قصدها، وليس لأن شيئًا يقع بلا سبب.

- ثانيًا: الصدفة مجرد وصف سلبي عدمي، لا وجود له في الحقيقة، ولا يتصف بأي صفة وجودية، وعليه فنسبة إحداه أو تأثير له ضرب من العبث، فالعدم لا يثبت وجودًا.
- إذًا: حين ينسب أحد إلى الصدفة الإيجاد من العدم، فإننا نقول: قد أغرقت في الوهم أو التضليل.
- ثالثًا: وجود شيء بلا سبب مستحيل عقلاً، ولا علاقة له بالصدفة، ومن ظن أن هذا يندرج تحت الصدفة فليعلم أنها صدفة تخيلية مستحيلة الوقوع.
- رابعًا: ما يقع صدفة لا يكون دائماً ولا أكثرية، فالتكرار والصدفة ضدان.
- فمثلاً: ربما يقول قائل: التقيتُ فلاناً اليوم في السوق صدفة، أي: بلا ترتيب مسبق، لكن من غير المقبول أن يقابله كل يوم ويقول: حدث هذا صدفة.
- خامسًا: لا بد من التفريق بين ما في الذهن وما في الواقع، قد يجوز في الذهن ما يمتنع خارج الذهن، قد يُقدر الذهن أشياء، لكن في الواقع يستحيل وقوعها، قد أتخيل أنا وأنت مثلاً وجود عدد لا نهائي من السيارات، لكن في الواقع هل هذا الكلام صحيح؟ لا وجود لعدد لا

نَهاي من السيارا؁ أليس كذلك؟ فهُم هذا يكشف مغالطات
الحادية سنحاجها بعد قليل.

• سادسًا: العبرة في الأحكام الواقعية على الاستحالة أو الإمكان
الواقعي؁ لا على الاستحالة أو الإمكان العقلي.

مثلاً: لو أنك أخذت مِنِّي حبة رمل؁ يعني لنَقُل ذات لون مميز؁ وسافرت بها
إلى مكان لا أعلمه؁ وألقيتها هناك؁ لا أدري ربما ألقيتها في الربع الخالي؁ أو في
صحراء نيفادا؁ أو في القطب الجنوبي؁ أو في شاطئ جزيرة غير مأهولة في المحيط
الهندي؁ أنا لستُ أدري؁ لكن هذه الحبة مهمة بالنسبة لي؁ فأخذتُ طائرة وطررت
عشوائيًا في هذا العالم؁ أبحث عن هذه الحبة؁ ثم نزلتُ في مكانٍ ما؁ وما أن بحثتُ
بطرف إصبعي في الرمال إلا وأجد حبة الرمل؁ من أول محاولة؁ سؤالي: هذا ممكن
واقعيًا أو مستحيل؟ بالتأكيد هو مستحيل؁ ومن ادَّعى خلاف هذا اتهمناه إما
بالكذب أو بالجنون؁ مع أنه عقلاً ليس مستحيلًا؁ لكن العبرة في الأحكام التي
نُصدرها على الإمكان الواقعي.

• سابعًا: لا وجود للصدفة المحضة في عالم خلقه ربُّ عليم قدير؁ متى ما
وُجد القدر ارتفعت الصدفة؁ لا شيء في العالم يقع عشوائيًا؁ بمعنى:
لا بأس أن نصف الشيء أنه صدفة لجهلنا وقلة معرفتنا؁ لكن الواقع

أن له سببًا نجهله، أو لم نرتب له، لكن أن يقع شيء بصدفة محضة هذا مستحيل، فكل شيء مقدر، والله تعالى خلق كل شيء فقدره تقديرًا.

● ثامنًا: الصدفة يمكن أن يُجاب بها عن سؤال: «كيف»، لكن لا يجاب بها عن سؤال: «من».

بمعنى: إذا قلت لي: كيف وقع الحادث لسيارتك؟ يمكن أن أقول حينها: صدفة، الكلام هنا مقبول، أليس كذلك؟ لكن إذا سألتني: من أصابك في الحادث؟ لا وجه للقول هاهنا إنها الصدفة.

● تاسعًا: ما كان متوقعًا أو كان نتاج أسباب معروفة، هذا شيء لا يوصف بأنه صدفة.

● عاشراً وأخيراً: لا تطلق الصدفة على ما ظهرت فيه آثار القصد والعناية. مثلاً: لو أخبرتك أنني رميتُ حجارة خلفي عشوائيًا، أخذت مجموعة من الحجارة وبدأتُ أرميها حجرًا حجرًا خلف ظهري، ثم التفّتُ وإذا بها قد كوّنت حجرة جميلة مضبوطة الزوايا، أظن أن جوابك سيكون: كلامك يا صالح ضربٌ من الجنون، أليس كذلك؟

لو رأيتَ سيارتي وفيها كدّمة، فسألتني فقلت: أصاب حجرٌ ضخم سيارتي صدفة، الكلام هنا مقبول، أليس كذلك؟ لكن لو رأيتها غداً وقد أُصلحت فسألتني فقلت لك: الإصلاح حصل صدفة، هل الكلام هنا مقبول؟ الكلام هنا بالطبع غير مقبول، فالإصلاح يحتاج إلى سبب وعناية، يحتاج إلى حرفة ومهارة، يحتاج إلى فعل مقصود، إذا الصدفة هنا جواب غير مقبول.

المقدم: لو نتحدث عن الإتيان والإحكام في هذا الكون، لعل المعنى أيضاً يتضح عن علاقة الصدفة بموضوع العلوم الطبيعية؟

الشيخ: ليس يمتري عاقلٌ في أن الكون متقنٌ محكم، ومرادي بكونه متقناً: ضبط نظامه، وحصول كل شيء في مساره الصحيح، وهذا دليل قطعي على وجود الخالق العظيم سبحانه.

وجود المخلوقات بعد عدمها دليل على وجود خالقها، وكونها على قدر من الدقة في الخلقة وبراعة في الإتيان وإبهار في الإحكام، هذا دليل على وجوده سبحانه أيضاً، وهذا ما يسميه العلماء: **بدليل العناية، أو دليل التخصيص، أو دليل النظام، أو دليل التصميم**، كل شيء في هذا الكون قد وُضِعَ على هيئة مُبهِرة موافقة لمصالح الإنسان ومنافعه، كل شيء قد أُحْكِمَ بنظام دقيق يصير وفقه، والعاقل يستدل على الشيء بآثاره، مَنْ وجَدَ آلة محكمة قد وُضِعَ كل جزء فيها في

موضعه لغاية محددة، فسيعلم ضرورة أن وراء هذا الإحكام صانعاً مبدعاً، أمّا العشوائية، أو ما لا قدرة له، أو ما لا علم له، أو ما لا حكمة له، هذا لا يصدر عنه شيء فضلاً عن أن يكون مُحْكَمًا متقناً، له وظيفة محددة يقوم بها.

من تأمل هذا العالم حق التأمل عِلْمَ قطعاً أن خالقه سبحانه قد أتقنه غاية الإتيان، وهذا ما أرشدت إليه آيات الكتاب، ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ [السجدة: ٧]، و﴿صُنِعَ اللَّهُ لِدَيْهِ أَنْفَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]، و﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ، ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠] و﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ نَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

والاكتشافات العلمية المعاصرة قد تجلّى معها كثير من البراهين الكونية على هذا، وأضحّت من أقوى الأدلة الحسية على ضرورة وجود الخالق سبحانه، بل زادتنا معرفة به وإيماناً وتعظيماً، ويكفي لإدراك هذا أدنى إطلالة على مُخرجاتِ عِلْمِ الأحياء والفيزياء والكيمياء والجيولوجيا والتشريح أو الفلك أو غيرها من العلوم، فعن أي شيء أُحدّثك؟ أعن النسب الدقيقة في ضغط الهواء والغازات المنتشرة في الكون، أم عن المسافة الدقيقة بيننا وبين الشمس، والتي لو اختلفت بقدر يسير لكانت الأرض أبرد من المريخ، أو أسخن من الزهرة، ولتَعَقَّدَتِ الحياة، هل أُحدّثك عن الغلاف الجوي؟ هذا الغلاف الذي يحول بتوفيق الله دون وصول ملايين الشُّهب القاتلة إلينا، أم أُحدّثك عن الماء؟ ماء البحار الذي يغطي ثلاثة أرباع الأرض، والذي لولا أن الله

﴿عَلَّمَ﴾ مَنْ بِهِ لاسْتَحَالَتِ الْحَيَاةُ، أَمْ أُحْدِثَكَ عَنِ الْجَازِيَةِ الْأَرْضِيَّةِ الَّتِي يَعْنِي أَدْنَى تَغْيِيرٍ فِي نَسَبَتِهَا اسْتِحَالَةَ الْحَيَاةِ عَلَيْهَا أَيْضًا، هَلْ أُحْدِثَكَ عَنِ الدِّمَاغِ، أَمْ عَنِ الْقَلْبِ، أَمْ عَنِ الْعَيْنِ، أَمْ أَدْعُ هَذَا كُلَّهُ، وَأُحْدِثَكَ عَنْ شَيْءٍ صَغِيرٍ جَدًّا لَمْ نَرَهُ؟

يقول علماء الفيزياء: «إِنْ أَيَّْ خَاصِيَّةٍ مِنْ خِصَائِصِ الذَّرَّةِ، لَوْ اخْتَلَفَتْ لَكَانَ مِنَ الْمَرْجَّحِ أَنْ تَكُونَ الْحَيَاةُ مُسْتَحِيلَةً».

نَحْنُ الْآنَ نَتَحَدَّثُ عَنْ أَشْيَاءٍ غَايَةِ غَايَةِ فِي الدَّقَّةِ، بَلْ هَذَا شَيْءٌ فَوْقَ التَّصَوُّرِ، لَكَ أَنْ تَعْلَمَ وَدَعْنِي أَضْرِبُ مِثَالًا وَاحِدًا:

الثَّابِتُ الْكَوْنِيُّ الْمُتَعَلِّقُ بِمَعْدَلِ تَوْسِعِ الْكَوْنِ، يَقُولُ الْعُلَمَاءُ: إِنْ فِيهِ مِنَ الدَّقَّةِ مَا لَا يَخْطُرُ عَلَى بَالٍ، بِحَيْثُ إِنَّهُ لَوْ تَغَيَّرَتْ دَقَّةُ هَذَا الثَّابِتِ سُرْعَةً أَوْ بُطْءًا دَرَجَةً وَاحِدَةً فَقَطْ مِنْ دَرَجَاتٍ يَبْلُغُ عِدْدُهَا عَشْرَةَ أَسْفِ مِائَةِ وَعِشْرِينَ لَامْتَنَعَتِ الْحَيَاةُ فِي الْكَوْنِ، أَرَأَيْتَ هَذِهِ الدَّقَّةُ؟، وَاحِدٌ مِنْ عِدَدٍ هَائِلٍ يَفُوقُ التَّصَوُّرَ هُوَ، وَاحِدٌ وَأَمَامَهُ مِائَةُ وَعِشْرُونَ صَفْرًا، هَلْ يَسْتَطِيعُ إِنْسَانٌ أَنْ يَنْطِقَ كَمْ يَبْلُغُ هَذَا الْعِدْدُ؟ أَكُلُّ هَذَا كَانَ صَدْفَةً، أَمْ أَنَّهُ

﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَضَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]؟ كُلُّ مُنْصَفٍ يَدْرِكُ الْجَوَابَ.

الخلاصة: عندنا مقدمتان ونتيجة:

١. المقدمة الأولى: الكون متقن محكم، والدليل على هذا: الواقع

المحسوس الذي لا سبيل إلى الشك فيه.

٢. المقدمة الثانية: كل ما كان مُتقنًا محكمًا لا يكون إلا من فاعل عليم

حكيم قدير.

النتيجة: الكون له خالق عليم حكيم قدير جل في علاه.

المقدم: تعظيم الملاحظة لموضوع الصدفة، ما سبب ذلك التعظيم؟

الشيخ: لا أجد جوابًا أحسن من قوله تعالى: ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾

[الفرقان: ٥٥]، من أكبر مآزق الملاحظة: تظاهروهم بمحبة العلم التجريبي، وتظاهروهم

بمحبة العقلانية مع إنكارهم وجود الخالق سبحانه، ذلك أن العلم التجريبي يدل على

أن الكون قد ظهر بعد أن لم يكن موجودًا وفق قوانين فيزيائية دقيقة جدًا، كما أنه

يدل على التعقيد الشديد للحياة، والمنطق السليم يقتضي أنه لا يمكن ظهور

المخلوقات المعقدة إلا بخالق، ومن هنا يلجأ الملاحظة إلى تعظيم الصدفة ليوهموا

أنفسهم أو غيرهم، بجواب يُلجّل هذه العقدة، مستحيل يمكن أن يحدث صدفة.

الملاحظة يجعلون الصدفة مسؤولة عن ظهور جميع المخلوقات، وقد بالغوا في

قدراتها حتى كادوا أن يعبدوها.

أحد علماء الملاحظة متخصص في الطب، اسمه (جاك مونو) عالم فرنسي، يقول: الصدفة وحدها هي مصدر كل هذا الابتكار في جميع المخلوقات، تخيل أستاذ ودكتور في الطب يقول مثل هذه الترهات.

داعية الإلحاد الجديد (ريتسرد دوكنس) دكتور في علم الأحياء، ومن أكثر من يعظم الصدفة ويتحدث عنها حتى أتى بأشياء تُضحك العقلاء على عقله، لا سيما ما أودعه في كتاب اسمه «صانع الساعات الأعمى»، في هذا الكتاب قرّر أنه يمكن أن يحصل صدفة أن نجد تمثالاً رخامياً يلوح بيده أماننا فجأة، هذا ممكن يقول وإن كان على احتمال ضعيف لكن ليس مستحيلاً، ثم ذكر أنه بمثل هذا الاحتمال الضعيف من الممكن نظرياً أن بقرة تقفز فتصل إلى فوق القمر، ممكن يحصل هذا صدفة، ثم بنى على هذا أن الأحداث التي تبدو مستحيلة؛ مثل ظهور الحياة على كوكب الأرض بلا خالق قد تحدث مصادفة، فلا تحتاج في وجودها إلى خالق، علينا أن نُلغي عقولنا تماماً إذا ما أردنا أن نصدق الملاحظة، أي شيء أكثر استحالة من أن يحتمل إنسان مجرد احتمال، أن تمثالاً جامداً يحرك يده، بل إن بقرة تقفز قفزة فلا تجد نفسها إلا فوق سطح القمر، فإذا كان هذا عند هذا مقبولاً، إذاً على العقول العفاء.

المقدم: لو طرح السؤال، وتنازل للقوم قليلاً ونقول: هل يمكن أن يوجد كون أو يكون هذا الإتيان الموجود في هذا الكون، أن يكون نتاج الصدفة كما يزعم هؤلاء، هل يمكن أن نناقش هذا بطريقة أكثر عمقاً؟

الشيخ: والكلام في هذا حفظكم الله طويل جداً، وكُتِب فيه مؤلفات ومجلدات، والوقت لا يسعنا أن نناقش هذا على وجه التفصيل، لكنني سأكتفي بسبعة أوجه مختصرة:

١. الوجه الأول: مَنْ تأمل كلام الملاحظة في الصدفة وجد - كما سبق - أنه يقدسونها ويلبسونها صفات الربوبية، لم؟ لأنهم يريدون أن تحلَّ بديلاً عن الرب سبحانه في تفسير أصل الحياة وانتظامها، ولذا فقد وصفوها بصفات الرب القادر على كل شيء، لكن العقلاء جميعاً يدركون أن الصدفة ليست بكائن حتى تستطيع أن تخلق شيئاً، بل هي ليست بشيء في الحقيقة، فضلاً عن اتصافها بالحياة والقدرة والعلم والحكمة، إذاً كيف يُعزى وجود الأشياء إليها؟

الواقع أن الملاحظة يفضلون الإيمان بأي شيء سوى رب العالمين سبحانه، لا شك أن كلمة (الصدفة) استُخدمت من قبلهم بمغالطة وخداع، وذلك لصرف الجهال عن الاعتقاد بوجود خالق للكون بإحالتهم إلى بديل مألوف لديهم، وهو

الصدفة، والذي يضطرهم إلى هذا المسلك، وأنه من غير الممكن قبول وجود الكون من لا شيء، هم لا يجروون على أن يصرحوا بهذا، بل يختبئون وراء ما يسمونه الصدفة لتكون بديلاً عن الخلق، يرمون بهذه الكلمة ويمشون، دون أن يعرّفوا هذه الكلمة، أو يميّطوا اللثام عن حقيقتها، والسؤال: هل تسمح كلمة الصدفة بتوظيفها بالطريقة التي يريدون، بالنظر في استعمال الناس لكلمة صدفة -وهذا قد تقدّم شيء منه قبل قليل- نجد أنهم يستخدمونها للتعبير عن واحد من ثلاثة أمور:

● الأمر الأول: للتعبير عن عدم القصد من وراء الفعل، كأن تلتقي

بصديق في سوقٍ من غير موعد فتقول: لقيته صدفة، أي: بغير قصد مني أن ألقاه.

● الأمر الثاني: يستعملونها للتعبير عن وجود القصد لإحداث الفعل مع

عدم توفر القدرة أو المهارة، كأن يرمي رجلٌ أعمى كرة السلة فيصيب الهدف، حينها نقول: إن إصابته للهدف كانت من قبيل الصدفة، أي: ليست عن استحقاق ومهارة لديه.

● الأمر الثالث: يستعمل للتعبير عن عدم وجود رابط بين حدثين

متزامنين أو متلاحقين، أن تمرّ السيارة بقرْب عمارة تُبنى فتسقط عليها حجرة تصيبها، فيقال: أصاب الحجر السيارة صدفة.

إِذَا: يتضح من استخدام كلمة (الصدفة) أنه لا علاقة لها بما يحاول الملاحظة إيهام الناس به، فالصدفة يقتصر التعبير بها على عدم القصد أو القدرة أو الارتباط، لكنها لا تتناول أبدًا عدم وجود فاعل، فلم يبقَ إلا أن استخدامها هنا تضليل للناس وإيهام لهم بوجود بديل معقول مسألة الخلق.

خلاصة القول: كلمة (صدفة) لا يصح استعمالها في إيجاد شيء من لا شيء، لكن قد يقول قائل: لئنصِف هؤلاء الملاحظة، هُم إنما يريدون بمقولتهم: (إن الكون نشأ صدفة) كونه تطور من حالة أولية تسودها الفوضى إلى حالة منظمة كما نراها اليوم، دون الحاجة إلى منظم، ولا يريدون خروج الكون من العدم إلى الوجود؟
والجواب عن ذلك: أنهم قلَّ ما يشيرون إلى هذا التفريق، بل هُم يعتمدون دمج المسألتين: الإيجاد، والتنظيم، وسبق ذكر بعض الكلام المتعلق بهذا.

ثم هُم إن أرادوا التنظيم لا الخلق نقول لهم: هذا صرّف للمسألة عن أصلها، فإن إخراج الوجود من العدم أعظم من إخراج وجود مُنظم من وجود غير مُنظم، أليس كذلك؟ فلماذا تركتم أصل المسألة وأعظم جانبيها وتعلقتم بالآخر؟ بمعنى: قبل أن تتحدثوا عن تنظيم الكون، أجبونا بوضوح: ما سبب وجود الكون؟ من أين أتى الكون وقد كان عدماً؟ ولا إخال أكثرهم إلا سيعود مُرغمًا للجواب السابق الساقط، وهو: وُجِدَ صدفة.

٢. ثانيًا: لو غَضَضْنَا الطرف، وانتقلنا للحديث عمَّا بعد وجود الكون، وما زعموه من أن الصدفة هي المسؤولة عن وجود الدقة والتناغم في هذا الكون، فإننا نقول لهم: يدرك العقلاء جميعًا أن ما يحصل صدفة يكون عشوائيًا لا منظمًا، فالتعقيد والنظام يتضادَّان مع الصدفة والعشوائية.

٣. ثالثًا: يُلبَّسُ الملاحدة على الناس حين يصفون المستحيل بالممكن الذي احتمال وقوعه ضئيل جدًا، أوَّدُ أن نتنبه إلى هذه المغالطة، وكل العقلاء يدركون أن قفزة بقرة توصل إلى القمر، أو أن حركة يد تمثال رُخامي ممكنة، أو أن رمي مجموعة أوراق أثناء إعصار ينتج بيتًا ورقيًا، أنَّ هذه الأشياء مستحيلة الوقوع، والتصديق بإمكان وقوع هذه الأشياء ضرب من السَّخَافَة، والأمر أوضح من أن ي طال في بيانه.

٤. الأمر الرابع: يرَضُخ الملاحدة المعاصرون لحقيقة أن هذا الكون المعلوم لنا، وكل ما فيه له بداية محددة، ويتضمَّن هذا أن ظهور الحياة على هذه الأرض له بداية أيضًا، وأنه محدد بفترة زمنية معينة، إذًا؛ لا يمكن إعطاء وقت لا محدود لهذا الكون، ولو سلَّمنا جدلاً بأن

الصدفة شيء فاعل، لكن الوقت قصير جداً لتكون الصدفة هي المسبب الحقيقي.

خُذْ مثلاً: (دوكنس) الداعية الإلحادي المشهور، يقول: «فبمجرد إعطاء وقت أو فرص غير محدودة، فإن أي شيء يمكن أن يحدث»، نقول: هذه مغالطة مرفوضة، ليس هناك شيء اسمه: (وقت غير محدود)، ليس هناك شيء اسمه (فرص غير محدودة في هذا الكون).

الخلاصة: كون ظهور الحياة على الأرض له بداية زمنية، يشكل مُعضلة كبرى لهم.

٥. الأمر الخامس: حين يقرر الملاحدة إمكانية ظهور الحياة على الأرض صدفة، فإنهم يخالفون كُلاً من العلم التجريبي والمنطق السليم، فعداً أن كل مُحَدِّث لا بد له من مُحَدِّث، وهذه بديهية مُجمَع عليها، فالصدفة لا تُحَدِّث، وبالتالي كلامهم ساقط، ومع ذلك نقول تنزُّلاً: ادعاء إمكانية ظهور الحياة على الأرض مصادفة، وبهذه البساطة – كما يقولون – أيضاً باطل؛ لأن هذا الظهور لا بد فيه من النظر إلى جوانب معقَّدة مختلفة:

- الجانب الأول: لا بد قبل ظهور الحياة على كوكب الأرض أن يكون قابلاً للحياة أصلاً، ولكي يكون قابلاً للحياة فلا بد أن يكون فيه بعض المعايير الفيزيائية المعينة، ومع عدم وجودها فالكون غير قابل للحياة.

ذكر علماء الفيزياء الفلكية: أنه لابد من وجود ستة وعشرين معياراً فيزيائياً مضبوطاً بشكل دقيق جداً لكي يمكن أن تنشأ الحياة الحية في أيِّ موضع من الكون، من الذي ضبط هذه المعايير؟ أهَي الصدفة أيضاً؟

● الجانب الثاني: الأحياء يتكونون من الخلايا، والخلايا مكونة من البروتينات، والبروتينات مكونة من الأحماض الأمينية، البروتين مبني بطريقة معقدة جداً، يستحيل وجوده صدفة.

● الجانب الثالث: البروتينات ترتبط وتتفاعل مع (DNA) وهو من أهم المكونات الخلوية، وتُخزَّن المعلومات فيه، وظهور (DNA) صدفة أيضاً من المستحيلات القطعية.

● الجانب الرابع: ليست (DNA) هو المكون الوحيد في الخلية، بل هناك مكونات أخرى لابد من وجودها، الخلية أقرب ما تكون إلى مصنع مصغر يعمل فيه آلاف القطع بطريقة منظمة.

إذا: ظهور هذه الجوانب الأربعة كل واحد منها على حدة صدفة مستحيل، وإذا لاحظناها جميعاً مع بعضها فإننا نعلم أنه في غاية الاستحالة.

٦. الأمر السادس: المسألة ليست في وجود الكون من العدم، بل ولا في إتقانه فحسب، بل أيضاً في استمراره على هذا الإتقان وعدم

اضْمَحَلَّالِهِ، بِمَعْنَى: سَلَّمْنَا جَدَلًا أَنَّ الْكَوْنَ وَجَدَ بِضَرْبَةِ حَظِّ عَشْوَائِيَّةٍ -وهذا من أبعد المستحيالات- لكن من أين جاءه تماسُّك نظامه؟ لمَّ لمَّ يسرع إليه الحلُّ، ولم تنجُم عنه فوضى صدفة أيضًا؟ من الذي يمسكه من أن يزول، هل الصدفة نفسها هي القادر الرحيم الذي يُخَنُّو على هذا الكون، فيحافظ على نظامه؟ هل تصالحت الصدفة مع عدوها -أعني الاستمرار والتكرار- لأجل رعايتنا؟ هل هناك عقول تقبل هذه التُّراهاات؟

٧. الأمر السابع والأخير: آخر من ينبغي أن يتكلم بهذه الهذيانات هم الملاحدة الماديون، فقد صدَّعوا رؤوسنا بنفي كل شيء لم يثبت بالحسِّ والتجربة، فنقول لهم: من أين لكم أن الكون وُجِدَ صدفة؟ من أين لكم أن الإبداع الذي فيه وُجِدَ صدفة؟ في أي مختبر جرَّيتم هذا فوصلتم إلى هذه النتيجة؟ لن أَشُقَّ عليكم، أطلبكم أن تثبتوا لنا بالتجربة الحسية أيَّ شيء وُجِدَ من العدم صدفة، أوجدوا لنا سيارة، جوال، أوجدوا لنا فنجان قهوة، أوجدوا لنا بالتجربة الحسية أن حبة رمل واحدة وُجِدَت من العدم صدفة؟ أعتقد أنه سيطول انتظارنا، ولن نجد منهم جوابًا.

المقدم: إن كان هناك إحالة أو وصية نختم بها؟

الشيخ: أوصي بأمرين - حفظكم الله -: قراءة موضع مهم جداً من كتاب «مفتاح دار السعادة» في بيان الإتيقان في هذا الكون، في المجلد الثاني من صحيفة (٥٣٨ - ٧٩٤) من طبعة (عالم الفوائد).

أتمنى أيضاً الاطلاع على مقطع مدته خمس دقائق، أنتجته لجنة يقين، تجدونه في يوتيوب بعنوان (دليل الأفعال، هل الصدفة أوجدت الكون)، أتمنى الاطلاع عليه.





الحلقة السابعة والعشرون

نظرية التطور في الميزان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الشيخ: فنحن - كما تفضلتم - أمام موضوع مهم وكبير، نظرية التطور اليوم هي حَجَرُ الزاوية للفلسفة الإلحادية المعاصرة، ومن أبناء المسلمين من يتوهم صحتها، مع أن حجم المغالطة العلمية والعقلية فيها كبير، فهذا ما يدعون للبحث فيها، والموضوع علمي عميق وواسع، وسأحاول أن أختصره بتوفيق الله، وأسهله قدر الإمكان.

المقدم: واليوم إذاً نتحدث عن نظرية التطور، أو ما يسمى بنظرية النشوء والارتقاء، يعني هل يمكن في البداية أن نعرفها تعريفاً مختصراً لها، خاصة من يسمع باسم نظرية التطور، نظرية (دارون)، وربما لا يكون ممن درّسها دراسة فعلية، أو يعرفها عن قُرب، أو يعرف مختصر خلاصة حولها؟

الشيخ: نظرية التطور، أو نظرية النشوء والارتقاء نظرية مشهورة، ولا أظن أحداً لم يسمع بها كما تفضلتم، وهي التي أسسها (تشارلز دارون)، وأصلها اكتشافات كان يدونها للمظاهر الطبيعية التي شاهدها أثناء رحلة بحرية طويلة له على مثن سفينة تسمى (بيقل)، فتولدت لديه فكرة أن هذه الحيوانات تطورت تدريجياً من كائن إلى كائن، ثم انتهى الأمر بإصداره كتابه المشهور «أصل الأنواع»،

وكان هذا في سنة (١٨٥٩) م، ثم أصدر كتابه الثاني الذي هو «أصل الإنسان» عام (١٨٧١) م.

خلاصة النظرية: أن الكائنات الحية تشترك في أصل واحد، هو كائن حقير أو خلية بدائية واحدة، ثم أخذ هذا الكائن في التطور والارتقاء، وتشكلت منه الأنواع الحيوانية مع مرور الوقت، وكان هذا التطور قائماً على قانون الانتخاب الطبيعي الذي يقوم على المصادفة والعشوائية العمياء.

وقد تلقت هذه النظرية كثير من الجهات الأكاديمية الغربية بالقبول، رغم وهنها وضعفها، كما سيأتي إن شاء الله، واحتفى بها الملاحدة احتفاءً لم تحظ به أيُّ نظرية سواها.

المقدم: قبل أن نعرف سبب تعظيم الملاحدة لها، نودُّ أن نقف مع نفس النظرية، كلمة (نظرية) يعني هل فعلاً نظرية، هل حقيقة علمية؟ أم مجرد فرضية أو طرح قابل للنقاش، وفعلاً تعرض للنقد؟

الشيخ: الواقع أن هذه النظرية، وأنا أصفها بالنظرية لشهرتها بهذا، وإلا فالحق أنها أقرب ما تكون لحُلْم يداعب دُعائها، وليست نظرية علمية قابلة للتجربة العلمية المعتبرة، فضلاً عن كونها حقيقة علمية، على الرغم من مرور مائة وستين عاماً على النظرية، لم يثبت دليل واحد على انتقال نوع من الكائنات الحية إلى نوع

آخر، لا أتكلم عن التطور في النوع نفسه، أتكلم عن انتقال نوعٍ إلى نوعٍ آخر، ما وجدنا دليلاً على هذا ولو واحداً.

آلاف الأطنان من الصخور التي حُفرت، لم يوجد بينها ولا واحد من الأحافير الوسيطة لأنواع الكائنات الحية.

اليوم يوجد ثلاثة ملايين نوع من الكائنات الحية على وجه الأرض، بخلاف المنقرضة، لا يوجد في السجل الأحفوري دليل علمي واحد يثبت وقوع التطور، وأن للكائنات أباً مشتركاً واحداً، لا توجد ورقة علمية محكمة واحدة تثبت ظهور شفرة جينية جديدة لبروتين وظيفي متخصص من خارج الحوض الجيني، لأي نوع، ألا يحق لنا أن نقول بعد هذا: إنها فرضيةٌ تخيلية لا حقيقة علمية، بل ولا نظرية، ولا يزيد بها التطور العلمي مع مرور الأيام إلا وهناً وإشكالاً، وما أكثر التطوريين الملاحدة الذين اكتشفوا هذه الحقيقة المرة.

خذ مثلاً: الدكتور (مايكل دانتون)، وهو متخصص في علم الوراثة، وبالمناسبة هو مُلحد، كتب سنة: (١٩٨٥) م كتاباً ينتقد هذه النظرية سماً: «التطور نظرية في أزمة»، قرّر فيه أن هذه النظرية ليست أشبه بالطعام الذي لم ينضج، بل لم يُطبخ أصلاً، ثم يرد من الآخرين أكله ولو بالقوة، العجيب أنه بعد الثلاثين سنة، يعني عام

(٢٠١٥) م أَلَّفَ كتابًا سَمَّاه «التطور نظرية ما تزال في أزمة»، أوضح فيه أن الإشكالات على النظرية قد زادت، والكتابان مترجمان ومطبوعان.

المقدم: يعني عبر مائة وستين عام ربما تأييد الكثير من العلماء وربما كثير من الملاحدة وباب العلم الطبيعي لهذه النظرية إلا أنه إلى الآن لم يوجد دليل علمي واحد على التطور الحاصل بين الأنواع المختلفة؟

الشيخ: نعم، هذا حقيقة.

المقدم: هل يمكن بيان أبرز أوجه النَّقد الذي وُجِّهَتْ لهذه النظرية، نظرية التطور؟

الشيخ: مُنْذُ أن خرجت هذه النظرية إلى الناس وإلى اليوم وهي تواجه بنقد عنيف كثير من العلماء في تخصصات مختلفة، وما هذا إلا لَوْهْنِهَا الشديد والثغرات الكثيرة التي احتوت عليها، والإحاطة بكل أوجه نقدها شيء لا تحتمله مساحة هذه الحلقة الضيقة، ولذا سأكتفي ببعض الأوجه الموجزة:

١. الوجه الأول: العجز عن الإثبات، مع عظيم الهالة التي حَلَعَهَا الملاحدة

على هذه النظرية، إلا أنها لا تزال في درجة الفرضية، وثَمَّةَ عقبات كثيرة تعترضها، ومن ذلك أمور:

● الأمر الأول: التطور المُدعى شيء لا يمكن ملاحظته ولا تجربته، ولم ولن يتمكن التطوريون من تقديم صورة واحدة من صور التطور خضعت للتجريب والاختبار.

والعجيب أنهم يزعمون أنهم يسلكون المنهج الطبيعي المنهجي، وهو الذي خلاصته أنه لا يمكن نيل العلم بحقيقة الوجود إلا عن طريق التجارب العلمية، ويتقنون أهل الأديان لمخالفتهم لهذا المنهج، وما هم بخالفونه.

باختصار: النظرية تقول: بقاء الكائن الحي إنما كان بسبب الانتخاب الطبيعي، والسؤال: ما الدليل العلمي التجريبي على أنه تمَّ انتخابه؟ وما الدليل العلمي التجريبي على أنه لم يبقَ حيًّا إلا مجرد الانتخاب؟ ولم لا يكون هناك سبب آخر لبقائه؟

الجواب عندهم: لا جواب.

● الأمر الثاني: هذه النظرية حافلة بالثغرات والفجوات التي لم تُسدَّ حتى الآن، ومنها: فقدان الدروب الوسطى الانتقالية، فلم تكشف الحفريات عن شيء منها. ومنها: فقدان الطفرة في الطبيعة، لا يوجد في الواقع مثال واحد لطفرة طبيعية ولو لخلية واحدة، بل ولو لجُزِيء وظيفي واحد داخل الخلية.

ومنها: وجود الأعضاء التي بلغت الغاية في الدقة، وهنا أسجل اعترافاً لـ(دارون) نفسه يتعلق بالعين، العين بالغة الدقة والتعقيد، والقول بأنها تكونت عن طريق الارتقاء الطبيعي يقول فيه دارون: «ذلك يبدو، وأنا اعترف بذلك كشيءٍ ينافي للعقل إلى أعلى درجة»، هذا كلامه بنصه في كتاب «أصل الأنواع» في صحيفة (٢٩٣)؛ ولذا هذه الفجوات الكثيرة جعلت (دارون) نفسه يكثر من تردد عبارة الشك والارتياب من نظريته في كتابه، وقد أحصى بعض الدارسين ما جاء منها فيه، فبلغت أكثر من ثمانمائة جملة ارتياب.

● الأمر الثالث: ضخامة الشواهد الواقعية التي تناقض فرضية التطور.

الكائنات الحية ينطق تكوينها بأنها نتاج إحكام وإتقان، وليس صدفة وعشوائية، وأمام هذه الحقيقة الجلية تبدو هذه النظرية ظاهرة البطلان، وقد صدّق العالم التجريبي (كولت كلوتيس) حين قال: «الاعتقاد بالتطور يحتاج إلى كثير من السّداجة».

٢. الوجه الثاني: من جهة النقد هو في فساد منهج الاستدلال

والاستنتاج، ويظهر هذا من خلال عدة أمور:

● الأمر الأول: أنهم يبالغون في الاعتماد على الخيال والحجز، التطوريّون

لمّا لم يقفوا على ما يدعموا نظريتهم من أحافير واضحة المعالم، وأعضاء متكاملة الصورة، لجؤوا إلى الخيال والتّخمين، وأضحى هو

مُعتمدَهم الأكبر، وصاروا كما نقول في العامية: (يَنون من الحبة قُبَّة)، وهذا خلل منهجي بَيّن.

أضرب لك مثلاً: في عام (١٩٢٢) م عَثَرُوا في ولاية (نبراسكا) بأمريكا على حَفْرية عبارة عن ضرس فقط، فزعموا أنه يحمل صفات مشتركة بين البشر والقردة، واعتماداً عليه رسموا صورة مُجمعة وجسد لصاحب الضرس، وسمّوه (إنسان نبراسكا)، بل رسموا صورة زوجته، يعني صورة عائلية كاملة، كل هذا بناء على ماذا؟ على ضرس، ثم اكتُشِفَ بعد عدة سنوات أنه لا يعود لا لإنسان ولا لقرَد، وإنما هو ضرس نوع من الخنازير البرية الأمريكية المنقرضة، والقصة هذه كلها منشورة في الإنترنت لو بحثت عنها وجدتها بالصور.

مثل هذا النوع من الاستنتاج، هل له من البحث العلمي نصيب، أم هو ضرب من التخيلات؟

● **خُذْ أمراً ثانياً:** القوم يعتمدون على مطلق المشابهة، ما أن يجد التطوريُّون أدنى تشابه في بعض الأجزاء، حتى يجعلوا هذا دليلاً على التطور التدريجي والانتقال النوعي بين الأحياء، لكن هذا منهج غير صحيح؛ لأن التشابه لا يعني بالضرورة التطور والانتقاش، لم يدع أحد قط وجود تماثل تطوري بين الإنسان والأخطبوط بناءً على أن عين

هذا قريبة الشَّبه من عين هذا، هل سيقول التطوريُّون: إن التشابه بين الإنسان وثمرَة البطاطس بعدد الكروموسومات، كلُّ منهما يحوي ستة وأربعين منها، هل هذا يعني أن ثَمَّة صلة تطورية بيننا وبين البطاطس؟ هل تعلم أن التشابه الجيني بين الإنسان وديدان الـنيماتودا يبلغ خمسة وسبعين في المائة، حوالي ستين في المائة من جينات الدجاج لديها نظير جيني بشري، بين الإنسان وذبابة الفاكهة ستون بالمائة، بل بين الإنسان والفأر تسعة وتسعون في المائة، بل بين الإنسان والموز خمسون في المائة.

الخلاصة: ما الدليل على أن تشابهاً بنسبة ما بين كائنين يقتضي سَلَفًا مُشْتَرَكًا؟ أَقْرَبَ هذا؛ هل كون رجلين يلبسان مقاس حذاء واحد، يستلزم أنهما من قبيلة واحدة، هل التشابه بقدر ما بين سلاح الرشاش ومصيدة الفئران، يستلزم سَلَفًا مُشْتَرَكًا بينهما؟

وعلى كل حال، وقوع تشابه بقدر ما بين الكائنات والمخلوقات ليس مستغرباً عندنا أهل الإسلام؛ لأن الخالق لهما جميعاً واحد، هو الله جل في علاه.

● خُذْ أَمْرًا ثَالِثًا: التطوريُّون وقعوا في الدَّور، أو ما يسمى بالاستدلال

الدائري، يعني البرهنة على المسألة بنفسها، وهذه مُغالطة منطقية تحاشاها العقلاء، ومن شواهد وقوعهم فيها: أنه إذا جاؤوا إلى

موضوع الأحافير، يستدلون بالأحافير على التطور، ويعتمدون على التطور في تفسير الأحافير، دور.

● خذ مثلاً آخر: إذا قلت للتطوري: لم هذان الكائنان متشابهان؟

يقول: لأن لهما سلفاً مشتركاً.

وإذا قلت: ما الدليل على أن لهما سلفاً مشتركاً؟

يُجيبك: لأنهما متشابهان.

وهكذا في حلقة مُفَرَّغَة لن نخرج عنها.

٣. الوجه الثالث: بطلان القواعد المركزية.

هذه النظرية تقوم على أصليين: القول بالصدفة، والانتخاب الطبيعي.

والانتخاب الطبيعي هو الانتخاب طويل الأمد.

أمّا الصدفة فقد مضى الكلام عنها في الحلقة الماضية، وتبين أنها لا تصلح تفسيراً علمياً لنشأة الكون أو تطوره.

أمّا الاعتماد على الانتخاب الطبيعي طويل الأمد، فهذا منقوض من وجهين:

● الوجه الأول: هو فقدان التناسق الاضطراري.

بمعنى: مبدأ الانتخاب الطبيعي، وبقاء الأصلح من كل نوع يستدعي أن تكون الأعداد المنقرضة أضعاف أضعاف أعداد الأصناف الموجودة، غير أنه لا إثبات لهذا، الأحافير المُكشَّفة إلى اليوم لم تُسَعِّفهم بشيء من هذا البتَّة.

بمعنى: إذا كان عندنا اليوم - كما ذكرتُ سَالِّفًا - ثلاثة ملايين نوع من الكائنات الحية، وبحساب هذا العدد مع المعدل الزمني لظهورها فلا بد أن يظهر كائنٌ حيٌّ جديدٌ كل بضعة أيام، ولا بد من آلاف الكائنات المتحورة كل ساعة، أي: الضروب الوسطى ينبغي أن تكون الآن بالمليارات، ولكن لن تكشف الأحافير عن شيء منها أبدًا، بل أقول لك: الأَحْفُورَات الحديثة عِبءٌ ثَقِيلٌ مَحْرَجٌ للقوم؛ لأنهم دائماً بحاجة إلى التعديل على النظرية، والاختصار أو التغيير بسبب هذه النتائج التي تظهر يوماً بعد يوم، ولذلك رأينا أنه تخرج أكثر من نسخة لنظرية التطور.

● **الوجه الثاني:** فُقْدَان التناسق الزمني، **بمعنى:** لا تناسق بين التطور

والزمن، الانتخاب وتطور الحيوانات عبر الطُّفُورَات، لا يتناسب مع زمن وجودها على وجه الأرض، فالوصول إلى النوع الحديث من أيِّ نوع من الحيوانات يحتاج إلى زمن أكبر بكثير من المقدَّر عندهم، هذا فضلاً عن استحالة حصول التعقيد المحكم عن طريق الانتخاب مهما طال الزمن.

وبالمناسبة هذا الاعتراض الرياضي من أقدم وأهم الاعتراضات على النظرية، الحسابات الرياضية تُبين بوضوح استحالة حصول التطور المُدعى في المدة الزمنية التي يقدرونها لعمر الكون.

٤. الأمر الرابع: العجز عن التفسير البيولوجي.

تقف النظرية في الحقيقة عاجزة عن تفسير كثير من المظاهر الجوهرية في الحياة، تقف قاصرة عن بيانها، لا سيما مع ملاحظة ما يُسمى: بالتعقيد غير القابل للاختزال لجميع مظاهر الحياة، والمراد بهذا التعقيد: النظام المكون من أجزاء شديدة التداخل والترابط، والتي يؤدي أيُّ تغير فيها إلى فساد النظام وانحرافه عن مساره، هذه الأنظمة المُعقَّدة غير القابلة للاختزال؛ صداع في رأس مُنَاصِرِي النظرية؛ لأنها عَصِيَّة على أن تُنتج في ضوء النظرية، ومن أهم المظاهر البيولوجية التي تعجز فرضية التطور عن تفسيرها: نشأة الحياة، التطوريُّون عاجزون تمام العجز عن إبداء تفسير علمي منطقي لأصل بزوغ الحياة في ضوء نظريتهم، من أين أتت تلك الخلية الأولى؟ كيف تحولت المادة الصَّمَاء التي لا حياة فيها إلى كائن حي؟

أُعيد: قبل أن تُحدِّثونا عن التطور، حدِّثونا عن النُّشوء؛ لأن الأصل قبل الفرع، والنُّشوء باعتراف كبار المُلحدِّين قبل غيرهم، يستحيل تفسيره في إطار الرؤية التطورية، اليوم وأمس وغدًا هناك سؤال لا إجابة له في الفلسفة التطورية: كيف

بدأت الحياة على وجه الأرض؟ كيف للكون الذي تشكّل في زعمكم من مادة عمياء بلا عقل أن ينتج كينونات تحكمها الغائية، والقدرة على التكاثّر، والكيمياء المشقّرة، إذا كان السؤال الأول في الداروينية بلا إجابة فكيف نتطعّ لِمَا بعده؟

من مظاهر هذا التعقيد الذي لا تفسير له عندهم: تعقيد الخلية الحية، التقدّم العلمي أثبت أن الخلية عالم معقّد غاية التعقيد، حتى قيل: (إن الخلية لا تقلّ تعقيداً عن مدينة نيويورك)، وعليه فتكوّنها صدفة أمر مستحيل، الوعي والذكاء، من أين جاء؟ عمل الأنظمة البيولوجية كيف حصل؟ الحياة وما فيها ممّا هو أشمل وأعقد من مجرد نُشوء وتطور، عمل الأجهزة العضوية المعقدة الذي هو في غاية التداخل والإبهار، كيف تمّ؟ النظرية تقف عاجزة عن تقديم تفسير مقبول لهذا التعقيد والتناعّم المثالي، يستحيل عقلاً أن نظاماً متكاملاً كهذا قد حدّث صدفة، كل عاقل يدرك أن أيّ آلة فلا بد لها من صانع، وكلما كانت الآلة أكثر تعقيداً جزمنا بأن صانعها أكثر عبقرية.

٥. الوجه الخامس والأخير: تناقضها مع علوم ونظريات تجريبية أخرى.

خُذْ مثلاً: نظرية علمية حديثة تسمى (الحدّ الأدنى من الجينات)، هذه النظرية قررت أنه لا يمكن لأيّ كائن حيٍّ مهما كانت بساطته أن ينزل عن ثلاثمائة وسبعة وتسعين جينة، وهذه النظرية تقضي على نظرية التطور تماماً؛ لأن تلك

النظرية -أعني: نظرية التطور- تُقرّر أن الحياة بدأت بصفر جينة ثم واحد جينة ثم اثنين جينة، وهكذا، وهذا أمر مُمتنع في ضوء هذه النظرية الحديثة.

المقدم: القوم بالذات الملاحدة من أنصار هذه النظرية، كل مرة يأتون بقصة جديدة، المُهم ألا يعترفوا بوجود الخالق، فما سبب حماسة الملاحدة لهذه النظرية مع كثرة هذه الأوجه التي تدل على ضعفها؟

الشيخ: هذه النظرية حَجَر الزاوية في المنهج الإلحادي، هذه النظرية هي الكتاب المقدس له، هذه النظرية تَبَنُّوها وتحمسوا لها بغاية القوة، ووسَّعوا دائرتها لتشمل كلّ مناحي الحياة، والسبب أنها طوق النجاة لهم، هؤلاء يرون أنها النظرية الوحيدة التي يمكن بها تفسير بداية الخلق دون الحاجة لخالق.

باختصار: حماستهم لها لأنه إذا سقط التطور سقط الإلحاد، الكائنات الحية إما أنها جاءت عن طريق خلق خالق، وإما جاءت عن طريق التطور والارتقاء، ولا بديل ثالثاً، وهُم على استعداد لقبول أيّ شيء سوى الإيمان بالخالق سبحانه.

ومن الطريف هنا: إن التطوّري الملحد المشهور (دوكنز) أجريت معه مقابلة قديمة منشورة ومترجمة في يوتيوب لمن أراد الاطلاع عليها، قرّر فيها أن أصل الحياة ربما كان من بعض الكائنات المتقدمة تقنيًا في مكانٍ ما من هذا الكون، ثم بذّروه في كوكبنا، يعني هناك كائنات فضائية هي التي أوجدت بداية الحياة في هذا

الكوكب، وذكر أنها فرضية مثيرة، إذاً هو لا يمانع من نظرية التصميم الذكي، إنما يعترض على نسبتها إلى الخالق سبحانه تحديداً، إيمان بكائنات فضائية خالقة ممكن، إيمان بخالق عظيم سبحانه غير ممكن.

يقول لك: كيف أؤمن بالله وأنا لم أره؟ هل رأيت الكائنات الفضائية؟ دَعَك من هذا، هل رأيت الخلية الأولى؟ هل رأيت السِّلَف المشترك لأيِّ نوعٍ حي؟ هل رأيت الطُّفَرَات العشوائية؟ هل جربت كل هذا في المعامل؟ لا أملك إلا أن أقول: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ، فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [المائدة: ٤١].

الواقع: أن الملحد لم يؤمن لأنه لا يريد أن يؤمن، أقول: إذا فهمنا سرَّ حماستهم لها لم نستغرب الإرهاب الشديد الذي مارسوه ضدَّ كل من يخالفهم تجاهها. هناك كتاب أَلْفَه دكتور اسمه (قري بريكن) اسمه «ذبح المُنْشَقِّين»، وصف ما يلاقيه معارضون نظرية (الأوساط العلمية الغربية)، وبَنَى كتابه على مقابلة لثلاثمائة عالمٍ وأكاديمي، وجميعهم يَبْنُون بمرارة ما يلاقونه بسبب عدم موافقتهم لها، أَضِف إلى هذا أنه قد أنتج أوصار النظرية التصميم الذكي فيلماً وثائقياً هو (مطرُودُون غير مسموح بالذكاء)، الفيلم هذا موجود على الشبكة ومترجم، يتحدث عن الإقصاء في المجتمع العلمي الإلحادي في الغرب.

وبالمناسبة هذا الفيلم الوثائقي تمَّ عرضه في ألف واثنين وخمسين مسرح في الولايات المتحدة، وهذا ما لم يحدث لأي فيلم وثائقي قبله.

المقدم: إن كان من كلمة أخيرة نختم موضوع نظرية التطور في الميزان؟

الشيخ: عندي ثلاث كلمات:

١. الكلمة الأولى: يُخطئ كثيرٌ حين يظنون أننا نتحدث هنا عن نظرية علمية يتجادل فيها المتخصصون، كما هو الشأن في أيِّ مسألة علمية خلافية، هذا خطأ كبير، نحن أمام عقيدة وفلسفة، أمام خُرافة تريد أن تزيج الوحي والدين الحق، بل والعلم والعقل، وذلك عن طريق إيهام علمي وتلاعب في المصطلحات، لذا فلا مجال لمسلم أن يتساهل معها، أو أن يسعى أحد في (أَسْلَمَتَهَا)، أو يُطوِّع الشريعة وأدلتها من أجلها.

نظرية التطور المعروفة خلاصتها: المخلوقات بلا خالق ولا غاية، القضية برُمَّتْها صدفة أنشأت، وعشوائية عمياء انتخبت، ولا شيء أكثر، إذاً هي تعارض الدين الحق، والفطرة السليمة، والعلم الصحيح، والعقل الصريح.

٢. الكلمة الثانية: هناك بُعد آخر للفلسفة التطورية والتطور الاجتماعي،

فقد أثرت هذه النظرية في كثير مِّن يتبعونها من حيث نظرتهم للحياة

والناس والمجتمعات، بمساعدة الضعفاء مثلاً خطأ؛ لأنها تتعارض مع الانتخاب الطبيعي القائم على أن البقاء للأقوى، وهذا (سبنسر) مؤسس الدارونية الاجتماعية، كان يعارض تدخل الدولة في الحماية الصحية لمواطنيها، حقيقة أن جميع الأخلاق والقيم تصطدم مع أبجديات التطور، ولذا وجدنا لها أثراً واضحاً في بعض الناس في الغرب، من جهة تفضيل بعض الأعراق على بعض، والتمييز بين الناس بسبب اللون، واعتقاد أن جنساً أفضل من جنس، وحدث ولا حرج عمّا نشأ بسبب هذا من أيّدولوجيات إجرامية، بل حروب إبادة، وكل هذا من سيطرة الثقافة الدارونية على بعض العقول.

٣. أخيراً: الطريق السهل الواضح في قضية الخلق، والمتوافق مع الفطرة السوية، أن خالقاً عظيماً حكيمًا عليماً ﷻ، هو الذي خلق الخلق وأوجدهم من العدم، وهو الذي يدبر شؤونهم، وهو الذي يجب عليهم عبادته، وآثار خلقه تدل قطعاً عليه، تأمل هذا في كل شيء تقع عليه عينك من مخلوقاته، ستجد الصُّنع المتقن، تأمل في خلق العين، في عمل القلب، في تحنُّر الدم، تأملوا في خلق الزرافة، في تلقيح زهرة الأوركيد، تأملوا في شريط (DNA) الذي هو بنك المعلومات المركزي، تأملهُ في

كل شيء، (وفي كل شيء له آية تدلّ على أنه الواحد)، وأحسن من هذا: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيعَةٍ مِّنَ لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَّا يَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ [فصلت: ٥٣-٥٤].

المقدم: إن كان هناك من كتاب توصون بالعودة إليه أو مرجع؟
الشيخ: والله الكتب المؤلفة في نقد النظرية في الحقيقة بالعشرات إن لم تكن أكثر، لكن تسهيلاً أوصي بالاستماع لندوة عقدتها لجنة يقين، موجودة في يوتيوب، عن نظرية التطور عنوانها (نظرية التطور في الميزان الشرعي والعلم) لمن أحب التزيد أو الزيادة في الاطلاع عليه.





الحلقة الثامنة والعشرون

الإلحاد تناقضات ومغالطات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الشيخ: فتنة التيار الإلحادي المعاصر فتنة لا يمكن التغاضي عنها، فنشاط الملاحدة عبر وسائل التواصل ليس يخفى على مُطَّلِع، وهم يستخدمون أساليب خادعة جاذبة لضعيف المعرفة، ومنها المغالطات المنطقية، إذًا لا بد من التفتُّن لها، كما أن هذا المنهج المُتهافت متناقض في نفسه، بل هو أكثر تناقضًا من أيِّ مذهب فكري آخر، وتناقض القول دليل فساد عند العقلاء، فمعرفة تناقضات القوم تزيد اليقين بضلالهم، وتوقظ المغرورين.

وأود التَّنبية هاهنا على أنه قد يقول بعض الناس: لم الحديث عن الإلحاد في هذه الأيام؟ وهل أصبح ظاهرة في المجتمعات المسلمة حتى يستحق التركيز عليه؟
والجواب: الإلحاد فكر شاذّ، وسيبقى شاذًّا ولم يُمَكَّنْ له بإذن الله، لكن أنَّ دعائه نشيطون في هذه الأيام، هذا واقع لا يصحَّ جحده، ونحن في زمنِ الأبواب الفكرية فيه مُسرَّعة، ولا حدود لها، ثم الحديث عن الإلحاد ينبُع من فداحته وخطره لا من عددِ المتأثرين به، فعَنِي عن البيان أن الإلحاد أشنعُ كُفْر وأعظم جريمة وقعت على وجه الأرض على الإطلاق، ثم إنَّ مجرد تأثر قلة قليلة به، كافٍ في أن يدقَّ فينا ناقوس الخطر، ففساد تفاحة واحدة يدل على أن المناخ قابل لأن يفسد غيرها، إذًا لا بد من تنبُّه وتنبية، وتبصُّر وتبصير، وتفتُّن وتحذير، هذه تاءات مُهمة.

المقدم: وربما المتابع لخطاب هؤلاء أو مَنْ قرأ بعض الكتابات التي كُتبت عنهم أو نقلت بعض النقولات من أقوالهم، يلاحظ كثرة حديثهم عن الإنسانية الإنسان ونحو ذلك، فما دُمنّا نتحدث عن الإلهاد، لو تُحدّثنا باختصار عن حقيقة الإنسان في ظل العقيدة الإلهادية؟

الشيخ: سؤال في غاية الأهمية، باختصار: الإنسان عند الملاحظة مادة حية صَنَعَتْهَا العشوائية بضربة حظٍّ، عاشت لتموت، وتموت لِأشياء، فلا أمل ولا غاية، ولا سعادة ولا محبة، ولا معنى ولا قيمة، إنما التَّيْه والفراغ والعدمية والظلام، لا وجود لشيء سِوى مادة صَمَاءٍ، وعشوائية عَمِيَاءٍ، هواء ثم فَنَاءٍ. الإلهاد تصور لا يمكن أن يعيشه الإنسان، الإيمان بالله تعالى هو فقط الذي يجعل للحياة معنى؛ لأنه يجعل لها غاية، كما يجعل لما بعد الموت غاية، والإنسان لا يستطيع أن يعيش في هذه الحياة من غير غاية.

في الإلهاد ليس للإنسان أي قيمة أو فضيلة، فهو والفأر والنملة والبكتيريا في القيمة سواء، لا فرق إلا في ساعة الحوض الجيني، إذاً هو فرق في الكَم لا في الكيف. التاريخ الموجز للإنسان أنه خلية أُحادية، تطورت صدفة، حتى ارتقّت لتكون سمكة ثم ارتقّت إلى حيوان أحمطّ من القرد، ثم تطور فكان إنساناً، وهو بكل حال حيوان من الحيوانات، أيُّ قيمة للإنسان إذا فقد التكريم الإلهي، وتسخير ما في

الكون له؟ لا قيمة البتّة، وإذا كانت كرامة الحياة الإنسانية في المنظور الإلهادي محض وهم، فما الذي يجعل حياته أشرف من حياة كلب أو بعوضة؟ وما الذي يمنع من التخلص من كبار السن الذين لا يُنتجون؟ ومن الأطفال المصابين بعاهات، أو على الأقل جعلهم حقلاً للتجارب الطبية، هذا باختصار المنظور الإلهادي للإنسان.

المقدم: موضوع الحلقة في كلمتين: كلمة مغالطات، وكلمة تناقضات، فلو نبدأ بمغالطات الملاحظة، ما معنى المغالطة، ولماذا يستعمل الملاحظة هذا الأسلوب؟

الشيخ: المغالطة أو المغالطة المنطقية حجة خادعة أي: حجة باطلة تلبس لباس الحجة الصحيحة، فمن أساليب الملاحظة ومناهجهم في التقرير والمناقشة: اعتماد أسلوب المغالطة الجدلية والتلبس على المحاور لتكون شراً يصطادون به البسطاء، وأيضاً ليلتفتوا على أيّ إلزام لهم أثناء نقاشهم، وهم في هذا بالتأكيد لا يحترمون المنهج العلمي السليم في الحوار مطلقاً.

المقدم: لو نأخذ أمثلة على هذه المغالطات مثلاً حتى يتضح المقصد منها؟

الشيخ: الحقيقة أن هذا شيء كالبحر لا ساحل له، لكن سأقتصر على بعض من هذه المغالطات والتلبسات.

من مغالطاتهم: أنه إذا ناظرهم المسلم، وبَيَّن لهم قانون السببية، وأن كل حادث فلا بد له من مُحدث، فإن المُلحد يسأل بَعَاء: سَلَمنا بأن الله خلق كل شيء، فَمَن خلق الله؟ ولم لا يطبق قانون السببية عليه أيضًا؟ وهذا سؤال فاسد، أنت يا أيها الملحد سَلَمْتَ أنه خالق، ثم تقول: مَن خلقه؟ تريد أن تجعل منه خالقًا ومخلوقًا في نفس الجملة؟ هذا تناقض واضح في بدائة العقل؛ لأن الخالق لا يمكن أن يكون مخلوقًا، والمخلوق لا يمكن أن يكون خالقًا.

بمعنى: أهل الإيمان يقولون: الكون حادث، والحادث لا بد له من مُحدث، فإذا كان سبب الحادث حادثًا فلا بد لهذا الثاني من مُحدث، وهكذا في الثالث والرابع وهَلَمَّ جَرًّا، لكن هذا معناه: أن وجود الحادث صار معلقًا على عدد لا ينتهي من الأسباب المحدثه، وهذا معناه أنه لم يحدث، والواقع أنه حادث، إذًا لا بد لوجود الحوادث من سبب أَرَلِي غير حادث، لكن يعود المُلحد قائلًا: ولماذا لا نقول عنه كما نقول عن الحوادث: مَن أوجده؟ مرّة أخرى: سؤال في غاية العباء؛ لأنه ما دام الخالق أَرَلِيًّا غير حادث فلا مجال للسؤال عن موجد له، يا هذا لا شيء أوجده؛ لأنه موجود مُنذُ الأزل، ولكن إذا قال: ما الدليل على أنه أَرَلِي؟ نقول: وجود الأشياء الحادثة التي ما كانت لتحدث لو اعتمدت في وجودها على حوادث مثلها، ووجود الحوادث دليل على موجد غير حادث.

- **من مغالطاتهم:** مغالطة تجسيد المجردات، أي: معاملة شيء مجرد غير مادي كشيء مادي، أو يُجسّدون المجردات خِداً.
- يقولون مثلاً: الطبيعة تختار الكائنات الملائمة، وتختار الأقوى، ونحو هذه الكلمات، والسؤال: هل الطبيعة شيء موجود متصف بالعلم والقدرة والحكمة حتى يكون منها هذا؟ بالتأكيد الجواب: لا.
- **من مغالطاتهم:** المصادرة على المطلوب، أي: جعل النتيجة مقدمة، والمشكلة حلاً.
- يُقال للملحد مثلاً: الكون مُتَقَن حَسَن الصُّنْع، والإِتقان يتنافى والعشوائية، ويردّ قائلاً: لكننا نرى أشياء متقنة، وقد جاءت عشوائياً، ونسأله: ما هي؟ فيقول: هذا الكون، نحن نراه متقناً وقد جاء من العشوائية.
- تلاحظ -يا رعاك الله- أن المطلوب من الملحد إثبات أن الكون وُجد بشكل عشوائي، فيردّ قائلاً: دليلي هو أن الكون وُجد بشكل عشوائي، وهذا في الحقيقة ما يأنف عاقل منصف من الوقوع فيه.
- **من مغالطاتهم:** المراوغة، تجد الملحد ليُوهم صحة نظرية التطور يقول: نحن نرى الكائنات الحية تتطور، فالبكتيريا مثلاً تكتسب مناعة ضد المضادات الحيوية وهذا تطور، وهذه في الحقيقة مُراوغة؛ لأن ما

يتحدث عنه من تطور ليس هو نظرية التطور، نظرية التطور تقرّر انتقال الكائن الحي من نوع إلى نوع، يعني تتطور السمكة إلى طائر مثلاً، أمّا تطور الكائن الحي داخل نوعه فليس محل بحث أصلاً، فالبكتيريا التي اكتسبت مناعة لا تزال بكتيريا، ولم تصبح ذبابة مثلاً، والطفل الصغير الذي كبر تقول: إنه تطور، لا يزال إنساناً، لم يصبح فيلاً أو كائناً فضائياً.

أو تجده يقول: إذا كان لا يوجد الدليل الكافي من الرصد العلمي على نظرية التطور حالياً، فإنه سيثبت هذا لاحقاً، وهذه مُراوغة بامتياز، فالدليل عند العقلاء يسبق المدلول، وليس يتأخر عنه، لكن عند الملاحظة قرّر ما تشاء ولا مشكلة، الدليل سيأتي لاحقاً، وهكذا فلتكن المعرفة.

• من مغالطاتهم أيضاً: تجاهل المطلوب، يعني: يكون الحوار مع الملحد في شيء، وإذا به يقفز إلى شيء آخر، تسأله عن خالق الكون، فيُجيبك عن قوانين الطبيعة وتفاعل المادة، فتجاهل موضع البحث وهو مَنْ، وتكلم عن كيف؟

أنا لو سألتك كيف صنعت السيارة؟ فسُجّيني: وفّق قوانين الميكانيكا؟ وهنا سأقول: الجواب صحيح.

لكن لو سألتك: من صنعها؟ فقلت: صنعتها القوانين؟ جوابك هنا عند العقلاء خطأ، فالقوانين تفسر ما يقع، لكنها لا تخلق ولا تصنع.

● **من مغالطاتهم:** أنك تجدهم يطعنون في الإسلام، ويحاولون تغطية

ضعف المنهج الإلحادي من خلال هجمة شرسة عليه، ثم إنهم في هذا

الطعن يغالطون، تجدهم يكذبون عليه كذباً صريحاً، أو يخلطون بينما

ثبت فيه وما لم يثبت، يخلطون الصحيح بغير الصحيح، أو تجدهم

ينتقدون الإسلام وما ينتقدون إلا مفاهيم لبعض الفرق المبتدعة

الدخيلة على الإسلام، أو ينتقدونه وما ينتقدون إلا اجتهادات فردية

لبعض الأشخاص، فيُعَمِّمُون الحكم على الدين كله، **ومن العجيب أن**

كثيراً منهم، بل من أساطينهم يطعن في الإسلام وهو يعترف بجهله به.

المقدم: المحور الثاني ذكرتم تناقضات الملحدين، هل هناك فرق بين التناقضات

والمغالطات؟

الشيخ: التناقض هو بتسهيل وتيسير: اجتماع الشيء ونقيضه، وهذه الصفة

ملازمة لكل دين باطل وفكر فاسد، وإذا ابتليت بالاطلاع على شيء من

تقارير الملاحدة، ولعلي أدخل مباشرة إلى شيء من تناقضاتهم، فإنك -يا رعاك

الله ستجد نفسك- أمام سيل من التناقضات السخيفة المتهافئة، والحق أنه لم

تشهد البشرية في المعتقدات تناقضاً مع الذات كتناقض من ينكر وجود الخالق سبحانه، إذ في إنكاره مكابرة للعقل، ودفع للحس المشاهد، وهذا ما يؤدي إليه هذا القول، ويُحدث صراعاً بداخل الملحد مع جميع الكائنات التي تشهد بخلاف ما يقول، إمّا بلسان حالها، وإمّا بلسان مقالها.

أول هذا الصراع الذي يقع فيه الملحد: هو صراعه مع الفطرة السليمة، الفطرة تقول بوجود خالق للكون، والإلحاد يقول بعدم وجوده، وهنا يقع الملحد في تناقض مع نفسه، وذلك أن الإنسان بطبيعته مفكر، ويعتمد التسلسل للأحداث، وجميع المنتجات والمستجدات التي حوله يُؤمن بأنها لم تكن وليدة صدفة، فكيف يقبل أن يكون الكون وسماواته وأرضه ونباته وساكنوه، جاؤوا من عدم نشؤوا بصدفة.

ثم الفطرة كما تقرّر بوجود أولية لكل حادث، فهي تقر بوجود نهاية له، هو يشهد الفناء في كل يوم بالموت، كما يشهد الحدوث بالحياة، وهذه الثنائية تلزم الفطرة بحقيقة افتقار الإنسان لغيره، وأن ثمة مدبراً له لا يمكنه تجاهله.

الجملة مُعضلة الإلحاد تكمن في التناقض مع الذات، تكمن في الربط الخاطئ بين الأشياء، تكمن في المكابرة الصريحة للعقل والفطرة.

ومن ناحية أخرى: يتناقض الملحد مع فطرته من جهة إنكاره لوجود الخير والشر، واعتبارهما مفاهيم يتفق عليها البشر في الجملة، وهذا ما يجعل الفطرة تعاني

حيرة علمية وأخلاقية، كما تعاني ضبابية في التحسين والتقبيح، لك أن تعلم أن الملحد لا يمكن أن يقنع ملحدًا بمراده، إذ لكل منهما فهم للخير والشر يختلف عن فهم الآخر، لكن الأمر يزداد غرابة حين يستدل الملحد بما يُسميه (مشكلة الشر) على نفي وجود الله، وهذا والله عجيب، الملحد ليس عنده إلا شيء مادي، وكل شيء لا يعدو أن يكون إلا ذرات مبعثرة اصطدمت فحصل هذا الكون صدفة، إذا الأخلاق قضية نسبية، ولا شر ولا خير أصلاً، وكل الأشياء تمشي باضطراب أعمى بلا هدف، فكيف يستدل بعد ذلك بالشر، وما هو معيار الشر؟ لا يمكن أن يكون هناك معيار إلا إذا أثبت هذا الملحد ربًّا وضع في القلوب فطرة تميز بين الصواب والخطأ، أمّا على أصولكم -معشر الملاحدة- فالأشياء كلها سواء، لا فرق بين أن تطعم يتيماً، أو أن تضع رصاصة في رأسه.

ثم استدلاله بـ(مشكلة الشر) يدل على أن مفهومه للرب الذي يبحث فيه مفهوم مغلوط، يعني: أن يكون ربًّا خالقاً واسع العلم والحكمة، له قدرة وعزة، يفعل ما يريد، ويحكم ما يشاء، والكل عبد ذليل له، هذا لا يفهمونه، مفهوم الرب عند الملحد باختصار شديد: آلة أو خادم، يريد آلة تفعل الأشياء التي يرميها عليها، أو خادماً يأمره فيطيع، يريد ربًّا لا يفعل شيئاً سوى أن يُلبي له

رغباته، ومتى ما مَسَّه أدنى شوكة صاح: لا يوجد رب، هذا مفهوم الرب عنده، فتعالى الله عن ذلك علَّوًا كبيرًا.

من تناقضات الملاحدة: اعتبارهم الإسلام بالذات سبب الحروب في العالم.

والسؤال: هل بمجرد غياب الدين عن حياة الناس، وإنكارهم لوجود الخالق سبحانه سيصبح العالم في رخاء، هل سيسود الأمن حينها؟ ماذا سيقول الملحد إذا قلنا له أن أكبر القتلة على مدى التاريخ كانوا ملاحدة؟ هل (ماوت سي) أكبر قاتل معروف في التاريخ، الذي قتل ما لا يقل عن خمسين مليونًا، كان مسلمًا؟ في الواقع أنه كان ملحدًا.

(ستالين) الذي قَتَلَ أربعة وثلاثين مليونًا هل كان مسلمًا؟ الجواب: كان ملحدًا.

(هتلر) الذي تسبَّب في قتل الملايين، قيل: تسعة، وقيل: أكثر إلى عشرين مليون، هل كان مسلمًا؟ الجواب: كان لادينيًا.

(لينين) الذي قتل أربعة ملايين هل كان مسلمًا؟ كان ملحدًا، إذا ماذا سيكون جواب الملحد الآن؟ إن كل ما فعله هؤلاء القتلة هو قانون الطبيعة الإلحادي الذي لَحِصَه الملحد (نيتشا) في قوله: «اقهَرِ الضعفاء، واصْغَدِ فوق جُثثهم»، قارنْ معي تعاليم الإلحاد هذه مع تعاليم الإسلام، ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَنْهَرْ

﴿١﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿٩-١٠﴾ [الضحى: ٩-١٠]، لكن كلام (نيتشا) هذا هو في الحقيقة النهاية المنطقية للإلهاد، وهذا ما وعاه لينين وماوت ستالين، ومن على شاكلتهم.

في المقابل: هل يعلم الملحد أن نبي الإسلام ﷺ، هذا الذي يعاديه الملحد ويعادي دينه، لم يقتل أصحابه خلال كل سنوات قتاله التي تقارب عشر سنين، لم يقتلوا من أعدائهم المشركين في غزواتهم إلا ستمائة وخمسة وعشرين شخصاً فقط، قد يقول قائل: الأسلحة من حيث فتكها بين الزمانين مختلفة؟ نقول: صحيح، لكن ثمة شيء أهم من هذا، لم يكن ثمة تعطش لسفك الدماء، ها هو عليه الصلوة والسلام يفتح مكة، ورقاب من عادوه وآذوه وأخرجوه من بلده وقتلوا أصحابه، رقابهم تحت يده، لو شاء أن يقطع منها الآلاف فلا شيء يمنعه، ومع ذلك صَفَحَ عن الجميع، تدري كم شخص قُتل من المشركين يومئذ؟ يقول المؤرخ ابن سعد رحمه الله: إنهم كانوا أربعة وعشرين فقط، وهؤلاء بادروا بقتال أصحابه فقتلوهم، إذا أي شيء سيقول الملحد الآن؟

ومن عدم جدية الملاحدة في بحث الأمور: خلطهم بين الأديان، هؤلاء يعاملون الأديان جميعاً معاملة واحدة، يضعون الأديان جميعاً - كما يقولون - في سلة واحدة، ويحكمون عليها حكماً واحداً، لا فرق بين من يعبد الرب العظيم رب البشر سبحانه، وبين من يعبد البقر والحجر والشجر، ظلم وأي ظلم.

وخذ بعد هذا أمثلة وجيزة على تناقضاتهم على سبيل التمثيل: الاستقصاء.
يُنكر الملحد وجود الإله الخالق مع أنه يؤمن بأن الأكوان المتعددة خالقة، وأن
الكون خالق نفسه، وأن العشوائية خلقت، وأن الطبيعة خلقت، فلماذا الاعتراض
على خلق الإله تحديداً؟

يدّعي الملحد أنه لا سبيل للوصول للمعرفة إلا بالتجربة، وكل ما هو خلاف
التجربة كلام فارغ وسفسطة، ولذا أنكر الملحد الدين والغيبيات والمعجزات، ثم هو
يؤمن بنظرية التطور، مع أنها غيب جملة وتفصيلاً، فلا أحد رأى الخلية الأولى، ولا
لاحظ الطفرات العشوائية، ولا شاهد الانتخاب الطبيعي، ولا الضروب الوسطى،
فضلاً عن أن يكون قد جرب شيئاً من هذا.

يزعم الملحد أنه لا يؤمن إلا بالمادة الموجودة، ثم إنه يؤمن بأن اللاشيء أتى
بشيء، الخلية الأولى أتت من لا شيء.

يتحدّلق قائلاً: بما أننا لا نرى الله، إذاً هو غير موجود، وهذه مكابرة للعقل
والحس؛ لأننا لو اعتمدنا قاعدته في المجال العلمي الذي يتبجح به فإنه ستسقط
جميع أسس العلم التجريبي من أصلها، مع أن الملحد يزعم أنه يعتمد على هذا
العلم التجريبي، إذ لا أحد من العلماء رأى الجاذبية ولا الإلكترون ولا الأثير ولا
الطبيعة الذرية، في سلسلة طويلة من الحقائق العلمية، إذاً عدم رؤيتنا لله تبارك

وتعالى، وعدم إدراكنا لحقيقته لا يعني عدم وجوده، ويكفي العقول أن تستدل على وجوده بآثار صنعه، فتطمئن وتسكن.

لمّا حصل الملحد المُدركات بالمحسوسات، ردّ الأخبار الصادقة التي جاءت من طريق مَنْ أثبتت البراهين اليقينية صدقهم، وهم الأنبياء، وهذه مكابرة لما يعلمه كل العقلاء من أن العلوم تُدرك بالحس وبالعقل، وتُدرك أيضًا بالأخبار الصادقة، والعجيب أنهم في هذا متناقضون؛ لأنهم يجحدون الأخبار ويقبلونها في آنٍ واحد.

يعني: حينما يُناقش أحدهم فيستدل بنظريةٍ ما، فإنه يقال له: هل طبقته بنفسك؟ فسيقول: لا، إنما قام بها فلان، ونصّ عليها علان، وهذه مناقضة للمنهج المزعوم، حيث وصل إلى ما يعتقد عن طريق تصديق الخبر وليس عن طريق الحسّ، إذًا لم يعيب الملاحدة على أهل الإيمان قبول أخبار الغيب الدينية، فإن أخبارهم هم إذا كانت تتحدث عن محسوسات، فأخبار الرسل الغيبية تتحدث عن محسوسات أيضًا، لكنها تُحسّ بعد الموت، وإذا كانت هذه أخبارًا وتلك أخبارًا فأخبار الرسل أولى بالقبول؛ لقيام البراهين القطعية على صدقهم.

إذا: المنهج الإلحادي منهج متناقض، يُكذّب بالشيء ويُصدّق نظيره، وهو على سبيل المثال: يُكذّب أن الله خلق آدم ﷺ من طين ثم تناسل البشر بعده؛ لأنه عنده في زعمه غيب غير محسوس، وفي مقابل هذا يصدق بالتطور أو

بالأكوان المتعددة مع أن هذه غيب بالنسبة له أيضًا، لكن هذا مقبول عنده؛ لأن مصدره إلحادي، وذاك مردود؛ لأن مصدره وحي قرآني، المنهج منهج متناقض، ليس له حاكم إلا الهوى.

يسخر الملحد من مسلم يؤمن بما في سُنتنا من سجود الشمس تحت العرش، لكن أيهما أولى بالسخرية: ملحد يقول إن شمسًا ذات جُرم كبير جدًّا، وحرارة عظيمة جدًّا، تسبح في الفضاء في مسار منضبط، وحدود لا تخرج عنها قِيدُ أُمْلَةٍ، والشمس وحركتها وانتظامها حدّث كل هذا صدفة دون خلق خالق، أم القول بأن الشمس التي خلقها الخالق العظيم القدير سبحانه، وصرفها حيث شاء، جعلها تسجد تحت العرش في مكان معين دون أن ندرك حقيقته، لا شك أن القول الثاني أولى بالقبول عند كل عاقل.

يقول الملحد: إنه ذو عقل، ويدعي المحاكمة إلى العقل، ثم يصدّق أن المادة الصمّاء غير العاقلة أتت بالعقل صدفة، كيف بالعقل كان هذا؟ ثم كيف تثق بنتائج عقل برز للوجود صدفة؟

أخيرًا: يفترض الملحد أن الأمر الطبيعي هو عدم وجود الخالق، وأن الذي يدعي وجوده هو المطالب بالدليل، لكن الصواب هو العكس، الأمر الطبيعي هو ما يؤمن به عامة البشر، والذي يجدونه ضروريًا في نفوسهم، والذي يشدّ عن هذا هو المطالب بالدليل، فسبحان ربي العظيم! ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠]؟ وكل شيء دليل عليه،

حتى لسان الملحد الذي يتكلم بإنكار ربه هو والله دليل عظيم على خالقه، لكن ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

المقدم: إن كان من وصية أخيرة؟

الشيخ: أوصي لمن أراد أن يتوسّع في موضوعنا بالرجوع إلى بعض المقاطع، (لجنة يقين) أنتجت مقاطع على طريقة الموشن جرافيك، حوالي أربعة مقاطع في حسابها في يوتيوب عن المغالطات المنطقية عند الملاحظة، وفي موقع (يقين) أيضاً مقالات عن مغالطات الملاحظة، فمن أراد التوسع فأوصيه بالرجوع لها. أمّا ما طلبتم من شيء يتعلق بموضوع المغالطات، هناك كتابان قيمان في الحقيقة في هذا الموضوع:

١. الأول: المغالطات المنطقية، للدكتور: عادل مصطفى، هو من أشهر ما كُتب في هذا الموضوع.

٢. وهناك كتاب آخر: اسمه «رجل القش»، ليوسف أبو حايك، أو يوسف أبو حايك، هذان الكتابان قيمان في هذا الموضوع لطالب العلم لإرادة التوسع في هذا الموضوع.





الحلقة التاسعة والعشرون

الوسوسة في الإيمان وعلاجها

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الشيخ: اليقين - حفظكم الله - هو العلم التام الذي ليس معه أدنى شك، الموجب للعمل، اليقين هو الإيمان بالغيب، ووعد الله ووعيده، بحيث لا يخالج القلب فيه شك ولا شبهة، اليقين سُكون للقلب، وأمن، وطمأنينة، اليقين روح الإيمان وحياته، بل هو الإيمان كله، وأهل اليقين هم المخصوصون بالهدى الفلاح من بين العالمين، قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [١] ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٤-٥]، وأهل النار - عياداً بالله - على الضدّ، فاقدون لليقين، قال سبحانه عنهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَقِينَ﴾ [الجنّة: ٣٢]، أهل اليقين، الحقّ عندهم واضح وضوح الشمس، ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ١١٨]، لا يرتابون في حكم الله الشرعي أو القدري، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

اليقين أعظم نعمة ينالها مسلم، اليقين الراسخ بالله ودينه ونبيه ﷺ، وكتابه الذي لا تعارضه الشكوك، ولا تُضعفه الخواطر الرديئة، هو النعمة التي لا تُدانيها نعمة، فهنيئاً لأهل اليقين.

اليقين هو السعادة كلها، هو الرّوح والفرح، متى ما وصل اليقين إلى القلب امتلأ نوراً وإشراقاً، وانتفى عنه كل ريب وسخط، وهم وغم، القلب الذي تجلّل باليقين، وسطعت فيه أنواره، في سعادة غامرة، تهون معها كل منغصات الدنيا ومصائبها، فمهما نزل به شيء، هتف: ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢].

إذا استكمل العبد حقائق اليقين صار البلاء عنده نعمة، والدنيا في عينه ظلٌّ زائل، فلا تستولي عليه، وهل يتشاغل عاقل بثائرة طعام عن مائدة عظيمة فيها ما لذّ وطاب؟

الخلاصة: مَنْ رُزِقَ بَرْدُ اليقين فهو في نعمة لا تُقدر بكنوز الأرض، ولو سجد لله سجدة شُكر تمتدّ طول حياته ما وفي هذه النعمة حقها، ويدرك هذا حقاً مَنْ رأى ذاك المسكين، ذاك المسكين الحائر الذي تتقطع نفسه حشرات، قد تناوشته الوسوس والخطرات، فهو أسير في قبضتها، مُطَوَّق بِقَيْدها، قد ناله من الضيق المستمر والعذاب النفسي ما لا يعلمه إلا الله، يسعى للفكّك فلا يصل إليه، يبحث عن شيء من يقين تسكن به نفسه فلا يجده، فاحمد الله أيُّها الموقن، يا من رضيت بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً، احمد الله، واثبت على ما أنت عليه، واحذر من نزغات نفسك الأماراة بالسوء، واحذر وسوس شياطين الإنس والجن، واحذر مكر أعداء الله الذين هم أحرص شيء على إضعاف يقينك، فإنه

كلما عظم المطلوب كثرت العوارض والموانع دونه، هذه سنة الله في خلقه، ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠].

المقدم: ما دمنا نتحدث عن موضوع الوسوسة في الإيمان، فأيضاً نودّ أن نعرف في البداية: لماذا اخترتم هذا الموضوع يا شيخ صالح؟

الشيخ: بعد الجولة السابقة التي تناولنا فيها موضوع الإلحاد وإشكالاته، يجدر بنا أن نقف وقفة مع موضوع الوسوسة في الإيمان، فإن من الناس من لديه إشكالات تتقاطع مع موضوع الإلحاد، فيظن أو يُظن أن لديه شبهات إلحادية، والواقع أن مشكلته ليست في شبهة تحتاج إلى إجابة، وإنما هي وسوسة شيطانية تحتاج إلى علاج، ولا يناسبه، بل لا ينفع معه المناقشة بالحُجج والأدلة، وهذا واقع يعلمه كل من جلس للناس، واستمع إلى إشكالاتهم، الواقع أن شريحة ليست بالقليلة منهم مصابة في هذا الموضوع بالوساوس، قد يكون هذا عن وسواس قهري، وقد يكون دون ذلك، يعني: خواطر رديئة تتنابّه.

والتفريق بين من لديه شك أو إشكال ناتج عن شبهة علمية أو فلسفية، ومن عنده وسوسة هذا شيء مهم جداً، فكل واحد منهما له طريقة في التعامل، ولو سلّكنا مع هذا ما يحتاجه هذا لربما لم ننجح، ولربما كانت النتيجة عكسية.

ومهما يكن فلا أفشي سرّاً إن قلت: إن الوسوسة مرض منتشر في عصرنا، قد تتعلق بأصل الإيمان، وقد تتعلق بأمور شرعية؛ في الطهارة، والصلاة، والطلاق، وغيرها، وقد تكون متعلقة بأمور أسرية أو اجتماعية أو غيرها، والأمر فعلاً يحتاج من ذوي الاختصاص إلى الالتفات الجاد.

المقدم: لفظة الوسوسة نعرّف بها، ومن أين تأتي هذه الوسوسة؟

الشيخ: الوسوسة أذية النفس والشيطان بما لا نفع فيه ولا خير، بمعنى: هي أفكار، أو صور ذهنية، أو نزعات تكرر وتتطفّل على العقل، يصاحبها ضيق وانزعاج، بحيث يتمنى صاحبها مغادرتها رأسه، ولا ريب أن الشيطان هو الداعي إلى الوسواس، الموسوسون في الحقيقة قد أطاعوه، ولّبّوا دعوته، واتبعوا أمره.

وليس يخفى أن الوحي روح النفس، ولن يجد القلب له أماناً ولا قراراً ولا اطمئناناً إلا حين تسري فيه الروح، الوحي مادة الحياة الحقيقية، وآية السعادة والاطمئنان،

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا

نَهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِّنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

حين يتعد القلب عن الله أو عن العلم الصحيح به وبشرعه تتسلط عليه الشياطين بأنواع المكائد، وإن أعظم ما يتسلط به الشيطان على قلوب بني آدم:

سلاح الوسوسة، فإنه يخلط الأمور بعضها ببعض، حتى ما يكاد يبين وجه الحق فيها إلا لمن عصمه الله.

الوسوسة مكيدة الشيطان، الشيطان ﴿الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾^(٤) الَّذِي يُوسِّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿[الناس: ٤-٥]﴾، الذي يجري من ابن آدم مجرى الدم في العروق، في «الصحيحين»^(١)، قال النبي ﷺ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ الْإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ»، وإذا تساعد الشيطان مع النفس الأمارة بالسوء عظم البلاء، ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف: ٥٣]، وإذا تعلقَت الوسواس بالإيمان بالله تعالى؛ بوجوده، برؤيته، بصفاته، أو تعلقَت بكتابه، أو نبيه ﷺ، كانت بليَّة الوسوسة أعظم.

المقدم: لو تحدَّثنا عن أهمية العناية بموضوع الوسوسة خاصة أنكم ذكرتم أنه مَنْ جلس للناس سيجد الكثير مَن يعاني من الوسواس في الإيمان أو فيما دونه من قضايا الطهارة ونحوها؟

الشيخ: لا شك أن إدراك تسلُّط الشيطان ونزغاته ووساوسه، ومعرفة حقيقة هذا يولِّد عند المرء وعيًا يُعينه على إدراك طبيعتها، والموقف الصحيح منها، والمتأمل

(١) رواه البخاري برقم (٢٠٣٩)، ومسلم برقم (٢١٧٤).

لآيات القرآن يجد عناية بالتحذير من مكائد الشيطان وإيحاءه وإغرائه؛ لأن شر النفس وفسادها ينشأ من وسوسته، فهي مركّبة، وموضع شره، ومحل طاعته، الشيطان للعبد المؤمن بالمرصاد، مُصَدِّقُ هذا قوله تعالى عنه: ﴿ثُمَّ لَا تَبِيتُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧]، ومُصَدِّقُ قوله تعالى فيه: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [يوسف: ٥]، لكن قد أخبر سبحانه عن إبليس أنه ليس له سلطان على المؤمنين، قال ﷺ: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانُ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩] نفى سبحانه سلطانه عَمَّنْ اتصف بصفتين: الإيمان به، والتوكل عليه.

والسلطان المنفي هنا: سلطان الحجّة والبرهان، إبليس ليس له حجة ولا بُرْهان؛ إنما سلطانه بالإغواء والوسوسة، فهو يتسلط على الذين يتولّونه، ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١٠٠] يتولّونه باتباع الهوى، والاستجابة لتزيينه، والغفلة عن ذكر الله، كما يتسلط على الذين هم به مشركون، وهؤلاء أشدّ ضللاً ممّن قبلهم.

المقصود: أن حقيقة سلطان إبليس، إنما هي سلّطة إغواء لا سلّطة برهان، وهي في الحقيقة سلّطة ضعيفة، ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]، الشيطان

له مداخل عدة، لكن أعظمها ضرراً: الوسوسة، هذه الوسوسة يجد بها طريقه لفريق من المسلمين عجز عن إغوائهم بالطرق الأخرى، فخدعهم بخدعة ظاهرها الرحمة، وباطنها العذاب، فإدراك أن هذه الوسواس إنما هي كيد إبليس بداية الطريق لصدد هذا الكيد ودفعه، فإن الإنسان حين لا يدرك أن ثمة كيداً للشيطان عظيمًا، فسيغفل عن عدوه، وسيستسلط عليه دون أن يشعرن ولا يزال به حتى يصصره ويُمسي أسيرًا له.

المقدم: ما يُسمى بالوسواس القهري، لو نلقي الضوء عليه شيخنا؟

الشيخ: قبل أنت نتكلم عن الوسواس القهري، لكن هناك مسألة ربما تنقح بعد أن تحدّثنا عن أهمية الوسوسة، أو معرفة الوسوسة، ربما بعض الناس يشكّ في أن هذه الوسواس تقح في عقيدة المسلم، يظن أنه بمجرد وصول هذه الوسواس إليه قد خرج من الدين، أو انحلّ من عرى العقيدة ونحو ذلك، فإن أذنت - حفظك الله - أودّ أن أقف وقفة عند هذه المسألة:

الوسواس ما دام وسواسًا فليس له تأثير على عقيدة المسلم، والله ﷻ قد تجاوز عن هذه الأمة ما حدّثت به أنفسها ما لم تتكلّم أو تعمل، فليطمئن من ابثلي، في «مسند أحمد»^(١) بسند صحيح، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاء رجل

(١) رواه أحمد برقم (٢٠٩٧).

إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني أُحدِّث نفسي بالشَّيء لأن أُخَرَّ من السماء أحبَّ إليَّ من أن أتكلَّم به؟ فقال النبي ﷺ: «الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الحمد لله الذي ردَّ كيده إلى الوسوسة»، هذا الحديث يدل على أن الوسوسة لا يُؤاخذ بها المرء، بل صحَّت السنة أن كراحتها من صريح الإيمان، لكن الخطر كامن في الاسترسال معها، فلربما ترقَّت به شيئاً فشيئاً، من صغير إلى كبير حتى لربما وقع في الشك والريب النفاقي، أي: كحال المنافقين الذين قال الله فيهم: ﴿وَأَزْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٥]، ولربما أوصلته إلى حد الانسلاخ من الدين بالكلية، عياداً بالله.

أمَّا جواب ما تفضَّلتم به، وهو ما يُسمى بالوسواس القهري؟

الوسواس القهري سمته: وجود وساوس معينة في ذهن المريض رغماً عنه، فيقع في شراك مجموعة من الأفكار المتعلقة بموضوع معين بحيث لا يستطيع التغافل عنها، مع ما تحمله له من همٍّ وغمٍّ، ورغم وعيه بأنها تافهة أو خاطئة، إلا أنه لا يستطيع إيقافها، بل ويشعر أنها تزداد معه أكثر، ومن هنا كانت معاناة هذا الموسوس عميقة، والوسواس القهري له صور ومظاهر عدَّة، لكن ما يهُمُّنا منها في هذه الحلقة، وسواس الأفكار أي: سيطرة فكرة معينة على ذهن المريض، وغالبًا ما تكون فكرة غير مقبولة، ومنها: وسواس الاجترار، بحيث تسيطر على المريض أسئلة متكررة

لا يستطيع الإجابة عنها؛ كسيطرة سؤال مثلاً: خلقنا الله، إذاً مَنْ خلق الله؟ أو تسيطر عليه أفكار رديئة تتعلق بصفات الله، أو أنه يخاف من الردّة، في كل صغير وكبير يظن أنه قد ارتدّ عن دين الله، أو ما شاكل هذا، المهم أن الوسوسة المتعلقة بأصل الإيمان أخطر نوع في هذا النوع، أخطر نوع في الوسواس القهري.

المقدم: ربما نحن نتحدّث عن الوسواس في الإيمان، وأيضاً علاج الوسواس في الإيمان، وهذا هو الشق الثاني والشقّ الأهم في هذا الموضوع، فما هو العلاج، كيف يصنع مَنْ ابتلي بالوسواس التي تتوارد على القضايا الإيمانية التي يعتقدها، سواء كانت وسواس قهري، أو كانت وسواس متكررة، حتى لو لم تصل إلى الحد الكبير؟ **الشيخ:** لا شك أن هذا أهمّ محور معنا، والكلام فيه يطول، والوقت يقصر عن الاستيعاب، لكن أُشير إشارات بحسب الوقت المتاح.

الوصايا للمُبتلى بالوسواس عشر، يحتاج أن يعرفها هو، وأن يعرفها مَنْ كان حوله من أهله وأصدقائه حتى يُعينوه عليها ويحتّوه، لا شك أن مسؤولية هؤلاء تجاه الموسوس مسؤولية عظيمة.

● أولاً: الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، ولا أريد الاستعاذة باللسان فحسب، الاستعاذة إنما تبلغ أثرها حين تكون عن اعتقاد جازم بمعناها، حينما يتوارد عليها اللسان والقلب، العوذ العياذ هو اللجأ إلى

الشيء والاقتراب إليه، ومن استعاذ بالله اعتصم به ولجأ إليه، فأَيَّ كيد يصِلُه وهو يعتقد اعتقادًا جازمًا أنه معتصم برب هو مالك كل شيء ﷻ، الله ﷻ يقول: ﴿وَمَا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، هو سميع يسمع استعاذتك فيجيبك، عليم يعلم ما تستعيد منه، فيدفعه عنك، ووالله مَنْ تَعَوَّذَ بِاللَّهِ بِصَدَقَ، وبَحْضُورِ قَلْبٍ، لِيُعْذِنَهُ اللهُ، وليكفِيَنَّهُ شَرَّ شَيْطَانِهِ، وستضمحلّ عنده الوسوس الباطنة، الله ذُو القُدرة العظيمة، وإبليس ذو كيد ضعيف.

- ثانيًا: العلم الشرعي، العلم يدفع عن المؤمن الشبهة، وإذا عَلِمْنَا أَنَّ السُّلْطَانَ الشَّيْطَانِيَّ إِنَّمَا هُوَ سُلْطَانُ نَزْغٍ وَإِغْوَاءٍ لَا سُلْطَانَ حُجَّةٍ وَبِرْهَانٍ، وَأَنَّهُ قَدْ يَأْتِي لِلْعَبْدِ مِنْ جِهَةٍ أَنْ مَا يُؤْمِلِيهِ عَلَيْهِ حُجَّةٌ بِرْهَانٍ، وَيَحْسِبُهَا الْحَيْرَانَ حَقًّا، وَالْوَاقِعَ أَنَّهَا وَسُوسَةٌ، إِذَا عُلِمَ هَذَا فَسَيَتَبَيَّنُ أَنَّ طَلِبَ الْعِلْمِ الشَّرْعِيِّ بِإِخْلَاصٍ سَبَبٌ مِنْ أَسْبَابِ دَفْعِ الْوَسْوَسةِ وَدَحْضِهَا.

- ثالثًا: المداومة على تلاوة القرآن بتدبرٍ، وهَجَّجَ اللِّسَانَ بِالْأَذْكَارِ فِي الصَّبَاحِ وَفِي الْمَسَاءِ، وَعِنْدَ النَّوْمِ وَفِي كُلِّ وَقْتٍ، الذِّكْرُ هُوَ الْحِصْنُ الْحَصِينُ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، فِي حَدِيثِ الْحَارِثِ الْأَشْعَرِيِّ ﷺ الطَّوِيلِ، وَهُوَ مُحَرَّرٌ عِنْدَ

الترمذي^(١) بإسناد صحيح، عن النبي ﷺ فيما يحكيه عن يحيى بن زكريا **قال: «وَأْمُرْكُمْ أَنْ تَذْكُرُوا اللَّهَ، فَإِنْ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ الْعَدُو فِي أَثَرِهِ سِرَاعًا، حَتَّى إِذَا أَتَى عَلَى حَصْنٍ حَصِينٍ فَأَحْزَرَ نَفْسَهُ مِنْهُمْ، كَذَلِكَ الْعَبْدُ لَا يَحْزِرُ نَفْسَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِلَّا بِذِكْرِ اللَّهِ»**، قاعدة مهمة، فتأملها - يا رعاك الله - مَلِيًّا، (كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله) إَذَا: احرص على الأذكار بحضور قلب، ولا سيما أَنْ تُهْلِلَ بِقَوْلِكَ: **«لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»** في اليوم مائة مرة، لتكون حِزْزًا لك من الشيطان يومك ذلك حتى تُمسي، كما ثبت في «الصحيحين»^(٢) عنه.

• رابعًا: قطع الاسترسال، لا ينبغي أن يسترسل المؤمن أو المؤمنة مع حبائل الشيطان وهو واجسه، العلاج الناجع العاجل: التجاهل قطع الاسترسال، في «الصحيحين»^(٣)، قال رسول الله ﷺ: **«يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ**

(١) رواه الترمذي برقم (٢٨٦٣).

(٢) رواه البخاري برقم (٣٢٩٣)، ومسلم برقم (٢٦٩١).

(٣) رواه البخاري برقم (٣٢٧٦)، ومسلم برقم (١٣٤).

كذا وكذا، حتى يقول له: مَنْ خلق ربك؟، فإذا بلغ ذلك فليستعذ بالله، وليتَّه،
ليته.

إِذَا: العلاج عدم الاستجابة لهذا الوسواس، صيانة للنفس من أن يتسلَّط عليها عدو الله، جاءك الشيطان بأفكار رديئة لا تلتفت إليها، لا تواصل التفكير، شتت ذهنك، أشغل نفسك، اخرج من المكان الذي أنت فيه، اتصل بصديقك وتحادث معه، مارس رياضة، اعصِ الشيطان مرة ومرتين وثلاثاً وسيأس منك، ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

أُعيد وأكرّر: أنفع شيء للمبتلى بالوسواس بعد اللجوء إلى الله: الانتهاء وقطع الاسترسال، لا سيما إذا تعلّقت الوسواس بالله العظيم، فإن الله تعالى جعل للعقول حداً تنتهي إليه ولا تتجاوز، ويستحيل أن تتجاوز، ومحاولة المحال من الباطل والسفّه، فإذا وصلت العقول إلى الله تعالى يجب أن تقف وتنتهي، فإنه تعالى الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، أوليته تعالى لا مُبتدأ لها، فتوقف، ولا تسترسل.

وأنبه قبل ختم هذه الوصية إلى تنبيهين:

١. التنبيه الأول: أن الخواطر قسمان: خواطر من قبيل الوسوسة، وهي التي لم تحتبها شبهة علمية، وهي التي تُدفع بالإعراض عنها، وهي ما نتحدث عنه الآن.

لكن هناك خواطر أوجبتها شبهة حقيقة، هذه لا تُدفع إلا بالاستدلال والنظر في إبطالها، ولا يجوز التأخر في دفعها.

٢. التنبيه الثاني: من الانتهاء من قطع الاسترسال: أن يقطع الإنسان سماع الشبه من شياطين الإنس، وأن يمتنع عن قراءة كلامهم، والاستماع له، فإنه إذا كان شيطان جيّ يوسوس، فشیطان إنسي يوسوس، ولربما كانت وسوسته أشدّ، ﴿الَّذِي يُوسَّوْسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس: ٥-٦]، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غَمُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

● خامساً: صُحبة الأخيار، فإن في صُحبتهم عوناً ورشاداً، ونُصْحاً وتوجيهاً وتبصيراً وتثبيتاً بتوفيق الله، عَضَّ عليهم بالنواجذ، فإنهم خير زاد لك في هذه الحياة، وأنفع عدّة في مواجهة الوسواس.

- سادساً: كثرة الدعاء بصدق وإلحاح، الله ﷻ وحده هو القادر على دفع البلاء، ولا يتخلص المرء من الشيطان إلا بالالتجاء إليه سبحانه، وهذا ما أرشدتنا إليه سورة كاملة في كتاب الله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ

﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ

الْخَنَاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوسَّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ

وَالنَّاسِ ﴿الناس: ١-٦﴾، ادْعُ، وأخلص، وكرّر، ولا تيأس.

- سابعاً: المجاهدة والمصابرة، يجب أن يتسلّح المُبتلى بهذا، العلاج ربما لا يكون شيئاً سهلاً، قد يحتاج إلى وقت، إلى تصوّر ومجاهدة، فليكن قوياً متجلّداً مستعيناً بالله، وما أقرب الفرج، العلاج قد يكون مؤلماً في البداية، لكن بعد حين ستزول الحطرات، وتضعف تدريجياً، حتى تصبح بلا قيمة بتوفيق الله.

- ثامناً: الاجتهاد في فعل الأسباب التي تزيد الإيمان، واجتناب المعاصي، الإيمان القوي الصادق اليقيني يدفع جميع ما يضاده من شبه المنافية له، فإن حق يدفع الباطل، والشكوك لا تعارض اليقين، فلا بد من الجدّية، لا بد من بذل الجُهد في الترقّي في مدارج الإيمان لمن كان حريصاً على سلامة نفسه وعافيتها.

• تاسعاً: العلاج الدوائي الذي يصفه الأطباء، وهذا ما أشرتُ إليه قبل قليل.
المزاوجة بين العلاج بالأذكار والرقية الشرعية مع العقاقير الطبية هذا شيء نافع جداً بتوفيق الله، ولا تعارض بينهما، إذاً زيارة لطبيب نفسي ثقة، والاستجابة لبرنامج العلاج الذي يصفه، سبَّبُ نافع بإذن الله.

• عاشراً وأخيراً: ألتزم الوصايا النبوية العظيمة الواردة في هذا الباب، فَمَنْ بَلَغَتْ به الوسوسة أَدَّى إلى الشك في ربه، فعليه أن يتمسَّك بها، وخلاصة ما جاء في الأحاديث الصحيحة أمور خمسة:

١. أولاً: أن يقول العبد: «آمَنْتُ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ».

٢. ثانياً: أن يقول: ﴿اللَّهُ أَحَدٌ ۝ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ (٢) لَمْ يَكِلِدْ

وَلَمْ يُولَدْ ۝ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١-٤].

٣. ثالثاً: أن يتفل عن يسارة بعد هذا القول ثلاثاً.

٤. رابعاً: أن يستعين بالله من الشيطان الرجيم.

٥. خامساً: أن ينتهي عن هذه الوسوس، فإن النبي ﷺ قال كما قيل

في «المسند» -وقوله الحق-: «فَإِنْ ذَلِكَ يُذْهِبُ عَنْهُ»^(١).

وثمة وصية سادسة أوصى بها ابن عباس رضي الله عنه، وهي أن يقول:

ففي «سُنن أبي داود»^(١) بسند حسن، أنه سألَه رجل ﷺ فقال: ما شيء أجده في صدري؟ قال: ما هو؟ قال: والله ما أتكلم به، فقال ابن عباس: أشيء من شك؟ وضحك، وقال: ما نجا من ذلك أحد، ثم قال له: «إذا وجدت في نفسك شيئاً فقل: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣]». والله تعالى أعلم.

المقدم: وكنْتُ سَأَلْتُكم عن قضية العلاج الدوائي، أحياناً البعض يظن أن هذه بما أنها وسوس مرتبطة بالإيمان وكذا، فعلاجها من جنسها، علاجها بالأمور الإيمانية، الأذكار وقراءة القرآن ونحو ذلك، ويغفل عن العلاج الدوائي والأخذ بالأسباب الدنيوية؟

الشيخ: لا شك أن العلاج المعنوي الإيماني هو العلاج رقم واحد كما يقولون، لكن هذا لا يتعارض مع العلاج الثاني، وأُحَدِّثُكَ بشيءٍ عرفته في بعض الناس، أنه زال ما معه بفضل الله بسبب حبوب أخذها، وما استمرَّ الأمر إلا أياماً يسيرة، والله إنه كان في عذاب شديد، لكن زار طبيباً صالحاً ثقةً طبيباً نفسياً، وصف له دواء حبَّات يأكلها في اليوم، والله إنه أصبح في أحسن حال بعد أيام قليلة بفضل الله.

المقدم: إن كان هناك من كتاب تُحيلون إليه أو مرجع؟

الشيخ: أودُّ أن أُحيل إلى موضعين لابن القيم رحمته الله الذي هو طيب القلوب.

- **الموضع الأول:** في منزلة اليقين من «مدارج السالكين»، ويجده مَنْ كان طالبًا للفائدة في طبعة المُجمَّع في الجزء الثالث، في صحيفة (١٧٠) يجد منزلة اليقين، أنا أتمنَّى أن تقرأ هذا الموضوع، فإنه في غاية الأهمية.

- **الموضع الثاني:** كلام لابن القيم رحمته الله في مسألة الوسوسة، ولا سيما ما يتعلق بالعبادات، حَبَّرَهُ تحبيرًا في كتابه «إغاثة اللهفان» في طبعة المُجمَّع من الجزء الأول (٢١٩) وما بعد.





الحلقة الثلاثون

أهمية التحصين العقدي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الشيخ: الأمر كما تفضلتم -يا رعاكم الله- هذه الحلقة يمكن أن نسميها (حلقة الحلقات)؛ لأنه سبق أن طرفنا في حلقات سابقة موضوع الحقيقة الماثلة أمام الأعين، ولا ينكرها اليوم عاقل، ألا وهي أنه يُحْدِق بشباب المسلمين بطول العالم الإسلامي وعرضه، أهوال عظيمة، وفتن عاصفة، وحق لنا قوس الخطر أن تُجْلِج دَقَاتِهِ، وعلى العقلاء أن يتنبَّهوا، الشباب والفتيات، والكبار والصغار، في مَرَمَى سهام دعاة الشر والفساد، من ملاحدة ومُنَصِّرِينَ، من أرباب البدع المغلظة، من التيارات الفكرية المنحرفة أو الغالية، وأمام هذا الطوفان من الغزو العقدي المركز، ينبغي أن نصارح أنفسنا، إن استبعاد سقوط أحد من أبناء المسلمين في وُحْل الضلال القدر ضَرْب من خداع النفس والوهم الكاذب، فلا ينبغي أن يقول مَنْ يَعْي: إنهم محصَّنون التحصين الكافي أما سيل المذاهب الهدامة، وأنهم في منأى من غزوهم في فكرهم وأخلاقهم، وأنه يستحيل اختراقهم وحرفهم، إما إلى غلو في الدين، أو انسلاخ منه، إذًا نحن في وسط وباء خطر جارف، فما الذي بأيدينا من الإجراءات الاحترازية، وأسباب التحصين؟ الجواب: لا مخرج بعد توفيق الله إلا التحصين والتأصيل والرسوخ العقدي الصحيح، هذا شيء أضحي اليوم ضرورة قصوى لا يقبل التراخي فيه.

وأودّ هنا أن أنبّه إلى أنه كلما عظم الضلال وكثر انتشاره، فالخوف منه ينبغي أن يكون أعظم، والتحصين ضده ينبغي أن يكون أكبر، فكورونا الإيمان - إن صح التعبير - أشدّ فتكًا وخطرًا من كورونا الأبدان، والإجراءات الاحترازية ينبغي أن تكون تجاهه أشد، وتأمّل معي قول الخليل إبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، إبراهيم إمام الحنفاء، وأبو الأنبياء عليه السلام، ومع ذلك يخاف على نفسه من الشرك، فماذا يقول من سواه؟ وصدّق التابعي الجليل إبراهيم التيمي رحمته الله حين قال: «مَن يَأْمَنُ الْبَلَاءَ بَعْدَ خَلِيلِ اللَّهِ إِبْرَاهِيمَ؟!». إذا: الخوف من الكفر والشرك والضلال من المقامات الرفيعة لأهل الإيمان، فكلما كان الإنسان أعظم إيمانًا كان أعظم خوفًا من الوقوع في ضده.

وتأمّل ها هنا التعليل، تأمل التعليل في قوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضَلَّلَن كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦] إذا: من سبب الخوف من الضلال: كثرة الواقعين في حفرته، إذ كلما كان الداء منتشرًا كان أخطر؛ لأن احتمال الإصابة به أكبر، وإذا كان الوقوع في الضلال قديمًا مخوفًا، فإنه ينبغي أن يُخاف منه في هذا الزمان أكثر، فإن الشُّبه التي تحسّنته وتقربه إلى النفوس، وتزيّن الانسلاخ من الإيمان، أضحت أقرب من السابق، سيل الشُّبه الجارف يُقذف اليوم على الناس من خلال وسائل التواصل والاتصال الحديث، وهذا شيء لا يقبل البحث ولا المساومة، وقد قال

رسول الله ﷺ كما عند الترمذي^(١): «لا تقوم الساعة حتى تَلْحَقَ قبائل من أمتي بالمشركين، وحتى يعبدوا الأوثان».

وفي «صحيح مسلم»^(٢)، يقول ﷺ: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ، فَتَنَّا كَقِطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يَصْبَحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا، وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيَصْبَحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا».

إِذَا: ينبغي أن يُعلم أن الخوف الصادق من الكفر والضلال من عظيم الإيمان، وهذا يستدعي العلم به وبمداخله؛ لأن المجهول لا يُخاف، وكل مَنْ كان بالشر أعرف كان منه أخوف إذا هُدِيَ إلى الحق، فمن أراد أن يبلغ الدرجة التي بلغها الصالحون من الخوف من الضلال فعليه أن يعرف أصوله وفروعه، ودقائقه وذرائعه، وإثمه وعقابه، فينبعث في قلبه خوف صادق منه، ولذا كان أكمل الناس في هذا المقام أصحاب النبي ﷺ، حيث كانوا أعلم بالحق، وأعلم بالباطل، كانوا أقوم بالحق، وأبعد عن الباطل، والتوحيد والإيمان لا يقوم ساقه إلا على هذين: العلم بالحق والتزامه، والعلم بضدّه واجتنابه، وَمَنْ قَصَرَ فِي وَاحِدٍ مِنْهُمَا دَخَلَ عَلَيْهِ

(١) رواه الترمذي برقم (٢٢١٩).

(٢) رواه مسلم برقم (١١٨).

الخلل بحسب ذلك، وما أحسن ما يُروى عن عمر رضي الله عنه أنه قال: «إنما تُنقض عُرى الإسلام عُروة عُروة لمن نشأ في الإسلام ولم يعرف الجاهلية».

فالمُؤفَّقون السُّعداء هم الذين يعلمون الحق بتفاصيله، ويُوفِّقون إلى التزامه، وهم أيضًا الذين يعملون الباطل بتفاصيله، ويُوفِّقون إلى اجتنابه، أما الذي هو سادر في هذه الحياة لا يفرق بين خير وشر، وإيمان وكفر، ونور وظلمة، فما أسرع أن يقع في العطب، والله المستعان.

المقدم: ما أثر تعلُّم العقيدة الصحيحة والرسوخ فيها في وقاية الإنسان من الضلال؟

الشيخ: العقيدة الصحيحة عقيدة أهل السنة والجماعة، عقيدة السلف الصالح، هي الحصن الحصين بتوفيق الله من السقوط في حُفرة الضلال؛ كُفْرًا كان أو بدعة، غُلُوًّا كان أم انحِلَالًا، ففيها الإقناع بالحق، فيها الإجابة الشافية عن الشبهات، فيها يتوافق المعقول والمنقول، فيها السهولة والوضوح، فيها التوسط بين طربي الإفراط والتفريط، فيها الاعتصام بحبل الله، والأخذ بأدلة الكتاب والسنة كافة، فَمَنْ رَسَخَ اعتقاده بما فقد أخذ بسبب وثيق للنجاة، كما سيأتي قريبًا إن شاء الله.

المقدم: نريد أن نعرف الثمرات التي يحصل عليها المسلم عندما يرسِّخ عقيدته ويحصنها؟

الشيخ: ثمرات يانعة بلا شك، رسوخ المسلم في العقيدة الصحيحة وتعلّمها، سيَجني منه المسلم كل خير، وبيان هذا جميعًا يحتاج إلى ساعات طويلة، لكنني أريد أن أقف أمام ثلاث ثمرات منها فحسب:

١. أولها: أول ما يَجنيه الإنسان من معرفة هذه العقيدة: أن يعرف

الله، ومَن هو الله؟ إنه العظيم، العظيم الذي يجب أن يكون في قلبك أكبر من كل شيء، وأحب من كل شيء، وأخوف من كل شيء، وأرجى من كل شيء، إنه المتفرد في ربوبيته، المتوحد في ألوهيته، مَن شَهِدَتْ بَوْحْدَانِيَّتِهِ المخلوقات، وخشَعَتْ لعظمته الكائنات، وافترقت إليه جميع البريات، إنه الذي استوى على عرشه، ويدبر أمر عباده، يغفر ذنبًا، ويفرج كَرْبًا، ويجبر كسيرًا، ويُعني فقيرًا، إنه الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، والظاهر الذي ليس فوقه شيء، والباطن الذي ليس دونه شيء، إنه الذي إذا عرفته عرفت كل شيء، وإذا جهلته جهلت كل شيء، إنه الذي إذا عرفته وعبدته فُزْتَ بالسعادة التامة والتَّعيم المُقيم، إنه الذي إذا عرفته صار لحياتك قيمة، فهَمَّت الغاية من وجودك؛ لأنه سبحانه ما خلقك لشيء قط إلا

لتعرفه، ثم أن تقوم بمقتضى هذه المعرفة من عبادته وحده، هذه هي القضية الأهم والأكبر في حياتك، وكلما رسّخت في العقيدة كلما كنت بهذا أقوم.

٢. ثانيًا: إذا وُقِّعت وتَصَلَّت عقديًا فُزْتَ بجائزة عظيمة، ألا وهي أن يكون قلبك سليمًا.

تعلّم العقيدة الصحيحة يوصلك إلى هذا، أن يكون قلبك سليمًا، والقلب السليم هو: الذي سلّم من كل ما يُبْعده عن ربه، أسلم لله، وسلّم، وسلّم، انجذبت روحه إلى إلهه محبة وخوفًا، وإنابة وتوكلًا، ودعاء وإخلاصًا وإجلالًا وتعظيمًا، فلا يرجو سواه، ولا يخشى إلا إيّاه، ولا يُنِيب إلا إليه، ولا يتوكل إلا عليه، إذ ليس في قلبه شيء لغيره، ولا إرادة لما حرّم، ولا كراهة لما أمر، فيكون متحقّقًا بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢]، وهذا هو الذي ينجو يوم القيامة، ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ (٨٨) ﴿إِلَّا مَنْ أَتَىٰ اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩].

٣. الثمرة الثالثة التي يُثمرها التأصيل والرسوخ العقدي: بلوغ درجة البصيرة، ومن بلعها فهنيئًا له، فما أُوتِيَ أحد أفضل من بصيرة في دينه ولو قصّر في العمل، وتفاوت الناس في الفضل إنما هو

بحسب تفاوتهم في هذه البصيرة، قال بعض السلف وقد ذكر

السابقين: «إنما كانوا يعملون على البصائر».

صاحب البصيرة الأمور عنده واضحة مكشوفة، يعرف واقعه وما حوله، ويدرك

ما يضره وما ينفعه، الحق واضح له بإشراقه وأنواره، والباطل مظلم كالليل البهيم.

صاحب البصيرة على يقين وثبات، يسير في هذه الحياة على بينة من ربه،

يعبده على نور، ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢].

إذاً: بلوغ درجة البصيرة في الدين سببه: العناية بالعقيدة دراسة وتعلُّماً وتمسُّكاً،

فأين هذا ممَّن إيمانه إيمان مَرَى وإِلْفٍ، ودينه دين عادة ومنشأ؟ نشأ بين المسلمين فصار

منهم، لكن ما خالطت بشاشة الإيمان قلبه، فهذا تحت خطر الشبهات والعوارض

الكثيرة، ربما لو ابتلي بمن يُشكِّكه لَشَكَّ، ولو زين له أحد الانتقال عن هذا الدين

لانتقل، إذاً مَنْ كان إيمانه على هذه الشاكلة فهو على خطر عظيم، إنما الإيمان الراسخ

إيمان ذي البصيرة، وهو الذي يثبت بتثبيت الله إذا هبَّت عواصف فتن الشبهات

والشهوات؛ لأنه قد استقرَّت قَدُمُه في الدين الحق، وخالط الإيمان لحمه ودَمُه، قد شهد

بقلبه وعقله حُسْن هذا الدين وجلاله وكماله، فلو حُيِّر بين أن يُلقى في النار، وبين أن

يختار ديناً غيره لاختار أن يُلقى في النار، بل وأن تُقَطَّع أعضاؤه ولا يختار ديناً غيره.

المقدم: إن كان هناك من موضوعات معينة يركّز عليها الإنسان في هذا الباب، يمكن باب التحصين العقدي كبير؟

الشيخ: عندنا هدف يجب أن نجاهد أنفسنا ومن حولنا للوصول إليه، ألا وهو: ذوق طعم الإيمان، فهو الضمان بتوفيق الله من الانحراف، لو ذاق أحد طعم الإيمان، واستشعر حلاوته، فلن يستبدل به شيئاً ولو كان كنوز الأرض جميعاً، لكن كيف نصل إلى هذا الأمر؟

أوضح هذا نبينا ﷺ في قوله المُخَرَّج في «مسلم»^(١): «ذاق طعم الإيمان: مَنْ رضي الله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ رسولاً»، وعقيدة أهل السنة غايتها وخلاصتها: الوصول إلى هذا الهدف، أن ترضى بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ رسولاً.

والمقصود -يا رعاك الله-: أن الموضوع -كما تفضّلتم- واسع، لكنني سأوصي بالتركيز على موضوعات معينة، وهي عشر كاملة، وقد طرّفنا بعضها في حلقات ماضية.

● أولاً: الإيمان بالله تعالى، هذا هو المبدأ والمنتهى، ويتضمن: معرفة دلائل وجوده، ورؤيته، وألوهيته، وتعظيمه تعالى بمعرفة أسمائه

(١) رواه مسلم برقم (٣٤).

وصفاته، لا بد من التفقه في هذا الباب بمعرفة صفات الجلال والجمال والكمال لله سبحانه، ومعاني أسمائه جل في علاه.

● ثانيًا: محاسن الإسلام، فمن أيقن بجمال الإسلام وحُسْنه ورُقيّه لم يستبدل به غيره

لو أنهم عرفوا الإسلام ما انحرفوا عنه إلى غيره لكنهم جهلوا

يجب الاستيقان بأن الإسلام هو العقيدة التي تسكن لها النفس، والعبودية التي تسموا بها الروح، والشرعة التي يزكو بها البدن.

لا بد من الوعي بأن شريعة الإسلام يانعة الأخلاق السَّامية، والآداب الرائعة، ينبغي إدراك أنه الدين الوحيد الذي توافق فيه المعقول والمنقول، وانتظم جميع مناحي الحياة بشُمُولية بديعة، ودقّة تامة، ومع ذلك فهو الدين السهل الميسور في اعتناقه واعتقاده وتطبيقه.

الخلاصة: معرفتك بما تحب تزيدك حبًا فيه وحرصًا عليه.

والله لو عَلِمْتُ نفسي بمن هَوَيْتُ جاءتْ على رأسها فضلاً عن القَدَمِ

● ثالثًا: دلائل النبوة.

ينبغي دراسة هذا الموضوع دراسة مُوعِبة مع مطالعة الشمائل النبوية، والسيرة العطرة.

● رابعًا: تحقيق التوحيد، وتعميق الإيمان بالغيب.

- خامساً: مفهوم الولاء والبراء في ضوء الأدلة الشرعية، وأحكام التكفير وضوابطه، بعيداً عن انحلال المُنحلِّين، وغُلُو الغَالِين.
- سادساً: المعتقد الصحيح في باب القدر، والحكمة والتعليل في أفعال الله سبحانه، إذ هذا من أوسع الأبواب التي يُلج من خلالها شياطين الإنس للتلبيس على الناس.
- سابعاً: المنهج الصحيح في التعامل مع الشُّبهات بالتَّأْي عنها، أو الاجتهاد في كشفها.
- ثامناً: تعظيم أدلة الكتاب والسنة، والتسليم لها، وتقديمها على ما سواها، ومَلَأ القلب بهذا.
- تاسعاً: إزالة توهم التعارض بين العقل والشرع مع معرفة مكانة العقل ووظيفته اللائقة به.
- عاشراً: معرفة مصادر التلقي عند أهل السنة والجماعة، ومناهج الاستدلال الصحيحة.

المقدم: إن كان هناك من وصية عملية في هذا الموضوع، إن كان هناك من كتب أو مصادر يُرجع إليها خاصة المهتمين بالقراءة؟

الشيخ: كُتِبَ عقيدة أهل السنة أتباع السلف الصالح كثيرة بحمد الله، ولا أريد أن أكثر على المستمع الكريم، أو أن أتعبه بكثرة المراجع، سأقتصر على شيء يسير يتميز بالسهولة والوضوح بإذن الله.

إن أردت شيئاً سهلاً واضحاً، فأوصيك بالاستماع لدروس الشيخ محمد بن عثيمين رحمته الله في العقيدة، وقراءة كتبه، الشيخ رحمته الله ترك لنا إرثاً علمياً نافعاً جداً، بل ترك جامعة كاملة، ويتميز طرّحه بالوضوح والدقة، فادخل إلى موقع الشيخ -يا رعاك الله- على الشبكة، تجد الكثير الطيب من الدروس المسجلة، من الكتب المقروءة، من الفتاوى، ولا سيما شرح «ثلاثة الأصول»، وشرح «عقيدة أهل السنة»، و«القول المفيد»، وشرح «العقيدة الواسطية»، كما أوصيك أيضاً برسائل **الشيخ:** عبد الرحمن بن سعدي رحمته الله في الاعتقاد، لا سيما في ردّه على الملاحدة، وبيان محاسن الإسلام، وقد سبقت الإشارة إلى بعضها في حلقات ماضية.

تريد أن تفتني كتاباً جامعاً في العقيدة الصحيحة، وهو سهل واضح مليء بالأدلة؟ فدونك كتاب «معارج القبول» للشيخ حافظ الحكمي رحمته الله، وإن أردت شيئاً مختصراً فخذ «أعلام السنة المنشورة» له رحمته الله، وهو على طريقة السؤال والجواب.

تريد أن تفتني كتاباً موسوعياً شاملاً في العقيدة، فخذ «موسوعة العقيدة» التي أصدرتها الجمعية العلمية السعودية لعلوم العقيدة في ستة مجلدات.

وإذا أردت أن تترقى في هذا العلم، فأوصيك أن تُبحر في كُتب الإمامين الجليلين: ابن تيمية، وابن القيم رحمهما الله، مع تراث أئمة الدعوة، فإنك ستجد العلم الصافي الثمين.

وإن أردت موقعًا واسعًا فيه ما يشفيك ويكفيك في العقيدة؛ أبحاثًا، كُتبًا، مقاطع، فتاوى، فدُورك موقع الجمعية العلمية السعودية لعلوم العقيدة على الشبكة، ستجد فيها ما ستستفيد منه كثيرًا إن شاء الله.

المقدم: لو نتطرق لموضوع الأطفال، أحيانًا يعني الطفل يسأل بعض الأسئلة التي قد تكون بريئة، ولكنها تكون في العقيدة ونحو ذلك، وأحيانًا أيضًا الإنسان يخشى عليهم خصوصًا مع انتشار هذه الأجهزة التي تكون أحيانًا بين أيديهم للعب ونحو ذلك، فكيف نحصنهم، وكيف نبنيهم بناء عقديًا صحيحًا؟

الشيخ: هذا السؤال أهم سؤال ينبغي أن يُوضع أمام كل أب وأم، ومعلم ومُسؤول. من أهم المهمات اليوم: السعي في بناء جيل مُحصّن عقديًا، أي: أنه قد أخذ اللقاحات اللازمة ضدّ وباء الشبهات والشكوك؛ ليكون هؤلاء الأطفال غداً على بيّنة وقوة في دينهم، ليكونوا في عافية من سهام أهل الضلال، أستاذ عبد الله! نحن نعيش في الزمن الصعب، والخطر على الكبار كبير، فكيف على الصغار؟! واستشعار المسؤولية، واستشعار الأمانة هو البداية الأساس، ولنتذكّر أن ثمة سؤالاً

ينتظرنا في الآخرة، «كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»^(١)، وفي «الصحيحين»^(٢) قال ﷺ: «ما من عبد استرعاه الله رَعِيَّةً فلم يُحِطْهَا بنصيحة إلا لم يجد رائحة الجنة».

الموضوع على كل حال من السَّعة بحيث أعجز عن الإحاطة ببعضه في هذه الدقائق، لكن عندي سبع وصايا مختصرة:

١. أولاً: سؤال الله لهم الهداية والثبات، وهذا شيء لا ينبغي أخذه على أنه كما يقولون: نَيْشَة معتادة، كلا ثم كلا! هذا شيء مهم وأساس ومحوري، ينبغي عليك أن تخصَّص من وقتك شيئاً مديداً للدعاء لأبنائك وأبناء المسلمين، خُذِ الأمر بحزم، الحُطْبُ والله جَلَلٌ، إن كنت مقصراً في الدعاء لهم في السابق فلا تقصر في المستقبل، وإن كنت مجتهداً فزد اجتهادك.
٢. ثانياً: أن نبدأ بأنفسنا، متى اهتَمَمْنَا بتحسين أنفسنا وتأصيلها عقدياً، انعكس هذا على مَنْ حولنا بالتأكيد، وفاقد الشيء لا يُعْطِيهِ.

(١) رواه البخاري برقم (٧١٣٨)، ومسلم برقم (١٨٢٩).

(٢) رواه البخاري برقم (٧١٥٠)، ومسلم برقم (١٤٢).

٣. ثالثًا: ضَعْ نصب عينك أن من أسس التربية الصحيحة التي ينبغي أن تسير عليها: غَرَسَ محبة الله ﷻ ومراقبته في نفوسهم، طاعة النبي ﷺ، تعظيم الوحي، احترام المصحف وكتب الحديث، تأكيد ضعفنا أمام قوة الله وغناؤه، هذه وأمثالها أساسيات ينبغي التركيز عليها والتأكيد عليها كل يوم بل كل ساعة.

٤. رابعًا: التركيز على غائية الحياة، غياب الغائية في حياة الجيل الصاعد شيء مؤسف، إذًا لا ينبغي الغفلة عن هذا الموضوع، لم أنا موجود في هذه الحياة، لم خلقني الله، ما هي الوظيفة الأهم في حياتي؟ اغرس الإجابة عن هذه الأسئلة الوجودية في صميم فؤاد طفلك إن استطعت في كل ساعة، علِّمه أن عبادة الله أهم من كل شيء، وقبل كل شيء، وأن المستقبل الحقيقي الذي علينا أن نسعى إليه هو المستقبل الأخروي في جنات النعيم، وتحقيق المستقبل الدنيوي وسيلة لتحقيق المستقبل الأخروي، يجتهد مثلًا في الدراسة، يُحرز أعلى درجاتها لأجل أن نفع أنفسنا وأهلينا ووطننا والمسلمين، فنزداد أجرًا.

٥. خامسًا: اغرس في طفلك دين القناعة، إذا أمرته بالصلاة مثلاً فقل له: صلّ؛ لأن الذي خلقك سبحانه أمرك بها، وصدق؛ لأن الله يحب الصدق، ولا تكذب؛ لأن الله يبغض الكذب، افعل الصواب؛ لأن الله يراك، وكلّ يمينك لأن هذه سنة نبينا وحبينا صلى محمد ﷺ، وهذا الطعام نعمة ورزق من الله أن نحمده عليه، اغرس فيه دين القناعة لا دين العادة.

٦. سادسًا: إعداد بيئة صالحة مناسبة أو غير سيئة على الأقل في الشبكة أو ال(سوشيل ميديا) بحيث لا يتجاوز طفلك حدودها، لست بحاجة أن أُنَبِّه إلى أن أغلب الأسر إن لم تكن جميعها قد أصبحت الشبكة فيها واقعًا مفروضًا بل جزءا من الحياة، وشباك الشبكة للصغار جاذبة، إذا علينا أن نتعاطى مع هذا تعاطيًا إيجابيًا صحيحًا، واليوم وسائل التحكم بشأن إبحار صغارنا في الشبكة موجودة والله الحمد من خلال بعض البرامج، وثمة مشاريع سليمة ممتازة في المواقع والقوالب المحببة للأطفال، يمكن الاستفادة منها، وهي بديل مناسبة لركام التفاهة والإسفاف الكبير.

٧. سابقاً: ثمة وسائل جيدة نافعة ومفيدة، وهي تعليم العقيدة من خلال بعض الوسائل الممتعة، مثلاً: هناك كتيبات فيها التلوين، صدرت بعنوان: «عقدية الطفل المسلم» ونحوها يعني: تطرح أسس العقيدة بأسلوب سهل، ويستمتع الطفل معها بالتلوين، مناسبة لسِّنِّ معين، هذه وما على شاكلتها نافعة، وينبغي استثمارها، وتُكمل ما تطرحه المناهج التعليمية، وما يغرسه الآباء والمُربُّون.

الخلاصة: على الأب وعلى الأم وضع موضوع البناء العقدي للأبناء نصب العين، وعليهما صدق اللجوء إلى الله ﷻ في التوفيق لهذا وسيفتح الله أمامهما المغلقات، وسيرزقهما ما يتمنيان، ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

المقدم: إن كان هناك من وصية نختم بها هذه الحلقة في موضوع التحصين العقدي، وأيضاً استغلال شهر رمضان المبارك؟

الشيخ: أنا أريد أن أربط بين الأمرين -حفظكم الله-؛ رمضان شهر الخير، شهر التقوى، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]، من التقوى: التفكير الجاد، وضع المشاريع العملية لهذا الموضوع الذي نبحت فيه، التأصيل، والتحصين، والبناء العقدي لأنفسنا ولمن حولنا من الأسرة والذرية، أنا أقول: رمضان فرصة مناسبة

جدًّا للتفكير العميق في هذا الموضوع، والتخطيط لذلك، والبداية العملية بتوفيق الله، مع كثرة سؤال الله، المسلم في الغالب -وهذا المضمون إن شاء الله في جميع المسلمين- قريبٌ من الله سبحانه، كثير الدعاء، كثير التلاوة لكتاب الله ﷻ، إذًا هي فرصة أن يدعو الله ﷻ له بالسداد والتثبيت، وأن يفتح عليه من رحمته، سيُوفق بتوفيق الله.





الحلقة الحادية والثلاثون

سؤالات في العبادات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الشيخ: الأمر - كما تفضلتم - الموضوع عظيم وواسع، ويستحق الحديث عنه والدندنة حوله كثيراً، فأَيُّ شيء أهمّ من الوظيفة التي خُلِقنا من أجلها، وموضوع بهذه السعة يَقيف المتكلم حائراً أمامه، كيف يمكن أن يلخصه في مساحة زمنية ضيقة؟ لكن لعلّ تلخيصه في أصول مختصرة جامعة يُقَرِّب ما نصبوا إليه.

يمكن -يا رعاكم الله- نُليِّص أهمّ المهمات في موضوع العبادة بأربعة أصول:

١. أولاً: العبادة هي الجامعة لكمال محبة الله وخوفه ورجائه، مع

الخضوع له والانقياد لأمره، وهي الغاية من خلق الخلق، الله

سبحانه إنما خلق الخلق لعبادته وحده لا شريك له، قال

سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

٢. ثانياً: العبادة لها قِيدان، ولها رُكنان، ولها شرطان، وهي قسمان.

العبادة لها قيدان، العبادة وهي: اسمٌ جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من

الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، إذاً لا تكون عبادة الا باجتماع هذين القيدين:

أن تكون مما يحبه الله، وأن تكون مما شرعه لعباده.

ثم العبادة لها ركنان:

• **الركن الأول:** غاية المحبة.

• والركن الثاني: غاية الذل، ولا عبادة الا باجتماعهما.

وعبادة الرحمن غاية حُبِّه مع ذلّ عابده هما قطبان

وعليهما فلَك العبادة دائر ما دار حتى قامَت القطبان

ثم العبادة لها شرطان؛ هما: الإخلاص لله، والمتابعة لرسوله ﷺ، فلا تكون العبادة مقبولة إلا باجتماع هذين الشرطين.

ثم العبادة تنقسم إلى قسمين: عبادة ظاهرة، وعبادة باطنة.

• أمّا العبادة الظاهرة: فهي الأعمال الصالحة التي تقوم بالبدن:

كالصلاة، والزكاة، والحج، والأذان، ونحو ذلك.

• أمّا العبادة الباطنة: فهي الأعمال الصالحة التي تقوم بالقلب؛ كمحبة الله،

وخشيته، والإنابة إليه، والتوكل عليه وما إلى ذلك. هذان نوعا العبادة.

والأصل: أن جنس العبادة الباطنة أفضل من جنس العبادة الظاهرة، بل

العبادة الظاهرة إذا حَلَّت من العبادة الباطنة كانت قليلة الأثر أو عديمة الأثر.

٣. ثالثاً: المِنَّة في العبادة لله سبحانه ابتداءً وانتهاءً، المِنَّة لله في

العبادة، والفضل كله له ابتداءً وانتهاءً، فمنه كان الإيجاد،

والإعداد والإمداد، هو الذي مَكَّن من الهداية لها، هو الذي

أعطى القدرة والقلوب والأسماع والأبصار، هو الذي أرسل الرسل، وأنزل الكتب، هو الذي حَبَّبَ الإيمان في القلوب، هو الذي خلق مشيئة العبادة في النفوس، ثم هو الذي يتفضل بقبولها، ويثيب عليها، والعباد لا يستحقون عليه شيئاً، فالأمر منه وإليه تبارك وتعالى.

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

قال ﷺ: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمُ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧].

ولذا يقول أهل الجنة إذا دخلوها: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا

لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

٤. رابعاً وأخيراً: أفضل العبادات العمل على مرضات الرب سبحانه

في كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت، والعابد الصادق غرضه تبُّع مرضات الله تعالى أين كانت، فمدار تعبده عليها، فهو لا يزال متنقلاً في منازل العبودية، كلما رُفِعَتْ له منزلة عمل سار إليها واشتغل بها، حتى تنوح له منزلة أخرى، فهذا دأبه في السير حتى يضع عصا الترحال في هذه الحياة.

المقدم: إلى المحور الثاني في هذه الحلقة: لِمَ أعبد الله؟ ولم أمرنا الله بعبادته؟ وهل هو ﷺ بحاجة إلى عبادتنا؟ مادام ﷺ غير محتاج لنا فإذا لم أمرنا بتلك العبادات؟ هذه الأسئلة التي تشغل عقول بعض الشباب كما ذكرتم، ونُسبب لهم بعض الإشكال، ويتم بثّها في وسائل التواصل الاجتماعي، نحتاج أن نقف معها؟

الشيخ: هذه مسألة في غاية الأهمية، والبحث فيها - كما تفضلتم - يُداول بين بعض الشباب وقد تُشكل عليه، وإن كنت لا أكتُمك أني أظن أن هذا سؤال اعتراضِي تَعْنِي أكثر من كونه سؤال بحث عن الحقيقة؛ لأن الناس بين مَنْ يؤمن بالله ومن لا يؤمن بالله، فمن كان مؤمناً بالله فإن عنده من تعظيم الله، والعلم به، والأدب معه ما يدرك به أن العبادة حق عليه لربه بموجب كونه عبداً له، أمّا من كان لا يؤمن بالله كان ملجداً، فإنه لا يؤمن بالله أصلاً، فماله وللبحث في عبادته سبحانه، فما بقي إلا أنه سؤال تشكيكي يَبْثُّ أعداء الله في نفوس ضعاف الإيمان، ومن ضعف علمه فقد يظن أن هذا سؤال صعب ومشكل، وهو في الحقيقة أثْفَه ما يكون، فما كل بيضاء شحمة، ولا كل سوداء تمرّة، كما يُقال.

على كل حال عندنا هاهنا جواب خاطئ وجواب صواب:

أمّا الجواب الخاطئ فهو: أن الله خلقنا لحاجته هو إلى العبادة، هذا جواب خاطئ بكل تأكيد، الله سبحانه ما أمرنا بعبادته لحاجته إليها، ومَنْ تصوّر صحة

هذا الجواب توهم أن الطلب يفتقر الى الحاجة دائماً، وهذه نظرة مادية بختة، فليس كل من طلب شيئاً يكون محتاجاً إليه، فالوالدان أو المعلم مثلاً قد يطلبون من الطفل شيئاً لمصلحته لا لمصلحتهم، وهذا شيء معقول، إذاً قد يكون الطلب لمصلحة المطلوب لا الطالب.

الله ﷻ ثبت بالأدلة القطعية؛ النقلية والعقلية والفطرية والحسية: أنه الربُّ الخالق العظيم، والإله الحقّ المبين، وإذا كان كذلك فإن له الغنى المطلق، والغنى غنى مطلقاً لا يحتاج إلى غيره، فأى حاجة له إلينا أو إلى عبادتنا، واستمع الى قوله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ [الذاريات: ٥٦-٥٨].

عجيبٌ حال ابن آدم! يمتنّ على ربه بعبادته، أو يستكثرها؛ ﴿قُلِ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُهُ﴾ [عبس: ١٧]، ومن نحن أمام عظمة الإلهية، وجلال الربوبية؛ ﴿قُلْ مَا يَعْبُؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ [الفرقان: ٧٧].

في الحديث القدسي العظيم المخرج في «صحيح مسلم»^(١) يقول ﷺ: «يا عبادي، إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي

(١) رواه مسلم برقم (٢٥٧٧).

لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنّكم، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنّكم، كانوا على أفجر قلب رجل واحدٍ ما نقص ذلك من ملكي شيئاً».

إنه لن يفهم معنى العبادة، وحقيقة عبودية العبد لربه لن يفهم هذا من لم يُقدّر الله حق قدره، تلکم العبودية غايتها حکمتها، إنما يطلع عليها من عرف صفات الرب ﷻ وعظمته، عرف معنى الإلهية وحقيقتها، وأنه سبحانه الإله الحق، وأن الحقيقة الإلهية لا تنبغي إلا له، وأن العبادة مُوجب إلهيته وأثرها ومقتضاها.

أعود فأقول: من أنكر حقيقة الإلهية، ولم يعرفها؛ لن يستقيم له معرفة حكمة العبادات وما شرعت لأجله، لن يستقيم له العلم بأنها هي الغاية المقصودة للخلق، والتي لها خُلُقُوا، ولها أُرسلت الرسل، ولها أُنزلت الكتب، ولأجلها خُلِقَت الجنة والنار، وأنَّ فرض تعطيل الخليفة عنها نسبة لله العظيم إلى ما لا يليق به، ويتعالى عنه، فإنه لم يخلق الإنسان عبثاً، ولن يتركه سُدّاً مُهملاً؛ ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥] أي: لغير حكمة، ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦] أي: مُهملاً، لا يُؤمر ولا يُنهى، ولا يُثاب ولا يُعاقب!؟

إِذَا: الله ما أمرنا بعبادته عَبَثًا، أو لحاجته إلى العبادة، إنما الجواب الصحيح: أن الله خلقنا للحق، وهذا الحق يتضمن الحكمة التي يحبها، وشرع العبادة لها، وتتلخص في أمرين: في أن العبادة حق له، وحاجة لنا.

١. أمّا الأمر الأول: فهو أن العبادة حقه تعالى، «حق الله على

عباده: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً»^(١)، هكذا قال الصادق

المصدوق عليه السلام، فهو سبحانه أمرنا بالعبادة؛ لأنها حقه، ومن طلب حقه وجب أن يُؤدَّى إليه ولو كان غنياً، هذا ما يدركه كل العقلاء، الحق يُؤدَّى لصاحبه بمقتضى كونه حقاً له، لا بمقتضى كونه محتاجاً له.

لو كان لِعَنِيَّ عليّ حق ماليّ مثلاً، هل لي أن أعترض فأقول: أنت غني، فلمَ تطلب حقك؟ أو أنه حقه هو لا بد أن يأخذه؟

المقدم: حقه طبعاً.

الشيخ: الله ﷻ له علينا حق عظيم من جهات عدّة:

- فأولاً: لكونه ربنا وخالقنا، ونحن مخلوقون له، وإذا كان هناك خالق ومخلوق فلا بد إذاً من العبادة، هذه قضية بديهية.

(١) رواه البخاري برقم: (٢٨٥٦) ومسلم (٣٠).

● وثانيًا: لكونه سيدنا ومالكنا سبحانه، ونحن عبيده المملوكون له، المَقهورون تحت سلطانه.

● وثالثًا: لكونه رازقنا والمنعم علينا، ونحن الفقراء إليه في كل شيء، ولا نُغني عن أنفسنا شيئاً، ولا حول ولا قوة لنا إلا به، حتى في اللُقمة التي نأكلها، والشربة التي نشربها بل والنفس الذي يتردد في أجوفنا.

● ورابعًا: لأن له الكمال المطلق والجلال والجمال ﷻ في ذاته وصفاته، والنفوس تحب الكمال المطلق، وتخضع له وتعظمه.

الله ﷻ يُعبد؛ لأنه أهلٌ أن يُعبد، ومن تأمل طرفاً من كمال أسمائه وصفاته أدرك حقيقة هذا، وهذا أمر عظيم، كم يُعقل عنه، والإشكال الذي يرد عن العبادة لا يرد إلا من ضعف تعظيم الله سبحانه، والعلاج: أن يعود الإنسان إلى نفسه ليصلح هذا الخلل، تفكر في عظمة الله يزول عنك الإشكال، اقرأ في كتاب الكون الفسيح، وتتبع مواضع الإتقان والإحسان في كل صغير وكبير، وحينها تنجفل عنك الوسوس، عظم فاعبد، هذه قاعدة باختصار: (عظم فاعبد)، عظم الله واقدره حق قدره، وستعبده قطعاً، ستوقن أنه الجدير أن يُتأله له محبة ورغبة ﷻ.

الخلاصة: العبادة حقه سبحانه، الواجب له الواجب علينا.

٢. الأمر الثاني: الله ﷻ أمرنا بعبادته لا لحاجته إليها، وإنما لحاجتنا

إليها، إذاً هو مُنعم متفضل علينا حين أمرنا بعبادته.

أُعيد: العابدة حاجتنا لا حاجته، الله يريد أن ينفعك لا لينتفع بك، وصدق من قال: «كلُّ يريدك له إلا الله فإنما يريدك لك».

العباد العباد إنما يعملون لأنفسهم ولمصلحتها؛ ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ

لِأَنْفُسِكُمْ﴾ [الإسراء: ٧]، ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ [فصلت: ٤٦]، ﴿مَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا

يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ [الإسراء: ١٠٨]، ﴿وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ﴾ [فاطر: ١٨].

في الحديث القدسي السابق يقول ﷻ في ختامه: «يا عبادي، إنما هي

أعمالكم أحصيتها لكم ثم أوفيتكم إيَّها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه»^(١).

الخلاصة: الله اللطيف الكريم الرحيم سبحانه أمرنا بالعبادة لنفسنا

وسعادتنا، وحصول الطمأنينة، وانشرح الصدر بها في الدنيا، ثم لننال السعادة والنعيم المقيم في الآخرة بسببها.

(١) رواه مسلم برقم (٢٥٧٧).

العبادة ليست أنفالا ولا أغلا لا يؤديها الإنسان بضيق وعنت ومشقة، هذا لا يقوله من عرفها وذاق حلاوتها، إنما هي عبادات يسيرة ميسورة، فيها الأنس والبهجة والسعادة، ومن لم يذق فليجرب.

ومن لم يجرب ليس يعرف قدره فجرب تجد تصديق ما قد ذكرناه

من عرف العبادة فإنه إن أنصف فسيذكر تمامًا أن الأغلال ليست في العبادة، وإنما في الإعراض عنها، نعم؛ الإعراض عن عبادة الله هو المشقة حقًا، هو الغمة مع النفس، هو الثقرة بين الجسد والروح، هو الضيق والتّيه والضياغ، هو الضنك والشقاء، من لم يعبد الله تائب بائس، حيران عطشان، وإحصاءات الانتحار شاهد لا يكذب، وصدق الله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً

ضَنْكًا﴾ [طه: ١٢٤].

ودونك ما يصرح به أهل العبادة وأهل الإعراض عنها، فأَيُّهم بالله أهدى سبيلًا؟ أفعال مُعرض مُلحد ضال يصف حاله بقوله -وهذا قول بالمناسبة أحد أساطينهم المعاصرين-: «جئنا من لا شيء، بلا شيء، لأجل لا شيء»، أو قول أخيه الآخر: «جئت لا أعلم من أين ولكي أتيت، ولقد أبصرت قدامي طريقًا فمشت، وسأبقى سائرًا إن شئت هذا أم أبيت، كيف جئت؟ كيف أبصرت طريقتي؟ لست أدري، لست أدري ولماذا لست أدري؟ لست أدري!»، أفهذا التّيه

والعدمية القاتلة أحسن حالاً ومالاً، أم حال العابد السعيد بعبادته؟ أين هذا من نعيم من يرقص قلبه طرباً وفرحاً وأنساً بعبادته لربه، وطمأنينة بذكره، حتى يقول بعضهم في حال نزعه: وا طرباه، ويقول ثانٍ: إنه لَتَمَرَّ بالقلب أوقات يرقص فيها طرباً، ويقول ثالث: إنه لَيَمَرَّ بالقلب أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب.

وإذا أردت مصداق هذا؛ فانظر إلى حال من أسلم حديثاً، وفي الشبكة مئات المقاطع التي تحكي مشاعرهم بعد إسلامهم، تجد أن أول ما يذكرون من وصف حالهم بعد إسلامهم: أنهم وجدوا أرواحهم، وتصلحوا مع ذواتهم، ووضعوا كل شيء في نصابه، وذاقوا من اللذة ما تعجز الكلمات عن التعبير عنه، صدق الله: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢]، عبادة الله نور للبصيرة، حياة للقلب، سلامة من الضياع، طول للعمر، تعطير للأنفاس، غسل للأدران، دواء للأدواء، علاج للهموم.

العبادة رَوِّقَ الحياة وَبَهَّجَتْهَا وَأَنَسَهَا، ومن عَرَفَ قَدْرَهَا حَقًّا هَجَّ لِسَانَهُ بِحَمْدِ اللَّهِ عَلَيْهَا أَكْثَرَ مِنْ هَجِّهِ بِحَمْدِهِ عَلَى نِعْمَةِ الصَّحَةِ وَالْمَالِ وَالْوَلَدِ، فهي وَاللَّهِ النِّعْمَةُ الَّتِي أَكْرَمَنَا بِهَا، وَأَسْعَدَنَا بِهَا، هي النِّعْمَةُ الَّتِي لَا نِعْمَةَ فَوْقَهَا، لَا تُقْل: لَمْ أَمَرْنَا اللَّهَ بِعِبَادَتِهِ؛ بَلْ قُلْ:

اللهم لك الحمد أن أمرتنا بعبادتك، لا تعجب من أن الله أمرنا بعبادته، بل اعجب لكرم معبودك العظيم سبحانه أن قبلك عبداً له، وتقبل عبادتك مع ما فيها من غفلة وتقصير. وأمر آخر يتعلق بهذه الفقرة: الله تعالى من علينا بالعبادة لتحقيق إنسانيتنا؛ نعم، عبادة الله تُعيدك الى إنسانيتك الحقّة، أنت إن وُفِّقْتَ عابداً لربك لأنك إنسان، النفس البشرية مفطورة على العبادة، وفي أعماقها حاجة مُلِحّة للتعبد، هذه خاصة النفس البشرية شاءت أم أبَتْ، الإنسان حيوان مُتَعَبِّد، هذا جزء من حقيقته الإنسانية، كما أنه متنفس، واكل، وشارب، ومفكر ولابد، كذلك هو مُتَعَبِّد ولابد، لا يمكن أن يخلو الإنسان من العبادة البتّة، إن لم يضع العبادة في موضعها الصحيح، إن لم يعبد الله عبد غيره حتماً، ربما عبد لذّة، ربما عبد صنماً، ربما عبد معشوقه، ربما عبد مالا، بل ربما عبد ثوبه، قال ﷺ كما عند البخاري^(١) وغيره: «تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَالْدَّرْهَمِ، وَالْقُطَيْفَةِ، وَالْخَمِيصَةِ»، إذاً كل إنسان عابد، هذه قاعدة كلية لا استثناء فيها، حتى من يزعم أنه لاديني أو مُلحد، هو في الحقيقة واقع في عبادة شهوته وهواه قطعاً.

صدق ابن القيم رحمه الله حين قال:

أرواحهم في وحشة وجسومهم
فكذبها لا في رضا الرحمن
هَرَبُوا مِنَ الرِّقِّ الَّذِي خُلِقُوا لَهُ
فَبُلُّوا بِرِقِّ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ

(١) رواه البخاري برقم (٢٨٨٦).

الخلاصة: العبادة واجبة، ونعمة، وحاجة، فكما هي واجبة علينا، فإنها نعمة نتنعم بها، وحاجة لنا، بل ضرورة، فحياتنا بدونها مُظلمة بائسة.

المقدم: السؤال الأخير في هذه الحلقة أو قبل الأخير، يتعلق بالعبادة، أحياناً بعض الشباب يقول في بعض العبادات: ما أفهم حكمتها، فلماذا يوجد في العبادات ما هو كذلك؟ وهل يلزمني أن أطيع في شيء لا أعرف حكمته؟

الشيخ: جواباً على ما تفضلتم به أقول: هذا أيضاً ممّا يسأل عنه بعض الشباب ويستشكلونه، ودعني -يا رعاك الله- أجعل الإجابة في خمس نقاط:

١. أولاً: جُلّ العبادات -بحمد الله- واضحة المعنى، مفهومة

الحكمة، وما خفيت حكمته في العبادات شيءٌ قليل، ولو تأملت في أصول العبادات الكبار؛ كالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، فهذه لها حكمٌ جليّة جليّة، ولو أمضينا ساعات عدة ونحن نتحدث عن هذه الحكم، فلربما لن ننتهي.

نعم ثمة أشياء يسيرة نقف عندنا عاجزين عن معرفة الحكمة فيها، فلم كانت صلاة الفجر مثلاً ركعتين، ولم كانت صلاة المغرب ثلاثاً مثلاً؟ هذا سؤال ليس لأحد أن يجزم فيه بشيء، لكن لاحظ أن الصلاة نفسها حكمتها ظاهرة، إنما الخفاء في حكمة الشيء من تفاصيله.

٢. ثانيًا: ينبغي التفريق بينما خَفِيتَ حكمته وما عَدِمَتَ حكمته، بين ما نَجَهلَ حكمته وما نَجَزم أنه لا حكمة فيه، فالأول واقع، وأما الثاني فلا وجود له في العبادات البتّة، أي: أن نَجَزم بأن شيئًا من العبادات عَشِي لا حكمة فيه أبدًا؛ هذا شيء ممتنع، ولا يمكن لأحدٍ أن يدّعيه في العبادات الشرعية البتّة، فكون الفجر ركعتين لا ثلاثًا ولا أربعًا، هذا شيء نَجَهل حكمته، لكن لا يمكن لأحدٍ أن يجزم بأنه لا حكمة فيه.

٣. ثالثًا: ليس من شرط التّعبد معرفة الحكمة.

إذا ثُبِت أن العبادة حقّ الله على العباد، فلم يَبْقَ أمامهم إلا أن ينصاعوا ويطيعوا. بصورة أخرى أقول: ليس من شرط القيام بالفعل فهم أدقّ التفاصيل، بل يكفي صحة السبب، وسلامة الغاية للقيام به.

دَعْنِي أمثل بمثال: أكثر الناس يستخدمون الجوال وهم لا يفهمون كيفية عملة، كيف ينتقل الصوت من طرف إلى طرف؟ هذا شيء غير مفهوم عند أكثر الناس، أليس كذلك؟ ومع ذلك لم يؤثر هذا في استعمالهم لهذا الجهاز، كفى عندهم أنه يُلَبِّي حاجاتهم، أليس كذلك؟ وما اشترطوا أن يفهموا أدقّ التفاصيل وإلا ما استعملوه.

خُذْ مَثَلًا: أكثر الناس لا يعلمون كيفية عمل السيارات، لم يسمعوا قطّ بأنه تحصل عملية احتراق يتمّ فيها حرق مزيج الهواء والوقود، إلى آخره، وما سمعنا أحدًا قطّ اعترض أو امتنع عن استعمال السيارة بسبب جهلة بالتفاصيل، مع ملاحظة أن السيارة والجوال أشياء حسية، أمّا العبادة ومشروعيتها وثوابها ففيها جانب غيبي، لكننا نقطع أنها تُوصلنا إلى أعظم غاية ومطلوب ومنفعة لنا، وهي رضا الله ﷻ، إذّا لا ينبغي البتّة التردّد في قبول العبادة، والقيام بها لجهل الحكمة فيها، فإن مبنى العبودية على التسليم، ومن التسليم: عدم الاسترسال في التّنقير عن تفاصيل الحكمة في الأوامر والنواهي والمقادير.

إن ورد الشرع بذكر حكمة، وفهمها العقل؛ كانت زيادة بصيرة فيه، وإن لم تظهر لا ينبغي أن يؤهم ذلك في انقياد العابد الصادق، ولا ينبغي أن يقدح في امتثاله، وهذه أعظم حكمة أن تُسلّم لأمر الله، وتنقاد له وأنت لا تفهم الحكمة؛ ليتجلّى صدق عبوديتك بربك ﷻ.

٤. رابعًا: ينبغي على الإنسان أن يدع الغرور، وأن يتحلّى بالتواضع،

فما يعلمه قليل جدًا بالنسبة لما يجهله، والعقول أضعف من أن

تُحيط علمًا بكل شيء، ﴿وَمَا أَوْتِيْتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾

[الإسراء: ٨٥]، ﴿وَاللّٰهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩]، ونحن

نستدل في موضوع الحكمة بما عَلَّمنا على ما جَهِلْنَا، وهذه قضية مضى الكلام فيها في حلقات سابقة.

وقد عَلَّمْنَا: أنه لا يستطيع أحد من الخلق قطّ الاطلاع على جميع مكنون حكمته ﷻ في كل شيء، ومن لم يُسَلِّم بهذا يلزمه مساواة المخلوق بالخالق في معرفة المصالح وجميع دقائق الحكمة، وكيف يستوي ربّ الأرباب والمخلوق من التراب، وهل يُسَوَّى بين الضلّول الجهول وعلام الغيوب ﷻ!!

الخلاصة: أن من لم يتواضع في طلب الحق فلن يصل إليه، فلا يتعب ولا يُتعب. تذكر كمال الرّب، ونقص العبد، واعلم أن قصور العلم لا ينتهض مُعارضاً. وعلى كل حال أوصي الرجوع إلى الحلقة الذي تكلمنا فيها عن موضوع الحكمة وضوابط البحث فيها، فقد ذُكر فيها -إن كنتم تذكرون- خمسة عشر ضابطاً مُهمّاً ينبغي استحضارها هنا.

٥. خامساً وأخيراً: مَهْمَا أَشْكَلَ عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْ مَسَائِلِ الشَّرْعِ أَوْ الْقَدْرِ، فَلْيَنْي أَوْصِيكَ بِاسْتِحْضَارِ جَوَابِ سَهْلِ مُرِيحٍ، وَأُسْمِيهِ (استذكار الأصل).

بمعنى: أَشْكَلَ عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْ مَسَائِلِ الشَّرْعِ أَوْ الْقَدْرِ، أَوْ أَشْكَلَ عَلَى غَيْرِكَ، وَأَرَدْتَ أَنْ تُحَاوِرَهُ فِيهِ، قَدْ يَكُونُ مِنَ الْحِكْمَةِ مِنْ وَجْهَةِ نَظَرِي: عَدَمُ الْبَحْثِ

في المسألة مباشرة، أعني: لا تهجم عليها مباشرة، إنما مهّد بمهّدات، ارجع إلى البداية عبر المراحل الآتية:

- **المرحلة الأولى:** ثبوت ربوبية الله تعالى، هل الله الرّب العظيم موجود أم لا؟ ما الذي تعتقده؟ فإن كنت مطمئنًا بالجواب فانتقل للمرحلة الثانية، وإن وسّوس لك الشيطان بشيء فارجع وعالج نفسك في هذا الموضوع، واستحضر أدلة وجود الله وربوبيته.
- **المرحلة الثانية:** ثبوت الصفات العليا، الرّب العظيم سبحانه متصف بالصفات العليا الكاملة؛ وذلك حقّ له من جميع الوجوه، ولا يمكن أن يكون ربًّا إلا وهو كذلك، ومن ذلك اتصافه بالحكمة البالغة، والعلم الواسع الشامل، إذا تقرّر هذا في اعتقادك فانتقل إلى المرحلة الثالثة.
- **المرحلة الثالثة:** ثبوت صدق النبي محمد ﷺ، وصحة رسالته، فإن كنت مؤقنًا بهذا فانتقل إلى المرحلة الرابعة، وإلا فعالج نفسك في هذا المقام، واستحضر براهين صدق النبي ﷺ.
- **المرحلة الرابعة:** صحة الإسلام، فإن كنت مؤقنًا بأن الإسلام هو الدين الحق، المُنزل من عند الله، فانتقل إلى المرحلة

الخامسة، وإلا فعالج نفسك في هذا المقام، واطَّلِع على
براهين صحة الاسلام.

● المرحلة الخامسة والأخيرة: حفظ القرآن والسنة، فإن كنت مُوقِنًا

بهذا فالحمد لله، وإلا فعالج نفسك في هذا المقام، واعرِف البراهين
القوية التي تدل على أن القرآن والسنة محفوظان بحفظ الله.

وبالمناسبة قد تكلمنا عن عامة هذه المسائل في حلقات ماضية.

خُذ الأمر بهذه الطريقة مرحلة مرحلة، أو كما يقولون: حبة حبة، وحينها
فستَصِل إلى الموضوع المشكِـل وقد هانَ أمره، ثِقْ بِـي إن تدرجت هذا التدرج
فسيهون الإشكال أمام ناظريك بإذن الله، فإن من استيقن بهذه الأمور الخمسة
فستَهون عنده أيّ قضية شرعية أو قدرية مشكّلة، ولن تؤثر على إيمانه، وسيضع
الإشكال في محلة الصغير، بل وسيسهل عليه حلّه بتوفيق الله.

المقدم: إن كان هناك إحالة أو وصية تُوصون بها حول موضوع الحلقة؟

الشيخ: أوصي بشيء سبق أن أوصيتُ به، ألا وهو: قراءة «رسالة
العبودية» تلك الرسالة العظيمة لشيخ الإسلام ابن تيمية، مَنْ قرأها أوصيه أن يُعيد
قراءتها، ومن لم يقرأها أوصيه أن يقرأها.





الحلقة الثانية والثلاثون

الأبراج حقيقة أم خيال؟

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الشيخ: الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسان.

أما بعد:

الأبراج أو البروج جمع: بُرْج، والمقصود بها: المواقع التي تنزلها الشمس خلال السنة، هذه هي البروج الاثني عشر، وكل ثلاثة بُروج منها تُمثل فصلاً من الفصول الأربعة، وهي التي جُمِعَتْ في قول الناظم:

حَمَل الثَّوْرُ جَوْزَةَ السَّرْطَانِ وَرَعَى اللَّيْثُ سَنَبِلَ الْمِيزَانِ
وَرَمَتْ عَقْرَبُ بِالْقَوْسِ جَدِيًّا مَلَأَ الدَّلْوُ بَرَكَاتِ الْحَيَّانِ

الفلكيون قَسَمُوا مدار الشمس الذي تقطعه في السنة الى اثني عشر قِسْماً، كل واحد منها يسمى: بُرجاً، ويبلغ شهراً تقريباً، كلُّ بُرج من هذه ثلاثون درجة من درجات الطول، وكلُّ بُرج منها تكون الشمس مُساندة فيه لعددٍ من النجوم، تضمُّها خطوط مَوْهُومَة، وتعطي صورة معينة لشيء من الأشياء التي ذُكِرَتْ في البيتين السابقين.

والتعلق المذكور معنا في هذه الحلقة لا يتعلق بِبُروج الشمس فقط، بل أيضاً بمنازل القمر، واقتترانه بالنجوم أيضاً، منازل القمر: هي المواقع التي تنزلها أو ينزلها القمر كل ليلة، وهي ثمانية وعشرون منزلاً، في كل ليلة ينزل منزلاً منها.

عَلِمَ الفلك ومعرفة النجوم مَنْ أَخَذَ من هذه المعرفة طرفاً صالحاً؛ زَادَتْهُ إِيْمَاناً بالله وتعظيماً، الله ﷻ يقول: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِيَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [يونس: ٥]، هذا كله من الحق الذي خلق الله ﷻ السماوات والأرض وما فيهما من أجله.

وقال سبحانه: ﴿نَبَارَكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١]، فذكر تعالى البروج في مقام الثناء على نفسه جلَّ في علاه، والتنبية إلى آياته العظيمة.

بَحْثْنَا اليوم بالتأكيد ليس متعلقاً بعِلْمِ الفلك، إنما بما يُسمى: بالتنجيم في لباسه المعاصر، ويرتبط مفهوم التنجيم بالكواكب والأبراج الفلكية، وهو من الأساطير التي سَرَتْ في الأمم القديمة ولم تنزلْ الى اليوم، إذ ربطوا بين الأجرام السماوية وحركاتها ونزولها في أبراجها ومنازلها، وبين الأقدار والحضور، كما ربطوا بين الوقت الذي يُولَد فيه الشخص، وبين سُلوكه وطِباعه وشخصيته التي تتأثر في زعمهم بالبرج الذي وُلِدَ في فترته أيضاً، يقولون مثلاً: المُولودون في بُرج العقرب

يَتَسِمُونَ بالغموض والسريّة، بينما المَوْلُودُونَ في بُرْج الحوت يَتَمَيِّزُونَ بالجموح، إلى آخر ما سَنُبَيِّنُهُ - إن شاء الله تعالى -.

المقدم: إذاً ممكن يكون الحديث عن هذا الموضوع، ربما تَعَلَّقَ الناس بالأبراج ونحوها نوع من محاولة كَشَفٍ مثلاً غُمُوض المستقبل، أو لماذا هذا الموضوع مهم هذه الأيام؟

الشيخ: أَوَدُّ أَنْ أُبَيِّنَ - حفظكم الله - لماذا نحن نتحدث عن هذا الموضوع في هذا اليوم؛ وذلك لأهميته.

ظاهرة ادّعاء عِلْمِ الغيب، والتنجيم، والكهانة، والتعلق بالأبراج نوع من الجاهلية القديمة الحديثة التي ابتُلِينَا بها بكثرة في هذه الأيام، هي بلا شك بَلِيَّةٌ كبرى في هذا العصر، لا سيما مع غلبة تأثير وسائل التواصل الحديثة على عقول الناس وحياتهم، فكثيرٌ من الشباب والفتيات بَقَلَّةُ العناية بالعقيدة يخوضون غمار هذه الأشياء التي تعود عليهم بالشر الوَبِيل وهم يظنون أنهم يُحَسِّنُونَ صُنْعًا، فكم تلك المواقع أو الحسابات التي تَعُجُّ بها الشبكة، وترفع لافتة: (حقك معنا، أو حظك في برجك)، أو تلك الكتب أو الجملات التي تحتوي الأبراج التي يذكرون فيها ما يذكرون من سُعود أو نُحُوس، أنت مولود في بُرْج الجَدِّي إذاً ستفوز بجائزة مالية هذا الأسبوع، ستقابل صديقاً الى آخر هذا الهذيان.

مواقع كثيرة انتشرت، والوصول إليها من أسهل ما يكون، موقع أو قناة الشيخ الروحاني فلان، موقع الشيخة الروحانية أم فلان، ماذا تريد؟ نحن بين يديك، اطلب وتَمَنَّ، تريد معرفة الغيب، تريد جلب حبيب، تريد تحصيل مال؟ ما عليك إلا أن تتواصل معنا ونحن نُوصلك إلى ما تريد، ومن لا عِلْم عنده أو ضعف إيمانه يتساهل في مثل هذا الأمر.

من الشباب أو الفتيات من لا تبدأ يومها إلا بأن تلقي نظرة على موقع توقعات الأبراج، فتتسَمَّر عيناها على الخانة المخصصة لبرجها، فإما أن تبتسم متفائلة، وإما أن تُغلِّقه وتبقى يومها عابسة، ومع بدابة كل عام جديد تنهمر التوقعات السنوية من كل حَدِّ وَصَوْب، لتملأ شاشات التلفزة ووسائل التواصل. أصبحت عملية التخطيط للعام الجديد لدى كثيرين مرتبطة بتوقعات بُرْجهم، فلا يقومون بأيّ خطوة قبل التأكد من أن الحظّ من نصيبهم.

من النساء من تُحدِّد موعد الولادة في عملية قيصرية ليناسب تاريخ ولادة طفلها بُرجاً معيناً؛ لأجل أن يكون في زعمها على شخصية معينة.

شريحة من الفتيات والشباب أصبحوا يبنون علاقة الصداقة على معرفة الأبراج، من الأبراج في زَعَمهم ما يتفق معهم، ومنها ما لا يتفق، بل حتى في الزواج، يقول أو تقول: هذا من بُرج كذا فلا يُناسِني.

قرأت لأحدهم مرة وهو يقول: لا يُمكنني أن أبدأ أيّ مشروع جديد قبل التأكد من أنّ بُرجي مناسب لهذه الخطوة.

وقرأت لإحدهنّ وهي تصف شَعَفَهَا بتوقعات الأبراج، تقول: هذا التوقع لي مثل الأكسجين، تقول: لا أنتظر بفارغ الصبر التوقعات السنوية للأبراج فحسب، بل أبدأ كل أيامي بقراءة بُرجي وما تحمله الكواكب والأفلاك لي ولعائلي، الواقع مؤسف مع الأسف!!

المقدم: ممكن الواحد يظن أنه مع ضعف الإقبال على الصحف والمجلات التي كانت تنشر الأبراج ونحو ذلك، ضعف الإقبال على الأبراج ونحوها، ولكن يبدو أن الموضوع ما زال في اتساع خاصة اليوم مع مواقع الإنترنت ونحو ذلك، فلماذا كل هذا التعلق من هؤلاء والعناية بموضوع الأبراج؟

الشيخ: محاولة معرفة الغيب، وما سيحدث في المستقبل، والبحث عما تُخبّئه الأيام القادمة، إمّا عن طريق قراءة الأبراج، أو حتى عن طريقة قراءة الكفّ أو الفنجان، هذا شيء بات منتشرًا كثيرًا في هذه الأيام - كما تفضّلتم -، وخصوصًا بين النساء صغيرات أو كبيرات، وظاهرة الهُوس - إن صح التعبير بالأبراج - ترجع في نظري لعدة أسباب؛ أذكر أهمها:

١. أولًا: الهروب من واقع كئيب، فأحدهم يحاول الهرب من واقعه إلى التعلق بأوهام واستشراف مستقبل أفضل عن طريق الأبراج.

٢. ثانيًا: التقليد، ليس يخفى أن صورة واحدة أو منشورًا يكتب في وسائل التواصل اليوم؛ كافٍ في أن يتأثر به كثيرون يتابعون الكاتب، داء التقليد مشكلة، هي تريد أن تصبح مثل صديقتها، تبدأ يومها بالقهوة، وقراءة حظّها في بُرجها، هذه حقيقة واقعية، التعلّق بالأبراج من أسبابه حُبّ تقليد الآخرين، ومتابعة لِمَا يسمى: الموضة السائدة.

٣. ثالثًا: التعلّق بالأبراج نتيجة الفضول والرغبة في التسلية، قد تكون البداية نوعًا من الفضول، وحُب الاستكشاف أو التسلية، ولا يخفى أن اكتشاف المجهول له لذة عند البعض، شيء جديد، والفراغ كبير، فلم لا نجرب؟ لكنها مع الأسف تجربة قبيحة، وقد تتحول مع الوقت الى إدمان وهوس.

٤. رابعًا: الأبراج توفر إحساسًا كاذبًا بالراحة، يمكن أن تكون قراءة الأبراج مُريحة لبعض الناس حيث تَميل الأبراج إلى التحييز تجاه الأشياء الإيجابية، ولا تتوقع كثيرًا من الأمور السلبية غالبًا، لذا فيمكنها أن تخدع ضعيف العقل سريعًا.

٥. خامساً: الشعور بالسيطرة، من الناس من يرغب عن طريق معرفة ما يكون في المستقبل، وهو ما تخبره به الأبراج كاذبة أن يسيطر على حياته في زعمه ويتحكم بها.

٦. سادساً وأخيراً: ليس يخفى أنه قد ساعد تبَيُّ بعض وسائل الإعلام للأبراج ومن يدعون أنهم علماء في الفلك، وإظهار هؤلاء المستمر على الشاشات لا شك أن هذا قد أدَّى إلى تطبيع هذا المنكر، وجعله أمراً سهلاً لا إشكال فيه.

المقدم: نبدأ في موضوع التأصيل الشرعي لهذا الموضوع، موضوع النجوم والأبراج والتعاطي مع هذه الأشياء.

الشيخ: التعلق بالأبراج والنجوم والكواكب الذي نتحدث عنه اليوم يُسمى: بالتنجيم، والتنجيم هو: تعاطي علم النجوم المذموم؛ ذلك علم النجوم منه ما هو مذموم وهو التنجيم، ومنه ما هو غير مذموم.

والمُنَجِّم هو: من يتعاطى التنجيم، وهو من جنس الكهان والعرافين. هذا الأمر المتعلق بالنظر في الأبراج، قد أجمع العلماء على تحريمه، كما قد سمعتم في كلام الشيخ ابن عثيمين رحمته الله، فلا خلاف بين أهل العلم أن النظر فيها لمعرفة المغيبات أمر يخالف الشريعة، كما أنه يخالف العقل أيضاً، فإنه لا ارتباط بين

الحوادث الأرضية وبين الأجرام السماوية، مهما نزلت ومهما اقترنت ومهما افترقت، فمن زعم أن ثمة علاقة بين هذا وهذا فهو كاذب مُلَبَّس.
لا تَرْقُب النُّجْم في أَمْر تحاوله فاللَّهُ يَفْعَلُ لا جَدْي ولا حَمَلٌ

وتأصيل للموضوع أقول: علم النجوم ينقسم إلى قسمين:
مذموم، وغير مذموم.

- القسم الأول وهو المذموم: هو علم التأثير.
- القسم الثاني الذي هو غير مذموم: هو علم التسيير.

علم التأثير ينقسم إلى نوعين: تأثير عملي، وتأثير علمي.
علم التأثير العملي: هو اعتقاد أن للنجوم والكواكب تديراً لهذا الكون، أو تأثيراً على سلوكنا، وأن ما يكون على وجه الأرض من أحداث إنما هو انفعال لفعل النجوم والكواكب، وأصل عبادة الأصنام بعرضه راجع إلى ذلك، فالأصنام إنما هي تماثيل يتذكر بها العابدون معبوداتهم السماوية أو الأرضية.
الأرضية يَنْصِبُونَ أصناماً للأولياء والصالحين تُمثِّلهم، والسماوية يجعلون لها هياكل أو بُيوتاً، ويَصَوِّرون فيها صوراً للكواكب والنجوم، أو يجعلون لها أصناماً ويتقربون إليها.

أما علم التأثير العلمي: فذلك يرجع إلى استدلال أصحاب هذا الدَّجَل بحركات النجوم والكواكب أو اقترانها أو افتراقها على الحوادث المستقبلية الغيبية، أي: يزعمون أنه بهذا تُعرف أمور الغيب، إذا ظهر النجم الفلاني فسيحصل كذا وكذا، إذا وصلنا إلى البرج الفلاني فسيكون كذا وكذا.

ولا شك أن هذين النوعين -العلمي والعملية- شرك بالله تعالى.

أما الأول: فشرك ظاهر في الربوبية، الله ﷻ هو المَلِكُ السيد، المدبر لشؤون الكون وحده لا شريك له.

وأما الثاني: فإنه إشراك مع الله ﷻ في علم الغيب، الله ﷻ وحده عنده علم الغيب: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥].

وفي «صحيح البخاري»^(١)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما؛ أن النبي ﷺ قال: «مَفَاتِحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ، لَا يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إِلَّا اللَّهُ..» إلى آخر الحديث.

إذا: كل مَنْ جزم أن غداً سيكون كذا من أمور الغيب، أو الأسبوع القادم والشهر القادم، فإنه بهذا ادَّعى مشاركته مع الله ﷻ في علم الغيب، والله ﷻ هو المتفرد به.

(١) رواه البخاري برقم (٤٦٩٧)، ومسلم (١٠) بنحوه.

وقد أمر الله نبيه ﷺ بأن ينفي علم الغيب عن نفسه، مع أنه خيرة خلق الله، فغيره من باب أولى، قال سبحانه: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَا سْتَكْبَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، إذا هذان النوعان حكمها شرك أكبر، وصدق من قال:

عِلْمُ النُّجُومِ وَعِلْمُ شَرْعِ مُحَمَّدٍ فِي قَلْبِ عَبْدٍ لَيْسَ يَجْتَمِعَانِ
أَهْلَا ذَلِيلُ سَعَادَةٍ أَوْ شَقْوَةٍ لَا وَالَّذِي بَرَأَ الْوَرَى وَبَرَانِي
مَنْ قَالَ بِالتَّأْثِيرِ فَهُوَ مُعْطَلٌ لِلشَّرْعِ مُنْتَحِلٌ لِقَوْلِ ثَانٍ

وقد قال النبي ﷺ: «مَنْ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ النُّجُومِ فَقَدْ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السَّحَرِ، زَادَ مَا زَادَ»^(١).

فالتنجيم داخل في السحر من جهة أن السحر ما خفي ولطف ودق سببه، وفيه تأثير خفي على النفوس، وهذا شأن التنجيم. ومن جهة أخرى: فإن التنجيم داخل في حكم الكهانة، والكهانة والسحر حكمهما متقارب إلى حد كبير.

ثمة نوع ثالث يرجع إلى التأثير العلمي لكنه ليس شركاً أكبر، إنما هو شرك أصغر، وهو ما يزعمه أرباب هذا الدجل من أن الأمور التي تقع وقوعها بسبب تأثير

(١) رواه أبو داود (٣٩٠٥)، وابن ماجه (٣٧٢٦).

من هذه الكواكب والنجوم، والله ﷻ هو الخالق حقيقة، لكن هذه أسباب، والحق أن ما يذكرونه وهميات، الله ﷻ ما جعل الكواكب أسباباً لحصول هذه الأمور، وهؤلاء اعتقدوا سبباً لم يجعله الله سبباً لا شرعاً ولا قدرًا، فكان شرًا أصغر.

ولاحظ - يا رعاك الله - أن علماء الإسلام لا ينفون أن يكون شيء من الكواكب سبباً لشيء ما يكون على وجه الأرض، الشريعة لا تنكر شيئاً واقعاً، فربما يجعل الله ﷻ شيئاً مما يكون في الأجرام السماوية سبباً لشيء حسبي أو شرعي يقع على وجه الأرض، فالشمس مثلاً سببٌ لإنضاج الثمار، وقد يكون السبب شرعياً كالتخويف، كما قال النبي ﷺ عن الشمس والقمر: «**إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَاتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتٍ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُخَوِّفُ بِهَا عِبَادَهُ**»^(١)، فهما إذاً سبب لحصول الخوف من العباد، وهذا القدر ليس داخلياً فيما نتحدث فيه، نحن نتحدث عن جعل الأجرام السماوية سبباً لشيء والواقع أنها ليست سبباً، إنما هي شيء يتوهمه هؤلاء في عقولهم، ومن شواهد هذا: الحديث الذي سمعناه قبل قليل، وهو قول النبي ﷺ عَلَى إِثْرِ مَطَرٍ نَزَلَ قَالَ اللَّهُ ﷻ: «**أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ**

ورحمته؛ فذلك مؤمنٌ بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مُطِرْنَا بِنَوءٍ كذا وكذا؛ فذلك كافرٌ بي مؤمنٌ بالكوكب»^(١).

كذلك فيما يتعلق بالاستدلال بما يكون في السماء على ما يكون في الأرض من أمور الغيب، لا شك أن هذا نوع من الدَّجَل، بدليل ما كان يعتقدُه أهل الجاهلية من أن الشمس أو القمر إذا حُسِفَتَا أو كُسِفَتَا فإن ذلك أَمارة على أن عظيمًا سيُولد أو سيموت، فبيّن النبي ﷺ بطلان هذا الوهم كما قد سمعتُ. فدلَّ هذا إذاً على أن ما يزعمون باطل، ولا يوجد أي نوع من الدراسات العلمية، لا يوجد أي تقرير من مركز بحثي موثوق يثبت وجود رابط بين الأبراج وبين ما يتعلق بصفات الأشخاص، أو حوادث الأرض، هذا كله معنى القسم الأول المذموم، وهو علم التأثير.

أمَّا علم التسيير: فإنه معرفة حركات النجوم والكواكب ومواقعها للانتفاع بذلك، إمَّا بمعرفة مكان أو معرفة زمان، هذا القدر مباح. أمَّا معرفة الزمان فأهل المعرفة بهذا الأمر سيتدلون مثلاً بظهور القمر في منزل معين على أن فصل الشتاء قد دخل، فيئنون على هذا مصالح لهم كالزراعة، قد يكون الاستدلال على مكان؛ كأن يُستدل بالنجوم على الاتجاهات.

على كل حال لا حرج على الإنسان في معرفة ما يتعلق بالكواكب لأجل أن ينتفع في أمر دينه أو دُنياه، وربما كانت هذه المعرفة مشروعة؛ كمعرفة القبلة أو الزوال، وإن كانت هذه الأزمنة المتأخرة قد أصبح فيها مثل هذا الأمر قليل الفائدة مع وجود هذه الأجهزة الحديثة.

المقدم: مثلما ذكرتم من يتابعون أو يُطالعون علم الأبراج أو هذه المواضيع، ربما كثير منهم يختلف مقصده عن الآخر، البعض مثلاً للتسلية، والبعض مثلاً لمعرفة الشخصيات، مثلاً يقولون من وُلد في الشمال يختلف عمّن وُلد في الجبال وهكذا، فلماذا لا يكون مثلاً من وُلد في الصيف يختلف عن الشتاء، ومن وُلد في برج العقرب يختلف عن بُرج الحمل، ونحو ذلك، لو نُبيّن حكم من يطالع شيئاً من هذه الأبراج أيّاً كان مقصده؟

الشيخ: مطالعة هذه الأبراج في الصحف، أو التواصل مع المنجمين عبر وسائل التواصل والاتصال، أو مشاهدتهم لها أحوال، ولكلِّ حالٍ حكمها:

١. الحالة الأولى: أن يكون الاطلاع على سبيل الاختبار والامتحان، أو لكشف تلبّيسهم ولفضحهم، فهذا لا بأس به، وقد يتعين.

٢. الحالة الثانية: الاطلاع على ما عند هؤلاء على سبيل الفضول أو

التسلية، أو كما يقولون باللسان المعاصر: حُب الاستطلاع، لكن

دُون تصديق لهذا الدَّجَل، وهذا أمر منكر محرم، وفاعله عاصٍ لله

ولرسوله ﷺ، قد عَرَّض نفسه للفتنة، وعَرَّض إيمانه للزوال.

في «صحيح مسلم»^(١) من حديث معاوية ابن الحكم رضي الله عنه؛ أنه قال: يا رسول

الله، أمورًا كُنَّا نَصْنَعُهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، كُنَّا نَأْتِي الْكُهَانَ. فقال ﷺ: «فَلَا تَأْتُوا

الْكُهَانَ»، هذا نُحْيِ صَرِيحٌ مِنْ لَدُنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَنْ إِيْتَانِ الْكُهَانَ، وَالْإِطْلَاعِ

عَلَى إِفْكِهِمْ، وَيَدْخُلُ فِي هَذَا مَطَالَعَةُ الْأَبْرَاجِ، إِذَا فَاعَلَ هَذَا آثَمَ لِعَصْيَانِهِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ

ﷺ، وَيَتَرْتَبُ عَلَيْهِ أَيْضًا وَعِيدٌ خَاصٌ، وَهُوَ أَنَّهُ: لَا تَقْبَلُ لَهُ صَلَاةُ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً.

في «صحيح مسلم»^(٢) قال: ﷺ: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ لَمْ تُقْبَلْ

لَهُ صَلَاةُ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً»، معنى هذا: أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَصْلِيَ وَمَعَ ذَلِكَ لَا ثَوَابَ لَهُ

فِي صَلَاتِهِ عَقُوبَةً عَلَى مَا اجْتَرَحَ.

٣. الحالة الثالثة: فهي أن يأتي الى الكاهن فيسأله فيصدق، أو أنه

يقرأ الأبراج فيصدق ما فيها، فهذا يتنزل عليه حديث النبي ﷺ

(١) رواه مسلم (٥٣٧).

(٢) رواه مسلم (٢٢٣٠).

الذي أخرجه الامام أحمد^(١) بسند صحيح: «مَنْ أَتَى كَاهِنًا أَوْ

عَرَّافًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ».

لاحظ أن مَّا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾

[النمل:٦٥]، إِذَا مَنْ صَدَّقَ أَنَّ أَحَدًا يَعْلَمُ الْغَيْبَ الَّذِي اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِعِلْمِهِ فَقَدْ كَفَرَ؛

لأنه كذب بما أنزل الله على رسوله ﷺ.

الخلاصة: أبراج الحظّ وما جرى مجراها من ادّعاء علم الغيب؛ كقراءة الكفّ

والفنجان ونحو ذلك؛ خيال لا حقيقة له، ويحرم النظر فيه، ويحرم ترويجه بين الناس،

ولا يجوز تصديق ذلك، بل هذا من شُعب الكفر والقدح في التوحيد، إضافة الى أن

الشغف بهذا من ضعف العقل، كيف يُظن أن مواليد بُرج ما لهم صفات معينة، فإنه

يولد في الساعة الواحدة الألف من البشر، وهؤلاء لا يحملون قطعاً الصفات نفسها،

فضلاً عن مواليد اليوم نفسه، فضلاً عن مواليد الشهر نفسه، وهاك مثلاً واضحاً:

وقف المنجمون عاجزين عن الجواب عنه، وهو أننا نَرَى تَوَآمِينَ، توَآمَانِ وَلِدَا فِي

الساعة نفسها، ومع ذلك فشخصية كل واحد منهما تختلف عن الآخر تماماً.

أعرف تَؤمِّين من قرابتي، أحدهما كثير الحركة، والآخر هادئ جداً، هذا اجتماعي، وهذا انعزالي، أين أثر البرج هاهنا؟ كان ينبغي حسب زعمهم أن يكونا مُتطابقين، لكن هذا غير واقع كثيراً.

ومما يدل على بطلان كلامهم أيضاً: اختلاف المنجمين أنفسهم في أشياء عدة؛ كاختلافهم في دلالة الأبراج على طباع الخلق وصفاتهم.

أحد الباحثين قارن بين ما طرحته مجلتيان تعرضان الأبراج، صدرتا في يوم واحد، فوجد أن كل مجلة ذكرت في كلامها عن بُرج معين عكس ما ذكرته المجلة الأخرى، إذاً هذا يدلنا على أن القضية التي ليس لها أساس علمي، ولا تعدوا أن تكون تلبيساً على ضعفاء العقول، ووالله لو قَلَبَ أحدُ كلام الأبراجيين عشوائياً، فجعل السَّعد نحساً والنحس سعداً، والذكر أنثى، والأنثى ذكراً، ثم حَكَمَ لكانت أحكامه من جنس أحكامهم، تُصِيبُ تارةً وتخطأ تارات، فما ثَمَّ إلا الحُدُس والتخمين والظنون الكاذبة والكلام العائم المحتمل، إذاً الوجوب الحذر من التعلق بها، والتواصي بِهَجْرها لله، والتوكل على الله سبحانه في كل الأمور، والرضا بقدره، احذر أن تلعب بأهم ما تملك وهو إيمانك، المقام ليس مقام تسلية، المقام خطير، وقد يعصف بإيمانك بالكلية.

المقدم: لو نُلَخِّص أهم المفاصد المترتبة على قراءة الأبراج والتعلق بها، والتصديق بما فيها؟

الشيخ: أَوَدُّ أن أُلَخِّص أهم ذلك في عشر نقاط.

قراءة الأبراج وتصديقها تحتوي مفاصد كثيرة، ولا سيما في شريحة أصبحت هذه القراءة وهذا التعلق بالنسبة لهم هَوَساً وإدماناً، وهذه حقيقة -مع الأسف الشديد- واقعة.

● أهم المفاصد وأولها: الكفر بالله ﷻ على ما سبق بيانه، ويا بُؤْساً لمن خسر دينه.

● ثانياً: عدم قبول صلاته على ما مضى بيانه أيضاً.

● ثالثاً: وقوع الوهن والضعف، وترك الأسباب المشروعة.

قد يظن الناظر في الأبراج أنه لن ينجح فيما هو يَصْبُو إليه فيَدَع العمل، فيكون هذا سبباً لفشله، وفوات الخير عليه، وكل هذا بسبب وهم كاذب أحدثه التعلق بالأبراج.

● رابعاً: ضعف التوكل على الله ﷻ، وترك الالتجاء إليه، واستخارته.

- خامسًا: في هذه الأبراج نشرُّ لعقيدة الجدر الضالة التي تُؤدي بالإنسان إلى اعتقاد أنه لا اختيار له ولا قدرة، فهو من مواليد برج معين، له صفات معينة، ولا حيلة له أن يقدم أو يتأخر، أو أن يُحسن من سلوكه.
- سادسًا: التعلق بالأبراج ومتابعتها تضيع الوقت فيما لا فائدة فيه، بل فيما هو محرم.
- سابعًا: الوقوع في وهم السيطرة، مُعظم الأشخاص الذين يقرأون أبراجهم بانتظام يبحثون عن التوجيه وليس عن الراحة، أو يبحثون عمَّا يجب عليهم فعله عن طريقها، حيث يمكن للأبراج أن تصنع لمن يتابعها وهم التحكم والسيطرة على الحياة من خلال معرفة ما سيحدث لهم في المستقبل وكل هذا وهم لا حقيقة له.
- ثامنًا: الخطأ في اتخاذ القرارات، فمهما كان هدف الشخص الذي يتابع الأبراج سواء كان البحث عن صداقة، أو إدارة ميزانية مالية، أو كان يعاني من مشاكل صحية، فالأبراج ستسبب له كثيرًا من المشاكل، إذ لها تأثير كبير على سلوكه

واتخاذها لقراراته، والمعلومات التي يحصل عليها من الأبراج لا أساس لها، والاعتماد عليها سيمنعه من اتخاذ قرارات حكيمة، أو تطوير نفسه وإمكاناته.

- تاسعاً: هذه الأبراج تُصيب الناس باليأس والقنوط، فإذا حملت الأبراج أخباراً مستقبلية مؤلمة، وقع في قلوب المُصدِّقين اليأس والقنوط، وسيدخلون في دوامة القلق والاضطراب النفسي، الأبراج تؤدي إلى القلق في المستقبل، هذه حقيقة لا شك فيها، فيصبح الشخص مُدمنًا على أفكار خيالية، وتُتميّ هذه العادة حسّ الخضوع لأحداث قد لا تحصل أبدًا، نتائج التعلق بهذه التوقعات مُرعبة حقاً.

قرأتُ في إحدى الصحف العربية: أن شابًا يعاني من ضائقة مادية، بدأ في متابعة بُرجه يوميًا لعله يستمع إلى خبرٍ إيجابي، وواعد بانفراجه قريبة، وبعد أن فشلت التوقعات تأزمت حالته النفسية، فأقدم على الانتحار، نَسأل الله العافية والسلامة.

- عاشراً وأخيراً: قد يعاقب الله ﷻ المتعلق بالأبراج بنقيض قصده، وفي هذا يقول: ابن القيم رحمه الله في كتاب «مفتاح دار

السعادة»^(١): «لا يكاد يُعرف أحدٌ تقيّد بالنجوم فيما يأتيه ويذرّه إلا نُكِبَ أقبحُ نُكْبَةٍ وأشنعها؛ مقابلة له بنقيض قصّده، وموافاة النُحوس له من حيث ظن أنه يفوز بسعدِهِ، فهذه سُنّة الله في عبادة التي لا تُبدَل، وعادته التي لا تُحوّل، أن من اطمأنَّ إلى غيره، أو وثّق بسِواه، أو رَكَنَ إلى مخلوق يُدِيرُه؛ أجرى الله له بسببه أو من جهته خلاف ما علّق به آماله، وانظر ما كان أقوى تعلُّق بني بَرَمَك بالنجوم، حتى في ساعات أكلهم وركوبهم وعامة أفعالهم، وكيف كانت نُكبتهم الشنيعة» انتهى كلامه ﷺ، ويشير في آخره إلى ما حصل من البرامكة الذين كانوا في عهد العباسيين، وكانوا من أشدّ الناس تعلُّقًا بالنجوم، كيف كانت نهايتهم الشنيعة في النُّكبة المشهورة تاريخياً؟ والله ﷻ أعلم.

المقدم: ومادام الموضوع بهذه الخطورة والتعلق بالأبراج ونحوها قد يصلّ بالإنسان إلى مرحلة الإدمان، أحياناً البعض يقول: أجد أن بعض مثل هذه الأشياء التي يطالعها في هذه المواقع وهذه الصحف، أجد أنه يكون واقعي مثلاً،

(١) "مفتاح دار السعادة" ١٢٢٣\٣.

الصفات الفلانية موجودة فيّ، الشيء الفلاني الذي أُنَبِّأُ به قد يحدث، ونحو ذلك، فما علاج هذا الإدمان وهذا الهوس؟ مَنْ أراد التخلص من هذا؟

الشيخ: النقطة الأولى - حفظك الله - بعض الناس فعلاً يتأثر بأنه وجد شيئاً مما قيل، لكن لاحظ معي: أن أصحاب هذه الأبراج يذكرون في الغالب أشياء عامة، لو طالعت في كل بُرج لوجدت أشياء مشتركة في الحقيقة، فإذاً هذه تنطبق وهذه تنطبق وهذه تنطبق، إذاً هم يحاولون أن يذكروا أشياء عائمة، ويمكن أن تقع غالبية، هذه نقطة.

النقطة الثانية: أنها كثيراً من الأشياء التي قالوها لا تصدّق، لكن الأذهان يعلّق بها الشيء الذي وقع قدراً موافقاً لما قالوا، فلأجل هذه الواقعة الواحدة ربما تتعلق قلوب الضعفاء بها، وهذه هي المشكلة في الحقيقة.

عَوْدًا على ما سألتهم، في هذه الفقرة من حديثنا نحن لا نتحدث عمّن يسلك هذا الاتجاه لأجل تسلية عابرة، نحن نتحدث عن مرض نفسي وقع فيه بعض الناس، وهو التعلق الشديد بالأبراج، أو ما يُسمى: (هوس الأبراج)، وما أذكره في الحقيقة ليس مبالغة، هناك فعلاً أناس صرعى، وإن شئت فقل: أُسرى لهذه الأبراج، والأمر في تمام مع الأسف الشديد! والله المستعان، والله إنه لمسكين من وقع في برافن هذا المرض، فهو في حالٍ بائسة غالباً، أن تكون مهووساً بالأبراج هو أمر

شَبَّيه بأن ترى العالم من خلال ثُقب صغير في نَفَق ضيق، فتَفْقِد القدرة على الاستمتاع الصحيح بحياتك، أو الاهتمام بأي شيء بعيد عن هَوَسِك.

المُهم: أنَّ أهم خطوة في علاج التعلق بالأبراج الذي هو معاندة الله وشرعه: تقوى الله، تعظيم أمره، تذكّر عذابه، ومن ثمّ المسارعة إلى التوبة، أنت إن كنت مسلماً فلا خيار لك أن تتردّد في قبول حكم الله في هذا الموضوع، وقد سمعته؛ ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، ثُبِّ، واصدُق في التوكل على الله، أحسن الظن به، ارجُ منه الخير، الخير كله بيده، فوَض الأمر إليه هو أَوْلَى بك منك، هذا وثمة أسباب أو خطوات مساعدة للتغلب على الهوس بالأبراج:

١. أولاً: ابتعد عن مصدر الداء.

قُرْبُكَ من مصادر تُزَوِّدك بتوقعات الأبراج؛ كبرامج تلفزيونية، أو مواقع يوتيوب، أو حسابات في وسائل التواصل، يمكن لهذا القرب أن يُطِيل أسرك في هذا البلاء، وسيساعد وضع مسافة بينك وبين هذه المصادر على التحرر منه بتوفيق الله، توقّف عن تغذية الهوس، لكي تكسر هوسك فعليك أن تُجَوِّعه، الأمر صعب في البداية لكنك ستبدأ بعد فترة قصيرة بتوفيق الله بالشعور أنه يَخَفّ ويضعف شيئاً فشيئاً.

٢. ثانيًا: أَشْغِلْ وقتك بأشياء أُخرى غير توقعات الأبراج.

قُمْ بعملٍ مُفيدٍ جديدٍ بعيدًا عنها، مارِسْ هوايةً جديدةً، ستجد بعون الله طريقةً لتتخطى ما أنت فيه.

٣. ثالثًا: اصْبِرْ وصابر.

إن أردت أن تتخلَّص من هذا التعلق عليك أن تُجبر نفسك على ذلك، أن تقسو عليها قليلًا، أحيانًا يكون الأمر صعبًا، فلا تيأس، واصْبِرْ، فما زال بإمكانك النجاح، وكل ما في الأمر أنك قد تحتاج وقتًا أطول.

٤. رابعًا: شَتِّت تفكيرك عن الأبراج، تذكّر السبب وراء محاولتك

التخلص من هَوَسِكَ بها حتى تتمكن من رؤية ما هو أبعد، حتى تتمتع بالحياة، حتى يَسْلَمَ لك دينك، ليكن لديك عِدَّةٌ مُلهيات مُحَبَّبةٌ إليه، حيث يمكنك اللُّجوء إليها عندما تخطر لك أيّ أفكار تتعلق بالأبراج، كإلهاء نفسك بالرياضة، بقراءة كُتب مُفيدة، بمُفاكهة زملاء فضلاء.

٥. خامسًا: تَعَلَّمْ أن تعيش اللحظة، تَعَلَّمْ أن تكون مثابِرًا باستمرار،

بدلًا من التفكير في المستقبل أَشْرِكْ حواسك كُلَّها بكل ما يحدث من حولك، ولا حظ ما يحدث أمامك، واحمَدِ الله على

نعمه، واستثمر ما يُمكنك استثماره، بدلاً من التفكير في المستقبل وفي الخوف منه، والله وَعَلَىٰ أعلم.

المقدم: إن كان هناك وصية نختم بها؟

الشيخ: هناك موضع في الحقيقة في غاية الفائدة والأهمية، أوصي طالب العلم والفائدة بقراءته، ألا وهو جزء أو مقطع من كلام ابن القيم رحمته في كتابه: «مفتاح دار السعادة»، الجزء الثالث من طبعة (مكتبة عالم الفوائد)، من صحيفة (١١٧٥-١٢٧٣) حقيقة كلام في غاية النفع، وفيه تنبيه طريف على تكذيب التاريخ لأحكام المنجمين.

هذان الكتابان قِيَّمان في هذا الموضوع لطالب العلم لإرادة التوسع في هذا الموضوع.





الحلقة الثالثة والثلاثون

كيف نفهم أدلة الشريعة؟

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الشيخ: الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه واتباعه بإحسان، أما بعد:

تري أننا أمام موضوع في غاية الأهمية، وهو من الموضوعات الساخنة التي تُطرق باستمرار، والأخطاء المتعلقة بها جسيمة وخيمة، والتأثر بها من الشباب كثير.

اليوم نحن نُعاني من إشكالية كبيرة، وهي: أن بعض الناس لا يعرف الجواب الصحيح لهذا السؤال: كيف نفهم آيات القرآن وأحاديث السنة؟

والسبب في ذلك: أننا نعيش في خضمّ مشكلة فوضويّة معرفية؛ وذلك أن الأدلة الشرعية أضحت في كثير من الأحوال -مع الأسف الشديد- حمىً مباحاً يعبث فيه من شاء، ويفسّر برأيه، ويقرّر بهواه، اليوم لا تجد جرأة في الكلام على الشؤون الاقتصادية أو الفلكية أو الصحية أو غيرها، كما تجدّها عند الكلام على القضايا الشرعية ومعاني الكتاب والسنة، ودونك وسائل التواصل، والقنوات الإعلامية وما فيها من مقالات، وتغريدات، ومقاطع، ومقابلات، هذا يقول: من حقي أن أفهم الوحي كما يحلّو لي، وآخر يُقرّر نظرية المعنى السيّال المتحرك، وثالث يريد أن يطبق على الأدلة نظرية موت المؤلف، ورابع يقرر قاعدة تاريخية

نصّ، وخامس يسألُ مسلك التأويل، وسادس، وسابع، وثامن، فوضى فكرية في التعاطي مع تفسير الآيات وشرح الأحاديث.

أحدُهم، ومثله كثير؛ غزير المقاطع، يكاد أن يخرج كل يوم مقطعاً، وفي كل مقطع يطرُق بحثاً في آية أو حديث فيأتي بفهم جديد ما عرفه أحد من أهل الإسلام قط، ولا راعى فيه ضوابط علمية ولا سياقات لغوية ولا شيئاً من هذا، فيأتي بما يُضحك التَّكَلِّي، لكن المؤسف أن المشاهدات له بالآلاف.

اليوم أعداء الشريعة يريدون الإجهاز عليها من خلال العبث بأصول وقواعد فهم أدلتها، يريدون هدمها من الداخل وذلك يجعل أدلتها لامية فضفاضة، أو نسبية في دلالتها، أو أنهم يحصرون حاكميتها في وقت التنزيل، وعليه فإنها تُحَيَّد ويتلاشى تأثيرها في أوساط المسلمين، ولا تعدو أن تكون تراثاً، أو كما يقولون: (فلكرولا) نفخر به كما نفخر بالتراثيات، دون أن تكون حاكمة على حياتنا، ومؤطرة لمواقفنا، إذًا لابد من طرح هذا الموضوع، ولابد من الدّندنة حوله كثيراً؛ دَرءاً لهذه الفوضى العلمية الجاحمة، لابد من تأصيل أن لفهم أدلة الشريعة قواعد منضبطة، وضوابط مُحْكَمَة، لا يصح بحال إهمالها، لابد من أن نعي أن هناك ضالين يبتئون الشُّبه، ويَمَيِّعُونَ الدين، ويُلَوِّثُونَهُ بالأهواء، لابد أن نحذر، النبي ﷺ

قال: «إذا رأيتم الذين يَتَّبِعُونَ ما تشابه منه؛ فأولئك الذين سَمَّى الله، فاحذروهم»^(١).

المقدم: لعلكم أشرتُم إلى موضوع الضوابط لفهم الدين، ويمكن السؤال الأكبر الذي يُرَوَّج له أمثال من ذكرتم مَن ينشرون المقاطع، ويأتون كل يوم بتفسير جديد لآية ربما لم يسبقهم إلى تفسيرها أحدٌ نحو ذلك، فهل نحن فعلاً بحاجة إلى ضوابط لفهم الدين؟ يعني البعض مثلاً يقول: الدين أصبح واضحاً بحيث يفهمه الجميع، وأيضاً لا تُحتَكِر تفسير الدين كما كان يفعل النصارى، ربما في أوروبا في العصور الوسطى ونحو ذلك الذين كانوا يحتكرون تفسير الدين في نُصوص من أشخاص بعينهم، ونحو ذلك الكهنوتية ونحو ذلك، فهل نحن بحاجة أصلاً إلى ضوابط لفهم الدين، أم يستطيع الجميع أن يفهم الدين؟

الشيخ: لا بدَّ في البداية أن نفهم أن أدلة الوحي ليست على درجة واحدة؛ فمنها ما يفهمه كل أحد، ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦]، ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١]، هذه واضحة ويفهمها كل واحد.

(١) رواه البخاري برقم (٤٥٤٧)، ومسلم برقم (٢٦٦٥).

لكن منها ما يختصّ بفهمه العلماء، نعم لا يوجد في شريعتنا كهنوت، ولا بطارقة، ولا رجال دين بالمفهوم الكنسي، لكن هناك علماء، هناك أهل ذكر، هناك من يحسن الاستنباط من الأدلة، وإلا فما فائدة قوله تعالى: ﴿فَسأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ [النحل: ٤٣]، ما فائدة قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]، ما فائدة قوله تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧]، ما فائدة قوله ﷺ: «**فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم**»^(١)، إذاً هذه كلمة فيها اشتباه بل فيها مغالطة، فينبغي التنبّه لها.

ومراد بعض من يطرحها: أن يشرع الباب أمام كل مغالط ليُحرّف الكتاب والسنة كيفما يريد، ولا يُحرّك فيه ساكن، ولا يقال له كلمة.

نعم، طلب العلم غير محصور في أحد، لكن الكلام في الدين محصور، لك الحق أن تدرّس أن تتعلم، فإذا بلغت مبلغاً من العلم، وصرت راسخاً فيه، فتكلّم، وقرّر ما تصل إليه باجتهادك في ضوء تقارير أهل العلم، أمّا مع الجهل فلا ينبغي أن يكون ذلك، الشريعة شيء واسع وعظيم، هناك حقائق شرعية، وهناك حقائق عُرفية، وهناك حقائق لغوية، على أيّها سيحمل الجاهل النص؟ هناك ترادف

واشتقاق واشتراك، هناك دلالات للأفعال وحروف المعاني، هناك دلالات للإضافة وللعطف، هناك دلالات للأمر والنهي، هناك عموم وتخصيص، هناك إطلاق وتقييد، ناسخ ومنسوخ، مُجْمَل ومُبَيَّن، هناك أحكام تكليفية ووضعية، هناك مباحث للتعارض والترجيح، هناك أحاديث صحيحة وأحاديث ضعيفة، هناك آثار للصحابة، فعلى أيها يُعوّل الإنسان؟ هناك أدلة مختلف فيها؛ عُرف، ومصالح ومرسلة إلى آخره.

إذًا: ثمة مقامات في فهم الأدلة هي في الحقيقة مقامات اجتهادية تحتاج إلى علم وإلى ملكة تُكتسب بعد أن تتأسس في النفس قواعد فهم أدلة الكتاب والسنة في ضوء منهج السلف، وإلا فإن الجاهل الذي يركب رأسه - كما يقال - ويخبط في فهم الأدلة خبط عشواء؛ فإنه سيضر أكثر مما ينفع، وسيأتي بالمضحكات المبكيات.

ودعني أضرب أمثلة، يعني أتذكر في هذا المقام: ذاك الذي فهم من قوله تعالى: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: ٦٠] فهم أن الكعب هو مؤخر القدم أو العقب، وليس العظم النَّاتئ الذي هو في أسفل الساق، فكان يغسل قدمه إلى العقب وليس إلى الكعب.

وذكر عن أحدهم -وهذه على كل حال تُذكر على سبيل الطرفة لعلها صحيحة- أنه سمع حديثاً في «صحيح مسلم»^(١) أن سعداً رضي الله عنه قال: «الْحَدُّوا لِي حَدًّا، وَاَنْصِبُوا عَلَيَّ اللَّبْنَ صَبًّا»، كما فُعل برسول الله ﷺ، اللَّبْنُ معروف: الطُّوب المصنوع من الطَّيْنِ، لكن صاحبنا فهمها: اللَّبْنُ، فكان كل ما مات ميتٌ جاء بإناء لَبْنٍ فصَبَّهُ على القبر اتباعاً للسنة في زعمه.

وآخر سمع الحديث الثابت في «الصحيحين»^(٢) أن النبي ﷺ: «أُتِيَ بِصَبِي يُحَنِّكُهُ فَبَالَ عَلَيْهِ، فَاتَّبَعَهُ الْمَاءُ»، فظن هذا المسكين أن النبي ﷺ هو الذي بال على الطفل، وظن هذا من السنة، الله المستعان!

المقدم: ذكرتم موضوع ضوابط لفهم الدين، ولكن ذكرتم أيضاً قضية الاجتهاد، البعض ربما يظن أن ضوابط فهم الدين قد تُغلق باب الاجتهاد، خاصة أن هناك أمور ظنية في الشريعة، فلماذا نُتَرَّب على من اجتهد فيها برأيه، وأدلى بدَلُوهُ؟

الشيخ: الجواب عن هذا سيكون بفهم أصليين مهمين:

- الأول: الاجتهاد شيء، والتَّشْهِي شيء آخر.
- والثاني: وجود الخلاف لا يُلغي وجوب الاتباع.

(١) رواه مسلم برقم (٩٦٦).

(٢) رواه البخاري برقم (٥٤٦٨)، ومسلم برقم (٢٨٦).

اتباع الوحي هذا قدر واجب على كل أحد في كل حال؛ ﴿وَمَا أَخْلَفْتُ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١١] هذه قضية مُنتهية.

إذا: يَنْتُج عن هذين الأصلين أن يُقال: ثمة مناهج علمية منضبطة تُحْكَم التعامل مع هذا النوع من المسائل بحسب حال المتعاطي معها؛ مجتهداً كان، أم مُقلداً، أم كان بينهما، إذاً لا فوضى في هذه المسائل، لا عبثية، ولا اتباع للهوى، ليس للإنسان إذا اختلف العلماء، أو اشتبَهَت المسألة على الناظر فيها أن يتشهى، أو يختار ما يوافق هواه، أو كما يقولون: ما تَوَافَق مع مُعطيات العصر، إنما يجب أن تكون غاية المسلم: أن يسعى إلى رضا الله وإلى إصابة حُكْمه قدر الإمكان؛ لأنه قَلْباً وقالباً، حالاً ومثالاً عبداً مملوك للملك العظيم سبحانه، ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [١٦٢-١٦٣].

المقدم: نتقل إلى موضوع آخر مرتبط بقضية الفهم للشريعة الإسلامية، نقف وقفة مع أهم المناهج العصرية الخاطئة في فهم الكتاب والسنة، ونُعرِّف بأهم هذه المناهج؟

الشيخ: السؤال مُهم، والموضوع كبير، والمناهج المخالفة للمنهج السَّوي في فهم الأدلة كثيرة، لكنها تجتمع على أمرين: تحريف الكلم عن مواضعه، واتباع المُتشابه.

والمساحة التي أتحدث فيها - حفظك الله - لا يخفى أنها ضيقة، لكني سأقصر كلامي على منهج واحد، هو: المنهج الحدّاثي في تقويم الأدلة وفهمها، إذ هذا المنهج هو الأكثر حضوراً اليوم في وسائل الإعلام والتواصل، سأُخصّص كلامي عن هذا المنهج في ستة نقاط:

- النقطة الأولى: المشروع الحدّاثي مشروع غربي صِرف، لا يمتّ لتراثنا بصلة، فهو منطلق من منظومة غربية، وهو إفراج لفلسفة غربية، وهو نتاج ثقافة غربية، ويسعى لإسقاط تجربة الغرب تجاه دينهم على ديننا، ويسعى لمعاملة ديننا كما عامل أولئك كتابهم المقدس، إذّا كلامهم كلّهم ما هو إلا اجترار لما قاله حدّاثيو الغرب، وهم في هذا يتجاهلون خصوصية الحالة الغربية، والفصام الواقع بين العلم والكنيسة بين دينهم والعقل، إذ لا يخفى أنّ أولئك ما قامت ثورتهم التنويرية إلا على أنقاض دينهم وموروثاتهم.
- النقطة الثانية: يُؤسّس الفكر الحدّاثي موقفه الأوّلي من الوحي من خلال أمرين:

١. الأمر الأول: هو إنكار كونه وحي من الله؛ أي: نقله من الوحي الإلهي إلى الوضع البشري.

٢. الأمر الثاني: إنكار حفظه، والزعم بأن القرآن قد تمّ التلاعب به،

أما السنة فإنهم يسعون إلى الطعن في العصمة النبوية، وتجريد السنة كلاً أو بعضاً من كونها وحياً، أو أنهم يطعنون في حفظها وبقائها.

● النقطة الثالثة: يسعى الحدّاثيون إلى تغييب المرجعية التي يستند

إليها المسلم في معتقده وعبادته، فيُصاب حينها بحالة من التّوهان والتّشتّت والشكّ في كل شيء، يصبح مُجوّفاً لكل احتمال، ليس عنده قطع لا بعقيدة ولا بأيّ ثابت، ليتحول الإسلام فينا إلى طُفوس باهتة تتلاعب بها الأمزجة والأهواء.

● النقطة الرابعة: من مسالكهم: إلغاء أيّ جهود لعلماء المسلمين

المتقدمين، فلا عبرة بإجماعهم، ولا بفهمهم، ولا بقواعدهم.

ومنها: تقعيد نظرية المعنى السيّال المتحرك، بمعنى: الوحي جميعه حمّال أوجه،

وليس له معنى واحد مُراد لله ﷻ، ولكل أحدٍ أن يفهم الوحي بحسب ما يريد، ومن الزاوية التي ينظر من خلالها.

ومن مسالكهم: القول بتاريخية النص الشرعي، وحصر حاكميته في زمن

معين، ومكان معين، أو ما يسمونه: «الرّمكانية».

ومن مسالكهم: دَعَوَى أَنْ النص مِلْكٌ للقارئ لا للكاتب، ثم يسقطون ذلك على أدلة الكتاب والسنة.

ومنها: الترويج للاكتفاء بالقرآن وحده، ولا حاجة للسنة.

● النقطة الخامسة: أكثر ما يُجَالِدُ الحَدَاثِيُّونَ، ويحاربون عليه: رَفْضُ

تَأْصِيلِ أَصُولِ الاستدلال؛ لأنه لن تسقط حاكمية الوحي إلا بتفكيك الأصول الحافّة به.

● النقطة السادسة: يمكن أن أُخِصَّ غاية هذا المشروع الحداثي في

كلمة واحدة، ألا وهي: أنه يَدُورُ على نَزْعِ القداسة عن الوحي،

أو على الأقلّ يسعى إلى التشكيك فيه، والعنوان البرّاق المرفوع

لهذا: إعادة قراءة التراث، والتراث ما هو إلا (الكتاب والسنة)،

وإعادة القراءة لا يُراد بها قراءته طلباً للهداية منه، إنما - كما

تقدم - ممارسة النقد عليه، وزَعْرَعَةِ الثقة به، وخلع قُدْسِيَّتِهِ،

وهذم مُسَلِّمَاتِهِ، وخاتمة المطاف عندهم: الوصول إلى الأنسنة لا

الإلهية، والعقل لا الوحي، والدنيا فقط لا الآخرة. هذا هو

المشروع باختصار، وعلى أهل الإسلام أن يأخذوا حذرهم.

المقدم: لكنهم يقولون: أنتم تقولون: نحن نُسيِّل كل شيء، ونُبيِّع كل شيء، لكن في المقابل: مَنْ يلتزم بمنهج السلف، والأئمة المذكور في كتب التراث القديمة، سيأدي إلى سُلوِك الغلاة، ومسالك التطرّف ونحو ذلك، فلا بد من التجديد، ولا بد من ابتكار أصول جديدة للفهم، فكيف تُردّ؟

الشيخ: أولاً ينبغي أن نتفق على أن الخطأ في فهم الأدلة واقع؛ لأن البشر يُصيبون ويخطؤون، لكن ليس خطأهم عائداً على الشريعة، ولا تتحمل الشريعة مسؤوليته، إنما الخطأ في المنهج الذي ساروا عليه -أعني: سار على هؤلاء المتطرفة الغلاة- كما هو الخطأ الذي سار عليه الحداثيون، لكن ليس من الصواب أن نعالج الخطأ بخطأ أكبر، ليس من الصواب أن نبني قصرًا بحدْمِ مصر، هل إذا أخطأ أحدٌ في تطبيق نظام سَلِيم، نظام من الأنظمة المرعية في حياة الناس، والتي تحقق مصالحهم؟ أقول: إذا أخطأ أحدٌ في التطبيق أو تعسّس في استعمال الحق، هل الصواب أن نُقفي النظام النافع، وأن نُلغيه، وأن نُشَرِّع الغارة عليه، أم أن نُبيِّن خطأ مَنْ أخطأ، ونُحاجِّه ونحاسبه؟ أظن أن كل عاقل سيدرك ما هو الصواب.

إدًا: إذا أَفَحَمَت جماعة غالية؛ كداعش مثلاً، أَفَحَمَت فهمها الخاطي للشريعة بتصرفاتها، وزَعَمَت أن هذا هو مدلول أدلة الشريعة، فلا يكون العلاج أن نُلغي ضوابط الشريعة لأجل غُلُوهم، وإنما أن نردّ عليهم بالعلم الصحيح الذي لم

يُوفُوا بموجبه، وما أحسن ما قاله مالك رحمته الله: «إن قومًا ابتَغُوا العبادة وأضاعوا العلم، فخرجوا على أمة محمد صلوات الله عليه بأسيا فهم، ولو ابتَغُوا العلم لَحَجَرَهُم عن ذلك» (١).

إِذَا؛ سبب انحراف هؤلاء هو: بُعْدُهُم عن المناهج الصحيحة في الفهم والاستنباط، وليس في التزامها، مالك يقول: «ولو ابتَغُوا العلم» يعني: العلم الصحيح، «لَحَجَرَهُم عن ذلك».

ولذا أهل العلم الصحيح، المتمسكون بالمناهج الصحيحة في الفهم والاستنباط؛ هُم أَكْثَرُ وأحرص الناس على الرَّد على هؤلاء الغلاة، وهم أقدر على ذلك.

ثم لاحظ معي مسألة مهمة؛ أنا أقول: الحقيقة أن هؤلاء الحداثيين قد خدموا الغلاة أعظم خدمة، وحُقَّ لأولئك أن يشكروهم؛ وذلك أَنَّ الحداثيين لَمَّا فتحو الباب على مصراعَيْهِ ليفهم الأدلة مَنْ شاء بما شاء، حين يكون فُهْمُ الأدلة وفق منظور النسبية -نسبية الحقيقة- حين تكون الأدلة هُلامِيَّة سَيَّالَة، والعبرة بمرادك منها لا بمراد المتكلم بها، إِذَا حينها سيقول الغلاة: نحن دخلنا من الباب الذي أشرعْتُمُوهُ، أليس كذلك؟ سيقولون: هذا فُهْمنا للأدلة، والمرءُ حُرٌّ في أن يفهم من الأدلة ما يَحُلُّو له كما تقولون أنتم!

(١) "مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة" ١: ١١٩.

أرئيتَ جناية هؤلاء على أديان الناس وعلى دينهم، وكيف أنهم خدموا كل ضال عن الصراط المستقيم. الله المستعان.

المقدم: كيف نفهم أدلة الكتاب والسنة فهمًا صحيحًا؟

الشيخ: بارك الله فيكم، وأيضًا الموضوع أو الكلام فيها كبير، لكني سأخصّه - حفظك الله - من خلال تقسيمه إلى شطرين، في كل شطر أصول وقواعد:

١. الشطر الأول: القواعد الأساسية.

٢. الشطر الثاني: أصول الفهم.

أمّا الشطر الأول فهو: القواعد الأساسية، وإن شئت فقل: **المقدمات** المُمَهِّدات لفهم النص، والتي لا يُمكن أن نفهم النصّ الشرعي إلا بعد استحضارها واستصحابها، وتتلخص في عشر قواعد:

● **القاعدة الأولى:** الوحي هو المرجع المُتَحَاكَم إليه، **المقدم** على غيره، ولا هداية إلا به.

الكتاب والسنة هما مصدر التلقي، هما مرجع المسلم في كل صغير وكبير، هما المحكَّمان، وإليهما رَدّ التنازع؛ ﴿وَمَا أَخْلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠] والخير والبركة والهداية لا سبيل إليها البتّة إلا من طريق الوحي؛ قال تعالى عن نبيه ﷺ: ﴿وَإِنْ أَهْتَدَيْتُ فَمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّي﴾ [سبا: ٥٠].

وسبب هذا التقدّم والقدسية والمرجعية ترجع إلى ثلاثة أمور:

أولاً: أن القرآن كلام الله، والسنة وحي من الله غير مثلول.

إذا استفاد الوحي قدسيته وعظمته من هذه الجهة.

ثانياً: إحكام الوحي وعصمته، وسلامته من كل نقص وخلل؛ ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ

فِيهِ﴾ [البقرة: ٢] قال تعالى: ﴿الرَّكَنُ أَهْكَمَتْ أَيْنَهُ، ثُمَّ فَضِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

ثالثاً: أنه لا سبيل إلى الهداية إلا به كما تقدم.

● القاعدة الثانية: الكتاب والسنة صنوان لا يتعارضان ولا يفترقان،

ولا غنى لأحدهما عن الآخر، وهذا ما تقدّم الحديث عنه في حلقات ماضية تفصيلاً.

● القاعدة الثالثة: الدين كامل، فلا حاجة إلى تكميله وترقيعه؛

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ﴾ قال ﷺ: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ﴾

[الأَنْعَام: ٣٨] قال سبحانه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِكُلِّ

شَيْءٍ وَهَدَى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

● القاعدة الرابعة: ظواهر الأدلة مرادة للمتكلم بها مفهومة لدى

المخاطب، هذه قاعدة في غاية الأهمية.

ظواهر الأدلة مُراد للمتكلم بها، مفهومة لدى المخاطب، مقصود الخطاب، ولأجله يتكلم المتكلم هو: أنه يتكلم بكلام يريد معنا، ويفهمه المتلقي له، إن لم يكن كذلك فسيكون أُلغازًا وأحاجي، أو كلامًا هُلاميًّا سَيِّلاً، لا ينتفع به ولا حاجة إليه، وليس هذا شأن الوحي، الله ﷻ وصف القرآن بقوله: ﴿بَيِّنَاتٍ لِّلنَّاسِ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]، الله ﷻ يقول في وصف القرآن: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَضَعُوا أَسْفَافَهُمْ﴾ [النحل: ٤٤]، الله ﷻ يقول: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدْكِرٍ﴾ [القمر: ١٧]، القرآن جاء وصفه بأنه: بيان، وتبيين ومُبين، إذاً لا يمكن أن يكون الله ﷻ قد أنزل كلامًا لا معنى له، ولا يمكن أن تعلّم الأمة في مجموعها معناه، الله ﷻ له حُكم مراد يمكن الوصول إليه، ويُصيبيه مَنْ يصيبه، ويخطئه مَنْ يخطئه وإلا فما فائدة الأمر باتباعه: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٣]، إذا كان الأمر كما يقول الحداثيون: النصوص هُلاميَّة، وكل أحد يفهم ما يريد، إذاً كيف سنحكم بالقرآن؟ ﴿وَأَن أَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩]، كيف سيكون هناك مؤاخذه؟ الله ﷻ يقول: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، ما فائدة

النهي عن القول على الله ﷻ بلا علم، لو كان لكل أحد أن يتكلم في النصوص ويفهمها بما يشاء؟!

● القاعدة الخامسة: لا تعارض بين صحيح المنقول وصحيح المعقول،

وهذا أيضاً ما طال الحديث في بابه في حلقات ماضية.

● القاعدة السادسة: أدلة الوحي محفوظة، وهي باقية على هذا

الوصف أعني: الحفظ، مُنْذُ فجر عهد النبوة وإلى يومنا الناس

هذا، الوحي محفوظ في الصدور، محفوظ في الأوراق، محروس

مُصان، فلا ينبغي الشك، أو أن تتزعزع الثقة في ذلك، القرآن

محفوظ من التغيير والزيادة والنقصان، لا يمكن لأحد أن يزيد فيه

حرفاً أو يُنقص، السنة محفوظة بما قَيَّضَ الله لها من جهود الحفظ

والحراسة، فلا يكذب أحدٌ عليها أو يخطئ إلا وَيَبَيَّنَ هذا لأهل

العلم، وهذه أيضاً قضية قد سبق التفصيل فيها في حلقة ماضية.

● القاعدة السابعة: لا تعارض بين أدلة الشريعة ومقاصد الشريعة،

وهذه نقطة أودُّ أن أقف عندها بعض الوقت:

لا شك أن للشريعة الإسلامية مقاصد عظمى، وكلّيات كبرى، ولكن قد

يُوظف هذا الموضوع عند بعض الناس توظيفاً خاطئاً؛ وذلك ما قد سرى في

أطروحات بعض النُخب المثقفة ذات التوجهات الحداثيّة والعقلانيّة والعصرانيّة، حيث لا يفتّون، ينادون بضرورة التمسك بمقاصد الشريعة، وكليات الشريعة، وروح الشريعة، لكن تحت الكلام ما تحته، ووراء الأكمة ما وراءها، الغاية هي التحرر من الالتزام بمدلولات الأدلة أمرًا أو نهيًا، صاحب هذا الكلام يفرض تعارضًا موهومًا بين هذه المقاصد الكبرى وأحكام الأدلة التي يعتبرونها فرعية، وعليه فلتعتبر المقاصد ولتسقط تلك الأحكام.

بمعنى: بعضهم يأتي إلى مفهوم مُستجلب من ثقافة أجنبية على الشريعة، أو مفهوم ناتج عن ضبط الواقع الذي يعيشه، ثم يُلبّسه لباس المقاصد، ويضرب به دلالات النصوص، واعتبر هذا في مصطلح العدل، الحرية، المساواة، يأتي أحدهم مثلاً إلى حديث في البخاري^(١) وهو قوله ﷺ: «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ» يقول: هذا حديث يتعارض مع روح الشريعة، وإحدى كُليّاتها وهي الحرية؛ إذًا لنُبطل هذا الحكم في مقابل الحفظ أو حفظ المقصد الكلّي.

أو يأتي إلى آية أخرى يقول: الله ﷻ يقول: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ﴾ فيقول: من مقاصد الشريعة: حفظ أموال الناس وتنميتها، إذًا فليُعطل مدلول الآية حفاظًا على مقاصد الشريعة.

(١) رواه البخاري برقم (٣٠١٧).

وهؤلاء في الحقيقة يجعلون اتباع الأدلة مُجَرَّد وسيلة، لا غاية يُسعى إليها، الغاية في زعمهم: تحقيق المقاصد التي يَرُومُون، بهذه الوسيلة أو غيرها، أمَّا الحق في هذا الموضوع فيرجع إلى الأصول التالية:

١. أولاً: لا تعارض بين أصول الشريعة وفروعها، لا تعارض بين المقاصد الشرعية وبين أدلتها، المقاصد الشرعية خلاصة أدلة الشريعة وليست قسيمةً أو نِدًّا لها، وأتَى يكون هذا، والمقاصد الشرعية ما هي إلا خُلاصة نظر شامل، واستقراء تام للأحكام الشرعية التفصيلية، أوَصَلَتْ إلى إدراك القواعد الكلية، وعليه فلا يمكن أن يُعَارِض البناءُ أساسه، إنما الواقع هو أن التعارض حاصل بين الأدلة الشرعية وأهواء حُكِمَتْ في الشريعة وأُلْبِسَتْ لباس مقاصدها أو رُوحها بإسقاط ما يُعَارِضها من الأحكام.

٢. ثانيًا: أعظم غاية ومقصد للإنسان يسعى إليه: هو بلوغ الهداية إلى الصراط المستقيم، ولا سبيل إلى هذا إلا بالاتباع التام والتفصيل والصدق للنبي ﷺ؛ ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ

تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

● القاعدة الثامنة: القول على الله بغير علم خطر عظيم؛ الله ﷻ

يقول: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا

حَرَامٌ لِّنْفَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا

يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَّعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ [النحل: ١١٦-١١٧].

إذًا: يا أيها المسلم، قبل أن تخوض في تفسير القرآن أو شرح الأحاديث، تذكر هذا المعنى جيدًا: اعلم أن الوحي ليس شيئًا هينًا، بل هو شيء عظيم، يجب فيه الاحتراس والاحتياط، لا يتكلم الإنسان فيه إلا بعلم، تكلم بما تشاء من اقتصاد من رياضة من اجتماع من غير ذلك، قل برأيك ولو أخطأت فالخطب يسير، أما أدلة الشريعة فشيء آخر، قف وتريث واحذر.

● القاعدة التاسعة: الشريعة صالحة لكل زمان ومكان، ومن بلغته

أدلة الوحي فهو ملزم باتباعها إلى آخر يوم في هذا الدنيا،

فالرسالة عامة للثقلين: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾،

حتى عيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وهو النبي والرسول الكريم، إذا نزل

في آخر الزمان فإنه سيحكم بهذا الوحي الموحى.

إذًا: من أنزل هذا الوحي -وهو الله ﷻ- عليم بما كان وبما سيكون، فلا

عُدول عن هذا الوحي، وليس لأحد أن يُقدِّم عليه غيره ولا أن يحصل حاكميته في

زمن معين أو مكان معين، إذا دَعَوَى تاريخية الأدلة، وأنها جاءت لمعالجة أوضاع اجتماعية في التاريخ الماضي يعني: في وقت نزول الوحي، وأن صلاحيتها انتهت بمُضَي ذلك الزمان؛ أقول: هذه دَعَوَى كُفْرِيَّة، دَعَوَى ضالَّة، مُكَذِّبَة للقرآن والسنة، ومخالفة للمعلوم من الدين بالضرورة.

● النقطة العاشرة والأخيرة: الأخذ بصحيح الوحي ثمرة الإيمان بالله

ربنا سبحانه، ونبوة نبينا ﷺ، فالمقام إذا مقام عظيم، فإمّا تعظيم الوحي والتزامه باعتقاد حاكميته وإلا فإنه لا إيمان، البحث في فهم الأدلة وتحكيمها يجب أن يُنظر إليه على هذا الأساس؛ إمّا إيمان مع التزام الوحي، وإمّا أنه لا إيمان؛ ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

المقدم: إن كان هناك من إحالة حول موضوع اليوم؟

الشيخ: أتمنى من طالب الفائدة، ومُحب الاستزادة: أن يأخذ بُذرة عن موضوع أصول الفقه، وأرشد له كتاباً صغيراً لطيفاً نافعاً لفضيلة الشيخ: محمد بن عثيمين رحمه الله، اسمه «الأصول من علم الأصول»، أتمنى أن تقرأه، فتأخذ تصوراً حسناً عن هذا الموضوع.



الحلقة الرابعة والثلاثون

كيف نفهم أدلة الشريعة؟ (٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الشيخ: الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه واتباعه بإحسان، أما بعد:

السبب - يا رعاكم الله - كما تمّ بيانه في الحلقة الماضية: أن فهم هذه الضوابط والأصول عاصم بتوفيق الله ﷻ من الخطأ في فهم كلام الله وكلام رسوله ﷺ، والمقام هاهنا مقام عظيم، أنت إذا فهمت الوحي فهماً خاطئاً، ربما ترتب على هذا أن تقول على الله بغير علم، بل أن تكذب على الله ﷻ، والله ﷻ قد بين أن هذا إثم عظيم، فعلى المسلم أن يتنبّه، إذاً لا بد أن يسلك المسلك الصحيح لفهم الكتاب والسنة، وسبب ذلك: الرجوع إلى الأصول المعتمدة في ذلك.

المقدم: إذاً الأصول الحاكمة لفهم الكتاب والسنة هو موضوع الذي توقفنا عند الحديث عنه في الحلقة الماضية، ووعدت بيانه في هذه الحلقة فتفضل بالحديث شيخ صالح؟

الشيخ: الحق أن الأصول والضوابط الحاكمة لفهم الكتاب والسنة كثيرة، ولا يمكن استيعابها في وقت قصير، لكني سأقتصر بعون الله ﷻ على أربعة أصول كبار، من أهم تلك الأصول:

١. الأصل الأول: لا تُفهم الأدلة إلا وفق القواعد الأصولية.

أصول الفقه هي القواعد المؤسسة لفهم أدلة الكتاب والسنة، والقوانين الضابطة لمنهجية الاستنباط منها، ومعرفة الراجح والمرجوح، أصول الفقه علم شرعي جليل، يؤصل المعالم العلمية الحارسة لتغور الشريعة، بحيث لا يُخاض فيها إلا بعلم، ومؤلفات هذا العلم كثيرة، ومباحثه مشهورة، تدور في الجملة على أربعة مباحث: الأدلة، والأحكام التكليفية والوضعية، ودلالات الألفاظ، ومبحث الاجتهاد والتقليد، والإفتاء.

المقصود: أنه لا يمكن فهم الشريعة فهماً صحيحاً إلا من خلال أصول الفقه وقواعد الاستنباط، وهي متقرّرة معلومة عند الصحابة رضي الله عنهم والتابعين وأتباعهم، حتى جاء الإمام الشافعي رحمه الله فجمع معاقدها وضمّها في كتابه العظيم: «الرسالة»، ثم توارد العلماء من بعد على الأخذ بها، والتصنيف فيها، والاستدلال عليها، وشرحها.

ومن أمثلتها: قاعدة (الأصل أن الأمر يقتضي الوجوب، والنهي يقتضي التحريم، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ويُحمل العام على الخاص، والمطلق على المقيد، والحقيقة الشرعية مُقدّمة على الحقيقة العرفية) إلى آخر ما هنالك.

٢. الأصل الثاني: فهم السلف الصالح معيار الفهم الصحيح لأدلة

الشرع، اتباع سبيل السلف في هذه الأمة الصالح أصل أصيل

عندنا معشر أهل الإسلام، فنحن نتكلم بما تكلم به السلف، ونسكت عما سكتوا عنه، ونفهم النصوص بفهمهم، والسلف الصالح هم الذي حازوا الخيرية بنصّ الحديث المتفق عليه^(١):
«خَيْرُ النَّاسِ: قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»؛ فهم أصحاب النبي ﷺ، وتابعوهم، وأتباع التابعين، هؤلاء هم العُرّة من هذه الأمة، ومَنْ مُدِّحَ سلوك سبيلهم؛ **﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾**
الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وقال النبي ﷺ: **«فعلیکم بسُنَّتي وسُنَّة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسکوا بها، وعَضُّوا علیها بالنواجذ»**^(٢).

وجاء التحذير من سلوك غير سبيل أهل الإيمان، والسلف أُولَى الناس بوصف الإيمان؛ **﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُنِنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى﴾** [النساء: ١١٥].

(١) رواه البخاري برقم (٣٦٥١)، ومسلم برقم (٢٥٣٣).

(٢) رواه أحمد برقم (١٧١٤٢)، وأبو داود (٤٦٠٧)، وابن ماجه (٤٤)، والترمذي (٢٨٧١).

كما حثنا ربنا سبحانه على اتباع سبيل المؤمنين إليه؛ فقال ﷺ: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ وأولى الناس بهذا والوصف بعد الأنبياء: السلف الصالح.

كما أمر سبحانه أن نكون مع الصادقين؛ فقال: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩] قال الضَّحَّاكُ: ﷺ في تفسير الآية: «مع أبي بكر وعمر وأصحابهما».

المقصود: أن فهم السلف للأدلة مقياس لمعرفة الصواب والخطأ، فما وافقه صواب، وما خالفه خطأ، لم؟ لأنهم أعلم من غيرهم بالكتاب والسنة، وأعلم من غيرهم بلغة العرب، وهم أعظم الناس تقوى وصلاحاً، ولا يمكن أن يكون الحق غائباً عنهم وقد فاز به من بعدهم.

وما أحسن ما قال ابن كثير ﷺ عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحاف: ١١] قال ﷺ هنا: «وأما أهل السنة والجماعة فيقولون في كل فعل وقول لم يثبت عن الصحابة: هو بدعة؛ لأنه لو كان خيراً لسبقونا إليه؛ لأنهم لم يتركوا خصلة من خصال الخير إلا وقد بادروا إليها»، انتهى كلامه ﷺ.

ويتأسس على ما سبق: أنه ليس لأحد أن يخترع في الأدلة معاني لم يعرفها السلف، وعليه فلو جاء أحد مثلاً إلى قبر النبي ﷺ اليوم وسأله الشفاعة، مستدلاً

بِالْآيَةِ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤] لقلنا: هذا الاستدلال باطل؛ لأنَّ الصحابة والتابعين وأتباعهم ما فهموا من الآية المَجيء إلى قبره ﷺ بعد وفاته، وإنما المجيء إليه في حياته.

٣. الأصل الثالث: لا تُفهم أدلة الشريعة إلا في ضوء لغة العرب.

بمعنى: فقه الشريعة مرهون بفقه اللغة، وفقه اللغة يراعي - كما هو معلوم - الألفاظ والسياق. الله ﷻ إنما أنزل كتابه بلسان عربي مبين، قال سبحانه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]، وقال سبحانه: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ، قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣].

إِذَا: لا يُعقل الوحي ولا يُعلم إلا من طريق لغة العرب، ولذا قال التابعي الجليل مجاهد رحمه الله: «لا يَحِلُّ لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالماً بلغات العرب».

وعليه فلا يأتي أحد مثلاً إلى قوله تعالى: ﴿فَأَنكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ

وَرَبْعَ﴾ [النساء: ٣] فيفهم منه: جواز أن يجمع الرجل بين تسع نسوة؛ هذا فهم خاطئ، لم؟ لأنه ليس من مسالك العرب في لغتها: الإخبار عن العدد تسعة بهذا الأسلوب.

المقصود: أن مَنْ أراد أن يفهم القرآن والسنة فليعلم أنهما من طريق اللغة العربية يُفهمان؛ من خلال معرفة طرائقها، واستعمال الألفاظ والتراكيب، والوقوف على دلالات الألفاظ في زمن الوحي، وهذا ما يقطع الطريق على الحداثيين الذين جعلوا الوحي قرآنًا وسُنة مفتوحاً على مصراعيه لكل معنى، دُونَ القطع بأيّ معنى، قابلاً للتأويلات، وتوليد المعاني المُحدثة، حتى قال أحدهم، بلْ هو من أساطينهم: «إِنَّ القراءة التي أحلُم بها» يريد قراءة القرآن، «إِنَّ القراءة التي أحلُم بها، هي قراءة حرة إلى درجة التشرّد والتسكّع في كل الاتجاهات»، ويا ليتَه جعل تسكُّعَه وتشرّده بعيداً عن كلام الله العظيم.

لقد أبان كلامُه عن أَنَّ القوم أهل عبث، لا أهل بحث عن الحقيقة، وليت شعري هل سيقبل أن أسقط مسلكه هذا على كلامه هو، هل سيقبل أن أعبث بكلامه، وأحمّله على أيّ معناً أشتيهه، حتى ولو كان عكس ما تدل عليه ألفاظه؟ أيّ عبث هذا؟

٤. الأصل الرابع والأخير: لا تُفهم الأدلة إلا بضَمّ بعضها إلى بعض،

واعتبارها كنص واحد.

بمعنى: لا نأخذ بطرف من الأدلة منها، ونُهمّل الباقي، إنما نأخذ بجميع

النصوص، ونؤلف بينها، فإنه لا تعارض بينها، فمصدرها واحد: ﴿يَأْتِيهَا

الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً ﴿٢٠٨﴾ [البقرة: ٢٠٨] أي: ادخلوا في جميع الإسلام، لا في بعضه دون بعض.

وعليه فلو قال قائل مثلاً: قد ثبت في «صحيح البخاري»^(١)؛ أن النبي ﷺ قال: «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَكُمْ عِيَانًا» سترون ربكم يعني: في الآخرة.

ثم يقول القائل: لكن في القرآن ما ينفي هذا، وهو قوله تعالى: ﴿لَا تَذَرِكُ إِلَّا بَصَرُكَ﴾ [الأنعام: ١٠٣] وإذا تعارض الدليلان القرآن والسنة قدمنا القرآن؟

الجواب أن يُقال: هذا الكلام خطأ، فالحقيقة أنه لا تعارض؛ لأن الإثبات ورد بشيء، والنهي ورد بشيء آخر، فالإثبات للرؤية، والنفي للإدراك، والجمع بين الدليلين يقتضي أن يُقال: الله تعالى يُرى بلا إدراك، والإدراك هو الإحاطة، وأنت ترى البحر ولا تُحيط به رؤية لسعته، والله تعالى أكبر وأعظم.

المقدم: إذا نذكر بها مرة أخرى سرّاً هذه الأصول الأربعة التي تحدثتم عنها الحاكمة لفهم الكتاب والسنة.

الشيخ: أولاً: لا تُفهم الأدلة إلى وفق القواعد الأصولية.
وثانياً: فهم السلف الصالح معيار الفهم الصحيح لأدلة الشرع.

وثالثًا: لا تُفهم أدلة الشريعة إلا في ضوء لغة العرب.

ورابعًا وأخيرًا: لا تفهم الأدلة إلا بضَم بعضها إلى بعض، واعتبارها كنَص واحد.

المقدم: لو نأخذ بعض الأمثلة والنماذج لما أُخطئ في فهمه من الأدلة بسبب إهمال هذه الأصول التي ذكرتموها قبل الفاصل، فإذا كان يحضركم شيء من الأمثلة؟
الشيخ: نعم، وهذا من الأهمية بمكان.

من الأمثلة وهو المثال الأول -حفظكم الله-: أن مفهومًا عظم خطؤه في هذا الزمن المتأخر، صار شائعاً في الناس وفي كثير من الناس -مع الأسف- الشديد ألا وهو: نسبة حرية باطلة إلى الإسلام، حيث يزعم بعضهم أنَّ الإسلام يُبيح لك التنقل بين الأديان كما يحلو لك، التزم بما تشاء، واترك ما تشاء، ولا ملامة عليك، وتشبَّثوا في هذا ببعض ما حرّفوه من أدلة الشرع، وأشهر ذلك ثلاث آيات:
١. الأولى: قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

٢. الثانية: قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

٣. والثالثة: قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦].

قبل أن أجيب -حفظك الله-؛ أدعوك إلى أن تتأمل في حال كثير من هؤلاء، فإنك ستجد أن مشكلتهم أنهم مُنهزمون نفسياً، ولذا فهم يحاكمون الإسلام إلى

الفكر الغربي، ويطالبونه أن يذوب فيه، وألا تكون للمسلمين هويّة، وأن تختفي معالمه ومميزاته، يُريدونه مرآة عاكسة لغيره فحسب، لقد أخطأ هؤلاء خطأ كبيراً، الإسلام هو الدين الحق المُنزّل من عند الله، هو المُستعلي على غيره، له مقاصده وحكمه وأحكامه، وليس مُطالباً بموافقة غيره من الأديان أو أوضاع المجتمعات، ومن آمن بأحكامه كلها فإنه سيستعد في الدنيا والآخرة، ومن كفر به فلن يضر إلا نفسه، ولن يضر الإسلام شيئاً؛ ﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَدِّعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنِ يَصُرُوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِزْبًا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٦].

مهما يكن من شيء، فإن أدلة الشريعة كلها، وإجماع المسلمين قاطبة، قد قام على أن الدين الحق الذي لا يقبل الله من أحد سواه بعد البعثة النبوية، هو دين الإسلام الذي بُعث به نبينا محمد ﷺ، ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وليس للمرء الخيار في الدخول فيه، أو الإعراض عنه، أو الخروج منه، بل هو مُلزم بالتزامه، ومُتوعّد بالخلود في النار إن أعرض عنه؛ ﴿وَمَنْ لَّمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ [الفتح: ١٣].

أَمَّا عَنْ اسْتِدْلَالِهِمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] أقول: هذه الآية ليست للتخيير بين الإيمان والكفر، إنما هي للتهديد والتخويف، وهذا أسلوب عربي معلوم، والدليل على أنها للتهديد: قوله سبحانه عَقِيبَهَا: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩] إِذَا هِيَ تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ لِمَنْ اخْتَارَ الْكُفْرَ بَعْدَ أَنْ جَاءَهُ النَّذِيرُ، كَمَا أَنَّ فِيهَا إِظْهَارَ غِنَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ، أَيْ: هَذَا الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ، فَإِنْ آمَنْتُمْ فَإِنكُمْ لَنْ تَنْفَعُوا اللَّهَ بِإِيْمَانِكُمْ، وَإِنْ كَفَرْتُمْ فَلَنْ تَضُرُّوهُ بِكُفْرِكُمْ، وَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ شَيْءٍ فَلَيْسَ فِي الْآيَةِ لَهُمْ مُسْتَمْسَكٌ فِيمَا يُقَرَّرُونَ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

أَمَّا عَنْ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦] وما أكثر ما يُحَرَّفُ معنى هذه الآية مع الأسف الشديد، هذه الآية «لَا» فيها إمَّا أَنْ تَكُونَ لِلنَّفْيِ، أَوْ تَكُونَ لِلنَّهْيِ، فَإِنْ كَانَتْ لِلنَّفْيِ فَالْآيَةُ إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ لَا قُدْرَةَ لَكُمْ عَلَى أَنْ تُكْرِهُوا أَحَدًا لِلدُّخُولِ فِي الدِّينِ؛ لِأَنَّ الدِّينَ النَّافِعَ أَاسَاسُهُ مَا فِي الْقَلْبِ مِنَ الْإِعْتِقَادِ، وَمَا فِي الْقَلْبِ لَا سَبِيلَ لِلْإِكْرَاهِ عَلَيْهِ، أَمَّا إِنْ كَانَتْ «لَا» هَاهُنَا لِلنَّهْيِ، فَالْمَعْنَى: أَنَّهُ لَا يُرْغَمُ أَحَدٌ عَلَى الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ مِمَّنْ تَتَوَخَّذُ مِنَ الْجَزْيَةِ إِذَا بَدَّلَهَا، مَعَ مِلَاحَظَةِ أَنَّ هَذَا لَا يَنْفَعُهُ عِنْدَ اللَّهِ ﷻ، فَإِنَّهُ إِنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ الْإِسْلَامِ فَهُوَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ، وَعَلَيْهِ لَعْنَةُ الْجَبَّارِ، وَعَلَى كُلِّ حَالٍ الْإِكْرَاهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ رَاجِعٌ

إلى قضية الدخول في الدين، وليس إلى الخروج منه، الخروج من الإسلام شأن آخر، ولم يقل أحد قطّ من أهل العلم إن هذه الآية تدل على أن للمرء الخيار بأن يترك الإسلام متى شاء، كلا والله، بل النص والإجماع على أن المرتد يُستتاب فإن تاب وإلا قُتل حدًا.

أمّا قول الله ﷻ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون:٦] فهذه الجملة -يا رعاكم الله- جملة براءة لا جملة إقرار، ولا قال أحد قطّ من أهل العلم هذا الكلام، هذه جملة براءة، لكم دينكم الضال المحرف، أبرأ إلى الله منه ولا أتبعه، ولي ديني الحق الذي أنزله الله ﷻ، إذّا هي جملة براءة لا جملة إقرار، هي في المعنى كقوله تعالى في سورة يونس: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بِرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس:٤١]، فسبحان الله العظيم! كيف يَعْمُونَ عن هذه المحكمات الواضحات، ثم يلبسون على الناس بآيات ما حملوها على وجهها، وصدق ﷻ «إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللَّهُ؛ فَاحْذَرُوهُمْ»^(١).

(١) رواه البخاري برقم (٤٥٤٧)، ومسلم برقم (٢٦٦٥).

المقدم: في مثال ثاني أيضاً على قضية الخطأ في فهم الكتاب والسنة نتيجة إهمال هذه الأصول؟

الشيخ: المثال الثاني - حفظكم الله -: حديث «ناقصات عقل ودين». وأظنك تتفق معي على: أنه ليس هناك حديث أسيء فهمه، وكثر اللغط حوله في هذا العصر كهذا الحديث، مع أنني أرى أنه بحمد الله واضح لا إشكال فيه عند من لزم التسليم للشرع، وحسن ظنه به.

قال أعداء الدين وبعض الجاهلين: هذا الحديث في انتقاص من المرأة، وهضم لمكانتها، وعلى إثر هذا طعن اللادينون في الإسلام، ونفى صحة الحديث أو تأوله على غير وجهه آخرون؛ إما لجهلهم، أو لوقوعهم تحت ضغط الانهزامية أمام الغرب، وعلى كل حال الحديث مخرج في «الصحيحين»^(١)، متفق على صحته، ونصّه كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ في أضحى أو فطر إلى المصلى، فمرّ على النساء فقال: «يا معشر النساء! تصدقن، فإني أريتكن أكثر أهل النار» فقلن: وبم يا رسول الله؟ قال: «تكثرن اللعن، وتكفرن العشير» ثم قال: «ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن».

(١) رواه البخاري برقم (٣٠٤)، ومسلم برقم (٧٩).

«قُلْنَ» يعني: سألن هنا، «وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله؟» قال: «أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل؟» قلن: بلى، قال: «فذلك من نقصان عقلها، أليس إذا حاضت لم تُصَلِّ ولم تَصُمْ؟» قلن: بلى، قال: «فذلك من نقصان دينها»، هذا هو الحديث.

وبيان الصواب في معناه، وإزالة ما يُستشكل، سيكون بعون الله في الأوجه العشرة الآتية:

- الوجه الأول: الحديث له سياق معين، فلا يجوز إخراجه عنه، ولا المزايدة عليه، فقد فُسِّرَ أوله بآخره، والمتعجلون أو المنحرفون طاروا بأوله، ولم يُمعِنُوا النظر في آخره، فيا هؤلاء ويا هؤلاء، الحديث قد فُسِّرَ نفسه بنفسه، معنى «نقصان عقلها»: أن شهادة المرأة على النصف من شهادة الرجل، كما أن نقصان دينها هو أنها تمكث أيام حيضها لا تصلي ولا تصوم، إذاً كما أن نقصان دينها لم يُرَدِّ به النقصان السلوكي بمعنى: فجورها، وضعف خشيتها لربها، فكذلك نقصان عقلها ليس النقصان السلوكي، إنما هو ضعف ضبطها وذاكرتها، وهو شيء جَبَلِّي، كما أن حيضها جَبَلِّي، إذاً الحديث يتحدث عن شيء خُلُقِي لا خُلُقِي، وليس فيه اتهام

المرأة بالبلادة أو سوء الفهم أو الغباء، وسمع التوضيح النبوي كما في رواية ابن عمر رضي الله عنهما في «صحيح مسلم»^(١)، قال ﷺ: «أَمَّا نقصان العقل: فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل، فهذا نقصان العقل، وتمكث الليالي ما تُصلي، وتفطر في رمضان، فهذا نقصان الدين».

إِذَا: هذا تفسير النقصان باللفظ الصريح الفصيح، فَمِنْ أين فهتمم الانتقاص؟! باختصار: العقل فيه شيآن: ذاكرة وذكاء، والحديث يُنبئ عن نقصان تعلق بالذاكرة وليس بالذكاء، هذا رقم واحد.

● الوجه الثاني: السياق يوضح أن الحديث بعيد عن الانتقاص كلَّ البعد، فالنبي ﷺ إن ما ذكر موضوع النقصان توطئة لتعجبه من قوة تأثير المرأة على الرجل وسلطانها عليه، مع ما هي عليه من ضعف الضبط وقلة التركيز، وما عليه هو من قوة وحزم، فأين الانتقاص؟

● الوجه الثالث: المعنى الذي دلَّ عليه الحديث لم تنفرد به السنة، بل هو مؤيد لما في القرآن، ألم يقل الله سبحانه في سورة البقرة:

(١) رواه مسلم برقم (٧٩).

﴿وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ
وَأَمْرَأَتَانِ مِمَّنْ رَضَوْنَ مِنَ الشَّهَادَةِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا﴾ (تَضِلَّ)
هنا بمعنى: تنسى، ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا
الْأُخْرَى﴾ [البقرة: ٢٨٢].

● الوجه الرابع: هذا الحديث قد تحدّث به ﷺ في جمع من النساء،
فاستشكلته، وسألن النبي ﷺ كما سمعت عن مراده، فقلن: وما
نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله؟ كأني بهنَّ يُقْلَن: هذا الكلام
غريب علينا، قد عهدنا الشرع يكرم المرأة ويقدرها، فما المراد
بهذا الكلام؟ فما كان منه ﷺ وهو الرؤوف الرحيم بأئمه إلا أن
بين المعنى بأوضح عبارة فيها الكفاية والشفاء.

والسؤال: ماذا كان موقف الصحابييات الكريمات بعد أن سمعنَّ التوضيح؟
هل اعترضنَّ، أو على الأقل راجعنَّه؟
الجواب: ما كان مُنْهَنَّ إلا التسليم والقبول، لم؟ لأنه كلام حق، وفيه إخبار
بواقع يعرفنه في أنفسهنَّ.

● الوجه الخامس: الحكم في هذا الحديث كما يكثر هذا في الشريعة
مبني على وصف أغلبي، فأغلب النساء هكذا، ثم هو كما تقدم

تعلق بوصف خلقي، ولا تُشم منه رائحة الطعن في النساء البتّة، أما الفطنة والذكاء فمواهب يهبها الله ﷻ لمن يشاء من الرجال أو النساء، وقد تفوق بعضهن كثيراً من الرجال، فإنك إذا نظرت إلى خديجة وعائشة وفاطمة وأم سلمة وأمثالهن ﷺ، رأيتهنّ بلا ريب أرجح حكمة وفطنة وذكاء من كثير من الرجال.

● الوجه السادس: لو قلت أنا: النساء في الجملة أضعف بنية وعضلات من الرجال، هل انتقصت النساء؟

الجواب: بالتأكيد لا.

كذلك الأمر لو قلت: الرجال أقدر من النساء على ضبط الشهادة، وعلى تحملها لا سيما في الشؤون المالية؛ لكثرة ممارسة الرجال لها، أنا أيضاً هاهنا لست منتقصاً للنساء، كما أنني لو قلت: النساء أرقّ وألطف من الرجال، لم أكن مُنتقصاً للرجال، لو قلت: إن دماغ الرجل أكبر، وإن تركيزه أشد، وإن إمكاناته البصرية أقوى، أمّا الإمكانات السمعية، أمّا الإمكانات السمعية لدى المرأة فهي أقوى، ومهارات التعاطف لديها أكبر، والشفقة والرحمة عندها أشدّ، أنا لست في أي كلمة قلّتها منتقصاً لها أو له.

العلاقة بين الرجل والمرأة ليست نديّة، وإنما تكاملية.

إذاً حقيقة الحال: أنها قُوى ومواهب قد أعطى كل فريق ما يناسبه ويليق به، فجمال المرأة في أنوثتها، وجمال الرجل في رجولته، وبهذا تستقيم الحياة، عقلٌ غالب عند الرجال، وعاطفة غالبية عند النساء، الرجل يسود المرأة بعقله وركادته، ونسوده هي بقلبها وعاطفتها، والحمد لله أن الأمر كذلك، وإلا فلو كانت المرأة مساوية للرجل في مستوى تفكيره وحسابه للعواقب في جُموده وحزمه، كيف بالله سيكون طعم الحياة؟ كيف سيكون حالنا لو كانت الأم والزوجة والابنة والأخت كالرجل لا تغلبها العاطفة!

● الوجه السابع: سبب تنصيف شهادة المرأة في الأمور المالية ونحوها: أنها أكثر غفلة ونسيان من الرجل، وأنها أقلّ اهتماماً بهذه الشؤون، وأيضاً لما يُمُرُّ بها ممّا له أثر في تركيزها ونفسيّتها، الحيض له أثر، الحمل له أثر، الرضاع له أثر، ولا يَنَازَع في هذا عاقل، ناهيك عن أمر رابع وهو: غلبة العاطفة، وسرعة الاستجابة الوجدانية الانفعالية، فكل هذا ممّا يؤثر على شهادتها تحملاً وأداءً، فحتاج إذاً أن تتقوى بأخرى، وحقوق الناس ينبغي الاحتياط فيها وحفظها من الضياع.

- الوجه الثامن: ينبغي أن يُلاحظ أن جعل شهادة امرأتين تعدل شهادة رجل واحد، ليس فيه انتقاص للمرأة؛ لأن الشهادة أصلاً ليست تشريفاً أو حقاً يُزاحم عليه، إنما هي تكليف ومشقة وعناء، فالتخفيف في الحقيقة عن المرأة فيها، وإقامة من يعاونها عليها من بنات جنسها، هو في الحقيقة مراعاة لها ورفق بها.
- الوجه التاسع: لو كانت الشريعة تنظر إلى المرأة على أنها مخلوق غبي لا يفهم، لوجدنا لهذا أثراً ظاهراً في الأحكام الشرعية، ولكن لا شيء لهذا، فالأصل أن المرأة كالرجل، والنساء شقائق الرجال، كما في الحديث الصحيح، فهي مثله في أصل التكليف في العبادات، في الأوامر، في النواهي، في التملك، في التصرفات المالية، وفي العقوبات الشرعية، وفي الجزاء الأخروي، اللهم إلا في مواضع معينة اقتضتها اعتبارات عادلة، وليس منها احتقار المرأة، أو النظرة الدونية لها كما يُرجف عُمي البصائر.
- الوجه العاشر والأخير: لو كانت الشريعة تميل إلى إهانة المرأة أو الحط من قدرها، لم تقبل شهادتها مطلقاً، لكن الواقع أنها جعلت شهادة امرأتين تقابل شهادة رجل في مواضع، بل قد

قَبِلَتْ شهادة المرأة الواحدة منفردة في مسائل شرعية كثيرة، تُعرف عند الفقهاء بالمسائل التي لا تطلع عليها إلا النساء؛ كالرضاع، والولادة، وعيوب النساء ونحوها، فقد اتفق الفقهاء في الجملة على قبول شهادة امرأة واحدة في هذه القضايا.

إِذَا الْخُلَاصَةُ: الموضوع بُرْمَتُهُ مراعات لخصائص الرجل وخصائص المرأة، وما يُحْسِنُهُ وما تُحْسِنُهُ مع اعتبار الفروق الفردية بينهما، وحفظ الحقوق، وتحقيق المصالح.

مِمَّا أَسِئَ فُهُمُهُ أَيْضاً: ضَرْبُ الزَّوْجَاتِ الْوَارِدِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِي تَخَافُونَ

نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ بِمَا وَهَبَ اللَّهُ لَكُمْ فِي الْكِتَابِ وَلَا تَجْرِدُوهُنَّ مِنْ أَمْوَالِهِنَّ وَلِلنِّسَاءِ أَكْثَرُ النَّصَبِ

وتوضيح الصواب من خلال الأوجه الآتية:

- أولاً: ينبغي حين البحث عن حكم الإسلام في قضية معينة: أن يُنظر في الأدلة كلها، وليس أن تُجتزئ دليلاً من بينها، فنُسلط الضوء عليه، ونُغفل غيره.

إِنَّا حِينئِذٍ لَنَفْهَمُهُ فُهُماً صَحِيحاً، حَتَّى نَفْهَمَ هَذِهِ الْقَضِيَّةَ بَلْ نَفْهَمَ قَبْلَ ذَلِكَ كَيْفَ وَجَّهَ الْإِسْلَامُ التَّعَامُلَ بَيْنَ الزَّوْجِ وَالزَّوْجَةِ، مَا هِيَ الْوَصَايَا الْكَثِيرَةُ الَّتِي جَاءَتْ حَائِثَةً عَلَى الْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ وَالْإِكْرَامِ لِلزَّوْجَةِ؟ إِذَا كَانَ هُنَاكَ نَصٌّ وَاحِدٌ فِي الضَّرْبِ، فَإِنْ مَقَابِلَهُ عَشْرَاتُ النُّصُوصِ فِي الْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ، وَلَيْسَ مِنَ الْعَدْلِ أَنْ

نُغفل تلك النصوص الكثيرة، ونقف عند نص واحد فقط، وإذا جمعنا بين النصوص كلها ونظرنا فيها معاً اتضحت القضية تماماً.

● ثانيًا: لابد أن نفهم جيدًا جواب هذا السؤال: كيف يرى

الإسلام العلاقة بين الزوج والزوجة؟

الجواب: أنه يراها علاقة سامية، يراها علاقة شراكة في الحياة بحيث يكونان كأتهم روح واحدة في جسدين، الزواج في ضوء الإسلام مؤسسة تقوم بأهم دور اجتماعي، وكلا طرفيها عليه مسؤولية؛ الزوج له القيادة والإدارة والإنفاق؛ والزوجة لها التربية، وتنظيم البيت، وإشاعة روح السعادة فيه، وحتى تقوم هذه المؤسسة بواجبها على أكمل وجه فلا بد من أن يكون الرباط بين الزوجين وثيقًا جدًا حبًا ومودة وتفاهمًا.

لكن قد يحصل ما يُكدر صفو هذه العلاقة، فما هو الحل؟

الإسلام وضع الحل للحالات الطارئة، إن كان الخلل من جهة الرجل فله حل، إن كان من جهة المرأة فلذلك حل، هذه الآية من سورة النساء تتعلق بالعلاج إذا كان الخلل حاصلاً من جهة المرأة، والعلاج بيد الرجل، العلاج هنا مرتب: ﴿فَعِظُوهُنَّ بِمَا وَهَبَ اللَّهُ فِي الْمُضَاجِعِ وَأَضْرِبُوهُنَّ﴾ نصيحة وتذكير إن صلح الحال فالحمد لله، وإلا انتقل إلى الحل الثاني: الهجران في المضجع، ما صلح

الحال، ننتقل إلى الحل الثالث وهو الضرب، وهأهنا وصلنا إلى مربط الفرس في الجواب، ألا وهو ضرب الزوج لزوجته.

● ثالثًا: هل الضرب هو العلاج الأول؟

الجواب كما سبق: لا، إنه آخر علاج، حين يُسقط في يد الزوج، حين تستعمل بقية العلاجات وتكون النتيجة سلبية، هُنا يأتي العلاج بالضرب، إذا هذه قضية أولى ينبغي أن لا تُغفلها، فالعلاج بالضرب آخر علاج.

● رابعًا: ما هو الضرب؟

حين يسمع المرء الضرب في هذه الآية فينبغي أن يعي أنه ليس ما قد يتبادر إلى ذهنه؛ ضَرْبٌ عَنيفٌ، تكسير عظام، إسالة دماء، تَعَدٍّ على الوجه والمناطق الحساسة في الجسد، كلا! لقد بَيَّنَّت السنة حدود هذا الضرب، إنه ضرب غير مُبْرِح أي: غير مؤثر.

بمعنى: أنه مجرد رسالة مفادها تأنيب النفس لا إيلاء الجسد، ولذا عطاء ﷺ يقول لابن عباس ﷺ: «ما الضرب غير المُبْرِح؟» فقال: «بالسواك ونحوه»، تخيل الضرب بهذا العود الصغير.

القرطبي ﷺ في تفسيره يقول: «كالكَزَّة ونحوها، فإن المقصود منه الصلاح لا غير» انتهى كلامه.

إذاً هو ضَرْبٌ محبٍ مشفق، وليس ضرب جبار مُنتَقِم، إنه كضرب الأب المُحِب لابنه حين يُقَصِّر، وهل في هذا عيب أو إشكال؟

● خامساً: ما هو السبب المقتضي للضرب؟

حين نفهم ما سبق فإننا سنفهم جيداً أن السبب المقتضي للضرب ليس أدنى مخالفة أو أقلّ تقصير، ليس الأمر كذلك قطعاً، إنه بالتأكيد قضية كبيرة تقتضي التدخل بعد أن تفشل بقية الحلول حين تُهدد أو حين يهدد كيان المؤسسة الاجتماعية الكبرى بالهدم، إذاً لا يملك قائد المؤسسة أن يراها تتهدم ولا يحرك ساكناً.

● سادساً: يجب أن نفهم أيضاً أن الشرع حين كَفَلَ للزوج حق التوجيه والتأديب لزوجته في حدود الضوابط السابقة، فإنه كَفَلَ للزوجة حق اختيار زوجها ابتداءً وحق فسخ عقد النكاح بضوابطه الشرعية إذا لم ترغب في الاستمرار فيه، فليست الزوجة مُرَغَمة في الاستمرار مع شخص لا تُطبق التعايش معه، ولها الحق شرعاً في أن تطلب الانفصال عنه وعليه، فمتى ما تعفف الزوج في استعمال الحق للزوجة أن ترفضه زوجاً لأنه لا يستحق أن يكون زوجاً.

- سابعاً وأخيراً: ينبغي أن لا ننسى أن الآية التي أذنت باستعمال العلاج بالضرب، هي نفسها التي هددت الأزواج وأنذرتهم بعدم البغي وتجاوز الحد، ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤] أي: فيأيكم والظلم.

المقدم: إن كان هناك وصية نختم بها هذه الحلقة؟

الشيخ: وصيتي: اجعل لك مصدرًا أصيلاً صافياً ترجع إليه لفهم ما يشكل وما لا يشكل من أدلة الشريعة، أوصيك بثلاثة كتب اجعلها بجوارك: «تفسير ابن كثير، تفسير ابن سعدي، شرح رياض الصالحين للشيخ ابن عثيمين».





الحلقة الخامسة والثلاثون

فلسفة الطاقة في الميزان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الشيخ: نحن في هذا الزمن أمام فتنة من جملة فتن كثيرة لكن هذه بالذات فتنة عظيمة تزينت أمام فئام من الناس ففتنوا بها، ظنوها ماءً عذباً يرويههم وما هي إلا سراب لا حقيقة له، لبست لباس العلم، وما هو إلا علم زائف، تسميات جذابة: تطوير الذات والقدرات، وتنمية بشرية، وما هي عند التحقيق إلا طقوس وثنية وبوابات عريضة لمرور الأفكار المسمومة، تلکم هي فلسفة الطاقة وعلومها وتطبيقاتها المختلفة، والعاقل لا يعجل برد ما لم يحط به علماً ويطلب البينة.

نحن بحاجة إلى تسليط الضوء على هذا الموضوع؛ نظراً لأن فيه التباساً لمن لم يدرك ما وراء العناوين البراقة لأن في رواج هذه الفلسفة رواج فكر عقدي وافد عن عقيدة الإسلام.

نحن بحاجة إلى طرح هذا الموضوع؛ لأن التوحيد رأس الأمر والقضية الأهم وحماية جنابه أعظم واجب، وفلسفة الطاقة تكدر صفوه، بل قد تعود على أصله بالنقض.

نحن بحاجة للكلام عن هذا الموضوع ليعلم الغافل أن العقيدة الوثنية لم تمت بل لها حضور بأقنعة جديدة وأن التوحيد متى غفل عن التذكير به وتكرار تعليمه نسي وحينها فما أسرع تسلل القوادح فيه وهذا الموضوع شاهد الصدق، وقبل أن أستفصل أقدم -إن أذنت لي- بأربع مقدمات مهمات ممهّدات:

١. المقدمة الأولى: العقل يقضي بأنه لا ينبغي رفض الجديد لأنه جديد، كما لا ينبغي قبوله لأنه جديد، لا ينبغي عند العقلاء التشنج أمام فكرة جديدة ورفضها ابتداءً، كما لا ينبغي أيضاً قبولها بدون سبب علمي صحيح، إذن القاعدة هنا رفض الجديد لأنه جديد اتباع للهوى، وقبول الجديد لأنه جديد أيضاً اتباع للهوى، والواجب قبول الحق لأنه حق، ورد الباطل لأنه باطل، بغض النظر عن ميولنا وأهوائنا قال سبحانه: ﴿يَتَأْتِيهَا

الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ

٢. المقدمة الثانية: ليس كل ما لبس لباس العلم يكون علماً صحيحاً، ينبغي التفريق بين العلوم الصحيحة والعلوم الزائفة، وعدم التفريق بينهما مشكلة كبيرة، والمرجع هم الموثقون من أهل التخصص، فالطب له أهله والفيزياء لها أهلها، والفقهاء الشرعي له أهله إنه حين تغيب الحدود بين الصحيح والزائف تطفو الخرافات والأكاذيب الخادعة.

٣. المقدمة الثالثة: تجربة الشيء مرة، أو مرتين ثم وجود أثر حسن

ليس دليلاً قاطعاً على صحته، فلربما وافق قدراً ولم يكن ما وجد سبباً قد يكون السبب المؤثر شيئاً آخر مغفولاً عنه.

إثبات الصحة بممارسة معينة له طرقة المعروفة وهو إما أن يعرف عن طريق خبر غيبي يخبر به الصادق المصدوق ﷺ وأما عن طريق التجربة الحسية المتكررة من ذوي الخبرة والنتائج الإيجابية لوسائل الإثبات العلمية المتبعة. أما جربت فانتفعت وجرب فلان فاستفاد ليس هذا برهاناً علمياً يبنى عليه.

٤. المقدمة الرابعة: حديثنا في هذه الحلقة إنما هو في فلسفة الطاقة

وفي تطبيقاتها وفروعها وإن اختلفت أسماؤها: من "دورات استشفائية"، إلى "العلاج بالطاقة"، إلى "الريكي"، إلى "قانون الجذب"، إلى "أطلق عقلك المارد"، إلى غير ذلك مما فيه تعلق بالطاقة ومفاهيمها.

أما الدورات التي لا تُمْتُّ إلى هذا بصلة فليست مقصودة: كدورات إدارة الوقت، أو التخطيط، أو الإلقاء، أو غير ذلك فهذه لا علاقة لنا بها في هذا المقام وقد نبهت إلى هذا دفعاً للالتباس.

المقدم: جزاكم الله خيرا شيخ صالح، ولعل أكثر الأشياء التي تزيد هذا الموضوع غموضا هو كثرة المصطلحات فيه لو نعرف بالفلسفة ما هي، الطاقة ما هي، ما هي أبرز المجالات المنشرة فيها؟

الشيخ: فلسفة الطاقة حفظك الله منظومة من العقائد والطقوس مستقاة من فلسفات وثنية باطنية شرقية عمادها اعتقاد الحلول ووحدية الوجود وتأليه الإنسان. تدعي السعي في تحقيق التوازن الطاقى للنفس، والوحدة مع الروح الكونية، أو المطلق ولها تطبيقات متعددة تتعلق بالاستشفاء وجلب السعادة وجلب الآمال وغيرها. ويندرج تحتها جملة من الممارسات والقوانين: كالريكي وقانون الجذب وفلسفة الشاكرات واليوغا والكارما وغيرها مما قد تتأتى الإشارة اليه.

وهذه الفلسفات كما أشرت شرقية المصدر: صينية، وهندية، ثم وجدت لها رواجاً في الغرب نتيجة المادية الطاغية والجفاف الروحي الذي يئنون تحت وطأته، فتهافتوا عليها لعلها تمطر صحراء قلوبهم القاحلة، ولربما لم تزدهم إلا تيهها، ثم تسلت هذه العلوم الزائفة إلى العالم الإسلامى، وأقبل عليها كثير من الشباب والفتيات، مع أننا مستغنون عنها ومكتفون بعقيدتنا وشريعتنا، لكن التلبس كثير، والتقليد والفضول يفعل فعله، والجديد - كما قيل - له لذته، فكيف وهو تحت

لافتات براءة كالتنمية البشرية، وتطوير الذات، وتحقيق السعادة، وحصول الشفاء، وجلب الثراء، ويصحبها شهادات ونيل لقب له رنته: مدرب معتمد.
ويمارس أرباب هذه الفلسفة نشرها بين الناس في الغالب عبر أربع وسائل:

١. عقد الدورات.
٢. وتأليف الكتب.
٣. وإقامة المحاضرات.
٤. وتقديم الاستشارات.

منهجهم قائمٌ على استعمال مصطلحات علمية في غير محلها، وعلى تزييف التجارب العلمية، والبناء على أدنى ملابسة كما أنهم يسلكون مسلك التدرج إذ لا يوضحون كل ما عندهم لأول وهلة، أو في المستويات الأولى من الدورات فما يذكرونه في البدايات في الغالب مقبول، إنما تتكشف الحقائق في المستويات العليا وحين الوثوق في المتعلم. وفي أخبار من تاب وأماط اللثام عما رأى وسمع عبرة وسيجدها من يبحث عنها منشورة في الشبكة.

المقدم: إذا لأنهم يستخدمون كلمات ومصطلحات علمية وليس لهم بالعلم صلة فلذلك قلم فلسفة الطاقة وليس علم الطاقة.

الشيخ: نعم، وإن سميت علم الطاقة فهو علم زائف على كل حال ونقوله على سبيل موافقة أهل الاصطلاح لكن مع الدليل.

المقدم: هنا نور في تويتر تقول: تأخذك هذه العلوم شيئاً فشيئاً نحو الإلحاد فليس للدعاء مكان، وليس للإيمان بالقدر مكان، فهي ترسخ فكرة أن لكل شخص قدرة على تحديد مسارات أقداره منعزلاً عن خالقه تعالى الله عما يقولون وربما هذا التخوف موجود عند الجميع عندما يأتي ذكر الطاقة بسبب كثرة الحملات التوعوية التي توعي الناس بزيغ هذه الممارسات فلو ندخل في المخالفات الشرعية في فلسفة الطاقة ونعرج على أبرزها:

الشيخ: نعم، ولا شك أن هذه الفقرة أهم فقرة في موضوعنا، وهي السبب الأهم في إقامة هذه الحلقة؛ إذ لولا وجود مخالفات في علوم الطاقة كما يزعمون وهذه المخالفات تمس عقيدة المسلم ما كان بنا حاجة إلى الكلام عنها، وننبه قبل بيانها إلى أمرين:

١. الأمر الأول: أن المخاطر العقدية التي سأذكر بعضها بعون الله

ﷻ ستكشف لك إذا بحثت في أصول هذه العلوم وخلفياتها

التي هي الديانات الشرقية، أو ما استقاه الغرب منها وكذا إذا

رجعت إلى ما يطرحه الغرب منها في دوراتهم ومؤلفاتهم

ومحاضراتهم فإنهم أكثر صراحة ووضوحاً، بخلاف من كان في بلاد المسلمين فإنهم قد يمارسون شيء من التقية ولا يصرحون ولا يصارحون الناس بكل ما فيها، وربما حَلَّوْا طرَحهم بشيء من ذكر الله، أو ربطوه بمفهوم شرعي بضرب من التكلف وهذا لا يقدم، أو يؤخر شيئاً؛ فالحقيقة الناصعة لا يمكن إخفاؤها خلف هذا الستار؛ فدين محمد ﷺ وهذه الشعورات العصرية ضدان لا يجتمعان.

٢. الأمر الثاني: أنا هنا في مقام التنبيه على أخطاء لتطبيقات موجودة، بغض النظر عن قصد من يمارسها، أو علمه بما فيها، فلربما كان منهم من هو مغتر، أو جاهل بالحقيقة.

أقول: -بعد هذا- المخالفات الشرعية في فلسفة الطاقة وتطبيقاتها كثيرة وخطيرة أسوق منها طرفاً بحسب الوقت المتاح.

١. المخالفة الأولى: تأليه الإنسان. من أعظم مخالفات فلسفة

الطاقة وما يرجع إليها: التأصيل لتأليه الإنسان نعم تأليه الإنسان إما بلفظ صريح، أو موارد، فالعقائد الوثنية التي انبثقت عنها هذه الفلسفة تقوم على أساس أن الإنسان فيه

شذرة من الألوهية، وعليه؛ فهو المتصرف في أقداره، والمتمكن من تشكيلها بحسب ما يريد.

وأنت إذا اطلعت على دوراتهم وكتبهم تجد تعظيمًا واضحًا للذات البشرية، إنهم يتحدثون عنها كما يتحدثون عن خالق الكون المتصرف بما فيه، فأنت الذي تسعد نفسك وتشقيها، أنت الذي يمنعها، أو يعطيها، أنت الذي ترسم قدرك بريشة وعيك؛ فقرة عزيمتك لا تقهر، وعقلك الباطن هو الذي يستجيب لك ويلبي حاجاتك، ولا تحتاج إلى أكثر من أن توقف العملاق الذي بداخلك.

● انظر، هذا أحدهم يقول: "أنت صاحب قدرة مطلقة، وحكمة ليس لها حدود، وذكاء لا نهائي، لديك إمكانيات الله وقوته على خلق عالمك". نعوذ بالله!

● وثاني يقول: "يجب أن نكتشف بأنفسنا أن في داخلنا إلهًا".
● وثالث يقول: "أنت! يا من تسعى للرب في الخارج هذا الذي تسعى إليه هو أنت".

● ورابع يقول: "نحن آلهة مُقَنَّعة".
● وخامس من أبناء المسلمين -مع الأسف- يقول: "أنت النظام الذي أوجد كل الواقع الموجود في الكون، أنت لست في حاجة لأي شيء،

بل أنت من يصنع الأشياء بمشيئتك الخاصة"، ثم يقول: "أنت كامل، ودورك أن تعطي من كمالك لكل الكون".

لو كان المجال يتسع لسقت أقوال عشرة وعشرين، ولا والله ما هذا كلام مغمورين، بل هو كلام أساطينهم.

إن قبيحًا بمخلوق ضعيف: أوله نطفة، وآخره جيفة، وفي جوفه البول والعدرة، أن يتبجح بهذا الكلام القبيح.

أما أهل الإسلام فإنهم يقولون: اللهم أنت ربنا ونحن عبيدك، ماضٍ فينا حكمك، وعدل فينا قضاؤك، لا نملك لأنفسنا نفعًا ولا ضرًا، ليس لنا من الأمر شيء ولا مثقال ذرة، كلنا جائعٌ إلا من أطعمته، وعارٍ إلا من كسوته، وضالٌّ إلا من هديته، ما شئت كان وإن لم نشأ، وما شئت إن لم تشأ لم يكن، ولا حول ولا قوة إلا بك.

٢. المخالفة الثانية: وهي شيء مرتبط بالأمر الأول، فهما أمران متداخلان، علوم الطاقة الزائفة ترشح منها عقيدة كفرية، ألا وهي الحلول، والاتحاد، ووحدة الوجود، أو يراوحون بينها، وفي ظلماتها يتخبطون، ومعناها: أن الله تعالى علوًّا كبيرًا يحل، أو شيء منه في مخلوقاته، أو يتحد

الخالق والمخلوق؛ فيكونان شيئاً واحداً، أو أن الله تعالى هو كل شيء في الوجود أصلاً، عز ربنا وجل، والحق الذي لا يمتري فيه المسلم أن الله تعالى عالٍ على خلقه، بائن منهم، ومن قال بخلاف هذا فقد كذب القرآن والسنة.

وهذه العقيدة التي أشرت إليها متجذرة في الديانات الشرقية: كالطاوية، والهندوسية، والبوذية، والكونفوشيوسية، التي هي أصول فلسفة الطاقة بلا ريب، فكلها متفقة - في الجملة - على الاعتقاد بوحدة الوجود، وأن في ذات الإنسان ألوهية، أو شرارة من الألوهية.

والطاقة بجميع تطبيقاتها وطرائق الاستشفاء بها - من الريكي والبراما، والتشي كونج، والتاي شي، والفونج شي، وغيرها - هي في زعمهم طاقة منبثقة عن الكلي الواحد الذي منه تكون الكون وإليه يعود، وله قوته وتأثيره، سواء سميت الطاقة، أو الطاقة الحيوية، أو طاقة الحياة، أو الطاقة الكونية، أو الطاقة الروحانية، أو سميت قوة الحياة، أو قوة الشفاء، أو سميت الوعي، أو الوجود الكلي، أو غيرها من التسميات، أقول: هذه الطاقة عندهم هي الإله، أو جزء من الإله تحل في المخلوقات، أو تتحد بها ويسعى ممارس هذه الخزعبلات إلى الاتصال بها لإنها في زعمهم هي التي تعطي وتمنع وتشفي وتقرض وتسعد وتشقي يمدون أيديهم إلى

أعلى؛ لأجل أن تدخل هذه الطاقة إليهم، أو يمارسون رياضة التنفس؛ لأجل أن تتدفق في مسارات الجسم، أو يجلسون جلسات التأمل مع غلق العينين وترداد كلمات معينه؛ لأجل الخروج من وعيهم والوصول إلى ما أسموه الإدراك الأسمى، أي: إلى الاتحاد مع الخالق، ويزعمون أنهم يمارسون هذه الطقوس سعيًا في استعادة التوازن الطاقّي في الجسم، أي: الانسياب مع الكون ومن ثم الاتحاد به؛ لتكون لدى الإنسان قوة تمكنه من منح الشفاء نفسه ولغيره، ويكون بها متحكمًا بكل ما يقع منه وله.

باختصار، الاتصال بالطاقة يعني: الاتحاد مع المطلق، ومن ثم العودة إلى المنشأ الإلهي، والترقي إلى ألوهية النفس؛ فالإنسان في زعمهم إله منسي؛ إذا انفصل عن حقيقته الإلهية، فإذا استعاد تلك الطاقة المفقودة؛ اقترب من حقيقته ومن ثم تحكم بالواقع.

٣. المخالفة الثالثة: الوقوع في الشرك الأكبر وهذا في حق من

اعتقد أنه هو، أو عقله الباطن، أو الطبيعة، أو الطاقة، يشاركون الله في الخلق، أو التدبير، وهذا كثير في تطبيقاتهم.

٤. المخالفة الرابعة: وصل الحال بدعاة العلاج بالطاقة وقانون

الجذب وما إليها حد تداول تائم عصرية لاستغلال الطاقة

الكونية: من أحجار كريمة، ورموز هندوسية، وبوذية تجلب السعادة والعافية والرزق في زعمهم؛ فثمة أحجار تجلب السعادة، مجسمات تجلب شريك الحياة، أقراص معدنية تجلب الغنى، أساور، فلائد، أقراط ترفع في زعمهم الطاقة الإيجابية وتطرد الطاقة السلبية عنك وعن حولك. والنبى ﷺ يقول

«إن الرقى والتمايم والتولة شرك»^(١).

٥. المخالفة الخامسة: من مساوى هذه العلوم الزائفة: أنها تضعف تعلق القلب بالله، والتوكل عليه، ومحبتة، ورجاءه، والخوف منه؛ لأن الإنسان تحت ظلال هذه العلوم الزائفة قد استغنى بنفسه عن ربه عيادا بالله، ولربما تحلل قلبه من حقائق العبودية شيئا فشيئا حتى لربما انسلخ منها بالكلية.

٦. المخالفة السادسة: إقصاء الإيمان بالقدر. وهذه نتيجة حتمية لهذه الفلسفة. إذا كنت أنت من يخلق قدره، ويتحكم في حياته، فما الحاجة إلى الإيمان بالقدر؟! هذا عدا انحرافات أخرى كثيرة تتعلق بالإيمان بالملائكة،

(١) رواه أحمد برقم (٣٦١٥).

بالغيب، باليوم الآخر، بالروح، باتخاذ الأسباب، إلى غيرها مما يستدعي التوسع فيها وقتًا طويلاً.

الخلاصة: أستطيع أن أختصر وصف هذه الفلسفة بقولي: إنها مجمع ضلالات، وشعوذة فارقة، بعبارة أخرى: هي شعوذة وثنية بقواعد عصرية، مطعمة بالحد الغربي، ليس لها رصيد علمي، إنما تبيع الوهم وتسرق أموال الناس.

المقدم: أحسن الله إليكم، هنا بعض المستمعين يشاركون حول موضوع الحلقة، وهنا ريم تقول: "مع الطاقة وتمارينها حياتي أصبحت أفضل، وصلاتي أصبحت أفضل، وشعوري وعلاقتي بالله أصبحت أفضل، وقراءتي للقران أصبحت أجمل، وبالمجمل: حياتي أصبحت لله ومع الله". وهذا ربما يقودنا إلى المقصود بالطاقة وجلبها والاتصال بها إلى آخرها؛ لأن الكثيرين يقولون: إنما نقصد به جلب الطاقة الإيجابية وطردها السلبية، وقد تكون الطاقة سبيلاً لتقربنا إلى الله أكثر.

الشيخ: بارك الله فيك، نعم، هذا ما يذكرون، والدعاوى -على كل حال- سهلة، لكن العبرة: هل ما يُذكر صحيح أم لا؟ وأريد أن أعلق على كلام الأخت بذكر قصة منشورة في النت: أحد الإخوة الذين تابوا من علوم الطاقة يقول: أنا أسعى في نفع الناس عن طريق العلاج بالنية، يتفق مع شخص مريض بالهاتف على أنه في الساعة الفلانية يمارس طقوساً معينة وصاحبنا يمارسها في نفس الوقت

ثم تكون النتيجة أن الطاقة أُرسلت من هذا إلى هذا؛ فيتم العلاج، يقول: اتفقنا أنا ومجموعة من الفتيات على أن أعالجهن في ساعة معينة، ثم إنه غلبني النوم؛ فنمت، يقول: ولما استيقظت وقد ذهب الوقت وجدت رسائل كثيرة تأتيني منهن يشكرن فيها ما قدمتُ، وأنحن أصبحن أفضل، وأن ما قدمته -يا فلان- أصبح شيئاً عظيماً؛ فأدركت -حينها- أن القضية لا تعدو أن تكون تهيّآت وتخيّلات نفسية لا أقل ولا أكثر؛ فبتت إلى الله سبحانه وتعالى.

أعود إلى ما بدأناه الطاقة السلبية والإيجابية: في الفيزياء لا يوجد شيء اسمه طاقة موجبة وطاقة سالبة. أعيد: لا يوجد شيء اسمه طاقة موجبة وطاقة سالبة. هذا الشيء الذي أقاموا الدنيا عليه وما أقعدوها وهُم لا حقيقة له. الطاقة شيء واحد، تُعرّف بأنها: -كما يقول الفيزيائيون- القدرة على إنجاز شغل معين، أو القدرة على القيام بالعمل. أولئك حينما يتحدثون عن الطاقة لا يتحدثون عن الطاقة المعروفة التي لها وجود ويمكن قياسه، الطاقة الحرارية، والكهرومغناطيسية، والحركية، وغيرها، وهنا لاحظ أنهم يستخدمون المصطلحات؛ لترويج عقائدهم، هؤلاء يتحدثون عن شيء لا وجود له إلا في رؤوسهم، يقولون: جسمك يجذب ذبذبات، أو شحنات. من أين لكم هذا؟!

● الجسم -فيزيائياً- متعادل الشحنات وليس له طاقة جاذبة.

● **الذبذبات:** هي ترددات موجبة تفسر ما لدى الأجسام من مرونة، ولا تمتلك أصلاً خاصية جاذبة.

ربط القوم تركيز الطاقة بالتشافي، أو الجذب وهذا دجل علمي، صدعوا رؤوس العالم بقانون الجذب، يقولون: الإنسان يجذب ما يريد من خلال تفكيره فيه؛ لأنه حين يركز على ما يفكر فيه يُكوّن طاقة، وهذه الطاقة تجذب ما يريد أن يحدث، بمعنى جزيئات الكون تتأثر بتفكير الإنسان بفعل الطاقة. الفكر هو الذي يصنع الواقع، تركيزك وتأملك تستطيع بهما تغيير الكون من حولك، أنت لو فكرت أن شيئاً ما يتحرك يميناً؛ فسوف يتحرك يميناً، وإذا فكرت أنه يتحرك شمالاً فسيتحرك شمالاً، حتى العمليات الجراحية!! يقولون: يمكن أن تُجرى عن طريق الأفكار فقط.

هذا ليس ضرباً من المزاح، هذا شيء مكتوب في كتب منتشرة، ويقال في دورات تدفع فيها أموال طائلة.

أعيد وأكرر: الطاقة لا تجذب، والترددات لا تجذب، وما يذكره أهل قانون الجذب وعلم الطاقة شيء باطل، بل هو مضحك عند المتخصصين. والمؤسف أنهم يُلبّسون، يقولون مثلاً: ثمة طاقة تحيط بجسم الإنسان، وحجمها ولونها يتغير

وفقا لصحة الشخص النفسية والعضوية، كما يمكن بها معرفة احتمال إصابة الإنسان بالأمراض مستقبلا، قالوا: وهذا شيء مثبت قد تم تصويره.

لكن الواقع - كما بين هذا الفيزيائيون - أن هالة الطاقة المدعاة هذه التي يزعمون تصورها ما هي إلا تفريغ كهربائي من وسط المحيط بالجسم المصور، وأن الشكل واللون ليس إلا نتيجة لعوامل فيزيائية بحته تتعلق بمحيط الجسم، ويمكن اطلاعه بها والتحكم. إذا القوم غارقون في وهم كبير، أو في كذبة كبرى.

المقدم: أحسن الله إليكم أيضا ربما يقول البعض يبقى أن هناك احتمالا، ربما يكون هذا الكلام صحيحا خاصة أن الإنسان يتأثر بالكلمات ويتأثر باللغة ونحو ذلك، فربما عندما يسمع شيئا من هذه الكلمات يكون فيها نوع من التحفيز، وربما يحدث أثر فعلا في حياته، فكيف نرد؟؟

الشيخ: نحن - حفظك الله لا نتكلم عن كلمة قد تؤثر في النفس؛ الإنسان بشر يتأثر بما يسمع سلبا، أو إيجابا، ولكن نحن أمام منظومة متكاملة من التقليب الذي لم يقم عليه دليل، بل هو مخالف للعلم المثبت، فمن أين يأتي احتمال أن يكون هذا صحيحا؟

دعك من هذا وأخبرني كيف عرفت يا أيها المتكلم أن ها هنا طاقة موجبة وسالبة؟ أن ها هنا ذبذبات وجذبا؟ هل رأيت هذا بنفسك؟ هل أجريت تجربة

علمية مستوفية الشروط العلمية؟ الجواب -قطعا- لا، إذًا ما بقي إلا أنه أخبرك بها المدرب الفلاني، أو دَوَّنه في كتابه وأنت صدقته.

حسنًا! وجود الطاقة وتفاعلاتها بالصورة التي تذكر إما أن يكون أمرًا غيبياً، أو أن يكون أمرًا حسيًا، ولا ثالث، أما كونه غيبياً فأنت مسلم وتعلم أن الغيب لله قال سبحانه ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ ولا سبيل إلى معرفته إلا من طريق الوحي، وليس في الوحي شيء من هذه الخزعات، فما بقي إلا أنها شيء حسي، والأمور الحسية إما أن تشاهد، أو تقاس ويعلم وجودها بالمقاييس العلمية المعروفة، وطاقتمكم يا هؤلاء لا سبيل إلى قياسها، فما بقي إلا أنها علم زائف.

وأضف إلى هذا أمرًا آخر: هل حدثت نفسك يا أيها المتكلم لم لا توجد جامعة علمية واحدة، أو مركز علمي لهما مكانة مرموقة يعترف بهذا النوع من علوم الطاقات؟!

لا يوجد، دونكم الفيزيائيون! دونكم أقسام الفيزياء! دونكم الأطباء وأقسام الطب في جامعات معروفة في بلادنا وخارجها! سلوهم: هل يوجد شيء اسمه الطاقة والجذب إلى آخر ما تذكرون؟ هل رأيتم من الأطباء الموثوقين من يقول إنه يمكن التشافي عن طريق الطاقة الإيجابية وقوة النية؟! أليس هذا مؤشرا واضحا أن ما عليه القوم لا طائل تحته؟! بل هو كالحرث في الماء؟!

ثم تأمل -أيضاً- القوم يقولون: إنك يمكن أن تجلب أي شيء إليك، وبتكرير النية تحقق ما تصبو إليه، وأنت بعقلك الباطن تستطيع فعل أي شيء، هلا سألتهم من يطرحون عليكم هذه الأباطيل: لم تأخذون أموالاً طائلة على الدورات والكتب التي تطبعونها؟! لم لا تجعلونها مجانية وتحققون بنيتكم وطاقاتكم المكاسب المتوقعة؟! ستجدونها بعد قليل بمجرد تفكير مركز عميق في حساباتكم، مثلما تقررونه، لم ترحبون من جيوب الشباب وبإمكانكم الربح بالجذب والنية والطاقة؟!

أمر آخر أهم من هذا، إذا كان بالإمكان جذب أي شيء وتحقيق كل غاية بقوة العزيمة، وقوة الأنا، وبالجذب، وبالمارد القابع بين الأضلع، فإننا نود أن نلفت انتباهكم إلى أن ثمة فقراء ومجاعات وحروب في العالم، ثمة تضخم ومشاكل اقتصادية وسياسية واجتماعية كثيرة، هناك أوبئة، هناك أمراض تئن منها بلاد فقيرة وأنتم أقدر الناس على التحكم بالطاقة وتبسيط الذبذبات على السلبيات لتمحقها، فأين أنتم عن تقديم المساعدة وحل المشكلات؟! أنتشغلون بإقامة الدورات وتأليف الكتب وتتركون العالم يئن تحت وطأة هذه المعضلات؟! مع أن بأيديكم الحل السحري كما تقولون! أرجو أن يكون مرادي قد وصل.

المقدم: أيضاً مما قد يعترض به ممن يدافعون عن فلسفة الطاقة يقولون مثلاً: هذه الدورات التي تقدم في مجال الطاقة يقدمها دكاترة متخصصون وأصحاب

شهادات عليا في تخصصات خاصة أنكم أشرتُم -شيخ صالح- إلى أنه كثير من هذه الأشياء لا تستند إلى دليل علمي.

الشيخ: بارك الله فيكم يا أستاذ عبد الله ما رأيك أن أكتب في ورقة بخط عريض كلمة ماجستير، وفي أخرى كلمة دكتوراه، ثم أوقع عليهما، وأختم، هل تشتري مني يا أستاذ عبد الله هاتين الشهادتين بألف ريال؟

المقدم: ولا بريال.

الشيخ: هل هناك من يحترم نفسه يقبل أخذها، ثم يتشبع بما لم يُعطَ ويقول: أنا الدكتور فلان؟ ما أسهل الآن أن تشتري شهادة دكتوراه! الشبكة مليئة ببائعي هذا الوهم، لكن ما القيمة العلمية لشهادات عليا غير معترف بها؟!

خذ هذه! أحد أكبر المروجين لهذه الترهات في العالم العربي يُعرِّف بنفسه أنه الدكتور فلان، حاصل على الدكتوراه من جامعة كذا في الولايات المتحدة الأمريكية، أنا لا أريد أن أعلن له، دخلت أنا وغيري إلى موقع هذه الجامعة، هو -يا راعاك الله- مجرد معهد يتتبع هذه العلوم الزائفة ويمنح شهادتي الماجستير والدكتوراه بالمراسلة في حدود سنة وعدة أشهر، لكن هذه الجامعة المزعومة غير معترف بها من أي جهة رسمية في أمريكا، وقد صرحوا هم أنفسهم في موقعهم بهذا، ثم يأتي من يأتي ويخدع السُدج بكونه دكتورا! أي عبث هذا! ثم لو سلمنا أن

من يقدم هذه الترهات حاصل على شهادة عليا من جامعة معترف بها، ستجد بالتأكيد شهادته في تخصص آخر، وليس في الطاقة؛ لأنه -ببساطة- لا توجد جامعة معترف بها تمنح شهادة في هذه العلوم الزائفة.

المقدم: أيضا البعض قد يقول ما تذكرون من هذه المساوئ صحيح، ولكن هذا ما عند الغرب، أما ما يطرح عندنا في بلاد المسلمين فمختلف، ويخضع أيضا لفلترة ونحو ذلك، بحيث يكون متوافق مع الشريعة الإسلامية.

الشيخ: الجواب عن هذا حفظك الله من ثلاثة أوجه أسوقها مختصرة:

● **الوجه الأول:** من أين لكم ما ذكرتم؟ حتى بعض من ينتسب إلى الإسلام وجد عندهم مثل ما وجد عند الغرب من الضلالات سواء، مع فرق في القدر وأسلوب الطرح، غاية ما يتميز به هؤلاء هو السعي في وضع مسحة دينية على ترهات الطاقة، إما بأدلة لا تصح كحديث: "تفاءلوا بالخير تجدوه" وهو بالمناسبة مكذوب على النبي ﷺ، وإما بتأويلات مستكرهة، أو بِلَيِّ أعناق النصوص، أو باعتساف في الاستدلال.

● **الوجه الثاني:** لم نجد ممن يطرح هذه الفلسفة والتطبيقات في بلاد المسلمين إنكاراً صريحاً لضلالاتها، مع أن المقام مقام إيمان وكفر، بل

بالعكس، لا نجد من أولئك إلا تمجيذا لرواد الطاقة الغربيين، وحثا على قراءة كتبهم، وفخرا بالتلمذ عليهم، بل ما راج أمر هؤلاء بين أبناء المسلمين إلا بتباهيهم أنهم تتلمذوا على أيادي كبار المدربين العالمين من الهندوس والملاحدة الروحانيين وغيرهم، وبما حصلوه منهم من شهادات واعتمادات.

● **الوجه الثالث:** إذا أردت الحكم على فكرة فانظر إلى أصولها، فإنك لن تجني من الشوك العنب. وما يروج في بلاد المسلمين من هذه الأباطيل إنما هو فرع عما يث هناك، وإذا فسد الأصل فسد الفرع، ولن تفلح عمليات التجميل والأسلمة المزعومة، **﴿وَالَّذِي خُبْتُ لَا يُخْرِجُ إِلَّا نَكَدًا﴾**.

المقدم: في تويتر ندى تقول: يدخلون على الناس من مدخل القرآن وأن بعض الآيات فيها طاقة الاستشفاء، فيقولون مثلاً: سورة البقرة فيها طاقة عالية تصفي الجسم من الطاقة السلبية، أو سورة يوسف ترددها والطاقة تزيد من جمالك، ونحو هذا الكلام.

الشيخ: الله المستعان! على كل حال كتاب الله عز وجل شفاء بنص كتاب الله، لكنه بعيد كل البعد عن هذه الترهات.

المقدم: ويبدو لي أيضا شيخ صالح أن دورات الطاقة ممنوعة في كثير من الدول.

الشيخ: أنا لا أدري - حقيقةً - عن الدول، لكن أعرف ما يتعلق ببلادنا، إن من فضل الله تعالى أن وفق ولاية الأمر إلى منع هذه الخزعات والتشديد على عدم إقامتها، صدر في عام ١٤٣٨هـ أمرٌ سامٍ من الملك سلمان وفقه الله بمنع ممارسة نشاط العلاج بالطاقة، أو التدريب عليه في المملكة، ومنع استيراد، أو تصدير، أو فتح، أو نشر، أو عرض الكتب والمواد السمعية والمرئية المتعلقة بنشاط العلاج بالطاقة، أو التدريب عليه. كما سبق هذا قرار قبله بسنوات من جهات الاختصاص بمنع ممارسة نشاط البرمجة اللغوية العصبية، وهذا في الحقيقة مما يُذكر فيُشكر. لكن مع هذا ينبغي أن نتذكر أن شبكة الانترنت فضاء مفتوح يصعب التحكم فيه.

المقدم: أحسن الله إليكم ونفع بما قلتم شيخ صالح، ما هو البديل عن هذه العلوم ما دامت علوم زائفة ما البديل لمن أراد ان يستشفى ولمن أراد ان يحسن حياته ونحو ذلك؟

الشيخ: بارك الله فيكم سأقول باختصار:

- البديل هو: تحقيق التوحيد، توحيد الله ﷻ في ربوبيته، وألوهيته، وأسمائه وصفاته.

- البديل هو: في تعظيم الله وتحقيق العبودية له وصدق الاتباع لنبيه ﷺ.
- البديل هو: أن يكون الله ورسوله ﷺ أحب اليك مما سواهما.
- أن تصدق في التوكل على الله، أن تنخلع من الاعتماد على حولك وطولك، أن ترجوا الله وتخافه.
- البديل هو: العمل بقوله ﷺ المخرج في مسلم^(١) «المؤمن القوي، خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء، فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان» تأمل الحديث مليا واجعله دستورا لك، فكل جملة منه تنقض ركنا من علم الطاقة المزعوم.
- البديل هو: في بذل الأسباب والجد والعمل، وترك التكاسل، والاتكال على الأمان.
- البديل هو: في تحقيق الإيمان بالقدر: بعلم الله، وكتابته، وبمشيئته، وخلقه.
- البديل هو: في الرقية الشرعية والتداوي المباح.
- البديل هو: في الحذر من دعاة الشر، وبائعي الوهم.
- البديل هو: في أخذ العلم الصحيح عن أهله.

- البديل هو: في الوعي وعدم الميل مع أي ربح.
 - البديل هو: في الاعتزاز بديننا وإراثنا وقيمنا.
 - البديل هو: في صدق التوبة والاجتهاد في التضرع إلى الله ﷻ ودعائه.
- المقدم:** أحسن الله إليكم شيخ صالح، وهذه نعتبرها وصية الختام في هذه الحلقة إن كان هناك ضمن إحالة، أو من كتب معينة تحيلون إليها المستمعين، أو لمن أراد التوسع في هذا الموضوع؟
- الشيخ:** بارك الله فيكم من أراد التوسع هناك كتاب طبعته وزارة الصحة عندنا عن طريق المركز الوطني للطب البديل: اسمه: التطبيقات المعاصرة في فلسفة الاستشفاء الشرقية.





الحلقة السادسة والثلاثون

مزالق في التفكير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الشيخ: الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسان أما بعد:

نحن في عصر صاحب ومثخن بالآراء والمعتقدات، بالخلافات والنقاشات، فمن لم يكن صاحب تفكير صحيح، ومنهج سليم في التعاطي مع هذا الرَّحْمِ الفكري الكبير، كيف سيعرف الصواب من الخطأ؟ كيف سيصل إلى شاطئ الأمان بعيداً عن تيارات الانحراف الجارفة؟

واعتبر في هذا بأقرب شيء يُلامسه الناس في حياتهم اليوم، أظن أننا نتفق على أن وسائل التواصل أضحت وجبة لا بد أن يأخذ الصغار والكبار منها حظهم يومياً، وهي محرك كبير لعجلة الأفكار، وجُلّ وسائل التواصل مَيادين نقاش حار ومستمر على مدار الساعة، ومنصات عضد وطلب للآراء.

أمام هذه التَّحْمَةُ الفكرية يحتاج المسلم أن يتحلى بالنضج والوعي؛ ليسلم من الطفيليات العقلية الضارة لا سيما والمزالق التي تقدح في التفكير منتشرة: كالحكم بغير دليل، أو توهم ما ليس بدليل دليلاً صحيحاً، أو الانخداع بزخارف القول، أو الانسياق وراء مغالطات منطقية، أو الاستسلام للتقليد الأعمى إلى آخر ما هنالك.

ومعها يحتاج المتبصر إلى أن يتسلح بقواعد التفكير الصحيح المستمدة من نور الوحي؛ ليكون طرّحه أو قبوله للأفكار أو ردّه لها شيئاً مبنياً على أساس صحيح. الحلقات الماضية - كما تفضلتم - قد نُشر فيها من ضوابط التفكير الصحيح أو مزالقه شيء كثير، وفي هذه الحلقة - بعون الله ﷻ - تلخيص لتلك وزيادة؛ نظراً لأهمية الموضوع.

المقدم: إذاً نتحدث عن مزالق في التفكير، ولعل من أوائل ما يرد على ذهن ما يسمى: بالمغالطات المنطقية، ودائماً عندما يتبادر لذهن الانسان أن يتعلم المنطق ونحو ذلك، يصادف هذه المغالطات المنطقية، أو يجد من يتحدث عنها باعتبارها، وكأنها بوابة المنطق، أو بوابة التفكير الصحيح، فلو نُعرج على شيء منها؟

الشيخ: المغالطات المنطقية هي أنماط شائعة من الحجج الباطلة التي تتخذ مظهر الحجج الصحيحة، المغالطة المنطقية حجة خادعة، لا تحترم المنهج العلمي، والغالب أن تُستعمل لخداع المُحاور، وتلبيس الحقيقة عليه، أو التقلُّت من إزمائه، وقد سبق التعرّيج على شيء من هذا الموضوع في حلقات ماضية، ولا بأس من الإشارة إليه في هذه الحلقة، فهو وثيق الصلة بموضوعها.

المغالطات كثيرة، وسأشير إلى ثمانية مشهورة منها بإذن الله:

١. أولاً: مغالطة الحُجَّة العاطفية، وتسمى (الاحتكام إلى العاطفة)،

وهي: أن يستعمل شخص العاطفة واللعب بالمشاعر أثناء استدلاله

للتأثير على حكم الطرف الآخر، بالتأكيد غير مطلوب مِنَّا أن

ننسلخ من عواطفنا، لكن من غير المطلوب أيضاً وضع العاطفة

موضع الحجة؛ لأن العاطفة لا تنهض حجة أو أساساً باعتقاد.

مثال ذلك: أن يُقرَّر أحدٌ كلاماً خاطئاً، فإذا نُوقِش فيه قال: أنتم لا تعلمون

كم الزمن الذي قضيته في الإعداد، وكم تعبْتُ، وكم سهرْتُ! هذه في الحقيقة

مغالطة، لا يصلح وضع العاطفة موضع الحجة.

ويُلاحَظ أن هذا المسلك المغالط ينهجه أهل الغلو والتطرف، فقد يُميلون

السُّدْج بمغالطات عاطفية، فليُحذَر.

٢. ثانياً: مغالطة تغير الموضوع، وتسمى أيضاً (مغالطة الرّنجة الحمراء)،

وهي: أن يطرح الشخص حين يعجز عن مقابلة الحجة بالحجة

موضوعات أخرى سوى ما هو موضوع النقاش؛ وذلك لِيُشَتِّت انتباه

الطرف الآخر، وَيَسْلَم من ظهور ضعفه، إذًا هي نوع من التهرب،

وكان اللائق المناقشة بالحجة أو الاعتراف بالخطأ أو العجز.

مثال ذلك: أن ينصح إنسان آخر بشأن خطأ وقع فيه، فيردّ عليه الطرف الآخر قائلاً: بدل أن تنصحي، انظر إلى ما يفعله قريبك فلان، أو يرد قائلاً: وأنت يقع منك كذا وكذا، وهذا في الحقيقة تهرب واضح، الموضوعان منفصلان، وكون فلان أخطأ خطأ أكبر من خطئك هذا لا يجعل خطأك صواباً.

٣. ثالثاً: مغالطة الاستدلال الدائري، يسمى (الدور) أو (المصادرة على

المطلوب)، وتعني: جعل النتيجة المقدمة المُستدل بها، المغالط هنا

لن يزد في النتيجة على أن أعاد المقدمة مع تلاعب في الألفاظ.

بمعنى: استدلاله ليس إلّا لفأً ودورائاً - كما يقال - على النتيجة، على حدّ قول

الشاعر:

كَأَنَّنَا وَالْمَاءَ مِنْ حَوْلِنَا قَوْمٌ جُلُوسٌ حَوْلَهُمْ مَاءٌ

مثاله: أن يقول مَنْ يناصر نظرية التطور مثلاً: نظرية التطور نظرية صحيحة،

فإذا قيل له: ما الدليل؟ قال: لأنّها حقيقة.

وبأدنى تأمل تجد أنه لا فرق في الواقع بين كلمتي: (صحيحة وحقيقة) وكأنه

قال: هي صحيحة لأنّها صحيحة.

٤. رابعاً: مُغالطة التحريف، وتسمى (مغالطة رجل القشّ)، وهي: أن

يعتمد أحد إلى تشويه قول خصمه وحجته، وربطها بنتائج أو أفكار

لا يقول بها خصمة، ولا يستلزمها كلامه، والقصد غالبًا: محاولة إفهام خصمه بهذا الأسلوب غير الأخلاقي؛ لأنه مُفلس من الحجة. مثالها: أن يقول ناصح: علينا أن نتابع الأبناء، ونراقب تصرفاتهم ودخولهم إلى الشبكة.

فيقول طرف آخر: إذا أنت تتهمهم في أخلاقهم، أنت فاقد الثقة بهم. أو يقول مثلاً: أنت تريد أن تخنقهم، وهذه في الحقيقة مغالطة؛ لأنه لا تلازم ضروريًا بين المراقبة والالتزام، أو بين المتابعة والخنق. خذ مثلاً آخر: أن يقول ناصح: علينا أن نتمسك بشرعنا وعاداتنا الحميدة. فيردّ آخر: إذا أنت تريد أن تجعلنا نعيش في الظلامية، ونرجع إلى القرون الوسطى، وهذه في الحقيقة مغالطة بعيدة عن الحقيقة، فكلام الناصح هنا لا يستلزم هذا الذي ذكره البتة.

٥. خامسًا: مغالطة التعميم المتسرع، كأن يلحظ شخص ملحوظة على آخر، فيصدر حكمًا عامًا يشمل كل من يشارك هذا الآخر في وصفٍ ما، بمعنى: يجعل من حبة واقعة قُبّة تعميمات، ومن رأيته يُصدر الأحكام العامة الواسعة دون التحقق من انطباقها على جُلّ

من وصفهم على الأقل، فاغسل يدك من رُقِيّ تفكيره، وهذا -مع الأسف- خطأ تسمعه كثيرًا.

تجد مثلاً أن رجلاً تعامل مع شخص من جنسيةٍ ما، فأساء التصرف معه، أو سافر إلى بلد فحصل له موقف سيء مع أحدهم، فيصدر حينها حكمه العام: أهل البلد الفلاني فيهم وفيهم، كم قابلت منهم يا هذا حتى يكون حكمك عادلاً؟ أمّن أجل خطأ شخص واحد وصفت أهل البلد كلهم بهذا الوصف؟ أو تجد أنه لقي شخصاً عليه سيما الاستقامة، لكنه ما تبسم في وجهه، فصار يقول: المُتديّنون شرسون.

أو تأخر إمام عن موعد الإقامة دقيقتين ويصدر حكماً عاماً: الأئمة غير مُنضبطين، العدل يقتضي أن تضع الأشياء في نصابها، والتعميم المتسرّع ينافيه.

٦. سادساً: مغالطة الشّخصنة، وتسمى (الحجة الشخصية)، وهي: أن

يترك شخص مقارعة حُجة محاوره بحجة أقوى، ويذهب إلى الطعن في شخصه، ويجعل طعنه دليلاً كافياً على إسقاط كلام صاحبه، وهذا في الحقيقة علامة ضعفه العلمي والإفلاس من الحجة؛ كأن يتحاور اثنان في نظرية التطور مثلاً، فيقول أحدهما: هذه النظرية فيها ثغرات وحلل.

فَيَرَدُّ عليه الآخر: كونك تطعن في النظرية هذا دليل على محدودية فكرك، ولم أَكُنْ أَظن أنك بهذا المستوى العلمي الضَّخْل، ويظن أنه بهذا قد انتصر على خصمه. تلاحظ أن هذا المتكلم هَرَبَ من المناقشة العلمية إلى تجريح خصمه، والذي يمكن أن يَرَدُّ عليه قائلاً: موضوع النقاش والنظرية وليس فكري، أناقش حُجتي، ودَعك مِنِّي.

٧. سابعاً: مغالطة القسمة الثنائية الزائفة، وهي: ما يقع فيه بعض الناس من فرض أن الممكن خياران لا ثالث لهما، دون أن يكون قد حصر جميع الاحتمالات الممكنة، ويفعل هذا غالباً من يريد التأثير على الجُھَّال وإرغامهم على موافقته على ما يريد بطريقة غير مباشرة.

مثالها: أن يقول قائل: إن لم تكن ليبرالياً فأنت مُتَزَيِّمٌ متشدد مُؤدِّج، لماذا يا هذا؟ ألا يمكن أن أكون لا هذا ولا هذا؟ ألا يمكن أن أكون مسلماً مستقيماً متزقاً رافياً؟

٨. أخيراً: مغالطة السبب الزائف، وتحصل هذ المغالطة حين يُخلَطُ بين المعية والسببية.

إثبات وجود علاقة سببية بين حدثين يستلزم أكثر من مجرد حصولهما معاً، وقريب من هذه المغالطة: مغالطة أخرى تسمى (مغالطة البعدية) بمعنى: وقع عقبيه

إذاً بسببه، والحقيقة أنه لا تلازم بين الأمرين، كما أنه إذا كان الفجر يقع عَقِبَ صياح الديك، صياحه ليس سبب طلوع الفجر كما لا يخفى. السببية تتطلب أكثر من مجرد التعاقب، وبسبب الجهل وعدم التدقيق قد يُربط بين الأمرين على جهة السببية.

يُذكر: أن سكان إحدى الجهات انتشر عندهم مرض الجدري؛ بعد أن شاهدوا الجمل لأول مرة، فوَقَر في نفوسهم أن رؤية الجمل سبب المرض. وذكّر: أن رجلاً توفي عَقِب بدء السكان مزاوله حرفة الحَرْف، فانصَبَّ الجميع عن هذه الحرفة؛ لأنها تسبب الموتى في ظنهم.

هذه الأمثلة تقرب لنا فهُم ما نسمعه من بعضهم: أنه مارس بعض طقوس الطاقة - كما مضى في الحلقة الماضية - فشعر براحة، أو لبس تيممةً فوجد بعدها نشاطاً، أو سأل كاهناً، أو طالع بُرجه فوق له أمر سَعِيد، وكل هذا في الحقيقة قد وافق قدرًا، وليست هذه الأشياء أسبابًا لما وقع.

الخلاصة: ثمة ظواهر كثيرة، يبدو للمتعجل الربط بينها واشتراط السَّببية، والواقع أن الصلة بينها معدومة.

المقدم: إذا كان هناك قواعد أو وصايا جامعة يضعها المسلم نُصِب عينيه في قراءته للواقع أو حكمه أو نقاشه مع غيره؛ من أجل أن يَسَلَّمَ من مزالق التفكير،

وقد تحدثنا قبل الفاصل عن المغالطات المنطقية ونحوها، فحتى يَسْلَمَ المسلم من مثل هذه المزالق والمغالطات، إن كان هناك وصايا أو قواعد؟

الشيخ: وحُبًّا وكرامة سأسوق بعون الله ﷻ ما تيسر، وهي عشرون وصية مختصرة جامعة بعون الله.

- أولاً: الحكم عن الشيء فرع عن تصوّره، فلا تبادر بالحكم على شيء قبل أن تُحكّم تصوّره.
- ثانياً: الحق في مسائل النزاع واحد، يُصيّبه مَنْ يصيبه، ويُخطئه مَنْ يخطئه، فاحرص على الوصول إليه، أما القول بنسبية الحقيقة فقول ينقُض نفسه بنفسه.
- ثالثاً: تزويق العبارة، وتَنميق الألفاظ، أو السِّباب والسِّتَام لا يثبت حقًّا ولا يُبطل باطلاً، ففرِّغ عقلك للحجة، ودَعك مما سواها.
- رابعاً: دلائل الحق وبراهينه تتعاون وتتعاقد، لا تتناقض ولا تتعارض، التناقض دليل البطلان، وما سَلِمَ من المقالات من التناقض إلا ما جاء من عند الله.
- خامساً: الحق قيمته في ذاته لا في قائله، وواجب قبوله مهما كان قائله، الحق مُقدّم على الخلق، وبه يُعرفون، ولا يُعرف هو بهم، الصواب فوق

الأشخاص، وعليه فمن جاءك بالحق فاقبل منه وإن كان بعيدًا بعيدًا،
ومن جاءك بالباطل فاردده عليه وإن كان قريبًا حبيبًا.

● سادسًا: لا يكاد يخلو قول باطل من شوب من حق، فلا تغتر به.
قال العلماء: «لا يزُوج الباطل في الناس إلا بعد أن يُجلى بشيء من الحق»،
ولذا فأهل الكفر والبدع بجميع أصنافهم لبسوا الحق بالباطل، وبسبب الحق اليسير
الذي معهم عظمت الفتنة بهم، حيث يُضلون به خلقًا كثيرًا عن الحق المحض الذي
يجب الإيمان به، ويميلون بهم إلى الباطل الكثيب الذي هم عليه، فلا ينبغي تحسين
قول غلب عليه الباطل لوجود حق يسير فيه.

● سابعًا: لا نقاش في البديهيّات والضروريات العقلية، وهي المعارف
العقلية الأولية، أي: التي توجد بداهة في الذهن؛ كمبدأ السببية،
وامتناع اجتماع النقيضين وارتفاعهما، ونحو هذا، فهذه لا يقام لها
برهان، ولا يُقبل فيها جدال، بل لا يجادل فيها إلا مصاب في عقله.
● ثامنًا: إن كنت ناقلًا للصحة، أو مُدعيًا للدليل، فلا تُورد ولا تقبل
نقلًا أي نقل إلا بعد التحقق من صحته، ولا تُورد ولا تقبل دعوى إلا
بدليل يتعين المصير إليه.

● تاسعاً: ليست العبرة بالاستدلال، إنما بصحة الاستدلال، ليس كل مَنْ أدلى بِحُجَّةٍ مُصِيبَةٍ، لا تغترّ بمجرد أن أحداً ساق حُجَّةً، فلا يخلو أحد من حُجَّةٍ حتى ولو كان مُبطلاً غاية الإبطال، فالعبرة بصحة الحجة لا بمجرد إيرادها ولو كانت مزخرفة.

● عاشراً: رُبَّ كلمة حق أُريد بها باطلاً، فخذُ حِذْرِكَ وتفطّن، قد يكون اللفظ صحيحاً، لكن المعنى الذي رُمى إليه المتكلم باطل، وقصده من ورائه سيء، كما قال علي عليه السلام لمن قال من الخوارج المارقين: «لا حكمٌ إلا لله» كلمة حق أُريد بها باطل.

● الحادي عشر: الكثرة ليست دليل الصحة.

بمعنى: انتشار القول، وكثرة مناصريه، لا تستلزم بالضرورة صحته، فقد ينتشر الباطل، ويُعْمَسِي الحق غريباً، فلا تغتر، فالعبرة بالحجة الصحيحة، لا بالقلّة والكثرة، حَقِّق ودَقِّق، زِن بالقسطاس المستقيم، احذر المصدر الخاطيء، لا تكن أسيراً للشائعات، ولا إمّعة خلف سلطة العوّاء، ولا تتشرب كل رأي كأنك إسفنجة، لا تكن كحاطب ليل، يحمل حزمة حطب، ربما تخلّلتها أفعى.

● الثاني عشر: العقل محدود، فلا يُكَلَّف ما لا يُطِيق، فإعماله في محله من التوفيق، وتحميله ما لا يُطِيق حماقة وخذلان.

● الثالث عشر: عدم الدليل المعين لا يستلزم عدم المدلول، فقد يثبت بدليل آخر، أي: أنه إذا انتفى دليل واحد، فلا يستلزم هذا انتفاء المدلول المطلوب إثباته؛ لأن ذلك المدلول قد يثبت بأدلة أخرى غير ذاك الدليل.

مثال ذلك: طلوع الشمس ثابت بأدلة العدة، ومشاهدة الشمس بملاحظة النور، بالحرارة، فإذا انتفى دليل المشاهدة والنور في حق الأعمى مثلاً، فلا يستلزم هذا انتفاء طلوعها؛ لأنه يمكن أن يستدل عليها بدليل الحرارة، أليس كذلك؟
إذاً: إذا قال ملحد: نحن لم نَرِ الله؟
قيل: إذا كانت المشاهدة دليلاً على ثبوت الشيء، فعدم مشاهدته لا يدل على عدمه، إذ قد يثبت وجوده بدليل آخر كآثاره، الله ﷻ لم نَرِه، لكن علمنا وجوده بأدلة أخرى؛ كمخلوقاته وآياته.

● الرابع عشر: الجهل البسيط خير من الجهل المركب.
الجهل البسيط عبارة عن عدم المعرفة مع عدم تلبس بضدٍّ، وأما المركبة فهو عدم معرفة الحق مع اعتقاد ضده، وهو جهل أرباب الاعتقادات الباطلة.

الجاهل جهلاً بسيطاً يجهل، ويعلم أنه يجهل، فسيكون متواضعاً غالباً، لا يأنف من التعلم، لا يجادل بالباطل، بخلاف الجاهل جهلاً مركباً وهو الذي يجهل، ويجهل أنه يجهل، فإنه في الغالب مستكثر عن التعلم واتباع الحق؛ لأنه في زعمه على هدى وعلم. أهل الجهل البسيط لا يعرفون الحق، ولا ينصرونه، ولا يُعادونه غالباً. أما أهل الجهل المركب فيحسبون أنهم على هدى، وهم على ضلال، فيُعادون الحق ويُعارضونه.

فهم هذا شيء مهم؛ لتمييز فيمن تحاور بين هذا وهذا، وتعرف من أين أتى الخلل في التفكير.

- الخامس عشر: التعصّب لغير الحق قبيح، والمواقف المحمودّة لا تكون مجرد رُدود أفعال، والتوسط في الحب والبُغض، والمدح والذمّ فضيلة.
- السادس عشر: لكل قاعدة شواذ، فلا تُسقط القاعدة بالمثال الشاذ. التعميم في غير محله خطأ، وإسقاط القاعدة العامة بمثال شاذ خطأ أيضاً.
- شُرب الدخان مُضر، هذه قاعدة عامة، لكن ليس لنا أن نُسقط هذه القاعدة بحجة أن فلاناً شرب ولم يمرض، إذاً أعطِ القاعدة قدرها، وضع الشاذ في حجمه الواقعي.
- السابع عشر: لا تسقط في فتح التكرار.

كم هي الأفكار والأحكام الخاطئة التي يتكرر طرحها، مع تكرار الأسلوب أو تغييره؛ وذلك ليصلح الباطل مع كثرة إعادته حقيقة لا تقبل الجدل، بمعنى: بالتكرار تُمرَّر الأفكار، على قاعدة بعضهم: (اكذب ثم اكذب حتى يصدِّقك الناس) لكن هذا لا يؤثر شيئاً في قناعات العقلاء؛ لأن القاعدة عندهم: (التكرار لا يجعل الخطأ صواباً).

● الثامن عشر: الحق مُرٌّ عند مَنْ لم يتهذَّب، والكِبَر والحسد واتباع الهوى، حَمِيَّة الجاهلية، والتقليد الأعمى، والغلو، هذه من أعظم الصوارف عن الحق.

● التاسع عشر: بين الشهوة والشبهة رباط وثيق، وقليل مَنْ يتفطن.

● الوصية العشرون والأخيرة: شأن العقلاء: التَّؤدَّة، والاستفصال، والتقسيم، وعدم العجلة في التعاطي مع الآراء قبولاً أو ردّاً، وأهل البَلادة بالضدِّ.

المقدم: ذكرتم قبل الفاصل قبل (رأي الشباب) مجموعة قواعد ووصايا جامعة، يضعها المسلم نُصْب عينيه حتى يَسْلَم من مزالق التفكير، كانت تلك الوصايا ربما وصايا تربوية أو سلوكية؛ لكن من ناحية الإيمان في ظل كثرة مُضَلَّات الفتن، إن كان هناك وصايا تتعلق بالبصيرة في دين الله والوقاية من المزالق الفكرية الموقعة في الضلال؟

الشيخ: وهذا من أهم ما يكون، وبين يدي خمسة عشر وصية:

● أولاً: لا هداية إلا من طريق الوحي، فلا تتعب، ﴿وَلِنْ أَمَدَّتْ فِيمَا

يُوحَىٰ إِلَىٰ رَجَبٍ﴾ [سبأ: ٥٠].

الذكاء بلا توفيق لا يُنجي من الضلال، والناس في آرائهم بين توفيق وخذلان، قد يكون الرجل من أذكى الناس، ويعمى عن أظهر الأشياء، وقد يكون من أبلد الناس ويهدي لما اختلف فيه من الحق بإذن الله، إذ لا حول ولا قوة إلا به، فمن اتكل على نظره وعقله خذل، وإذا كان النبي ﷺ كثيرًا ما يقول: «يا مُقَلِّبِ القلوب ثَبِّتْ قلبي على دينك»^(١).

● ثانيًا: القلب إن لم يشغل بالحق اشتغل بالباطل، والنفس فيها نوع من الكبر، وميل إلى الخروج عن رقة العبودية، فحاذر ورابط، واكسرهما بصوت الافتقار، وذكرها أن شراب الهواء حلو لكنه يُورث الشُّرْكَ.

● ثالثًا: كل ما قُرب القلب من الله زالت عنه معارضات السوء، وصار نور كشفة للحق أتم، وصار نور كشفة للحق أقوى، وكلما بُعد القلب عن الله كثرت عليه المعارضات، وضعف نور كشفه

(١) رواه الترمذي (٢١٤٠).

للصواب؛ ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾
[الأنفال: ٢٩]، فأتقِ تُسدّد.

● رابعاً: مبدأ كل أنواع الضلالات من تقديم الرأي على الوحي، واختيار الهوى على الشرع، والنجاة في طلب الهدى لا في اتباع الهوى، الهوى ضدّ الحق، وهو مرعى الشيطان ومرتعته، فتجرد عنه، ﴿بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]. واعلم أن مسالكه دقيقة، والسلامة منه عزيزة؛ لأن النفس تكره خلافه، مع أن طوق النجاة اقتلعه منها، ففي الهوى الهوان والرّدى.
وَمَا يَرْدُعُ النَّفْسَ اللَّجُوجَ عَنِ الْهَوَىٰ مِنْ النَّاسِ إِلَّا حَازِمُ الرَّأْيِ كَامِلُهُ

● خامساً: مجرد ورود الشبهة القادحة في الحق ليس دليلاً على صحتها، وحسن سبكها ليس أمانة صدقها، وعدم العلم بالجواب عنها ابتداءً ليس دليلاً على عدمه، فإذا ابتليت فتماسك، ولا تضعف أمامها.

● سادساً: المعارضون للكتاب والسنة، القادحون فيهما، هم معارضون في أوّل سلوكهم، معارضون في منتهى سلوكهم، فالإشكال عندهم من الأساس، أعرضوا فعارضوا، وإلا فلو أقبلوا على التّهلّ منهما

ابتداءً صادقين لَسَلَّمُوا وما اعترضوا؛ لكنهم أنفقوا في غير شيء نفائس الأنفاس، وأتعبوا أنفسهم، وحَيَّرُوا من خلفهم من الناس، ضَيَّعُوا الأصول فحُرموا الوصول، وأعرضوا عن الرسالة فوقعوا في بَيِّداء الحيرة والضلالة.

● سابعاً: ما اتَّهم أحدٌ لدين إلا وكانت الآفة من الذهن العليل لا في نفس الدليل، وإذا رأيتَ من أدلة الدين ما يشكل عليك وَيَبْنُوا فهمك عنه، فاعلم أنه لعظمته وشرفه استعصى عليك، وأن تحته كنز من كنوز العلم ولم تُؤتَ مفتاحه بعد، فسَلِّ مُعَلِّمَ إبراهيم أن يعلمكم، ومُفَهِّمَ سليمان أن يفهمك، واصدُق النية، واطلب العلم من معدنه، وستصل لشفاء عِيِّكَ، ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [النكبات: ٦٩].

● ثامناً: أعداء الرسل في كل زمان ومكان يوحى بعضهم إلى بعض زُخرف القول غروراً، فلا تستغرب تكالبهم، ولا تُهَوِّلَكَ عُلوهم.

● تاسعاً: الله يحب من عبده العلم واليقين لا الجهل والشك، فهذان مؤلِّمان للقب غاية الإيلام، والدواء الشافي: تحصيل العلم، وأسباب اليقين.

- **عاشراً:** الشُّبهة داء، والتعرض للداء خطر عظيم، والسباحة في لجج البحار ليست إلا لأهل التأهل التام، لا تحم حول الحمى، واطلب العافية، حذارٍ من المجازفة، فسلامة دينك لا يعدلها شيء، ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].
- **الحادي عشر:** الغلو في العقل أسّ الضلال، والله تعالى أعطانا العقول لنذكر بها القريب لا البعيد، وهبنا إيَّاه ليكون موصلاً إليه لا قاطعاً عنه، دالاً على قدرته لا مُضِلاً عن حكمته.
- **الثاني عشر:** لا تعارض بين صحيح المنقول وصريح المعقول، ومن تبحر في المعقولات، وميز بين البيّنات والشبهات، تبين له أن العقل الصريح أعظم شيء موافقة لما جاء به الرسول ﷺ.
- **الثالث عشر:** معرفة الحق كافية في معرفة بطلان ما خالفة، ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢]. فلا تستشرف إلى معرفة جواب كل شبهة، فهذا لا مَطْمَع فيه، إذ لا حد لما تقذف به النفوس من الأهواء، يكفي أن تعرف الحق بدليله لتستيقن أن ما خالفه باطل.

ونحن نعلم علمًا عامًا كُليًا: أن كل ما خالف الوحي باطل، وأن كل ما عارض الوحي فإنه ضلال مبين، وأن معرفة تفاصيل البطلان فهي لبعض الناس دون بعض، فمن جهلها فلم يضره ذلك شيئًا، ومن كان أعرف بفساد الباطل كان أعرف بصحة الحق.

● الرابع عشر: فرق بين مُحالات العقول ومَحارات العقول، يجب التفريق

بين ما يقصُر العقر عن دَرْكه، وما يعلم العقل استحالته، بين ما لا يعلم العقل ثبوته، وما يعلم العقل انتفاءه، الرسل صلوات الله عليهم وسلامه قد يُخبرونا بمَحارات العقول، ولا يُخبرونا بمُحالات العقول.

● الخامس عشر والأخيرة: لزوم جادة السلف أَمَنَة من الانحراف، والبركة

مع الأكابر الراسخين في العلم.

المقدم: خمسة عشر وصية تتعلق بالبصيرة في دين الله والوقاية من المزالق

الفكرية الموقعة في الضلال، وبعد هذه السلسلة من الحلقات عشرات الحلقات تضمّنت عشرات المواضيع، لخصّتم لنا في كل حلقة -جزاكم الله خيرًا- كثيرًا من الأمور المعقدة، وبسّطتم كثيرًا من القواعد التي ربما كثير منّا كان يظن أن الإمام بها شبه مستحيل، أو يتطلب قراءات مطولة ونحو ذلك.

المقدم: إن كان هناك وصية نختم بها هذه الحلقة؟

الشيخ: وأرجو أن يتسع صدرك لدقيقتين: بعد أن يسر الله ﷻ لنا هذا التطواف في الحلقات الماضية في مسارب الفكر ومشكلاته وتحدياته، نتوجه إلى الله تعالى بالحمد، ونسأله سبحانه أن يجعل هذا البرنامج في ميزان المُتَكَلِّمِ والسامع، ومن أَعَدَّ وقَدَّمَ، وأخرج وشارك.

ولا أجد وصية أحسن من التذكير بقوله تعالى في ختام (سورة الروم): ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَكَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ﴾ [الروم: ٦٠]، من لا يقين عنده ولا صبر خفيف طائش، تلعب به الأهواء والشهوات كما تلعب الرياح بالشيء الخفيف، ما أحوج المسلم في هذا الزمان أن يجعل هذه الآية دُستور حياته، كُنْ بصيرًا صابِرًا، وهذه رسالة البرنامج وخلاصته، وحلقاته كلها لم تَعُدْ أن تكون وقفات مفصلة مع الآية، واغترافًا من مَعِينِهَا، وإيصاءًا بما أرشدت إليه، دعوة بالصبر على الحق، ووصية بالثبات عليه، وتبصيرًا بأساليب المُرتَابِينَ الصَادِّينَ عن اليقين، الذين يبتغون الفتنة، ويُقَلِّبُونَ الأمور، ويسعون بكل حيلة، ويقعدون بكل صِرَاطٍ، كن بصيرًا صابِرًا، اصبرْ على ما أُمِرْتَ باعتقاده والعمل به، فصاحبُ اليقين ثابت، فإن وعد الله حق، ولقاؤه قريب، وما قدمته لن يضيع، ومن وثق وجد الجزء الأوفى، البصير الصابر على بينة من

ربه لن يستفزّه المبتلون، ولم يستحقّه الذين لا يوقنون، فهو ماضٍ في طريق هجرته إلى ربه لا يُبالي بهم ولا يلتفت إليهم، ومن ضعف صبره ويقينه استفزّه هؤلاء واستحقّوه، وشبّهوا الأمور عليه وجذبّوه، وصار مثلهم شاكًا مُرتابًا، ضيّع اليقين، فحسّر الحُسران المبين. والله المستعان.

وسبحانك اللهم وبحمدك، نشهد أن لا إله إلا أنت، نستغفرك ونتوب إليك.

